٢٢٣-٤

الميزان في تفسير القرآن

تأليف

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي
قدس سره

الخامس

منشورات
جماعة المدرسين في الحوزة العلمية
في قم المقدسة

شبكة الفكر
alfeker.net

الميزان

في

تفسير القرآن

٩

الميزان

في

تفسير القرآن

كتاب علمي ، فني ، فلسفي ، أدبي ،
تاريخي ، روائي ، اجتماعي ، حديث
يفسر القرآن بالقرآن

تأليف

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

قدس سره

الجزء التاسع

منشورات

جماعة المدرسين في الحوزة العلمية

في قم المقدسة

تمتاز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق والتصحيح الكامل
وإضافات وتغييرات هامة من قبل المؤلف
قدس سره

بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة الأنفال مدنية وهي خمس وسبعون آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفَالِ قُلِ ٱلْأَنْفَالُ لِلّٰهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ــ ١ . إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ــ ٢ . ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلٰوةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ــ ٣ . أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ــ ٤ . كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ــ ٥ . يُجَادِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ــ ٦ .

(بيان)

سياق الآيات في السورة يعطي أنّها مدنيّة نزلت بعد وقعة بدر، وهي تقص بعض أخبار بدر، وتذكر مسائل متفرّقة تتعلّق بالجهاد والغنائم والأنفال ونحوها، وأموراً اخرى تتعلّق بالهجرة ، وبها تختتم السورة .

قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » إلى آخر الآية. الأنفال جمع نفل بالفتح وهو الزيادة على الشيء، ولذا يطلق النفل والنافلة على التطوّع

لزيادته على الفريضة، وتطلق الأنفال على ما يسمّى فيئاً أيضاً وهي الأشياء من الأموال التي لا مالك لها من الناس كرؤوس الجبال، وبطون الأودية، والديار الخربة، والقرى التي باد أهلها ، وتركة من لا وارث له ، وغير ذلك كأنها زيادة على ما ملكه الناس فلم يملكها أحد وهي لله ولرسوله، وتطلق على غنائم الحرب كأنها زيادة على ما قصد منها فإن المقصود بالحرب والغزوة الظفر على الأعداء واستئصالهم فاذا غلبوا وظفر بهم فقد حصل المقصود ، والأموال التي غنمه المقاتلون والقوم الذين أسروهم زيادة على أصل الغرض .

و«ذات» في الأصل مؤنّث « ذا » بمعنى الصاحب من الألفاظ اللازمة الإضافة غير أنه كثر استعماله في نفس الشيء بمعنى ما به الشيء هو هو فيقال: ذات الإنسان أي ما به الإنسان إنسان، وذات زيد أي النفس الإنسانية الخاصة التي سمّيت بزيد، وكأن الأصل فيها النفس ذات أعمال كذا ثم أفردت بالذكر فقيل ذات الأعمال أو ما يؤدّي مؤدّاه ثم قيل ذات ، وكذلك الأمر في ذات البين فلكون الخصومة لا تتحقق إلا بين طرفين نسب إليها البين فقيل ذات البين أي الحالة والرابطة السيئة التي هي صاحبة البين فالمراد بقوله : أصلحوا ذات بينكم أي أصلحوا الحالة الفاسدة والرابطة السيئة التي بينكم .

وقال الراغب في المفردات: «ذو» على وجهين: أحدهما يتوصل به الى الوصف بأسماء الأجناس والأنواع ، ويضاف الى الظاهر دون المضمر ، ويثنى ويجمع، ويقال في التثنية : ذواتا ، وفي الجمع : ذوات ، ولا يستعمل شيء منها إلا مضافاً .

قال: وقد استعار أصحاب المعاني الذات فجعلوه عبارة عن عين الشيء جوهراً كان أو عرضاً ، واستعملوها مفردة ومضافة إلى المضمر وبالألف واللام ، وأجروها مجرى النفس والخاصة فقالوا : ذاته ونفسه وخاصته ، وليس ذلك من كلام العرب، والثاني في لفظ ذو لغة لطيّىء يستعملونه استعمال «الذي» ويجعل في الرفع والنصب والجرّ والجمع والتأنيث على لفظ واحد نحو :

وبئري ذو حفرت وذو طويت

أي التي حفرت والتي طويت . انتهى .

والذي ذكره من عدم إضافته إلى الضمير منقول عن الفرّاء ، ولازمه كون استعماله مضافاً إلى الضمير من كلام المولّدين والحق أنه قليل لا متروك ، وقد وقع في كلام عليّ عليه‌السلام في بعض خطبه كما في نهج البلاغة .

وقد اختلف المفسرون في معنى الآية وموقعها اختلافاً شديداً من جهات : من جهة معنى قوله: « يسألونك عن الأنفال » وقد نسب إلى أهل البيت (ع) وبعض آخر كعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن مصرف أنهم قرأوا : «يسألونك الأنفال» فقيل : عن زائدة في القراءة المشهورة ، وقيل : بل مقدّرة في القراءة الشاذة ، وقيل : إن المراد بالأنفال غنائم الحرب ، وقيل: غنائم غزوة بدر خاصة بجعل اللام في الأنفال للعهد، وقيل: الفيء الذي لله والرسول والإمام، وقيل: إن الآية منسوخة بآية الخمس ، وقيل : بل محكمة ، وقد طالت المشاجرة بينهم كما يعلم بالرجوع إلى مطوّلات التفاسير كتفسيري الرازي والآلوسي وغيرهما .

والذي ينبغي أن يقال بالاستمداد من السياق : أن الآية بسياقها تدل على أنه كان بين هؤلاء المشار إليهم بقوله : «يسألونك» تخاصم خاصم به بعضهم بعضاً بأخذ كل جانباً من القول لا يرضى به خصمه ، والتفريع الذي في قوله : « فاتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » يدل على أن الخصومة كانت في أمر الأنفال ، ولازم ذلك أن يكون السؤال الواقع منهم المحكيّ في صدر الآية إنما وقع لقطع الخصومة ، كأنهم تخاصموا في أمر الأنفال ثم راجعوا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يسألونه عن حكمها لتنقطع بما يجيبه الخصومة وترتفع عما بينهم .

وهذا — كما ترى — يؤيد أولاً القراءة المشهورة : « يسألونك عن الأنفال » فإن السؤال إذا تعدى بعن كان بمعنى استعلام الحكم والخبر، وأما اذا استعمل متعدياً بنفسه كان بمعنى الاستعطاف ولا يناسب المقام إلا المعنى الأول .

وثانياً : أن الأنفال بحسب المفهوم وإن كان يعم الغنيمة والفيء جميعاً إلا ان مورد الآية هي الأنفال بمعنى غنائم الحرب لا غنائم غزوة بدر خاصة إذ لا وجه للتخصيص فإنهم إذ تخاصموا في غنائم بدر لم يتخاصموا فيها لأنها غنائم بدر خاصة بل لأنها غنائم مأخوذة من أعداء الدين في جهاد ديني ، وهو ظاهر .

واختصاص الآية بحسب موردها بغنيمة الحرب لا يوجب تخصيص الحكم الوارد فيها بالمورد ، فان المورد لا يخصص ، فإطلاق حكم الآية بالنسبة الى كل ما يسمى بالنفل في محله ، وهي تدل على ان الأنفال جميعاً لله ولرسوله لا يشارك الله ورسوله فيها احد من المؤمنين سواء في ذلك الغنيمة والفيء .

ثم الظاهر من قوله : « قل الأنفال لله والرسول » وما يعظهم الله به بعد هذه الجملة ويحرضهم على الايمان هو ان الله سبحانه فصل الخصومة بتشريع ملكها لنفسه ولرسوله، ونزعها من ايديهم وهو يستدعي ان يكون تخاصمهم من جهة دعوى طائفة منهم ان الأنفال لها خاصة دون غيرها، أو انها تختص بشيء منها ، وإنكار الطائفة الاخرى ذلك، ففصل الله سبحانه خصومتهم فيها بسلب ملكهم منها وإثبات ملك نفسه ورسوله، وموعظتهم ان يكفـّوا عن المخاصمة والمشاجرة، وأما قول من يقول: انالغزاة يملكونما اخذوه منالغنيمة بالإجماع فأحرى بهان يورد فيالفقهدونالتفسير.

وبالجملة فنزاعهم في الأنفال يكشف عن سابق عهد لهم بأن الغنيمة لهم او ما في معناه غير انه كان حكماً مجملاً اختلف فيه المتخاصمان وكل يجر النار الى قرصته ، والآيات الكريمة تؤيد ذلك .

توضيحه: ان ارتباطالآيات فيالسورة والتصريح بقصة وقعة بدر فيها يكشف ان السورة بأجمعها نزلت حول وقعة بدر وبُعيدها حتى ان ابن عباس – على ما نقل عنه – كان يسميها سورة بدر ، والتي تتعرض لأمر الغنيمة من آياتها خمس آيات في مواضع ثلاثة من السورة هي بحسب ترتيب السورة ، قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » الآية ، وقوله تعالى : « واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله علىكل شيء قدير»، وقوله تعالى: «ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما اخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله ان الله غفور رحيم » .

وسياق الآية الثانية يفيد انها نزلت بعد الآية الاولى والآيات الاخيرة جميعاً

لمكان قوله فيها : « ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » فهي نازلة بعد الوقعة بزمان .

ثم الآيات الاخيرة تدل على انهم كلموا رسول الله ﷺ في امر الاسرى وسألوه ان لا يقتلهم ويأخذ الفدية ، وفيها عتابهم على ذلك ، ثم تجويز ان يأكلوا مما غنموا وكأنهم فهموا من ذلك انهم يملكون الغنائم والأنفال على إبهام في امره : هل يملكه جميع من حضر الوقعة او بعضهم كالمقاتلين دون القاعدين مثلاً ؟ وهل يملكون ذلك بالسوية فيقسّم بينهم كذلك او يختلفون فيه بالزيادة والنقيصة كأن يكون سهم الفرسان منها ازيد من المشاة ؟ او نحو ذلك .

وكان ذلك سبب التخاصم بينهم فتشاجروا في الامر ، ورفعوا ذلك الى رسول الله ﷺ فنزلت الآية الاولى : « قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » الآية ، فخطأتهم الآية فيما زعموا انهم مالكوا الانفال بما استفادوا من قوله : « فكلوا مما غنمتم » الآية ، وأقرت ملك الأنفال لله والرسول ونهتهم عن التخاصم والتشاجر ، فلما انقطع بذلك تخاصمهم ارجعها النبي ﷺ اليهم ، وقسّمها بينهم بالسوية ، وعزل السهم لعدة من اصحابه لم يحضروا الوقعة ، ولم يقدم مقاتلاً على قاعد ، ولا فارساً على ماش ، ثم نزلت الآية الثانية : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه » الآية ، بعد حين فأخرج النبي ﷺ مما ردّ اليهم من السهام الخمس وبقي لهم الباقي . هذا ما يتحصل من انضمام الآيات المربوطة بالأنفال بعضها ببعض .

فقوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال » يفيد بما ينضم اليه من قرائن السياق انهم سألوا النبي ﷺ عن حكم غنائم الحرب بعدما زعموا انهم يملكون الغنيمة ، واختلفوا فيمن يملكها ، او في كيفية ملكها وانقسامها بينهم ، او فيهما معاً ، وتخاصموا في ذلك .

وقوله : « قل الأنفال لله والرسول » جواب عن مسألتهم وفيه بيان انهم لا يملكونها وإنما هي أنفال يملكها الله ورسوله ، فيوضع حيثما اراد الله ورسوله ، وقد قطع ذلك اصل ما نشب بينهم من الاختلاف والتخاصم .

ويظهر من هذا البيان ان الآية غير ناسخة لقوله تعالى : « فكلوا مما غنمتم »

الى آخر الآية ، وإنما تبيّن معناها بالتفسير ، وان قوله : «كلوا» ليس بكناية عن ملكهم للغنيمة بحسب الأصل ، وإنما المراد هو التصرف فيها والتمتع منها إلا ان يتملكوا بقسمة النبي ﷺ إياها بينهم .

ويظهر ايضاً ان قوله تعالى : « واعلموا ان ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى » الآية ليس بناسخ لقوله: « قل الأنفال لله والرسول » الآية فإن قوله : « واعلموا ان ما غنمتم » الآية إنما يؤثر بالنسبة الى المجاهدين منعهم عن اكل تمام الغنيمة والتصرف فيه إذ لم يكن لهم بعد نزول قوله: «الأنفال لله والرسول» إلا ذلك ، وأما قوله : « الأنفال لله والرسول » فلا يفيد إلا كون اصل ملكها لله والرسول من دون ان يتعرض لكيفية التصرف وجواز الأكل والتمتع ، فلا يناقضه في ذلك قوله : « واعلموا ان ما غنمتم » الآية حتى يكون بالنسبة إليه ناسخاً ، فيتحصل من مجموع الآيات الثلاث : ان اصل الملك في الغنيمة لله والرسول ثم يرجع اربعة اخماسها الى المجاهدين يأكلونها ويتملكونها ويرجع خمس منها الى الله والرسول وذي القربى وغيرهم لهم التصرف فيها والاختصاص بها .

ويظهر بالتأمل في البيان السابق ايضاً: ان في التعبير عن الغنائم بالأنفال وهو جمع نفل بمعنى الزيادة إشارة الى تعليل الحكم بموضوعه الأعم ، كأنه قيل : يسألونك عن الغنائم وهي زيادات لا مالك لها من بين الناس ، وإذا كان كذلك فأجبهم بحكم الزيادات والأنفال، وقل: الأنفال لله والرسول، ولازم ذلك كون الغنيمة لله والرسول.

وبذلك ربما تأيد كون اللام في لفظ الانفال الاول للعهد وفي الثاني للجنس او الاستغراق ، وتبين وجه الإظهار في قوله : « قل الانفال » الآية حيث لم يقل : قل هي لله والرسول .

ويظهر بذلك ايضاً : ان قوله : « قل الانفال لله والرسول » حكم عام يشمل بعمومه الغنيمة وسائر الاموال الزائدة في المجتمع نظير الديار الخالية والقرى البائدة ورؤوس الجبال وبطون الاودية وقطائع الملوك وتركة من لا وارث له ، أما الأنفال بمعنى الغنائم فهي متعلقة بالمقاتلين من المسلمين بعمل النبي ﷺ ، وبقي الباقي تحت ملك الله ورسوله .

هذا مـا يفيده التأمل في كرائم الآيات ، وللمفسرين فيها اقاويل مختلفة تعلم بالرجوع الى مطولات التفاسير لا جدوى في نقلها والتعرض المنقض والإبرام فيها .

قوله تعالى : «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم» الى آخر الآيتين الآيتان والتي بعدهما بيان ما يتميز به المؤمنون بحقيقة الايمان ويختصون بـه من الاوصاف الكريمة والثواب الجزيل بيّنت ليتأكد بـه ما يشتمل عليه قوله تعالى : « فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم » الى آخر الآية .

وقد ذكر الله تعالى لهم خمس صفات اختارها من بين جميع صفاتهم التي ذكرها في كلامـه لكونها مستلزمة لكرائم صفاتهم على كثرتها وملازمة لحق الايمان ، وهي بحيث إذا تنبهوا لها وتأملوها كان ذلك ممـا يسهّل لهم توطين النفس على التقوى وإصلاح ذات بينهم ، وإطاعة الله ورسوله .

وهاتيك الصفات الخمس هي : وجل القلب عند ذكر الله، وزيادة الايمان عند استماع آيات الله ، والتوكل ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم الله ، ومعلوم ان الصفات الثلاث الاوّل من اعمال القلوب ، والأخيرتان من اعمال الجوارح .

وقد روعي في ذكرها الترتيب الذي بينها بحسب الطبع، فإن نور الإيمان إنما يشرق على القلب تدريجاً ، فلا يزال يشتد ويضاعف حتى يتم ويكمل بحقيقته ، فأول ما يشرق يتأثر القلب بالوجل والخشية اذا تذكّر بالله عند ذكره، وهو قوله تعالى: « إنما المؤمنون الذين اذا ذُكر الله وجلت قلوبهم » .

ثم لا يزال ينبسط الإيمان ويتعرّق وينمو ويتفرع بالسير في الآيات الدالة عليه تعالى ، والهادية الى المعارف الحقة ، فكلما تأمّل المؤمن في شيء منها زادته ايماناً ، فيقوى الايمان ويشتد حتى يستقر في مرحلة اليقين ، وهو قوله تعالى : « واذا تُليت عليهم آياته زادتهم ايماناً » .

واذا زاد الايمان وكمل كمالاً عرف عندئذ مقام ربه وموقع نفسه، معرفة تطابق واقع الأمر ، وهو أن الأمر كله إلى الله سبحانه فإنه تعالى وحده هو الرب الذي إليه يرجع كل شيء ، فالواجب الحق على الإنسان ان يتوكل عله ويتبع ما يريده منه بأخذه وكيلاً في جميع ما يهمه في حياته ، فيرضى بما يقدر له في مسير الحياة،

ويجري على ما يحكم عليه من الأحكام ويشرّعه من الشرائع فيأتمر بأوامره وينتهي عن نواهيه ، وهو قوله تعالى : « وعلى ربهم يتوكلون » .

ثم إذا استقر الإيمان على كماله في القلب ، استوجب ذلك أن ينعطف العبد بالعبودية إلى ربه ، وينصب نفسه في مقام العبودية وإخلاص الخضوع وهو الصلاة ، وهي أمر بينه وبين ربه ، وأن يقوم بحاجة المجتمع في نواقص مساعيهم بالإنفاق على الفقراء مما رزقه الله من مال أو علم أو غير ذلك ، وهو أمر بينه وبين سائر أفراد مجتمعه ، وهو قوله تعالى : « الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

وقد ظهر مما تقدم أن قوله تعالى: « زادتهم إيماناً » إشارة إلى الزيادة من حيث الكيفية وهو الاشتداد والكمال ، دون الكمية وهي الزيادة من حيث عدد المؤمنين كما احتمله بعض المفسرين .

قوله تعالى: « اولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » قضاء منه تعالى بثبوت الإيمان حقاً فيمن اتّصف بما عده تعالى من الصفات الخمس ، ولذلك أطلق ما ذكره لهم من كريم الأجر في قوله : « لهم درجات عند ربهم» الآية فلهؤلاء من صفات الكمال و كريم الثواب وعظيم الأجر ما لكل مؤمن حقيقي.

وأما قوله: «لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم» فالمغفرة هي الصفح الإلهي عن ذنوبهم ، والرزق الكريم ما يرتزقون به من نعم الجنة ، وقد أراد الله سبحانه بالرزق الكريم الجنة ونعمها في مواضع من كلامه ، كقوله تعالى : « فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا في آياتنا معاجزين اولئك أصحاب الجحيم » الحج : ٥١ وغير ذلك .

وبذلك يظهر أن المراد بقوله: «لهم درجات عند ربهم» مراتب القرب والزلفى ودرجات الكرامة المعنوية، وهو كذلك. فإن المغفرة والجنة من آثار مراتب القرب من الله سبحانه وفروعه البتة .

والذي يشتمل عليه الآية من إثبات الدرجات لهؤلاء المؤمنين، هو ثبوت جميع الدرجات لجميعهم، لا ثبوت جميعها لكل واحد منهم فإنها من لوازم الإيمان، والإيمان مختلف ذو مراتب فالدرجات الموهوبة بإزائه كذلك لا محالة ، فمن المؤمنين من له

درجة واحدة ، ومنهم ذو الدرجتين ، ومنهم ذو الدرجات على اختلاف مراتبهم في الإيمان .

ويؤيده قوله تعالى: « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات » المجادلة: ١١ ، وقوله تعالى : « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير، هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون » آل عمران:١٦٣ .

وبما تقدم يظهر أن تفسير بعضهم ما في الآية من الدرجات بدرجات الجنة ، ليس على ما ينبغي ، وان المتعين كون المراد بها درجات القرب ؛ كما تقدم وإن كان كل منهما يلازم الآخر .

قوله تعالى : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون » إلى آخر الآيتين . ظاهر السياق أن قوله : « كما أخرجك » متعلق بما يدل عليه قوله تعالى : « قل الأنفال لله والرسول » والتقدير : أن الله حكم بكون الأنفال له ولرسوله بالحق مع كراهتهم له ، كما أخرجك من بيتك بالحق مع كراهة فريق منهم له، فللجميع حق يترتب عليه من مصلحة دينهم ودنياهم ما هم غافلون عنه.

وقيل : إنه متعلق بقوله: « يجادلونك في الحق » وقيل: إن العامل فيه معنى الحق والتقدير : هذا الذكر من الحق كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . والمعنيان – كما ترى – بعيدان عن سياق الآية .

والمراد بالحق ما يقابل الباطل ، وهو الأمر الثابت الذي يترتب عليه آثاره الواقعية المطلوبة ، وكون الفعل – وهو الإخراج – بالحق هو أن يكون هو المتعين الواجب بحسب الواقع ، وقيل : المراد به الوحي ، وقيل : المراد به الجهاد، وقيل غير ذلك ، وهي معان بعيدة .

والأصل في معنى الجدل شدة الفتل ، يقال : زمام جديل أي شديد الفتل ، وسمّي الجدال جدالاً لأن فيه نزاعاً بالفتل عن مذهب الى مذهب كما ذكره في المجمع .

ومعنى الآيتين : ان الله تعالى حكم في امر الأنفال بالحق مع كراهتهم لحكمه كما اخرجك من بيتك بالمدينة إخراجاً يصاحب الحق ، والحال ان فريقاً من المؤمنين

لكارهون لذلك ، ينازعونك في الحق بعد ما تبين لهم اجمالاً ، والحال انهم يشبهون جماعة يساقون الى الموت ، وهم ينظرون الى ما أُعدّ لهم من أسبابه وأدواته .

(بحث روائي)

في جامع الجوامع للطبرسي : قرأ ابن مسعود وعلي بن الحسين زين العابدين والباقر والصادق عليهم السلام : يسألونك الأنفال .

أقول : ورواه عن ابن مسعود وكذا عن السجاد والباقر والصادق (ع) غيره.

وفي الكافي بإسناده عن العبد الصالح عليه السلام قال: الأنفال كل أرض خربة قد باد أهلها، وكل أرض لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ولكن صالحوا صلحاً وأعطوا بأيديهم على غير قتال – فقال –: وله – يعني الوالي – رؤوس الجبال وبطون الأودية والآجام، وكل أرض ميتة لا رب لها، وله صوافي الملوك: ما كان في أيديهم من غير وجه الغصب لأن الغصب كله مردود، وهو وارث من لا وارث له، ويعول من لا حيلة له.

وفيه : بإسناده عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال » قال : من مات وليس له مولى فماله من الانفال .

اقول : وفي معنى الروايتين روايات كثيرة مروية من طرق اهل البيت عليهم السلام ولا ضير في عدم ذكرها الانفال بمعنى غنائم الحرب ، فإن الآية بموردها تدل عليه على ما يفيده سياقها .

وفي الدر المنثور: اخرج الطيالسي والبخاري في الادب المفرد ومسلم والنحاس في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن سعد بن ابي وقاص قال : نزلت في اربع آيات من كتاب الله : كانت امي حلفت ان لا تأكل ولا تشرب حتى افارق محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله : وإن جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمها وصاحبها في الدنيا معروفاً .

والثانية : انى كنت اخذت سيفاً اعجبني فقلت : يا رسول الله هب لي هذا فنزلت : يسألونك عن الانفال .

والثالثة : اني مرضت فأتاني رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله اني اريد ان اقسم مالي أفأوصي بالنصف ؟ قال : لا ، فقلت : الثلث ؟ فسكت فكان الثلث بعده جائزاً .

والرابعة : اني شربت الخمر مع قوم من الانصار فضرب رجل منهم انفي بلحيي جمل فأتيت النبي ﷺ فأنزل الله تحريم الخمر .

اقول : الرواية لا تخلو عن شيء أما اولاً فلأن قوله تعالى:«وإن جاهداك على ان تشرك بي » الآية ذيل قوله تعالى : «ووصينا الانسان بوالديه» لقمان : ١٤ وهي بسياقها تأبى ان تكون نازلة عن سبب خاص. على انه قد تقدم في ذيل قوله تعالى: « قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ان لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » الآيات الانعام: ١٥١ ، ان الإحسان بالوالدين من الأحكام العامة غير المختصة بشريعة دون شريعة .

وأما ثانياً : فلأن ما ذكر من اخذ السيف واستيهابه من النبي ﷺ إنما يناسب قراءة : « يسألونك الانفال » لا قراءة : «يسألونك عن الانفال» وقد تقدم توضيحه في البيان المتقدم .

وأما ثالثاً : فلأن استقرار السنة على الايصاء بالثلث لم يكن بآية نازلة بل بسنة نبوية .

وأما رابعاً : فلأن قصة شربه الخمر مع جماعة من الصحابة وشجّ انفه بلحيي بعير وإن كانت حقة لكنه إنما شرب الخمر مع جماعة مختلطة من المهاجرين والانصار، وقد شجّ انفه عمر بن الخطاب ثم انزل الله آية المائدة، ولم ينزل للتحريم بل لتشديده، وقد تقدم ذلك كله في ذيل قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان » المائدة : ٩٠ .

وفيه: اخرج احمد وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم والبيهقي في سننه عن ابي أمامة قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا اصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل فساءت فيه أحلامنا فانتزعه الله من

ايدينـا وجعله الى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين ، عن براء يقول : عن سواء .

وفيه: اخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن المنذر وابن ابي‌حاتم وابن حبّان وأبو الشيخ والحاكم، وصححه والبيهقي وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدراً فالتقى‌الناس فهزم الله العدو فانطلقت طائفة في آثارهم منهزمين يقتلون ، وأكبت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا تصيب العدو منه غرة حتى اذا كان الليل وفاء الناس بعضهم الى بعض قـال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق بها منا ، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : لستم بأحق منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا ان يصيب العدو منه غرة واشتغلنا به فنزلت: « يسألونك عن الانفـال قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم » فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ، الحديث .

وفيه: اخرج ابن‌ابي‌شيبة وأبو داود والنسائي وابن‌جرير وابن‌المنذر وابن‌حبان وأبو الشيخ وابن‌مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال النبي: من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ومن أسر اسيراً فله كذا وكذا فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فتسارعوا الى القتل والغنائم فقالت المشيخة للشبان : أشركونا معكم فإنا كنا لكم رداً ولو كان منكم شيء للجأتم الينا فاختصموا الى النبي ﷺ فنزلت : « يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول» فقسّم الغنائم بينهم بالسوية .

اقول : وفي هذه المعاني روايات أخر ، وهنا روايات تدل على تفصيل القصة تتضح بها معنى الآيات سنوردها في ذيل الآيات التالية .

وفي بعض الروايات ان النبي ﷺ وعدهم ان يعطيهم‌السلب والغنيمة ثم نسخه الله تعالى بقوله : « قل الأنفال لله والرسول » والى ذلك يشير ما في هذه الرواية ، ولذلك ربما قيل: انه لا يجب على الإمام ان يفي بما وعد به المحاربين . لكن يبعّده

اختلافهم في امر الغنائم يوم بدر إذ لو كان النبي ﷺ وعدهم بذلك لم يختلفوا مع صريح بيانه .

وفيه : اخرج ابن جرير عن مجاهد : انهم سألوا النبي ﷺ عن الخمس بعد الأربعة الأخماس فنزلت : « يسألونك عن الأنفال » .

اقول : وهو لا ينطبق على ما تقدم من مضمون الآية على ما يعطيه السياق ، وفي بعض ما ورد عن المفسرين السلف كسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وكذا عن ابن عباس ان قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » الآية منسوخة بقوله : « واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول » الآية ، وقد تقدم في بيان الآية ما ينتفي به احتمال النسخ .

وفيه: اخرج مالك وابن ابي شيبة وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير والنحاس وابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ وابن مردويه عن القاسم بن محمد، قال: سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن الانفال فقال : الفرس من النفل والسلب من النفل فأعاد المسألة ، فقال ابن عباس ذلك ايضاً .

ثم قال الرجل : الانفال التي قال الله في كتابه ، ما هي ؟ فلم يزل يسأله حتى كاد يحرّجه ، فقال ابن عباس : هذا مثل صبيغ الذي ضربه عمر ، وفي لفظ : ما احوجك الى من يضربك كما فعل عمر بصبيغ العراقي، وكان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقبيه .

وفيه : في قوله تعالى: «اولئك هم المؤمنون حقاً» اخرج الطبراني عن الحارث ابن مالك الانصاري انه مرّ برسول الله ﷺ فقال له: كيف اصبحت يا حارث؟ قال : اصبحت مؤمناً حقاً . قال : انظر ما تقول فان لكل شيء حقيقة فما حقيقة ايمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني انظر الى اهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني انظر الى اهل النار يتضاغون فيها ، قال : يا حارث عرفت فالزم ، ثلاثاً .

اقول : والحديث مروي من طرق الشيعة بأسانيد عديدة .

* * *

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ
الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ
الْكَافِرِينَ – ٧ . لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ – ٨ .
إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
مُرْدِفِينَ – ٩ . وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ
إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ – ١٠ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً
مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ
الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ – ١١ . إِذْ يُوحِي رَبُّكَ
إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ
كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ – ١٢ .
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ – ١٣ . ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ – ١٤ .

(بيـان)

تشير الآيات الى قصة بدر ، وهي أول غزوة في الإسلام ، وظاهر سياق الآيات أنها نزلت بعد انقضائها على ما سيتّضح .

قوله تعالى : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » أي واذكروا إذ يعدكم الله ، وهو بيان منن الله وعدّ نعمه عليهم ليكونوا على بصيرة من ان الله سبحـانه لا يستقبلهم بأمر ولا يأتيهم بحكم إلا بالحق وفيه حفظ مصالحهم وإسعاد جدّهم فلا يختلفوا فيما بينهم ، ولا يكرهوا ما يختاره لهم ، ويكلوا أمرهم إليه فيطيعوه ورسوله .

والمراد بالطائفتين العير والنفير ، والعير قافلة قريش وفيها تجارتهم وأموالهم وكان عليها أربعون رجلاً منهم ابو سفيان بن حرب، والنفير جيش قريش وهم زهاء ألف رجل .

وقوله : « إحدى الطائفتين » مفعول ثان لقوله : « يعدكم » وقوله : « أنهـا لكم » بدل منه وقوله « وتودّون » الآية في موضع الحال، والمراد بغير ذات الشوكة: الطائفة غير ذات الشوكة وهي العير الذي كان أقل عِدّة وعُدّة من النفير، والشوكة الحدّة ، استعارة من الشوك .

وقوله : « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته » في موضع الحال، والمراد باحقاق الحق إظهـاره وإثباته بترتيب آثاره عليه ، وكلمات الله هي ما قضى به من نصرة أنبيائه وإظهار دينه الحق ، قال تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون » الصافّات : ١٧٣ وقال تعالى: « يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهـــدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » الصف : ٩ . وقرىء : « بكلمته » : وهو اوجه وأقرب والدابر ما يأتي بعد الشيء مما يتعلق به ويتصل إليـه وقطع دابر الشيء ، كناية عن إفنائه واستئصاله بحيث لا يبقى بعده شيء من آثاره المتفرعة عليه المرتبطة به .

ومعنى الآية : واذكروا إذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم تستعلون عليها بنصر الله إمّا العير وإما النفير وأنتم تودون أن تكون تلك الطائفة هي العير لمـا تعلمون من شوكة النفير ، وقوتهم وشدتهم ، مع ما لكم من الضعف والهوان، والحال

ان الله يريد خلاف ذلك وهو أن تلاقوا النفير فيظهركم عليهم ويظهر ما قضى ظهوره من الحق ، ويستأصل الكافرين ويقطع دابرهم .

قوله تعالى: « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » ظاهر السياق ان اللام للغاية ، وقوله : « ليحق » الآية متعلق بقوله : « يعدكم الله » أي إنما وعدكم الله ذلك وهو لا يخلف الميعاد ليحق بذلك الحق ويبطل الباطل ولو كان المجرمون يكرهونه ولا يريدونه .

وبذلك يظهر ان قوله : « ليحق الحق » الآية ليس تكراراً لقوله : « ويريد الله ان يحق الحق بكلماته » وإن كان في معناه .

قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين» الإستغاثة طلب الغوث وهو النصرة كما في قوله: « فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه » القصص : ١٥ والإمداد معروف ، وقوله : « مردفين » من الإرداف وهو ان يجعل الراكب غيره ردفاً له ، والردف التابع ، قال الراغب : الردف التابع ، وردف المرأة عجيزتها ، والترادف : التتابع ، والرادف : المتأخر، والمردف المقدم الذي اردف غيره . انتهى .

وبهذا المعنى تلائم الآية ما في قوله تعالى فيما يشير به الى هذه القصة في سورة آل عمران : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم بـه وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » آل عمران : ١٢٦ .

فـإن تطبيق الآيات من السورتين يوضح ان المراد بنزول الف من الملائكة مردفين نزول الف منهم يستتبعون آخرين فينطبق الألف المردفون على الثلاثة آلاف المنزلين .

وبذلك يظهر فساد ما قيل : ان المراد بكون الملائكة مردفين كون الألف متبعين الفاً آخر لأن مع كل واحد منهم ردفاً له فيكونون الفين ، وكذا ما قيل :

ان المراد كون بعضهم إثر بعض ، وكذا ما قيل : ان المراد مجيئهم على أثر المسلمين بأن يكون مردفين بمعنى رادفين، وكذا ما قيل : إن المراد إردافهم المسلمين بأن يتقدموا عسكر المسلمين فيلقوا في قلوب الذين كفروا الرعب .

قوله تعالى : « وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » الضميران في قوله : « جعله » وقوله : « به » للإمداد بالملائكة على ما يدل عليه السياق ، والمعنى ان الإمداد بالملائكة إنما كان لغرض البشرى واطمئنان نفوسكم لا ليهلك بأيديهم الكفار كما يشير اليه قوله تعالى بعد : « إذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سالقي في قلوب الذين كفروا الرعب » .

وبذلك يتأيد ما ذكره بعضهم : ان الملائكة لم ينزلوا ليقتلوا المشركين ولا قتلوا منهم احداً فقد قتل ثلث المقتولين منهم او النصف علي عليه السلام والثلثين الباقين او النصف سائر المسلمين . وإنما كان للملائكة تكثير سواد المسلمين حينما اختلطوا بالقوم وتثبيت قلوب المسلمين ، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين ، وسيجيء بعض الكلام في ذلك .

وقوله : « وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » بيان انحصار حقيقة النصر فيه تعالى وأنه لو كان بكثرة العدد والقوة والشوكة كانت الدائرة يومئذ للمشركين بما لهم من الكثرة والقوة على المسلمين على ما بهم من القلة والضعف .

وقد علل بقوله : « إن الله عزيز حكيم » جميع مضمون الآية وما يتعلق به من الآية السابقة فبعزّته نصرهم وأمدهم ، وبحكمته جعل نصره على هذه الشاكلة .

قوله تعالى : « إذ يغشيكم النعاس امنة منه » الى آخر الآية . النعاس اول النوم وهو خفيفه والتغشية الإحاطة ، والأمنة الامان، وقوله : « منه » أي من الله وقيل: أي من العدو، والرجز هو الرجس والقذارة، والمراد برجز الشيطان القذارة التي يطرأ القلب من وسوسته وتسويله .

ومعنى الآية : ان النصر والإمداد بالبشرى واطمئنان القلوب كان في وقت يأخذكم النعاس للأمن الذي افاضه الله على قلوبكم فنمتم ولو كنتم خائفين مرتاعين لم

يأخذكم نعاس ولا نوم ، وينزّل عليكم المطر ليطهّركم بـه ويذهب عنكم وسوسة الشيطان وليربط على قلوبكم ويشد عليهـا — وهو كناية عن التشجيع — وليثبت بالمطر اقدامكم في الحرب بتلبّد الرمل او بثبات القلوب .

والآية تؤيد ما ورد ان المسلمين سبقهم المشركون الى المـاء فنزلوا على كثيب رمل ، وأصبحوا محدثين ومجنبين ، وأصابهم الظمأ ، ووسوس اليهم الشيطان فقال: إن عدوكم قد سبقكم إلى الماء ، وأنتم تصلون مع الجنابة والحدث وتسوخ أقدامكم في الرمل فأمطر عليهم الله حتى اغتسلوا به من الجنابة ،وتطهروا به من الحدث، وتلبدت به أرضهم ، وأوحلت أرض عدوهم .

قوله تعالى: «إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سالقي في قلوب الذين كفروا الرعب» إلى آخر الآية حال الظرف في أول الآية كحال الظرف في قوله: « إذ تستغيثون ربكم » وقوله: «إذ يغشيكم النعاس» ومعنى الآية ظاهر.

وأما قوله : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » فالظاهر أن يكون المراد بفوق الأعناق الرؤوس وبكل بنان جميع الأطراف من اليدين والرجلين أو أصابع الأيدي لئلا يطيقوا حمل السلاح بها والقبض عليه .

ومن الجائز أن يكون الخطاب بقوله: «فاضربوا» الخ للملائكة كما هو المتسابق إلى الذهن ، والمراد بضرب فوق الأعناق وكل بنان ظاهر معناه ، أو الكناية عن إذلالهم وإبطال قوة الإمساك من أيديهم بالإرعاب ، وأن يكون الخطاب للمؤمنين والمراد بـه تشجيعهم على عدوهم بتثبيت أقدامهم والربط على قلوبهم ، وحثهم وإغراؤهم بالمشركين .

قوله تعالى : « ذلك بأنهم شاقّوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب» المشاقة المخالفة وأصله الشق بمعنى البعض كأن المخالف يميل إلى شق غير شق من يخالفه، والمعنى أن هذا العقاب للمشركين بما أوقع الله بهم، لأنهم خالفوا الله ورسوله وألحّوا وأصرّوا على ذلك ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب.

قوله تعالى : « ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار » خطاب تشديدي للكفار يشير إلى ما نزل بهم من الخزي ويأمرهم بأن يذوقوه ، ويذكر لهم أن وراء ذلك عذاب النار .

(بحث روائي)

في المجمع قال ابن عباس: لما كان يوم بدر واصطف القوم للقتال قال أبوجهل: اللهم أولانا بالنصر فانصره ، واستغاث المسلمون فنزلت الملائكة ونزل قوله : « إذ تستغيثون ربكم » إلى آخره .

وقيل : إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما نظر إلى كثرة عدد المشركين وقلة عدد المسلمين استقبل القبلة وقال : اللهم انجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض فما زال يهتف ربه ماداً يديه حتى سقط رداؤه من منكبيه فأنزل الله : « إذ تستغيثون ربكم » الآية عن عمر بن الخطاب والسدي وأبي صالح وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام .

قال: ولما أمسى رسول الله وجنه الليل ألقى الله على أصحابه النعاس وكانوا قد نزلوا في موضع كثير الرمل لا تثبت فيه قدم فأنزل الله عليهم المطر رذاذاً حتى لبد الأرض وثبت أقدامهم وكان المطر على قريش مثل العزالى، وألقى الله في قلوبهم الرعب كما قال الله تعالى : « سالقي في قلوب الذين كفروا الرعب » .

أقول : لفظ الآية: «إذ تستغيثون ربكم» الخ لا يلائم نزولها يوم بدر عقيب استغاثتهم بل السياق يدل على نزولها مع قوله تعالى: «يسألونك عن الأنفال» والآيات التالية له، وهي تدل على حكاية حال ماضية وامتنانه تعالى على المسلمين بما أنزل عليهم من آيات النصر وتفاريق النعم ليشكروا له ويطيعوه فيما يأمرهم وينهاهم .

ولعل المراد من ذكر نزول الآية بعد ذكر استغاثتهم انطباق مضمون الآية على الواقعة ، وهو كثير النظير في الروايات المشتملة على أسباب النزول .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في العريش: اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد بعد هذا اليوم فنزل: «إذ تستغيثون ربكم» فخرج يقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر فأيده الله بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وكثرهم في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعينهم فنزل: « وهم بالعدوة القصوى من الوادي خلف العقنقل والنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالعدوة الدنيا عند القليب .

أقول : والكلام فيه كالكلام في سابقه .

وفي المجمع : ذكر البلخي عن الحسن أن قوله: « وإذ يعدكم الله » الآية نزلت قبل قوله : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » وهي في القراءة بعدها .

أقول : وتقدم مدلول إحدى الآيتين على مدلول الاخرى بحسب الوقوع لا يلازم سبقها نزولاً ، ولا دليل من جهة السياق يدل على ما ذكره .

وفي تفسير العياشي عن محمد بن يحيى الخثعمي عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين انها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » فقال : الشوكة التي فيها القتال .

أقول : وروى مثله القمي في تفسيره .

وفي المجمع قال أصحاب السير وذكر أبو حمزة وعلي بن ابراهيم في تفسيرهما ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ أقبل ابو سفيان بعير قريش من الشام وفيها أموالهم وهي اللطيمة ، وفيها أربعون راكباً من قريش فندب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه للخروج إليها ليأخذوها ، وقال : لعل الله أن ينفلكوها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم ، ولم يظنوا ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلقى كيداً ولا حرباً فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب لا يرونها إلا غنيمة لهم .

فلما سمع أبو سفيان بمسير النبي صلى الله عليه وآله وسلم استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه الى مكة ، وأمره ان يأتي قريشاً فيستنفرهم ويخبرهم ان محمداً قد تعرض لعيرهم في أصحابه فخرج ضمضم سريعاً الى مكة .

وكانت عاتكة بنت عبدالمطلب رأت فيما يرى النائم قبل مقدم ضمضم بن عمرو بثلاث ليال أن رجلاً أقبل على بعير له ينادي يا آل غالب اغدوا الى مصارعكم ثم وافى بجمله على أبي قبيس فأخذ حجراً فدهدهه من الجبل فما ترك داراً من دور قريش إلا أصابته منه فلذة فانتبهت فزعة من ذلك وأخبرت العباس بذلك فأخبر العباس عتبة بن ربيعة فقال عتبة : هذه مصيبة تحدث في قريش ، وفشت الرؤيا فيهم وبلغ ذلك أبا جهل فقال : هذه نبيّة ثانية في بني عبد المطلب،واللات والعزى

لننظرن ثلاثة أيام فإن كان ما رأت حقاً وإلا لنكتبن كتاباً بيننا : انه ما من اهل بيت من العرب أكذب رجالاً ونساءً من بني هاشم .

فلما كان اليوم الثالث أتاهم ضمضم يناديهم بأعلى الصوت : يا آل غالب يا آل غالب . اللطيمة اللطيمة . العير العير. ادركوا وما أراكم تدركون إن محمداً والصباة من أهل يثرب قد خرجوا يتعرضون لعيركم فتهيأوا للخروج ، وما بقي احد من عظماء قريش إلا أخرج مالاً لتجهيز الجيش ، وقالوا من لم يخرج نهدم داره ، وخرج معهم العباس بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعقيل بن ابي طالب ، وأخرجوا معهم القيان يضربن الدفوف .

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً فلما كان بقرب بدر اخذ عيناً للقوم فأخبره بهم ، وفي حديث ابي حمزة : بعث رسول الله ﷺ ايضاً عيناً له على العير اسمه عدي فلما قدم على رسول الله ﷺ فأخبره اين فارق العير نزل جبرائيل على رسول الله ﷺ فأخبره بنفير المشركين من مكة فاستشار اصحابه في طلب العير وحرب النفير فقام ابو بكر فقال : يا رسول الله انها قريش وخيلاؤها ما آمنت منذ كفرت ، ولا ذلّت منذ عزت ، ولم نخرج على هيئة الحرب ؛ وفي حديث ابي حمزة : أنا عالم بهذا الطريق فارق عدي العير بكذا وكذا ، وساروا وسرنا فنحن والقوم على ماء بدر يوم كذا وكذا كأنا فرسا رهان فقال ﷺ : اجلس فجلس. ثم قام عمر بن الخطاب فقال مثل ذلك، فقال ﷺ : اجلس فجلس.

ثم قام المقداد فقال : يا رسول الله انها قريش وخيلاؤها ، وقد آمنا بك وصدقنا وشهدنا ان ما جئت به حق ، والله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا وشوك الهراس لخضناه معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكنا نقول : إمض لأمر ربك فإنا معك مقاتلون ، فجزاه رسول الله ﷺ خيراً على قوله ذاك .

ثم قال : أشيروا علي أيها الناس وإنما يريد الأنصار لأن أكثر الناس منهم ، ولأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : إنا برآء من ذمتك حتى تصل الى دارنا ثم انت في ذمتنا نمنعك مما نمنع ابناءنا ونساءنا، فكان ﷺ يتخوف ان لا يكون الانصار ترى عليها نصرته إلا على من دهمه بالمدينة من عدو، وأن ليس عليهم ان ينصروه خارج المدينة.

فقام سعد بن معاذ فقال: بأبي انت وامي يا رسول الله كأنك اردتنا. فقال: نعم . قال : بأبي انت وامي يا رسول الله إنا قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به حق من عند الله فمرنا بما شئت ، وخذ من اموالنا ما شئت ، واترك منها ما شئت ، والله لو أمرتنا ان نخوض هذا البحر لخضناه معك ولعل الله عز وجل ان يريك منا ما تقرُ به عينك فسر بنا على بركة الله .

ففرح بذلك رسول الله ﷺ وقال : سيروا على بركة الله فان الله عز وجل قد وعدني احدى الطائفتين ولن يخلف الله وعده ، والله لكأني انظر الى مصرع ابي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وفلان وفلان (١) .

وأمر رسول الله ﷺ بالرحيل، وخرج الى بدر وهو بئر، وفي حديث ابي حمزة الثمالي: بدر رجل من جهينة والماء ماؤه فإنما سمي الماء باسمه، وأقبلت قريش وبعثوا عبيدها ليستقوا من الماء فأخذهم اصحاب رسول الله ﷺ وقالوا لهم : من انتم ؟ قالوا: نحن عبيد قريش. قالوا: فأين العير؟ قالوا: لا علم لنا بالعير فأقبلوا يضربونهم، وكان رسول الله ﷺ يصلي فانفتل من صلاته وقال : ان صدقوكم ضربتموهم وان كذبوكم تركتموهم ، فأتوه بهم فقال لهم: من انتم ؟ قالوا : يا محمد نحن عبيد قريش ، قال : كم القوم ؟ قالوا : لا علم لنا بعددهم ، قال: كم ينحرون في كل يوم من جزور؟ قالوا : تسعة الى عشرة ، فقال رسول الله ﷺ : القوم تسعمائة الى الف رجل ، وأمر ﷺ بهم فحبسوا وبلغ ذلك قريشاً ففزعوا وندموا على مسيرهم .

ولقي عتبة بن ربيعة ابا البختري بن هشام فقال : اما ترى هذا البغي والله ما أبصر موضع قدمي خرجنا لنمنع عيرنا وقد افلتت فجئنا بغياً وعدواناً ، والله ما افلح قوم بغوا قط ، ولوددت ان ما في العير من اموال بني عبد مناف ذهبت ولم نسر هذا المسير، فقال له ابوالبختري: انك سيد من سادات قريش فسر في الناس وتحمّل العير التي اصابها محمد وأصحابه بنخلة (٢) ودم ابن الحضرمي فانه حليفك .

---

(١) وقد كان صلى الله عليه وآله يشير بذلك الى لقاء النفير وهم يرجون لقاء العير .

(٢) وقد تقدمت الروايات في قصته في الجزء الثاني من الكتاب في ذيل قوله تعالى: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه» الآية ، البقرة آية ٢١٧ .

فقال له : عليّ ذلك ، وما على احد منا خلاف إلا ابن الحنظلية يعني أبا جهل فصر اليه وأعلمه اني حملت العير ودم ابن الحضرمي وهو حليفي وعليّ عقله .

قال : فقصدت خباءه وأبلغته ذلك ، فقال : ان عتبة يتعصب لمحمد فانه من بني عبد منـــاف وابنه معه يريد ان يخذل بين الناس لا واللّات والعزى حتى نقحم عليهم يثرب او نأخذهم اسارى فندخلهم مكة وتتسامع العرب بذلك، وكان ابوحذيفة ابن عتبة مع رسول الله ﷺ .

وكان ابو سفيان لما جاز بالعير بعث الى قريش : قد نجّى الله عيركم فارجعوا ودعوا محمداً والعرب ، وادفعوه بالراح ما اندفع ، وإن لم ترجعوا فردّوا القيان فلحقهم الرسول في الجحفة ،فأراد عتبة ان يرجع فأبى ابو جهل وبنو مخزوم وردوا القيان من الجحفة .

قـــال : وفزع اصحاب رسول الله ﷺ لما بلغهم كثرة قريش ، واستغاثوا وتضرعوا ، فأنزل الله عز وجل : « إذ تستغيثون ربكم » وما بعده .

قال الطبرسي : ولما اصبح رسول الله ﷺ يوم بدر عبأ اصحابه ، فكان في عسكره فرَسان: فرس للزبير بن عوام، وفرس للمقداد بن الاسود، وكان في عسكره سبعون جملاً كانوا يتعاقبون عليها، وكان رسول الله ﷺ وعلي بن ابي طالب عليه السلام ومرثد بن ابي مرثد الغنوي يتعاقبون على جمل لمرثد بن ابي مرثد، وكان في عسكر قريش اربعمائة فرس ، وقيل : مائتا فرس .

فلما نظرت قريش الى قلة اصحاب رسول الله ﷺ قال ابو جهل : مـــا هم إلا أكلة رأس لو بعثنـــا اليهم عبيدنا لأخذوهم اخذاً باليد ، فقال عتبة بن ربيعة : أترى لهم كميناً او مدداً ؟ فبعثوا عمير بن وهب الجمحي وكان فارساً شجاعاً فجال بفرسه حتى طاف على عسكر رسول الله ﷺ ثم رجع فقال : ليس لهم كمين ولا مدد ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت الناقع أما ترونهم خرساً لا يتكلمون ويتلمظون تلمظ الأفاعي ما لهم ملجأ إلا سيوفهم، وما أراهم يولون حتى يقتلوا، ولا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم فارتأوا رأيكم ، فقال له ابو جهل : كذبت وجبنت .

فأنزل الله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لهـا » فبعث اليهم رسول الله

صلى الله عليه وآله فقال : يا معشر قريش اني اكره ان ابدأ بكم فخلوني والعرب وارجعوا فقال عتبة : ما ردّ هذا قوم قط فأفلحوا ، ثم ركب جملاً له احمر فنظر اليه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يجول بين العسكرين وينهى عن القتال فقال صلى الله عليه وآله : ان يك عند احد خير فعند صاحب الجمل الأحمر وإن يطيعوه يرشدوا .

وخطب عتبة فقال في خطبته: يا معشر قريش اطيعوني اليوم واعصوني الدهر إن محمداً له إلٌ وذمة وهو ابن عمكم فخلوه والعرب فإن يك صادقاً فأنتم أعلى عيناً به وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب امره فغاظ ابا جهل قوله وقال له : جبنت وانتفخ سحرك فقال : يا مصفّر إسته مثلي يجبن؟ وستعلم قريش أيّنا ألأم وأجبن ؟ وأيّنا المفسد لقومه .

ولبس درعه وتقدم هو وأخوه شيبة وابنه الوليد ، وقال : يا محمد اخرج إلينا أكفاءنا من قريش فبرز اليهم ثلاثة نفر من الانصار وانتسبوا لهم فقالوا : ارجعوا إنما نريد الأكفاء من قريش فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله الى عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب – وكان له يومئذ سبعون سنة – فقال : قم يا عبيدة ، ونظر الى حمزة فقال : قم يا عم ثم نظر الى علي بن ابي طالب فقال : قم يا علي – وكان اصغر القوم – فاطلبوا بحقكم الذي جعله الله لكم فقد جاءت قريش بخيلائها وفخرها تريد ان تطفىء نور الله ويأبى الله إلا ان يتم نوره . ثم قال : يا عبيدة عليك بعتبة ابن ربيعة ، وقال لحمزة عليك بشيبة ، وقال لعلي : عليك بالوليد .

فمروا حتى انتهوا الى القوم فقالوا: أكفاء كرام فحمل عبيدة على عتبة فضربه على رأسه ضربة فلقت هامته ، وضرب عتبة عبيدة على ساقه فأطنها فسقطا جميعاً ، وحمل شيبة على حمزة فتضاربا بالسيفين حتى انثلما ، وحمل امير المؤمنين علي عليه السلام على الوليد فضربه على حبل عاتقه فأخرج السيف من إبطه قال علي: لقد اخذ الوليد يمينه بيساره فضرب بها هامتي فظننت ان السماء وقعت على الارض .

ثم اعتنق حمزة وشيبة فقال المسلمون: يا علي أما ترى ان الكلب قد نهز عمك فحمل عليه علي عليه السلام ثم قال : يا عم طأطىء رأسك وكان حمزة اطول من شيبة فأدخل حمزة رأسه في صدره فضربه علي فطرح نصفه ، ثم جاء الى عتبة وبه رمق فأجهز عليه .

وفي رواية اخرى انه برز حمزة لعتبة ، وبرز عبيدة لشيبة ، وبرز علي للوليد فقتل حمزة عتبة، وقتل عبيدة شيبة ، وقتل علي عليه السلام الوليد، فضرب شيبة رجل عبيدة فقطعها فاستنقذه حمزة وعلي، وحمل عبيدة حمزة وعلي حتى اتيا به رسول الله صلى الله عليه وآله فاستعبر فقال : يا رسول الله ألست شهيداً ؟ قال : بلى انت اول شهيد من اهل بيتي .

وقال ابو جهل لقريش : لا تعجلوا ولا تبطروا كما بطر ابناء ربيعة عليكم بأهل يثرب فاجزروهم جزراً ، وعليكم بقريش فخذوهم اخذاً حتى ندخلهم مكة فنعرّفهم ضلالتهم التي هم عليها .

وجاء إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جشعم فقال لهم : أنا جار لكم ادفعوا إليّ رايتكم فدفعوا اليه راية الميسرة، وكانت الراية مع بني عبد الدار فنظر اليه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال لأصحابه : غضوا ابصاركم، وعضوا على النواجذ، ورفع يده فقال : اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد ثم اصابه الغشي فسري عنه وهو يسلك العرق عن وجهه فقال : هذا جبرائيل قد اتاكم بألف من الملائكة مردفين .

وفي الأمالي بإسناده عن الرضا عن آبائه عليهم السلام : ان رسول الله صلى الله عليه وآله سافر الى بدر في شهر رمضان وافتتح مكة في شهر رمضان .

اقول : وعلى ذلك اطبق اهل السير والتواريخ ، قال اليعقوبي في تاريخه : وكانت وقعة بدر يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان بعد مقدمه صلى الله عليه وآله – يعني الى المدينة – بثمانية عشر شهراً .

وقال الواقدي : ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله وادي بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان فبعث علياً والزبير وسعد بن ابي وقاص وبسبس بن عمرو يتجسسون على الماء فوجدوا روايا قريش فيها سقاؤهم فأسروهم وأفلت بعضهم وأتوا بهم النبي صلى الله عليه وآله وهو قائم يصلي فسألهم المسلمون فقالوا : نحن سقاء قريش بعثونا نسقيهم من الماء فضربوهم فلما أن لقوهم بالضرب قالوا : نحن لأبي سفيان ونحن في العير ، وهذا العير بهذا القوز فكانوا إذا قالوا ذلك يمسكون عن ضربهم . فسلم رسول الله صلى الله عليه وآله من صلاته ثم قال : إن صدقوكم ضربتموهم وإن كذبوكم تركتموهم .

فلما أصبحوا عدّل رسول الله ﷺ الصفوف وخطب المسلمين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه فإن الله عظيم شأنه ، يأمر بالحق ، ويحب الصدق ، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده به يذكرون ، وبه يتفاضلون ، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه ، وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به من الغم تدركون به النجاة في الآخرة ، فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمقتكم عليه فإنه تعالى يقول: لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم انظروا في الذي أمركم به من كتابه ، وأراكم من آياته وما أعزكم به بعد الذلة فاستكينوا له يرض ربكم عنكم ، وأبلوا ربكم في هذه المواطن أمراً تستوجبوا به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته فإن وعده حق ، وقوله صدق ، وعقابه شديد ، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم ، إليه ألجأنا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه المصير ، ويغفر الله لي وللمسلمين .

وفي المجمع : ذكر جماعة من المفسرين كابن عباس وغيره : أن جبرائيل قال للنبي ﷺ يوم بدر خذ قبضة من تراب فارمهم بها فقال رسول الله ﷺ لما التقى الجمعان لعلي : أعطني قبضة من حصا الوادي فناوله كفاً من حصا عليه تراب فرمى به في وجوه القوم وقال : شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا دخل في عينه وفمه ومنخريه منها شيء ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ، وكانت تلك الرمية سبب هزيمة القوم .

وفي الأمالي بإسناده عن ابن عباس قال : وقف رسول الله ﷺ على قتلى بدر فقال : جزاكم الله من عصابة شراً لقد كذبتموني صادقاً وخونتم أميناً ، ثم التفت إلى أبي جهل بن هشام فقال : إن هذا أعتى على الله من فرعون إن فرعون لما أيقن بالهلاك وحدّ الله ، وإن هذا لما أيقن بالهلاك دعا باللات والعزّى .

وفي المغازي للواقدي : وأمر رسول الله ﷺ يوم بدر بالقليب أن تغوّر ثم أمر بالقتلى فطرحوا فيها كلهم إلا أمية بن خلف فإنه كان مسمناً انتفخ من يومه فلما

أرادوا أن يلقوه تزايل لحمه فقال النبي ﷺ : أتركوه ، فأقروه وألقوا عليه من التراب والحجارة ما غيبه .

ثم وقف على أهل القليب فناداهم رجلاً رجلاً : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً بئس القوم كنتم لنبيّكم كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس. فقالوا يا رسول الله أتنادي قوماً قد ماتوا ؟ فقال : لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق ، وفي رواية أخرى: فقال رسول الله ﷺ : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني .

قال : وكان انهزام قريش حين زالت الشمس فأقام رسول الله ﷺ ببدر وأمر عبد الله بن كعب بقبض الغنائم وحملها ، وأمر نفراً من أصحابه أن يعينوه فصلى العصر ببدر ثم راح فمر بالأثيل قبل غروب الشمس فنزل به وبات، وبأصحابه جراح وليست بالكثيرة ، وأمر ذكوان بن عبد قيس أن يحرس المسلمين حتى كان آخر الليل فارتحل .

وفي تفسير القمّي في خبر طويل : وخرج أبو جهل من بين الصفين وقال : اللهم إن محمداً أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرفه فأحنه الغداة فأنزل الله على رسوله: « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وإن الله مع المؤمنين » .

ثم أخذ رسول الله ﷺ كفاً من حصى ورمى به في وجوه قريش وقال : شاهت الوجوه فبعث الله رياحاً تضرب في وجوه قريش فكانت الهزيمة فقال رسول الله ﷺ : اللهم لا يفلتن فرعون هذه الامة ابو جهل بن هشام فقتل منهم سبعين، واسر منهم سبعين .

والتقى عمرو بن الجموح مع أبي جهل فضرب عمرو أبا جهل على فخذه وضرب ابو جهل عمراً على يده فأبانها من العضد فتعلقت بجلده فاتكى عمرو على يده برجله ثم تراخى إلى السماء حتى انقطعت الجلدة ورمى بيده .

وقال عبد الله بن مسعود : انتهيت الى أبي جهل وهو يتشحط بدمه فقلت :

الحمد لله الذي أخزاك فرفع رأسه فقال: إنما اخزى الله عبداً، ابن ام عبد لمن الدبرة ويلك ؟ قلت : لله ولرسوله وإني قاتلك ، ووضعت رجلي على عنقه فقال : ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم أما انه ليس شيء أشد من قتلك اياي في هذا اليوم ألا تولّى قتلي رجل من المطّلبيين أو رجل من الأحلاف ؟ فاقتلعت بيضة كانت على رأسه فقتلته وأخذت رأسه وجئت به الى رسول الله ﷺ وقلت : يا رسول الله البشرى هذا رأس ابي جهل بن هشام فسجد لله شكراً .

وفي الإرشاد للمفيد ثم بارز امير المؤمنين عليه السلام العاص بن سعيد بن العاص بعد ان احجم عنه من سواه فلم يلبث ان قتله ، وبرز اليه حنظلة بن ابي سفيان فقتله ، وبرز اليه بعده طعيمة بن عدي فقتله ، وقتل بعده نوفل بن خويلد وكان من شياطين قريش، ولم يزل يقتل واحداً منهم بعد واحد حتى أتى على شطر المقتولين منهم وكانوا سبعين رجلاً ، تولى كافة من حضر بدراً من المسلمين مع ثلاثة آلاف من الملائكة المسوّمين قتل الشطر منهم ، وتولى امير المؤمنين عليه السلام قتل الشطر الآخر وحده.

وفي الإرشاد أيضاً : قد أثبتت رواة العامة والخاصة معاً اسماء الذين تولى امير المؤمنين عليه السلام قتلهم ببدر من المشركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك واصطلاح فكان ممن سموه: الوليد بن عتبة كما قدمنا وكان شجاعاً جريئاً وقاحاً فتاكاً تهابه الرجال ، والعاص بن سعيد وكان هولاً عظيماً تهابه الابطال ، وهو الذي حاد عنه عمر بن الخطاب وقصّته فيما ذكرناه مشهورة نحن نبيّنها فيما نورده ، وطعيمة بن عدي بن نوفل وكان من رؤوس اهل الضلال ، ونوفل بن خويلد وكان من اشد المشركين عداوة لرسول الله ﷺ ، وكانت قريش تقدمه وتعظمه وتطيعه ، وهو الذي قرن أبا بكر وطلحة قبل الهجرة بمكة وأوثقهما بحبل وعذبهما يوماً الى الليل حتى سئل في امرهما، ولما عرف رسول الله ﷺ حضوره بدراً سأل الله ان يكفيه امره فقال : اللهم اكفني نوفل بن خويلد فقتله امير المؤمنين عليه السلام .

وزمعة بن الأسود[١]، والحارث بن زمعة ، والنضر بن الحارث بن عبد الدار، وعمير بن عثمان بن كعب بن تيم عم طلحة بن عبيد الله، وعثمان ومالك ابنا عبيدالله

(١) في بعض النسخ : وعقيل بن الاسود وفيه فذلك ستة وثلاثون .

أخوا طلحة بن عبيد الله، ومسعود بن ابي امية بن المغيرة،وقيس بن الفاكه بن المغيرة وحذيفة بن ابي حذيفة بن المغيرة، و [أبو] قيس[١] بن الوليد بن المغيرة، وحنظلة ابن أبي سفيان، وعمرو بن مخزوم ، وأبو منذر بن ابي رفاعة ، ومنبّه بن الحجاج السهمي ، والعاص بن منبّه ، وعلقمة بن كلدة ، وأبو العاص بن قيس بن عدي ، ومعاوية بن المغيرة بن ابي العاص ، ولوذان بن ربيعة ، وعبد الله بن المنذر بن ابي رفاعة ، ومسعود بن امية بن المغيرة ، وحاجب بن السائب بن عويمر ، وأوس بن المغيرة بن لوذان ، وزيد بن مليص، وعاصم بن ابي عوف، وسعيد بن وهب حليف بني عامر ، ومعاوية بن [عامر بن] عبد القيس ، وعبد الله بن جميل بن زهيربن الحارث بن أسد ، والسائب بن مالك ، وأبو الحكم بن الأخنس ، وهشام بن ابي امية بن المغيرة .

فذلك خمسة وثلاثون رجلاً سوى من اختلف فيه أو شرك امير المؤمنين عليه السلام فيه غيره وهم اكثر من شطر المقتولين ببدر على ما قدمناه .

أقول : وذكر غيره كما في المجمع انه قتل يوم بدر سبعة وعشرين رجلاً، وذكر الواقدي : ان الذي اتفق عليه قول النقلة والرواة من قتلاه تسعة رجـال والباقي مختلف فيه .

لكن البحث العميق عن القصة وما يحتف بهـا من أشعارهم والحوادث المختلفة التي حدثت بعدها تسيء الظن بهذا الاختلاف ، وقد نقل عن محمد بن اسحـاق ان اكثر قتلى المشركين يوم بدر كان لعلي عليه السلام .

وقد عد الواقدي فيما ذكره ابن ابي الحديد من قتلى المشركين في وقعـة بدر اثنين وخمسين رجلاً ونسب قتل اربعة وعشرين منهم اليه عليه السلام ممن انفرد بقتله او شارك غيره .

ومن شعر اسيد بن ابي اياس يحرض مشركي قريش على علي عليه السلام على مـا في الإرشاد والمناقب قوله :

---

(١) هو أخو خالد بن الوليد ، والثلاثة الذين قتلوا ابناء اعمامه .

في كل بجمع غـاية أخزاكم جزعٌ أبرّ على المذاكي القرّح
لله درّكم ألمّا تنكروا قد ينكر الحر الكريم ويستحي
هذا ابن فاطمة الذي أفناكم ذبحـاً وقتلة قعصة لم تذبح
اعطوه خرجاً واتقوا تضريبه فعل الذليل وبيعة لم تربح
أين الكهول وأين كل دعامة في المعضلات وأين زين الأبطح
أفناهم قعصاً وضرباً يفترى بالسيف يعمل حدّه لم يصفح

وفي الإرشاد روى شعبة عن ابي اسحاق عن حارث بن مضرب قال : سمعت علي بن ابي طالب عليه السلام يقول : لقد حضرنا بدراً وما فينا فارس غـير المقداد بن الاسود ، ولقـد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا من نام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنه كان منتصباً في اصل شجرة يصلي فيها ويدعو حتى الصباح .

اقول : والروايات في قصة بدر كثيرة جداً وقد اقتصرنا منها على مـا يتضح به فهم مضامين الآيات ، ومن الأخبار ما سيأتي إن شاء الله في تضاعيف البحث عن الآيات التالية المشيرة الى بعض اطراف القصة .

(فهرس اسماء شهداء بدر «رض»)

في البحار عن الواقدي قال : حدثني عبدالله بن جعفر قال : سألت الزهري كم استشهد من المسلمين ببدر ؟ قـال : اربعة عشر : ستة من المهاجرين ، وثمانية من الانصار .

قال : فمن بني المطلب بن عبد مناف ، عبيدة بن الحارث قتله عتبة وفي غير رواية الواقدي قتله شيبة فدفنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالصفراء ، ومن بني زهرة عمـير بن ابي وقاص قتله عمرو بن عبدود فارس الأحزاب ، وعمير بن عبدود ذو الشمالين حليف لبني زهرة قتله ابو اسامة الجشمي ، ومن بني عدي عاقل بن ابي البكير حليف لهم من بني سعد قتله مالك بن زهـير ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب قتله عامر بن الحضرمي ويقال : إن مهجعاً اول من قتل من المهاجرين ، ومن بني الحارث بن فهر صفوان بن بيضاء قتله طعيمة بن عدي .

ومن الانصار ثم من بني عمرو بن عوف ، مبشر بن عبد المنذر قتله ابو ثور ، وسعد بن خيثمة قتله عمرو بن عبدود ، ويقال : طعيمة بن عدي ، ومن بني عدي ابن النجار حارثة بن سراقة رماه حنان بن العرقة بسهم فأصاب حنجرته فقتله ، ومن بني مالك بن النجار عوف ومعوذ ابنا عفراء قتلها ابو جهل ، ومن بني سلمة عمير بن الحمام بن الجموح قتله خالد بن الأعلم، ويقال: انه اول قتيل قتل من الانصار، وقد روي : ان اول قتيل منهم حارثة بن سراقة ، ومن بني زريق رافع بن المعلى قتله عكرمة بن ابي جهل ، ومن بني الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث قتله نوفل ابن معاوية فهؤلاء الثمانية من الانصار .

وروي عن ابن عباس : ان أنسة مولى النبي ﷺ قتل ببدر ، وروي : ان معاذ بن ماعص جرح ببدر فمات من جراحته بالمدينة ، وابن [ان ظ] عبيد بن السكن جرح فاشتكى جرحه فمات منه .

* * *

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ــ ١٥ . وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ــ ١٦ . فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ــ ١٧ . ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ــ ١٨ . إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ــ ١٩ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ــ ٢٠ . وَلَا تَكُونُوا

كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ـ ٢١ . إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ
الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ـ ٢٢ . وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ – ٢٣ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا
لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ
الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ – ٢٤ . وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ – ٢٥ . وَاذْكُرُوا
إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ
فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ – ٢٦ .
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ – ٢٧ . وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ
اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ – ٢٨ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ
لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ – ٢٩ .

(بيـان)

أوامرٌ ونواه متعلقة بالجهاد الاسلامي ممـا يناسب سوق القصة ، وحثٌ على تقوى الله وإنذار وتخويف من مخالفة الله ورسوله والتعرض لسخطه سبحانه ، وفيها اشارة الى بعض ما جرى في وقعة بدر من منن الله وأياديه على المؤمنين .

قوله تعالى : « يا ايهـا الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفـاً فلا تولوهم

الادبار» اللقاء مصدر لقي يلقى من المجرّد ولاقى يلاقي من المزيد فيه، قال الراغب في مفردات القرآن : اللقاء مقابلة الشيء ومصادفته معاً ، وقد يعبّر به عن كل واحد منهما يقال : لقيه يلقاه لقاءً ولُقياً ولُقية، ويقال ذلك في الإدراك بالحس وبالبصر وبالبصيرة قال : لقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه ، وقال : لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، وملاقاة الله عبارة عن القيامة وعن المصير اليه قال : واعلموا انكم ملاقوه ، وقال : الذين يظنون انهم ملاقوا الله ، واللقاء الملاقاة ، قال : وقال الذين لا يرجون لقاءنا ، وقال : الى ربك كدحاً فملاقيه . انتهى .

وقال في المجمع : اللقاء الاجتماع على وجه المقاربة لان الاجتماع قد يكون على غير وجه المقاربة فلا يكون لقاء كاجتماع الأعراض في المحل الواحد . انتهى .

وقال فيه : الزحف الدنو قليلاً قليلاً، والتزاحف التداني يقال : زحف يزحف زحفاً وأزحفت للقوم اذا دنوت لقتالهم وثبتّ لهم. قال الليث : الزحف جماعة يزحفون الى عدو لهم بمرة وجمعه زحوف . انتهى .

وتولية الأعداء الادبار جعلهم يلونها وهو استدبار العدو واستقبال جهة الهزيمة.

وخطاب الآية عام غير خاص بوقت دون وقت ولا غزوة دون غزوة فلا وجه لتخصيصها بغزوة بدر وقصر حرمة الفرار من الزحف بها كما يحكى عن بعض المفسرين. على انك عرفت أن ظاهر سياق الآيات انها نزلت بعد غزوة بدر لا يومها، وان الآيات ذيل ما في صدر السورة من قوله : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » الآية ، وللكلام تتمة ستوافيك في البحث الروائي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى : « ومن يولّهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة » إلى آخر الآية . التحرف : الزوال عن جهة الاستواء إلى جهة الحرف وهو طرف الشيء وهو أن ينحرف وينعطف المقاتل من جهة إلى جهة أخرى ليتمكن من عدوّه ويبادر الى إلقاء الكيد عليه ، والتحيّز هو أخذ الحيّز وهو المكان ، والفئة القطعة من جماعة الناس ، والتحيز الى فئة أن ينعطف المقاتل عن الانفراد بالعدو الى فئة من قومه فيلحق بهم ويقاتل معهم .

والبواء الرجوع إلى مكان والاستقرار فيه ، ولذا قال الراغب : أصل البواء

مساواة الأجزاء في المكان خلاف النبوة الذي هو منافاة الأجزاء. انتهى فمعنى قوله: باء بغضب من الله أي رجع ومعه غضب من الله .

فمعنى الآيتين: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا لقاء زحف أو زاحفين للقتال فلا تفروا منهم ومن يفر منهم يومئذ أي وقتئذ فقد رجع ومعه غضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير إلا أن يكون فراره للتحرف لقتال أو التحيز الى فئة فلا بأس به .

قوله تعالى : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » الى آخر الآية، التدبر في السياق لا يدع شكاً في أن الآية تشير الى وقعة بدر وما صنعه رسول الله ﷺ من رميهم بكف من الحصا ، والمؤمنون بوضع السيف فيهم وقتلهم القتل الذريع ، وذيل الآية أعني قوله : وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً يدل على أن الكلام جار مجرى الامتنان منه تعالى، وقد أثبت تعالى عين ما نفاه في جملة واحدة أعني قوله : « وما رميت إذ رميت » .

فمن جميع هذه الشواهد يتحصل أن المراد بقوله : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » نفي أن تكون وقعة بدر وما ظهر فيها من استئصال المشركين والظهور عليهم والظفر بهم جارية على مجرى العادة والمعروف من نواميس الطبيعة ، وكيف يسع لقوم هم شرذمة قليلون ما فيهم على ما روي الا فرس أو فرسان وبضعة أدرع وبضعة سيوف ، أن يستأصلوا جيشاً مجهزاً بالأفراس والأسلحة والرجال والزاد والراحلة، هم أضعافهم عدة ولا يقاسون بهم قوة وشدة، وأسباب الغلبة عندهم، وعوامل البأس معهم ، والموقف المناسب للتقدم لهم.

إلا ان الله سبحانه بما أنزل من الملائكة ثبت أقدام المؤمنين وأرعب قلوب المشركين، وألقى الهزيمة بما رماه النبي ﷺ من الحصاة عليهم فشملهم المؤمنون قتلاً وأسراً فبطل بذلك كيدهم وخمدت أنفاسهم وسكنت أجراسهم .

فبالحري أن ينسب ما وقع عليهم من القتل بأيدي المؤمنين والرمي الذي شتت شملهم وألقى الهزيمة فيهم اليه سبحانه دون المؤمنين .

فما في الآية من النفي جار مجرى الدعوى بنوع من العناية ، بالنظر الى استناد

الوقعة بأطرافها الى سبب إلهي غير عادي ، ولا ينافي ذلك استنادها بما وقع فيها من الوقائع الى اسبابها القريبة المعهودة في الطبيعة بأن يعد المؤمنون قاتلين لمن قتلوا منهم ، والنبي ﷺ رامياً لما رماه من الحصاة .

وقوله : « وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً » الظاهر ان ضمير « منه » راجع الى الله تعالى ، والجملة لبيان الغاية وهي معطوفة على مقدر محذوف ، والتقدير : إنما فعل الله ما فعل من قتلهم ورميهم لمصالح عظيمة عنده ، وليبلي المؤمنين ويمتحنهم بلاءً وامتحاناً حسناً أو لينعم عليهم بنعمة حسنة ، وهو إفناء خصمهم وإعلاء كلمة التوحيد بهم وإغناؤهم بما غنموا من الغنائم .

وقوله : « ان الله سميع عليم » تعليل لقوله : «وليبلي المؤمنين» أي إنه تعالى يبليهم لأنه سميع باستغاثتهم عليم بحالهم فيبليهم منه بلاءً حسناً .

والتفريع الذي في صدر الآية : « فلم تقتلوهم » الخ متعلق بما يتضمنه الآيات السابقة : « إذ تستغيثون ربكم » الى آخر الآيات من المعنى، فإنها تعد منن الله عليهم من انزال الملائكة وامدادهم بهم وتغشيةالنعاس اياهم وامطار السماء عليهم وما أوحي الى الملائكة من تأييدهم وتثبيت أقدامهم والقاء الرعب في قلوب أعدائهم ، فلما بلغ الكلام هذا المبلغ فرّع عليه قوله : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » .

وعلى هذا فقوله : « يا ايها الذين آمنوا إذا لقيتم » الى قوله : « وبئس المصير » معترضة متعلقة بقوله : « فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان » او بمعناه المفهوم من الجمل المسرودة، وقوله: « فلم تقتلوهم » الخ متصل بما قبله بحسب النظم .

وربما يذكر في نظم الآية وجهان آخران :

احدهما : ان الله سبحانه لما امرهم بالقتل في الآية المتقدمة ذكر عقيبها ان ما كان من الفتح يوم بدر وقهر المشركين انما كان بنصرته ومعونته تذكيراً للنعمة . ذكره ابو مسلم .

والثاني: انهم لما أمروا بالقتال ثم كان بعضهم يقول: أنا قتلت فلاناً وأنا فعلت كذا نزلت الآية على وجه التنبيه لهم لئلا يعجبوا بأعمالهم . وربما قيل : ان الفاء في

قوله : « فلم تقتلوهم » لمجرد ربط الجمل بعضها ببعض . والوجه ما قدمناه .

قوله تعالى : « ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين» قال في المجمع : « ذلكم » موضعه رفع ، وكذلك « أن الله » في موضع رفع ، والتقدير : الأمر ذلكم والأمر ان الله موهن ، وكذلك الوجه فيما تقدم من قوله : « ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار » ، ومن قال: ان « ذلكم » مبتدء و « فذوقوه » خبره فقد أخطأ لأن ما بعد الفاء لا يكون خبراً لمبتدء ، ولا يجوز : زيد فمنطلق ، ولا : زيد فاضربه إلا ان تضمر « هذا » تريد : هذا زيد فاضربه . انتهى . فمعنى الآية : الامر ذلكم الذي ذكرناه والأمر ان الله موهن كيد الكافرين .

قوله تعالى : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » الى آخر الآية . ظاهر الآية بما تشتمل عليه من الجمل المسرودة كقوله : « وإن تنتهوا فهو خير لكم » وقوله : «وإن تعودوا نعد» الخ ان تكون الخطاب فيه للمشركين دون المؤمنين باشتمال الكلام على الالتفات للتهكم، وهو المناسب لقوله في الآية السابقة : «وأن الله موهن كيد الكافرين».

فالمعنى: إن طلبتم الفتح وسألتم الله ايها المشركون ان يفتح بينكم وبين المؤمنين فقد جاءكم الفتح بما أظهر الله من الحق يوم بدر فكانت الدائرة للمؤمنين عليكم ، وإن تنتهوا عن المكيدة على الله ورسوله فهو خير لكم وان تعودوا الى مثل ما كدتم نعد الى مثل ما أوهنا به كيدكم، ولن تغني عنكم جماعتكم شيئاً ولو كثرت كما لم تغن في هذه المرة وإن الله مع المؤمنين ولن يغلب من هو معه .

وبهذا يتأيد ما ورد ان ابا جهل قال يوم بدر حين اصطف الفريقان او حين التقى الفئتان: اللهم ان محمداً اقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرف فانصر عليه، وفي بعض الروايات —وهو الأنسب— كما في المجمع عن ابي حمزة : قال ابو جهل: اللهم ربنا ديننا القديم ودين محمد الحديث فأي الدينين كان احب اليك وأرضى عندك فانصر اهله اليوم .

وذكر بعضهم: ان الخطاب في الآية للمؤمنين، ووجهوا مضامين جملها بما لا يرتضيه الذوق السليم ، ولا جدوى للإطالة بذكرها والمناقشة فيها فمن أراد ذلك فعليه بالمطولات.

قوله تعالى: «يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون» الضمير على ما يفيده السياق راجع الى الرسول ﷺ ، والمعنى: ولا تولوا عن الرسول

وأنتم تسمعون ما يلقيه اليكم من الدعوة الحقة وما يأمركم به وينهاكم عنه مما فيه صلاح دينكم ودنياكم . ومصبّ الكلام اوامره الحربية وإن كان لفظه أعمّ .

قوله تعالى : « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » المعنى ظاهر وفيه نوع تعريض للمشركين إذ قالوا : سمعنا ، وهم لا يسمعون ، وقد حكى الله عنهم ذلك إذ قال بعد عدة آيات: «واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » الأنفال : ٣١ ، لكنهم كذبوا ولم يسمعوا ولو سمعوا لاستجابوا كما قال الله تعالى : « ولهم آذان لا يسمعون بها » الأعراف : ١٧٩ ، وقال تعالى حكاية عن اصحاب السعير: «وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير» الملك: ١٠ فالمراد بالسمع في الآية الاولى تلقي الكلام الحق الذي هو صوت من طريق الاذن ، وفي الآية الثانية الانقياد لما يتضمنه الكلام الحق المسموع .

والآيتان – كما ترى – خطاب متعلق بالمؤمنين متصل نوع اتصال بالآية السابقة عليها وتعريض للمشركين ، فهو تعالى لما التفت الى المشركين فذمّهم وتهكم عليهم بسؤالهم الفتح ، وذكر لهم ان الغلبة دائماً لكلمة الايمان على كلمة الكفر ولدعوة الحق على دعوة الباطل، التفت الى حزبه وهم المؤمنون فأمرهم بالطاعة له ولرسوله ، وحذرهم عن التولي عنه بعد استماع كلمة الحق ، وأن يكونوا كاولئك إذ قالوا : سمعنا وهم لا يسمعون .

ومن الممكن ان يكون في الآية إشارة الى عدة من أهل مكة آمنوا بالنبي ﷺ ولما تخلص قلوبهم من الشك خرجوا مع المشركين الى بدر لحرب رسول الله ﷺ فابتلوا بما ابتلي به مشركوا قريش ، فقد ورد في الخبر : ان فئة من قريش اسلموا بمكة واحتبسهم آباؤهم فخرجوا مع قريش، يوم بدر ، وهم قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن امية بن خلف، والعاص بن منبّه بن الحجاج، والحارث بن زمعة، وقيس بن الفاكه بن المغيرة ولما رأوا قلة المسلمين قالوا: مساكين هؤلاء غرهم دينهم، وسيذكرهم الله بعد عدة آيات بقوله : « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم » الآية .

وربما قيل : ان المراد بالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون هم اهل الكتاب من يهود قريظة والنضير . وهو بعيد .

قوله تعالى : « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » الى آخر الآيتين . تعريض وذم للذين سبق ذكرهم من الكفار على ما يعطيه سياق الكلام وما اشتملت عليه الآية من الموصول والضمائر المستعملة في اولي العقل، وعلى هذا فالظاهر ان اللام في قوله : « الصم البكم » للعهد الذكري، ويؤول المعنى الى ان شر جميع ما يدب على الأرض من اجناس الحيوان وأنواعها هؤلاء الصم البكم الذين لا يعقلون ، وإنما لم يعقلوا لأنه لا طريق لهم الى تلقي الحق لفقدهم السمع والنطق فلا يسمعون ولا ينطقون .

ثم ذكر تعالى ان الله إنما ابتلاهم بالصمم والبكم فلا يسمعون كلمة الحق ولا ينطقون بكلمة الحق ، وبالجملة حرمهم نعمة السمع والقبول ، لأنه تعالى لم يجد عندهم خيراً ولم يعلم به ولو كان لعلم ، لكن لم يعلم فلم يوفقهم للسمع والقبول ، ولو انه تعالى رزقهم السمع والحال هذه لم يثبت السمع والقبول فيهم بل تولوا عن الحق وهم معرضون .

ومن هنا يعلم ان المراد بالخير حسن السريرة الذي يثبت به الاستعداد لقبول الحق ويستقر في القلب ، وان المراد بقوله: « ولو أسمعهم » الإسماع على تقدير عدم الاستعداد الثابت المستقر فافهم ذلك فلا يرد انه تعالى لو أسمعهم ورزقهم قبول الحق استلزم ذلك تحقق الخير فيهم ولا وجه مع ذلك لتوليهم وإعراضهم وذلك ان الشرط في قوله : « ولو اسمعهم » على تقدير فقدهم الخير على ما يفيده السياق .

قوله تعالى: « يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » لما دعاهم في قوله : «اطيعوا الله والرسول» الخ الى إطاعة الدعوة الحقة وعدم التولي عنها بعد استماعها اكده ثانياً بالدعوة الى استجابة الله والرسول في دعوة الرسول، ببيان حقيقة الأمر والركن الواقعي الذي تعتمد عليه هذه الدعوة ، وهو ان هذه الدعوة دعوة الى ما يحيي الانسان بإخراجه من مهبط الفناء والبوار ، وموقفه في الوجود ، ان الله سبحانه اقرب اليه من قلبه وانه سيحشر اليه فليأخذ حذره وليجمع همّه ويعزم عزمه .

الحياة أنعم نعمة وأعلى سلعة يعتقدها الموجود الحي لنفسه كيف لا ؟ وهو لا يرى وراءه إلا العدم والبطلان ، وأثرها الذي هو الشعور والإرادة هو الذي ترام

لأجله الحياة ويرتاح اليه الإنسان ولا يزال يفر من الجهل وافتقاد حرية الإرادة والاختيار وقد جهز الانسان وهو احد الموجودات الحية بمـا يحفظ به حياته الروحية التي هي حقيقة وجوده كما جهز كل نوع من انواع الخليقة بما يحفظ به وجوده وبقاءه .

وهذا الجهـــاز الانساني يشخّص له خيراته ومنافعه ، ويحذّره من مواطن الشر والضر .

واذ كان هذه الهداية الإلهية التي يسوق النوع الانساني الى نحو سعادته وخيره ويندبه نحو منافع وجوده هداية بحسب التكوين وفي طور الخلقة، ومن المحال ان يقع خطأ في التكوين، كان من الحتم الضروري ان يدرك الانسان سعادة وجوده إدراكاً لا يقع فيه شك كما ان سائر الأنواع المخلوقة تسير الى ما فيه خير وجوده ومنافع شخصه من غير ان يسهو فيه من حيث فطرته، وإنما يقع الخبط فيما يقع من جهة تأثير عوامل وأسباب أخر مضادة تؤثر فيه اثراً مخالفاً ينحرف فيه الشيء عما هو خير له الى ما هو شر، وعما فيه نفعه الى مـا فيه ضرر يعود إليه ، وذلك كالجسم الثقيل الارضي الذي يستقر بحسب الطبيعة الارضية على بسيط الارض ثم انه يبتعد عن الارض بالحركة الى جهة العلو بدفع دافع يجبره على خلاف الطبع فإذا بطل أثر الدفع عاد الى مستقره بالحركة نحو الارض على الاستقامة إلا ان يمنعه مانع فيخرجه عـن السير الاستقامي الى انحراف وأعوجاج .

وهذا هو الذي يصر عليه القرآن الكريم ان الانسان لا يخفى عليه ما فيه سعادته في الحياة من عـلم وعمل ، وأنه يدرك بفطرته ما هو حق الاعتقاد والعمل قال تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم» الروم: ٣٠، وقال تعالى: « الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى – الى ان قال – فذكر ان نفعت الذكرى سيذكّر من يخشى ويتجنبها الأشقى » الأعلى: ١١ ، وقال تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دسّاها » الشمس : ١٠ .

نعم ربما اخطأ الانسان طريق الحق في اعتقاد او عمل وخبط في مشيته لكن لا لأن الفطرة الانسانية والهداية الإلهية اوقعته في ضلالة وأوردته في تهلكة بل لأنه اغفل عقله ونسي رشده واتبع هوى نفسه ومـا زينه جنود الشياطين في عينه، قال

تعالى : « ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » النجم: ٢٣ وقال : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم » الجاثية: ٢٣.

فهذه الامور التي تدعو إليها الفطرة الانسانية منحق العلم والعمل لوازم الحياة السعيدة الانسانية وهي الحياة الحقيقية التي بالحري ان تختص باسم الحياة ، والحياة السعيدة تستتبعها كما انها تستلزم الحياة وتستتبعها، وتعيدها الى محلها لو ضعفت الحياة في محلها بورود ما يضادها ويبطل رشد فعلها .

فإذا انحرف الانسان عن سوي الصراط الذي تهديـه اليه الفطرة الانسانية وتسوقه اليه الهداية الإلهية ، فقـد فقد لوازم الحياة السعيدة من العلم النافع والعمل الصالح ، ولحق بحلول الجهل وفساد الإرادة الحرة والعمل النافع بالأموات ولا يحييه إلا علمحق وعمل حق، وهما اللذان تندب اليهما الفطرة وهذا هو الذي تشير اليه الآية التي نبحث عنها: « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ».

واللام في قوله : « لمـا يحييكم » بمعنى الى ، وهو شائع في الاستعمال ، والذي يدعو اليـه الرسول ﷺ هو الدين الحق وهو الاسلام الذي يفسره القرآن الكريم باتباع الفطرة فيما تندب اليه من علم نافع وعمل صالح .

وللحياة بحسب ما يراه القرآن الكريم معنى آخر أدق ممـا نراه بحسب النظر السطحي الساذج فإننـا إنما نعرف من الحياة في بادىء النظر ما يعيش به الانسان في نشأته الدنيوية الى ان يحل به الموت ، وهي التي تصاحب الشعور والفعل الإرادي ، ويوجد مثلها او ما يقرب منها فيغير الانسان ايضاً من سائر الانواع الحيوانية لكن الله سبحانه يقول : « وما هـذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » العنكبوت ٦٤ ويفيد ذلك ان الانسان متمتع بهذه الحياة غير مشتغل الا بالأوهام ، وأنه مشغول بهـا عما هو أهم وأوجب من غايات وجوده وأغراض روحه فهو في حجاب مضروب عليه يفصل بينه وبين حقيقة مـا يطلبه ويبتغيه من الحياة .

وهـذا هو الذي يشير اليه قوله تعالى وهو من خطابات يوم القيامة : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ .

فللإنسان حياة اخرى أعلى كعباً وأغلى قيمة من هذه الحياة الدنيوية التي يعدها الله سبحانه لعباً ولهواً ، وهي الحياة الأخروية التي سينكشف عن وجهها الغطاء ، وهي الحياة التي لا يشوبها اللعب واللهو ، ولا يدانيها اللغو والتأثيم ، لا يسير فيها الانسان الا بنور الايمان وروح العبودية قال تعالى: « اولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ وقال تعالى : « او من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام : ١٢٢ .

فهذه حياة اخرى ارفع قدراً وأعلى منزلة من الحياة الدنيوية العامة التي ربما شارك فيها الحيوان العجم الانسان ، ويظهر من امثال قوله تعالى : « وأيدناه بروح القدس » البقرة : ٢٥٣ وقوله : « وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا » الآية الشورى: ٥٢ ان هناك حياة اخرى فوق هاتين الحياتين المذكورتين سيوافيك البحث عنها فيما يناسبها من المورد ان شاء الله .

وبالجملة فللإنسان حياة حقيقية اشرف وأكمل من حياته الدينية الدنيوية يتلبس بها اذا تم استعداده بالتحلي بحلية الدين والدخول في زمرة الأولياء الصالحين كما تلبس بالحياة الدنيوية حين تم استعداده للتلبس بها وهو جنين انساني .

وعلى ذلك ينطبق قوله تعالى في الآية المبحوث عنها : « يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » فالتلبس بما تندب اليه الدعوة الحقة من الاسلام يجر الى الانسان هذه الحياة الحقيقية كما ان هذه الحياة منبع ينبع منه الاسلام وينشأ منه العلم النافع والعمل الصالح ، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » النحل : ٩٧ .

والآية اعني قوله فيها : « اذا دعاكم لما يحييكم » مطلق لا يأبى الشمول لجميع دعوته ﷺ المحيية للقلوب ،او بعضها الذي فيه طبيعة الإحياء أو لنتائجها التي هي انواع الحياة السعيدة الحقيقية كالحياة السعيدة في جوار الله سبحانه في الآخرة .

ومن هنا يظهر أن لا وجه لتقييد الآية بما قيدها به اكثر المفسرين فقد قال بعضهم : ان المراد بقوله : « اذا دعاكم لما يحييكم » بالنظر الى مورد النزول : اذا دعاكم الى الجهاد اذ فيه احياء امركم واعزاز دينكم .

وقيل : المعنى اذا دعاكم الى الشهادة في سبيل الله في جهاد عدوكم فإن الله سبحانه عد الشهداء احياء كما في قوله : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون » آل عمران : ١٦٩ .

وقيل : المعنى اذا دعاكم الى الايمان، فإنه حياة القلب والكفر موته، أو اذا دعاكم الى الحق .

وقيل : المعنى اذا دعاكم الى القرآن والعلم في الدين لأن العلم حياة والجهل موت والقرآن نور وحياة وعلم .

وقيل: المعنى اذا دعاكم الى الجنة لما فيها من الحياة الدائمة والنعمة الباقية الأبدية.

وهذه الوجوه المذكورة يقبل كل واحد منها انطباق الآية عليه غير ان الآية كما عرفت مطلقة لا موجب لصرفها عما لها من المعنى الوسيع .

قوله تعالى : « واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون » الحيلولة هي التخلل وسطاً ، والقلب العضو المعروف . ويستعمل كثيراً في القرآن الكريم في الأمر الذي يدرك به الانسان ويظهر به أحكام عواطفه الباطنة كالحب والبغض والخوف والرجاء والتمني والقلق ونحو ذلك فالقلب هو الذي يقضي ويحكم، وهو الذي يحب شيئاً ويبغض آخر، وهو الذي يخاف ويرجو ويتمنى ويسر ويحزن، وهو في الحقيقة النفس الانسانية تفعل بما جهزت به من القوى والعواطف الباطنة .

والانسان كسائر ما ابدعه الله من الانواع التي هي أبعاض عالم الخلقة مركب من اجزاء شتى مجهز بقوى وأدوات تابعة لوجوده يملكها ويستخدمها في مقاصد وجوده، والجميع مربوطة به ربطاً يجعل شتات الأجزاء والأبعاض على كثرتها وتفاريق القوى والأدوات على تعددها ، واحداً تاماً يفعل ويترك ، ويتحرك ويسكن ، بوحدته وفردانيته .

غير ان الله سبحانه لما كان هو المبدع للانسان وهو الموجد لكل واحد واحد من اجزاء وجوده وتفاريق قواه وأدواته كان هو الذي يحيط به وبكل واحد من اجزاء وجوده وتوابعه، ويملك كلاً منها بحقيقة معنى الملك يتصرف فيه كيف يشاء، ويملّك الانسان ما شاء منها كيف شاء فهو المتوسط الحائل بين الانسان وبين كل

جزء من اجزاء وجوده وكل تابع من توابع شخصه: بينه وبين قلبه، بينه وبين سمعه، بينه وبين بصره، بينه وبين بدنه، بينه وبين نفسه . يتصرف فيها بإيجادها، ويتصرف فيها بتمليك الانسان ما شاء منها كيف شاء، واعطائه ما اعطى، وحرمانه ما حرم.

ونظير الانسان في ذلك سائر الموجودات فما من شيء في الكون وله ذات وتوابع ذات من قوى وآثار وأفعال إلا والله سبحانه هو المالك بحقيقة معنى الكلمة لذاته ولتوابع ذاته، وهو المملّك اياه كلاً من ذاته وتوابع ذاته فهو الحائل المتوسط بينه وبين ذاته وبينه وبين توابع ذاته من قواه وآثاره وأفعاله .

فالله سبحانه هو الحائل المتوسط بين الإنسان وبين قلبه وكل ما يملكه الإنسان ويرتبط ويتصل هو به نوعاً من الارتباط والاتصال وهو اقرب اليه من كل شيء كما قال تعالى : « ونحن اقرب اليه من حبل الوريد » ق : ١٦ .

والى هذه الحقيقة يشير قوله : « واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون» فهو تعالى لكونه مالكاً لكل شيء ومن جملتها الإنسان ملكاً حقيقياً لا مالك حقيقة سواه، أقرب اليه حتى من نفسه وقوى نفسه التي يملكها لأنه سبحانه هو الذي يملّكه اياها فهو حائل متوسط بينه وبينها يملّكه اياها ويربطها به فافهم ذلك.

ولذلك عقّب الجملة بقوله : « وانه اليه تحشرون » فإن الحشر والبعث هو الذي ينجلي عنده ان الملك الحق لله وحده لا شريك له، ويبطل عند ذلك كل ملك صوري وسلطنة ظاهرية الا ملكه الحق جل ثناؤه كما قال سبحانه : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » المؤمن: ١٦، وقال: « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » الانفطار : ١٩ .

فكأن الآية تقول: واعلموا ان الله هو المالك بالحقيقة لكم ولقلوبكم وهوأقرب اليكم من كل شيء، وانه ستحشرون اليه فيظهر حقيقة ملكه لكم وسلطانه عليكم يومئذ فلا يغني عنكم منه شيء .

وأما اتصال الكلام اعني ارتباط قوله: «واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه» الخ بقوله : « استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » فلأن حيلولته سبحانه بين المرء وقلبه ، يقطع منبت كل عذر في عدم استجابته لله والرسول اذا دعاه لما

يحييه ، وهو التوحيد الذي هو حقيقة الدعوة الحقة فإن الله سبحانه لما كان اقرب اليه من كل شيء حتى من قلبه الذي يعرفه بوجدانه قبل كل شيء ، فهو تعالى وحده لا شريك له أعرف اليه من قلبه الذي هو وسيلة ادراكه وسبب اصل معرفته وعلمه.

فهو يعرف الله إلهاً واحداً لاشريك له قبل معرفته قلبه وكل ما يعرفه بقلبه، فمهما شك في شيء او ارتاب في امر فلن يشك في إلهه الواحد الذي هو رب كل شيء ولن يضل في تشخيص هذه الكلمة الحقة .

فاذا دعاه داعي الحق الى كلمة الحق ودين التوحيد الذي يحييه لو استجاب له، كان عليه ان يستجيب داعي الله فإنه لاعذر له في ترك الاستجابة معللاً بأنه لم يعرف حقية ما دعي اليه، او اختلط عليه، او أعيته المذاهب في الإقبال على الحق الصريح فإن الله سبحانه هو الحق الصريح الذي لا يحجبه حاجب ، ولا يستره ساتر اذ كل حجاب مفروض فالله سبحانه اقرب منه الى الإنسان ، وكل ما يختلج في القلب من شبهة او وسوسة فالله سبحانه متوسط متخلل بينه – مع ما له من ظرف وهو القلب – وبين الإنسان فلا سبيل للانسان الى الجهل بالله والشك في توحده .

وايضاً فان الله سبحانه لما كان حائلاً بين المرء وقلبه فهو اقرب الى قلبه منه كما انه اقرب اليه من قلبه فان الحائل المتوسط اقرب الى كل من الطرفين من الطرف الآخر ، واذا كان تعالى اقرب الى قلب الإنسان منه فهو اعلم بما في قلبه منه .

فعلى الإنسان اذا دعاه داعي الحق الى ما يحييه من الحق ان يستجيب دعاءه بقلبه كما يستجيبه بلسانه، ولا يضمر في قلبه ما لا يوافق ما لباه بلسانه وهو النفاق فان الله اعلم بما في قلبه منه وسيحشر اليه فينبؤه بحقيقة عمله ويخبره بما طواه في قلبه قال تعالى: « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء » المؤمن: ١٦، وقال: « ولا يكتمون الله حديثاً » النساء : ٤٢ .

وايضاً فان الله سبحانه لما كان هو الحائل بين الإنسان وقلبه وهو المالك للقلب بحقيقة معنى الملك كان هو المتصرف في القلب قبل الإنسان وله ان يتصرف فيه بما شاء فما يجده الإنسان في قلبه من إيمان او شك او خوف او رجاء او طمأنينة او قلق واضطراب او غير ذلك مما ينسب اليه باختيار او اضطرار ، فله انتساب اليه

تعالى بتصرفه فيما هو اقرب اليه من كل شيء تصرفاً بالتوفيق او الخذلان او اي نوع من انواع التربية الإلهية ، يتصرف بما شاء ويحكم بما اراد من غير ان يمنعه مانع او يهدده ذم او لوم كما قال تعالى : « والله يحكم لا معقّب لحكمه » الرعد : ٤١، وقال تعالى : « له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » التغابن : ١ .

فمن الجهل ان يثق الإنسان بما يجد في قلبه من الإيمان بالحق او التلبس بنية حسنة او عزيمة على خير او همّ بصلاح وتقوى ، بمعنى ان يرى استقلاله بملك قلبه وقدرته المطلقة على ما يهمّ به فان القلب بين اصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء وهو المالك له بحقيقة معنى الملك والمحيط به بتمام معنى الكلمة ، قال تعالى: «ونقلّب افئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة » الأنعام: ١١٠ ، فمن الواجب عليه ان يؤمن بالحق ويعزم على الخير على مخافة من الله تعالى ان يقلّبه من السعادة الى الشقاء ويحول قلبه من حال الاستقامة الى حال الانتكاس والانحراف، ولا يأمن مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

وكذلك الانسان اذا وجد قلبه غير مقبل على كلمة الحق والعزم على الخير وصالح العمل، عليه ان يبادر الى استجابة الله ورسوله فيما يدعوه الى ما يحييه ، ولا ينهزم عما يهجم عليه من اسباب اليأس وعوامل القنوط من ناحية قلبه فان الله سبحانه يحول بين المرء وقلبه، وهو القادر على ان يصلح سره ويحوّل قلبه الى احسن حال ويشمله بروح منه ورحمة فإنما الامر اليه ، وقد قال : « انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» يوسف: ٨٧، وقال: «ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون» الحجر: ٥٦ .

فالآية الكريمة – كما ترى – من اجمع الآيات القرآنية تشتمل على معرفة حقيقية من المعارف الإلهية – مسألة الحيلولة – وهي تقطع عذر المتجاهلين في معرفة الله سبحانه من الكفار والمشركين، وتقلع غرة النفاق من اصلها بتوجيه نفوس المنافقين الى مقام ربهم وأنه اعلم بما في قلوبهم منهم، ويلقي الى المسلمين والذين هم في طريق الايمان بالله وآياته مسألة نفسية تعلمهم انهم غير مستقلين في ملك قلوبهم ولا منقطعون في ذلك من ربهم فيزول بذلك رذيلة الكبر عمن يرى لنفسه استقلالاً وسلطنة فيما يملكه فلا يغرّه ما يشاهده من تقوى القلب وايمان السر ، ورذيلة اليأس والقنوط عمن يحيط بقلبه

دواهي الهوى ودواعي اعراض الدنيا فيتثاقل عن الايمان بالحق والإقبال على الخير، ويورثه ذلك اليأس والقنوط .

ومما تقدم يظهر ان قوله: « واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه » الخ تعليل لقوله تعالى : « استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » على جميع التقادير من وجوه معناه .

وبذلك يظهر ايضاً ان الآية اوسع معنى مما اورده المفسرون من تفسيرها : كقول من قال: ان المراد ان الله سبحانه اقرب الى المرء من قلبه نظير قوله: ونحن اقرب اليكم من حبل الوريد ، وفيه تحذير شديد .

وقول من قال : ان المراد ان القلب لا يستطيع ان يكتم الله حديثاً فان الله اقرب الى قلب الانسان من نفسه ، فما يعلمه الانسان من قلبه يعلمه الله قبله .

وقول من قال : إن المراد انه يحول بين المرء وبين الانتفاع بقلبه بالموت فلا يمكنه استدراك ما فات فبادروا الى الطاعات قبل الحيلولة ودعوا التسويف ، وفيه حث على الطاعة قبل حلول المانع .

وقول من قال : معناه ان الله سبحانه يملك تقليب القلوب من حال الى حال فكأنهم خافوا من القتال فأعلمهم الله سبحانه انه يبدل خوفهم أمناً بأن يحول بينهم وبين ما يتفكرون فيه من اسباب الخوف .

وقد ورد في الحديث عن أئمة اهل البيت عليهم السلام ان المراد بذلك ان الله سبحانه يحول بين الانسان وبين ان يعلم ان الحق باطل او ان الباطل حق، وسيجيء في البحث الروائي ان شاء الله تعالى .

قوله تعالى: «واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب» قرأ عليّ والباقر عليهما السلام من أئمة اهل البيت وكذا زيد بن ثابت والربيع بن انس وأبو العالية على ما في المجمع : لتصيبن باللام ونون التأكيد الثقيلة، والقراءة المشهورة : لا تصيبن بلا الناهية ونون التأكيد الثقيلة .

وعلى اي تقدير كان، تحذر الآية جميع المؤمنين عن فتنة تختص بالظالمين منهم، ولا يتعداهم الى غيرهم من الكفار والمشركين، واختصاصها بالظالمين من المؤمنين وأمرُ

عامتهم مع ذلك باتقائها يدل على انها وإن كانت قائمة ببعض الجماعة لكن السيىء من أثرها يعمّ الجميع ثم قوله تعالى: « واعلموا ان الله شديد العقاب » تهديد للجميع بالعقاب الشديد ولا دليل يدل على اختصاص هذا العقاب بالحياة الدنيا وكونه من العذاب الدنيوي من قبيل الاختلافات القومية وشيوع القتل والفساد وارتفاع الأمن والسلام ونحو ذلك .

ومقتضى ذلك ان تكون الفتنة المذكورة على اختصاصها ببعض القوم مما يوجب على عامة الامة ان يبادروا على دفعها ، ويقطعوا دابرها ويطفؤا لهيب نارها بما اوجب الله عليهم من النهي عن المنكر والأمر بالمعروف .

فيؤول معنى الكلام الى تحذير عامة المسلمين عن المساهلة في امر الاختلافات الداخلية التي تهدد وحدتهم وتوجب شق عصاهم واختلاف كلمتهم ، ولا تلبث دون ان تحزّبهم احزاباً وتبعّضهم أبعاضاً ، ويكون الملك لمن غلب منهم ، والغلبة لكلمة الفساد لا لكلمة الحق والدين الحنيف الذي يشترك فيه عامة المسلمين .

فهذه فتنة تقوم بالبعض منهم خاصة وهم الظالمون غير ان سيىء أثره يعمّ الكل ويشمل الجميع فيستوعبهم الذلة والمسكنة وكل ما يترقب من مر البلاء بنشوء الاختلاف فيما بينهم ، وهم جميعاً مسؤلون عند الله والله شديد العقاب .

وقد ابهم الله تعالى امر هذه الفتنة ولم يعرّفها بكمال اسمها ورسمها غير ان قوله فيما بعد: « لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » وقوله: « واعلموا ان الله شديد العقاب » – كما تقدم – يوضحها بعض الايضاح ، وهو انها اختلاف البعض من الامة مع بعض منها في امر يعلم جميعهم وجه الحق فيه فيجمح البعض عن قبول الحق ويقدم الى المنكر بظلمه فلا يردعونه عن ظلمه ولا ينهونه عن ما يأتيه من المنكر ، وليس كل ظلم ، بل الظلم الذي يسري سوء أثره الى كافة المؤمنين وعامة الامة لمكان امره سبحانه الجميع بإتقائه ، فالظلم الذي هو لبعض الامة ويجب على الجميع ان يتقوه ، ليس الا ما هو من قبيل التغلب على الحكومة الحقة الاسلامية ، والتظاهر بهدم القطعيات من الكتاب والسنة التي هي من حقوقها .

وأيناً ما كان ففي الفتن الواقعة في صدر الاسلام ما ينطبق عليه الآية اوضح

انطباق وقد انهدمت بها الوحدة الدينية ، وبدت الفرقة ونفدت القوة ، وذهبت الشوكة على ما اشتملت عليه من القتل والسبي والنهب وهتك الاعراض والحرمات وهجر الكتاب وإلغاء السنّة ، وقال الرسول : يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً .

ومن شمول مشأمتها وتعرّق فسادها انالامة لا تستطيع الخروج منأليم عذابها حتى بعد التنبه منهم لسوء فعالهم وتفريطهم في جنب الله كلما أرادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق .

وقد تفطن بعض المفسرين بأن الآية تحذر الامة وتهددهم بفتنة تشمل عامتهم وتفرّق جمعهم ، وتشتت شملهم ، وتوعدهم بعذاب الله الشديد ، وقد احسن التفطن غير انه تكلف في توجيه العذاب بالعذاب الدنيوي ، وتمحل في تقييد ما في الآية من إطلاق العقاب ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد .

ولنرجع الى لفظ الآية :

أما على قراءة اهل البيت عليهم السلام وزيد : « واتقوا فتنة لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » فاللام في « لتصيبن » للقسم والنون الثقيلة لتأكيده ، والتقدير: واتقوا فتنة اقسم لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، وخاصة حال من الفتنة ، والمعنى اتقوا فتنة تختص إصابته بالذين ظلموا منكم أيها المخاطبون وهم الذين آمنوا ، وعليك ان تتذكر ما سلف بيانه ان لفظ : « الذين آمنوا » في القرآن خطاب تشريفي للمؤمنين في اول البعثة وبدء انتشار الدعوة لولا قرينة صارفة عن ذلك ، ثم تذكر ان فتن صدر الاسلام تنتهي الى اصحاب بدر ، والآية على أي حال يأمر الجميع ان يتقوا فتنة تثيرها بعضهم ، وليس إلا لأن أثرها السيء يعم الجميع كما تقدم .

وأما على قراءة المشهور : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » فقد ذكروا : ان لا في «لا تصيبن» ناهية والنون لتأكيد النهي، وليس « لا تصيبن » جواباً للأمر في « اتقوا » بل الكلام جار مجرى الابتداء والاستيناف كقوله تعالى: « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده » النمل : ١٨ فقد قال اولاً : « واتقوا فتنة » ثم استأنف وقال : « لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » لاتصال الجملتين معنى .

وربما جوز بعض النحاة ان يكون « لا تصيبن » نهياً وارداً في جواب الأمر كما يقال : اتق زيداً لا يضربك أو لا يضربنك والتقدير: اتق زيداً فإنك إن اتقيته لا يضربك ولم يشترط في نون التأكيد أن لا يدخل الخبر .

وربما قال بعضهم : ان لا زائدة والمعنى : اتقوا فتنة تصيبن الآية .

وربما ذكر آخرون : « ان أصل لا تصيبن » « لتصيبن » اشبعت فتحة اللام حتى تولدت الألف ، وإشباع الفتحة ليس بعزيز في الشعر قال :

فأنتِ من الغوائل حين ترمي ومن ذمّ الرجال بمنتزاح

يريد : بمنتزح ، والوجهان بعيدان لا يحمل على مثلهما كلامه تعالى .

ومآل المعنى على هذا الوجه أي على قراءة « لا تصيبن » أيضاً الى ما تفيده القراءة الاولى « لتصيبن » كما عرفت .

والآية ـ كما عرفت ـ تتضمن خطاباً اجتماعياً متوجهاً الى مجموع الامة وذلك يؤيد كون الخطاب في الآية السابقة: « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم» خطاباً اجتماعياً متوجهاً الى كافة المؤمنين، ويتفرع عليه ان المراد بالدعوة الى ما يحييهم الدعوة الى الاتفاق على الاعتصام بحبل الله وإقامة الدين وعدم التفرق فيه كما قال : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » آل عمران : ١٠٣ وقال : « أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » الشورى : ١٣ وقوله : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» الأنعام : ١٥٣.

وبهذا يتأيد بعض الوجوه المذكورة سابقاً في قوله : « اذا دعاكم لما يحييكم» وكذا في قوله : «ان الله يحول بين المرء وقلبه» وتختص الآية به بحسب السياق وإن كانت تفيد معنى اوسع من ذلك باعتبار اخذها في نفسها مفردة عن السياق، والباحث الناقد لا يعوز عليه تميز ذلك والله الهادي .

قوله تعالى : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس » الى آخر الآية . الاستضعاف عدّ الشيء ضعيفاً بتوهين امره ، والتخطف والخطف والاختطاف أخذ الشيء بسرعة انتزاع ، والإيواء جعل الانسان ذا مأوى ومسكن يرجع اليه ويأوى ، والتأييد من الأيد وهو القوّة .

والسياق يدل على ان المراد بقوله : « إذ انتم قليل مستضعفون في الأرض » الزمان الذي كان المسلمون محصورين بمكة قبل الهجرة وهم قليل مستضعفون، وبقوله: تخافون ان يتخطفكم الناس » مشركوا العرب وصناديد قريش ، وبقوله «فآواكم» أي بالمدينة وبقوله « وأيدكم بنصره » ما اسبغ عليهم من نعمة النصر ببدر، وبقوله: « ورزقكم من الطيبات » ما رزقهم من الغنائم وأحلها لهم .

وما عده في الآية من احوال المؤمنين ومننه عليهم بالإيواء وإن كانت مما يختص بالمهاجرين منهم دون الأنصار إلا ان المراد الامتنان على جميعهم من المهاجرين والأنصار فإنهم امة واحدة يوحدهم دين واحد . على ان فيما ذكره الله في الآية من مننه التأييد بالنصر والرزق من الطيبات وهما يعمان الجميع، هذا بحسب ما تقتضيه الآية من حيث وقوعها في سياق آيات بدر ، ولكن هي وحدها وباعتبار نفسها تعم جميع المسلمين من حيث انهم امة واحدة يرجع لاحقهم الى سابقهم فقد بدأ ظهور الاسلام فيهم وهم قليل مستضعفون بمكة يخافون ان يتخطفهم الناس فآواهم بالمدينة وكثرهم بالأنصار وأيدهم بنصره في بدر وغيره ورزقهم من جميع الطيبات الغنائم وغيرها من سائر النعم لعلهم يشكرون .

قوله تعالى: «يا ايها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وأنتم تعلمون » الى آخر الآيتين . الخيانة نقض الأمانة التي هي حفظ الامن لحق من الحقوق بعهد أو وصية ونحو ذلك، قال الراغب: الخيانة والنفاق واحد إلا ان الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة ، والنفاق يقال اعتباراً بالدين ثم يتداخلان فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ، ونقيض الخيانة الأمانة يقال : خنت فلاناً ، وخنت امانة فلان وعلى ذلك قوله : لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم . انتهى .

وقوله : «وتخونوا اماناتكم» من الجائز ان يكون مجزوماً معطوفاً على تخونوا السابق ، والمعنى : ولا تخونوا اماناتكم ، وأن يكون منصوباً بحذف أن والتقدير: وأن تخونوا اماناتكم ويؤيد الوجه الثاني قوله بعده : « وأنتم تعلمون » .

وذلك ان الخيانة وإن كانت إنما يتعلق النهي التحريمي بها عند العلم فلا نهي مع جهل بالموضوع ولا تحريم غير ان العلم من الشرائط العامة التي لا ينجز تكليف من التكاليف المولوية إلا بـه فلا نكتة ظاهرة في تقييد النهي عن الخيانة بالعلم مع

ان العلم لكونه شرطاً عاماً مستغنى عن ذكره ، وظاهر قوله : « وأنتم تعلمون » بحذف متعلقات الفعل ان المراد : ولكم علم بأنه خيانة لا ما قيل : إن المعنى : وأنتم تعلمون مفاسد الخيانة وسوء عاقبتها وتحريم الله اياها فان ذلك لا دليل عليه من جهة اللفظ ولا من جهة السياق .

فالوجه ان تكون الجملة بتقدير: وأن تخونوا اماناتكم، ويكون بمجموع قوله : «لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم» نهياً واحداً متعلقاً بنوع خيانة هي خيانة امانة الله ورسوله وهي بعينها خيانة لأمانة المؤمنين انفسهم فان من الأمانة ما هي امانة الله سبحانه عند الناس كأحكامه المشرّعة من عنده ومنها ما هي امانة الرسول كسيرته الحسنة ، ومنها ما هي امانة الناس بعضهم عند بعض كالأمانات من اموالهم او اسرارهم ، ومنها ما يشترك فيه الله ورسوله والمؤمنون ، وهي الامور التي امر بها الله سبحانه وأجراها الرسول وينتفع بها الناس ويقوم بها صلب مجتمعهم كالأسرار السياسية والمقاصد الحربية التي تضيع بإفشائها آمال الدين وتضل بإذاعتها مساعي الحكومة الاسلامية فيبطل به حق الله ورسوله ويعود ضرره الى عامة المؤمنين .

فهذا النوع من الأمانة خيانته خيانة لله ورسوله وللمؤمنين فالخائن بهذه الخيانة من المؤمنين يخون الله والرسول وهو يعلم ان هذه الامانة التي يخونها امانة لنفسه ولسائر اخوانه المؤمنين وهو يخون امانة نفسه ، ولن يقدم عاقل على الخيانة لأمانة نفسه فان الانسان بعقله الموهوب له يدرك قبح الخيانة للأمانة فكيف يخون امانة نفسه؟

فالمراد بقوله : « وتخونوا اماناتكم وأنتم تعلمون » – والله اعلم – وتخونوا في ضمن خيانة الله والرسول اماناتكم والحال انكم تعلمون انها امانات انفسكم وتخونونها ، وأي عاقل يقدم على خيانة امانة نفسه والاضرار بما لا يعود إلا الى شخصه فتذييل النهي بقوله : « وأنتم تعلمون » لتهييج العصبية الحقة وإثارة قضاء الفطرة لا لبيان شرط من شرائط التكليف .

فكأن بعض افراد المسلمين كان يفشي اموراً من عزائم النبي ﷺ المكتومة من المشركين او يخبرهم ببعض اسراره فسمّاه الله تعالى خيانة.ونهى عنه ، وعدّها خيانة لله والرسول والمؤمنين .

ويؤيد ذلك قوله بعد هذا النهي: « واعلموا انما اموالكم وأولادكم فتنة » الخ

فان ظاهر السياق انه متصل بما قبله غير مستقل عنه ، ويفيد حينئذ ان موعظتهم في امر الاموال والأولاد مع النهي عن خيانة الله والرسول وأماناتهم انما هو لإخبار المخبر منهم المشركين بأسرار رسول الله المكتومة ، استمالة منهم مخافة ان يتعدوا على اموالهم وأولادهم الذين تركوهم بمكة بالهجرة الى المدينة ، فصاروا يخبرونهم بالأخبار إلقاءً للمودة واستبقاء للمال والولد او ما يشابه ذلك نظير ما كان من ابي لبابة مع بني قريظة .

وهذا يؤيد ما ورد في سبب النزول ان ابا سفيان خرج من مكة بمال كثير فأخبر جبرئيل النبي صلى الله عليه وآله بخروجه وأشار عليه بالخروج اليه وكتمان أمره فكتب اليه بعضهم بالخبر فأنزل الله: «يا ايها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وأنتم تعلمون» وفي نزول الآية بعض احاديث أُخر سيأتي ان شاء الله في البحث الروائي التالي.

قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » الفرقان ما يفرق به بين الشيء والشيء ، وهو في الآية بقرينة السياق وتفريعه على التقوى الفرقان بين الحق والباطل سواء كان ذلك في الاعتقاد بالتفرقة بين الايمان والكفر وكل هدى وضلال او في العمل بالتمييز بين الطاعة والمعصية وكل ما يرضي الله او يسخطه ، او في الرأي والنظر بالفصل بين الصواب والخطأ فان ذلك كله مما تثمره شجرة التقوى ، وقد اطلق الفرقان في الآية ولم يقيده وقد عدّ جمل الخير والشر في الآيات السابقة والجميع يحتاج الى الفرقان .

ونظير الآية بحسب المعنى قوله تعالى: « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه » وقد تقدم الكلام في معنى تكفير السيئات والمغفرة ، والآية بمنزلة تلخيص الكلام في الاوامر والنواهي التي تتضمنها الآيات السابقة اي ان تتقوا الله لم يختلط عندكم ما يرضي الله في جميع ما تقدم بما يسخطه ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن عقيل الخزاعي : ان امير المؤمنين عليه السلام قال : ان الرعب والخوف من جهاد المستحق للجهاد والمتوازرين على الضلال ، ضلال في الدين وسلب للدنيا مع الذل والصغار ، وفيه استيجاب النار بالفرار من الزحف عند

حضرة القتال يقول الله عز وجل: « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار » .

وفي الفقيه والعلل بإسناده عن ابن شاذان ان ابا الحسن الرضا عليه‌السلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله : حرّم الله الفرار من الزحف لما فيه من الوهن في الدين ، والاستخفاف بالرسل والأئمة العادلة ، وترك نصرتهم على الأعداء ، والعقوبة لهم على ترك ما دعوا إليه من الإقرار بالربوبية وإظهار العدل ، وترك الجور وإماتة الفساد ، لما في ذلك من جرأة العدو على المسلمين ، وما يكون في ذلك من السبي والقتل وإبطال دين الله عز وجل وغيره من الفساد .

اقول : وقد استفاضت الروايات عن ائمة اهل البيت عليهم السلام ان الفرار من الزحف من المعاصي الكبيرة الموبقة ، وقد تقدم طرف منها في البحث عن الكبائر في تفسير قوله تعالى : « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيآتكم » النساء : ٣١ في الجزء الرابع من الكتاب .

وعلى ذلك روايات من طرق اهل السنّة كما في صحيحي البخاري ومسلم عن ابي هريرة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتوّلي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، وهناك روايات اخرى عن ابن عباس وغيره تدل على كون الفرار من الزحف من الكبائر .

نعم قوله تعالى : « اليوم خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين » الآية يقيد إطلاق آية تحريم الفرار بما دون الثلاثة لواحد.

وقد روي من طرقهم عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وغيرهم كما في الدر المنثور : ان تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية خاص بيوم بدر .

وربما وجه ذلك بأن الآية نزلت يوم بدر ، وأن الظرف في قوله « ومن يولهم يومئذ دبره » إشارة الى يوم بدر ، وقد عرفت ان سياق الآيات يشهد بنزولها بعد يوم بدر ، وأن المراد بقوله : « يومئذ » هو يوم الزحف لا يوم بدر . على انه لو

فرض نزولها يوم بدر لم يوجب خصوص السبب في عموم مدلول الآية شيئاً كما في سائر الآيات التي جمعت بين عموم الدلالة وخصوص السبب .

قال صاحب المنار في تفسيره : وإنما قد يتجه بناء التخصيص على قرينة الحال لو كانت الآية قد نزلت قبل اشتباك القتال – خلافاً للجمهور – مع ما لغزوة بدر من الخصائص ككونها اول غزوة في الاسلام لو انهزم فيها المسلمون والنبي ﷺ فيهم لكانت الفتنة كبيرة. وتأييد المسلمين بالملائكة يثبتونهم، ووعده تعالى بنصرهم وإلقاء الرعب في قلوب اعدائهم .

فإذا نظرنا الى مجموع الخصائص وقرينة الحال في النهي اتجه كون التحريم المقرون بالوعيد الشديد الذي في الآية خاصاً بها. اضف الى ذلك ان الله تعالى امتحن الصحابة (رض) بالتولي والإدبار في القتال مرتين مع وجوده ﷺ معهم : يوم أحد وفيه يقول الله تعالى (٣ : ١٥٥ ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم) ويوم حنين ، وفيه يقول الله تعالى (٩ : ٢٥ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ٢٦ ، ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) الخ ، وهذا لا ينافي كون التولي حراماً ومن الكبائر ، ولا يقتضي ان يكون كل تول لغير السببين المستثنيين في آية الأنفال يبوء صاحبه بغضب عظيم من الله ومأواه جهنم وبئس المصير بل قد يكون دون ذلك ، ويتقيد بآية رخصة الضعف الآتية في هذه السورة ، وبالنهي عن إلقاء النفس في التهلكة من حيث عمومها كما تقدم في سورة البقرة وسيأتي تفصيله قريباً .

وقد روى احمد وأصحاب السنن إلا النسائي من حديث ابن عمر قال: «كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة وكنت فيمن حاص فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة فبتنا؟ ثم قلنا : لو عرضنا نفوسنا على رسول الله ﷺ ؟ فإن كان لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال : من الفرارون؟ فقلنا : نحن الفرارون. قال: بل أنتم العكارون انا فئتكم وفئة المسلمين . قال : فأتينا حتى قبّلنا يده .

« ولفظ ابي داود » فقلنا : ندخل المدينة فنبيت فيها لنذهب ولا يرانا أحد فدخلنا فقلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فان كانت لنا توبة أقمنا وان كان غير ذلك ذهبنا فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر فلما خرج قمنا اليه فقلنا : نحن الفرارون الخ .

تأول بعضهم هذا الحديث بتوسع في معنى التحيّز الى فئة لايبقى معه للوعيد معنى ولا للغة حكم، وقد قال الترمذي فيه: حسن لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن ابي زياد أقول : وهو مختلف فيه ضعّفه الكثيرون ، وقال ابن حبان كان صدوقاً إلا انه لما كبر ساء حفظه وتغير فوقعت المناكير في حديثه فمن سمع منه قبل التغير فسماعه صحيح ، وجملة القول : أن هـذا الحديث لا وزن له في هذه المسألة لا متناً ولا سنداً، وفي معناه أثر عن عمر هو دونه فلا يوضع في ميزان هذه المسألة. انتهى.

أقول : والذي نقله في أول كلامه من الوجوه والقرائن المحتفة بغزوة بدر من كونه اول غزوة في الإسلام ، وكون النبي ﷺ بينهم ونحو ذلك مشتركة بحسب حقيقة الملاك بينها وبين أمثال غزوة أحد والخندق وخيبر وحنين، والإسلام أيامئذ في حاجة شديدة الى الرجـال للقاتلين وثباتهم في الزحوف ، والنبي ﷺ بينهم ، والله وعدهم بالنصر وأنزل في بعضها الملائكة لتأييدهم وإلقاء الرعب في قلوب اعدائهم.

والذي ذكره من الآيات النازلة في فرارهم يوم أحد ويوم حنين لا دلالة فيهـا على عدم شمول وعيد آية الأنفال لهم إذ ذاك وأي مانع يمنع من ذلك والآية مطلقة وليس هناك مقيِّد يقيدها .

ومن العجيب تسليمه كون فرارهم في اليومين كبيرة محرمة ثم قوله: إن ذلك لا يقتضي كونه مما يبوء صاحبه بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير بل قـد يكون دون ذلك مع ان الكبائر الموبقة هي المعاصي التي أوعد الله عليها النار .

وأعجب منه قوله : إنه يتقيد بآية رخصة الضعف الآتية في هذه السورة ، وبالنهي عن إلقاء النفس في التهلكة من حيث عمومها! مع ان آية رخصة الضعف إنما تدل على الرخصة في الفرار إذا كان يربو عدد الزاحفين من الأعداء على الضعف .

وآية النهي عن إلقاء النفس في التهلكة لو دلت بعمومها على أزيد مما يدل عليه

آية رخصة الضعف لغت آية الأنفال وبقيت بلا مصداق كما ان التأول في قوله تعالى: « أو متحيّزاً الى فئة » على حسب ما تقتضيه رواية ابن عمر يوجب إلغاء الآية كما ذكره صاحب المنار فقد تلخص ان لا مناص عن إبقاء الآية على ظاهر إطلاقها .

وفي تفسير العياشي عن موسى بن جعفر عليه السلام في الآية: «إلا متحرفاً لقتال» قال متطرداً يريد الكرة عليهم « أو متحيزاً الى فئة » يعني متأخراً الى أصحابه من غير هزيمة ، من انهزم حتى يجوز صف أصحابه فقد باء بغضب من الله .

أقول : تشير الرواية الى نكتة مهمة في لفظ الآية، وهي ان النهي انما تعلقت في الآية على تولي الإدبار وهي أعم من الإنهزام فاذا استثني الموردان أعني التحرف لقتال والتحيز الى فئة وهي غير موارد الفرار عن هزيمة ، بقيت موارد الهزيمة تحت النهي فكل انهزام عن أعداء الدين اذا لم يجوزوا الضعف عدداً حرام محرم .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن الثعلبي عن ضحاك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : « وما رميت إذ رميت » ان النبي صلى الله عليه وآله قال لعلي: ناولني كفاً من حصى وناوله ورمى بـه في وجوه قريش فما بقي احد إلا امتلأت عيناه من الحصى .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن الطبراني وابي الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس وروى العياشي في تفسيره حديث المناولة عن محمد بن كليب الأسدي عن ابيه عن الصادق عليه السلام ، وفي خبر آخر عن علي عليه السلام .

وفي الدر المنثور اخرج ابن جرير عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب رضي الله عنهما قالا لمّا دنا القوم بعضهم من بعض اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم، وقال : شاهت الوجوه فدخلت في اعينهم كلهم،وأقبل اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتلونهم ، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله : « وما رميت إذ رميت ـ الى قوله ـ سميع عليم » .

أقول: والمراد بنزول الآية نزولها بعد ذلك وهي تقص القصة لا نزولها وقتئذ، وهو شائع في اسباب النزول . وقد ذكر ابن هشام في سيرته : ان النبي صلى الله عليه وسلم رماهم بالتراب ثم امر اصحابه بالكرة فكانت الهزيمة .

وفيه اخرج ابن ابي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن منده والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن شهاب عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير : ان ابا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة فكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » الآية .

وفي المجمع في قوله تعالى : « إن شر الدواب عند الله » الآية قال : قال الباقر عليه السلام : هم بنو عبد الدار لم يكن اسلم منهم غير مصعب بن عمير وحليف لهم يقال له : سويبط .

وفي جامع الجوامع : قال الباقر عليه السلام هم بنو عبد الدار لم يسلم منهم غير مصعب بن عمير وسويد بن حرملة، وكانوا يقولون : نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد ، وقد قتلوا جميعاً باحد وكانوا اصحاب اللواء .

أقول : وروى في الدر المنثور ما في معناه بطرق عن ابن عباس وقتادة ، والرواية من قبيل الجري والانطباق ، والآية عامة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » الآية . قال : قال الحياة الجنة .

وفي الكافي بإسناده عن ابي الربيع الشامي قال : سألت ابا عبدالله عليه السلام عن قول الله عز وجل: «يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم» قال : نزلت في ولاية علي عليه السلام .

أقول : ورواه في تفسير البرهان عن ابن مردويه عن رجاله مرفوعاً الى الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام ، وكذا عن ابي الجارود عنه عليه السلام كما رواه القمي في تفسيره ، والرواية من قبيل الجري وكذا الرواية السابقة عليها، وقد قدمنا في الكلام على الآية انها عامة .

وفي تفسير القمي عن أبي الجارود عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى : « واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه» يقول : بين المرء ومعصيته ان يقوده الى النار، ويحول بين الكافر وطاعته ان يستكمل بها الايمان ، واعلموا ان الأعمال بخواتيمها .

وفي المحاسن بإسناده عن علي بن الحكم عن هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى : « واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه » قال : يحول بينه وبين ان يعلم ان الباطل حق .

أقول : ورواه الصدوق في المعاني عن ابن ابي عمير عن هشام بن سالم عنه عليه السلام.

وفي تفسير العياشي عن يونس بن عمار عن ابي عبد الله عليه السلام قال: لا يستيقن القلب ان الحق باطل ابداً ، ولا يستيقن ان الباطل حق ابداً .

وفي الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية : «يحول بين المرء وقلبه» قال : يحول بين المؤمن والكفر ، ويحول بين الكافر وبين الهدى .

أقول : وهو قريب من الخبر المتقدم عن أبي الجارود عن الباقر عليه السلام في معنى الآية .

وفي تفسير العياشي عن حمزة الطيار عن أبي عبد الله عليه السلام « واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه » قال : هو أن يشتهي الشيء بسمعه وبصره ولسانه ويده أما انه لا يغشى شيئاً منها وإن كان يشتهيه فإنه لا يأتيه إلا وقلبه منكر لا يقبل الذي يأتي : يعرف ان الحق ليس فيه .

أقول : ورواه البرقي في المحاسن بإسناده عن حمزة الطيار عنه عليه السلام وروى ما يقرب منه العياشي في تفسيره عن جابر عن ابي جعفر عليه السلام ، ويؤول معنى الرواية الى الروايتين المتقدمتين عن هشام بن سالم ويونس بن عمار عن الصادق عليه السلام .

وفي تفسير العياشي عن الصيقل: سئل ابو عبدالله عليه السلام « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » قال : اخبرت انهم اصحاب الجمل .

وفي تفسير القمي قال : قال : نزلت في الطلحة والزبير لما حاربا امير المؤمنين عليه السلام وظلماه .

وفي المجمع عن الحاكم بإسناده عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : « واتقوا فتنة » قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : من ظلم علياً مقعدي هذا بعد وفاتي فكأنما جحد نبوتي ونبوة الأنبياء من قبلي .

وفي الدر المنثور اخرج ابن ابي شيبة وعبد بن حميد ونعيم بن حماد في الفتن وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن الزبير رضي الله عنه قال : لقد قرأنا زماناً وما نرى أنا من اهلها فإذا نحن المعنيون بها : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

وفيه اخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال : هذه نزلت في اهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا فكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من اهل بدر .

وفيه اخرج احمد والبزاز وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر عن مطرف قال: قلنا للزبير : يا ابا عبدالله ضيعتم الخليفة حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير رضي الله عنه : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » ولم نكن نحسب انا اهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت .

وفيه اخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : علم والله ذووا الألباب من اصحاب محمد ﷺ انه سيكون فتن .

وفيه : اخرج ابو الشيخ وأبو نعيم والديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ في قوله : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون ان يتخطفكم الناس » قيل : يا رسول الله ومن الناس ؟ قال : اهل فارس .

اقول : والروايه لا تلائم سياق الآية .

وفيه في قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول» الآية اخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ان ابا سفيان خرج من مكة فأتى جبرائيل النبي ﷺ فقال : ان ابا سفيان بمكان كذا وكذا فاخرجوا اليه واكتموا فكتب رجل من المنافقين الى ابي سفيان ان محمداً يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله : « لا تخونوا الله والرسول » الآية .

اقول: ومعنى الرواية قريب الانطباق على ما استفدناه من الآية في البيان المتقدم.

وفيه : اخرج ابن جرير عن المغيرة بن شعبة قال : نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه .

اقول : والآية لا تنطبق عليه بسياقها البتة .

وفي المجمع عن الباقر والصادق عليهما السلام والكلبي والزهري : نزلت في ابي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري ، وذلك ان رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه اخوانهم من بني النضير على ان يسيروا الى اخوانهم الى اذرعات وأريحات من ارض الشام فأبى ان يعطيهم ذلك رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فقالوا : ارسل الينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله وولده كانت عندهم فبعثه رسول الله ﷺ فأتاهم فقالوا : ما ترى يا أبا لبابة ؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار ابو لبابة بيده الى حلقه : انه الذبح فلا تفعلوا فأتاه جبرائيل فأخبره بذلك .

قال ابو لبابة : فوالله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت اني قد خنت الله ورسوله فنزلت الآية فيه فلما نزلت شد نفسه على سارية من سواري المسجد ، وقال : والله لا اذوق طعاماً ولا شراباً حتى اموت او يتوب الله عليّ فمكث سبعة ايام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل له : يا ابا لبابة قد تيب عليك فقال : لا والله لا احل نفسي حتى يكون رسول الله هو الذي يحلني فجاءه وحله بيده .

ثم قال ابو لبابة : ان من تمام توبتي ان اهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي . فقال النبي ﷺ : يجزيك الثلث ان تصدّق به .

اقول : قصة ابي لبابة وتوبته صحيحة قابلة الانطباق على مضمون الآيتين غير انها وقعت بعد قصة بدر بكثير ، وظاهر الآيتين اذا اعتبرنا وقيسنا الى الآيات السابقه عليهما ان الجميع في سياق واحد نزلت بعد وقعة بدر بقليل . والله اعلم .

* * *

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ـ ٣٠ . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ
آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ ـ ٣١ . وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ
فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ـ ٣٢ . وَمَا كَانَ
اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ـ ٣٣ .
وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا
أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ـ ٣٤ .
وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ـ ٣٥ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ـ ٣٦ . لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ
بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ـ ٣٧.
قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ
مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ـ ٣٨ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ـ ٣٩ . وَإِنْ تَوَلَّوْا
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ـ ٤٠ .

(بيـان)

الآيات في سياق الآيات السابقة وهي متصلة بها ومنعطفة على آيات اول السورة إلا قوله : « وإذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق » الآية والآية التي تليها ، فان ظهور اتصالها دون بقية الآيات ، وسيجيء الكلام فيها ان شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك » الى آخر الآية، قال الراغب: المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة ، وذلك ضربان : ضرب محمود وذلك ان يتحرى به فعل جميل وعلى ذلك قال : والله خير الماكرين ، ومذموم وهو ان يتحرى به فعل قبيح قال : ولا يحيق المكر السيء الا بأهله. واذ يمكر بك الذين كفروا. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم، وقال في الأمرين: ومكروا مكراً ومكرنا مكراً، وقال بعضهم: من مكر الله امهال العبد وتمكينه من اعراض الدنيا ، ولذلك قال امير المؤمنين رضي الله عنه : من وُسع عليه دنياه ولم يعلم انه مكر به فهو مخدوع عن عقله . انتهى .

وفي المجمع : الإثبات الحبس يقال : رماه فأثبته أي حبسه مكانه ، وأثبته في الحرب اي جرحه جراحة مثقلة . انتهى .

ومقتضى سياق الآيات ان يكون قوله : « واذ يمكر بك الذين كفروا » الآية معطوفة على قوله سابقاً: « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم » فالآية مسوقة لبيان ما اسبغ الله عليهم من نعمته، وأيدهم به من اياديه التي لم يكن لهم فيها صنع.

ومعنى الآية: واذكر او وليذكروا اذ يمكر بك الذين كفروا من قريش لإبطال دعوتك ان يوقعوا بك احد أمور ثلاثة : إما ان يحبسوك واما ان يقتلوك واما ان يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

والترديد في الآية بين الحبس والقتل والإخراج بياناً لما كانوا يمكرونه من مكر يدل انه كان منهم شورى يشاور فيها بعضهم بعضاً في امر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما كان يهمهم ويهتمون به من اطفاء نور دعوته ، وبذلك يتأيد ما ورد من اسباب النزول ان الآية تشير الى قصة دار الندوة على ما سيجيء في البحث الروائي التالي ان شاء الله تعالى.

قوله تعالى : « واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » الى آخر الآية الأساطير الأحاديث جمع اسطورة ويغلب في الأخبار الخرافية ، وقوله حكاية عنهم : « قد سمعنا » وقوله : « لو نشاء لقلنا » وقوله : « مثل هذا » ولم يقل: مثل هذه او مثلها كل ذلك للدلالة على اهانتهم بآيات الله وإزرائهم بمقام الرسالة ، ونظيرها قولهم : « ان هذا الا اساطير الأولين » .

والمعنى: واذا تتلى عليهم آياتنا التي لا ريب في دلالتها على انها من عندنا وهي تكشف عن ما نريده منهم من الدين الحق لجثوا واعتدوا بها وهونوا امرها وأزروا برسالتنا وقالوا قد سمعنا وعقلنا هذا الذي تلي علينا لاحقيقة له الا انه من أساطير الأولين، ولو نشاء لقلنا مثله غير انـّا لانعتني به ولا نهتم بأمثال هذه الأحاديث الخرافية .

قوله تعالى : « وان قالوا اللهم ان كان هـذا هو الحق من عندك » الى آخر الآيتين. الإمطار هو انزال الشيء من فوق ، وغلب في قطرات الماء من المطر او هو استعارة امطار المطر لغيره كالحجارة وكيف كان فقولهم : امطر علينا حجارة من السماء بالتصريح باسم السماء للدلالة على كونه بنحو الآية السماوية والإهلاك الإلهي محضاً.

فإمطار الحجارة من السماء عليهم على ما سألوا احد اقسام العذاب ويبقى الباقي تحت قولهم : « او ائتنا بعذاب أليم » ولذلك نكـّر العذاب وأبهم وصفه ليدل على باقي اقسام العذاب ، ويفيد مجموع الكلام: ان امطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب آخر غيره يكون أليماً ، وانما افرد امطار الحجارة من بين افراد العذاب الأليم بالذكر لكون الرضخ بالحجارة مما يجتمع فيه عذاب الجسم بما فيه من تألم البدن وعذاب الروح بما فيه من الذلة والإهانة .

ثم قوله : «ان كان هذا هو الحق من عندك» يدل بلفظه على ان الذي سمعوه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بلسان القال او الحال بدعوته هو قوله: «هذا هو الحق من عند الله» وفيه شيء من معنى الحصر ، وهذا غير ما كان يقوله لهم : هذا حق من عند الله فان القول الثاني يواجه به الذي لايرى ديناً سماوياً ونبوة إلهية كما كان يقوله المشركون وهم الوثنية: ما انزل الله على بشر من شيء ، واما القول الأول فإنما يواجه به من يرى ان هناك ديناً حقاً من عند الله ورسالة إلهية يبلغ الحق من عنده ثم ينكر كون ما أتى به النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو بعض ما أتى به هو الحق من عند الله تعالى فيواجه بأنه هو

الحق من عند الله لا غيره ، ثم يرد بالاشتراط في مثل قوله : اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم .

فالأشبه ان لا يكون هذا حكاية عن بعض المشركين بنسبته الى جميعهم لاتفاقهم في الرأي او رضا جميعهم بما قاله هذا القائل بل كأنه حكاية عن بعض اهل الردة ممن اسلم ثم ارتد او عن بعض اهل الكتاب المعتقدين بدين سماوي حق فافهم ذلك .

ويؤيد هذا الآية التالية لهذه الآية: « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » اما قوله : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » فان كان المراد به نفي تعذيب الله كفار قريش بمكة قبل الهجرة والنبي فيهم كان مدلوله ان المانع من نزول العذاب يومئذ هو وجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينهم ، والمراد بالعذاب غير العذاب الذي جرى عليهم بيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القتل والأسر كما سماه الله في الآيات السابقة عذاباً ، وقال في مثلها : « قل هل تربصون بنا إلا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده او بأيدينا » التوبة : ٥٢ ، بل عذاب الاستئصال بآية سماوية كما جرى في امم الانبياء الماضين لكن الله سبحانه هددهم بعذاب الاستئصال في آيات كثيرة كقوله تعالى : « فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » حم السجدة : ١٣ ، وكيف يلائم امثال هذه التهديدات قوله : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » لو كان المراد بالمعذبين هم كفار قريش ومشركو العرب ما دام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة .

ولو كان المراد بالمعذبين جميع العرب او الامة ، والمراد بقوله: «وأنت فيهم» حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : ولا يعذب الله هذه الامة وأنت فيهم حياً كما ربما يؤيده قوله بعده: « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » كان ذلك نفياً للعذاب عن جميع الامة ولم يناف نزوله على بعضهم كما سمى وقوع القتل بهم عذاباً كما في الآيات السابقة ، وكما ورد ان الله تعالى عذب جمعاً منهم كأبي لهب والمستهزئين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى هذا لا تشمل الآية القائلين: « اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك » الى آخر الآية ، وخاصة باعتبار ما روي ان القائل به ابو جهل كما في صحيح البخاري او النضر ابن الحارث بن كلدة كما في بعض روايات أخر وقد حقت عليهما كلمة العذاب وقتلا يوم بدر فلا ترتبط الآية : « وما كان الله ليعذبهم » الاية ، بهؤلاء القائلين: اللهم ان

كان هذا هو الحق من عندك » الآية مع انها مسوقة سوق الجواب عن قولهم .

ويشتد الإشكال بناء على ما وقع في بعض اسباب النزول انهم قالوا: اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم فنزل قوله تعالى: « سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع » وسيجيء الكلام فيه وفي غيره من اسباب النزول المروية في البحث الروائي التالي ان شاء الله .

والذي تمحّل به بعض المفسرين في توجيه مضمون الاية بناء على حملها على ما مرّ من المعنى ان الله سبحانه ارسل محمداً ﷺ رحمة للعالمين ونعمة لهذه الامة لا نقمة وعذاباً . فيه انه ليس مقتضى الرحمة للعالمين ان يهمل مصلحة الدين ، ويسكت عن مظالم الظالمين وان بلغ ما بلغ وأدى الى شقاء الصالحين واختلال نظام الدنيا والدين، وقد حكى الله سبحانه عن نفسه بقوله: « ورحمتي وسعت كل شيء » ولم يمنع ذلك من حلول غضبه على من حل به من الامم الماضية والقرون الخالية كما ذكره في كلامه.

على انه تعالى سمى ما وقع على كفار قريش من القتل والهلاك في بدر وغيره عذاباً ولم يناف ذلك قوله : « وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين » الانبياء : ١٠٧ ، وهدد هذه الامة بعذاب واقع قطعي في سوَر يونس والإسراء والأنبياء والقصص والروم والمعارج وغيرها ولم يناف ذلك كونه ﷺ رحمة للعالمين فما بال نزول العذاب على شرذمة تفوهت بهذه الكلمة : « اللهم إن كان هذا هو الحق» الخ ، ينافي قول النبي ﷺ نبي الرحمة مع ان من مقتضى الرحمة ان يوفّى لكل ذي حق حقه ، وأن يقتصّ للمظلوم من الظالم وأن يؤخذ كل طاغية بطغيانه .

وأما قوله تعالى : « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » فظاهره النفي الاستقبالي على ما هو ظاهر الصفة: « معذبهم » وكون قوله : «يستغفرون» مسوقاً لإفادة الاستمرار والجملة حالية ،والمعنى: ولا يستقبلهم الله بالعذاب ما داموا يستغفرونه.

والآية كيفما أُخذت لا تنطبق على حال مشركي مكة وهم مشركون معاندون لا يخضعون لحق ولا يستغفرون عن مظلمة ولا جريمة، ولا يصلح الامر بما ورد في بعض الآثار انهم قالوا ما قالوا ثم ندموا على ما قالوا فاستغفروا الله بقولهم: «غفرانك اللهم».

وذلك ـ مضافاً الى عدم ثبوته ـ انه تعالى لا يعبأ في كلامه باستغفار المشركين

ولا سيما أئمة الكفر منهم ، واللاغي من الاستغفار لا أثر له ، ولو لم يكن استغفارهم لاغياً وارتفع به ما أجرموه بقولهم : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية لم يكن وجه لذمّهم وتأنيبهم بقوله تعالى : « وإذ قالوا اللهم إن كان هـــذا هو الحق » في سياق هذه الايات المسوقة لذمّهم ولومهم وعد جرائمهم ومظالمهم على النبي ﷺ والمؤمنين .

على ان قوله تعالى بعد الآيتين : « ومالهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام» الآية لا يلائم نفي العذاب فيهاتين الايتين فإن ظاهر الاية انالعذاب المهدد به هو عذاب القتل بأيدي المؤمنين كما يدل عليه قوله بعده : «فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وحينئذ فلو كان القائلون : « اللهم إن كان هذا هو الحق» الاية مشركي قريش او بعضهم وكان المراد منالعذاب المنفى العذاب السماوي لم يستقم إنكار وقوع العذاب عليهم بالقتـــل ونحوه فإن الكلام حينئذ يؤول الى معنى التشديد : ومحصّله : انهم كانوا احق بالعذاب ولهم جرم آخر وراء ما اجرموه وهو الصد عن المسجد الحرام ، وهذا النوع من الترقي انسب بإثبات العذاب لهم لا لنفيه عنهم .

وإن كان المراد بالعذاب المنفي هو القتل ونحوه كان عدم الملاءمة بين قوله : « وما لهم أن لا يعذبهم الله» وقوله: «فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» وبين قوله: « وما كان الله ليعذبهم » الخ ، أوضح وأظهر .

وربما وجّه الآية بهذا المعنى بعضهم بأن المراد بقوله : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » عذاب اهل مكة قبل الهجرة ، وبقوله : « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » عذاب الناس كافة بعد هجرته ﷺ إلى المدينة وإيمان جمع واستغفارهم ولذا قيل : إن صدر الاية نزلت قبل الهجرة ، وذيلها بعد الهجرة !

وهو ظاهر الفساد فإن النبي ﷺ لما كانفيهم بمكة قبلالهجرة كان معه جمع ممن يؤمن بالله ويستغفره ، وهو ﷺ بعد الهجرة كان في الناس فما معنى تخصيص صدر الآية بقوله : « وأنت فيهم » وذيلها بقوله : « وهم يستغفرون » .

ولو فرض ان معنى الاية ان الله لا يعذب هذه الامة مـا دمت فيهم ببركة وجودك ، ولا يعذبهم بعدك ببركة استغفارهم لله والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال لم يلائم الايتينالتاليتين : «وما لهم ان لا يعذبهمالله» الخ معما تقدممنالإشكالعليه.

فقد ظهر من جميع ما تقدم ـ على طوله ـ ان الآيتين أعني قوله : «وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة» الى آخر الآيتين لا تشاركان الآيات السابقة واللاحقة المسرودة في الكلام على كفار قريش في سياقها الواحد فهما لم تنزلا معها .

والأقرب ان يكون ما حكي فيهما من قولهم والجواب عنه بقوله : « وما كان الله ليعذبهم » غير مرتبط بهم وإنما صدر هذا القول من بعض اهل الكتاب أو بعض من آمن ثم ارتد من الناس .

ويتأيد بذلك بعض ما ورد ان القائل بهذا القول الحارث بن النعمان الفهري ، وقد تقدم الحديث نقلاً عن تفسيري الثعلبي والمجمع في ذيل قوله تعالى : « يا ايها الرسول بلّغ ما أنزل اليك من ربك» الاية المائدة : ٦٧ في الجزء السادس من الكتاب.

وعلى هذا التقدير فالمراد بالعذاب المنفي العذاب السماوي المستعقب للاستئصال الشامل للامة على نهج عذاب سائر الامم ، والله سبحانه ينفي فيها العذاب عن الامة ما دام النبي ﷺ فيهم حياً ، وبعده ما داموا يستغفرون الله تعالى .

ويظهر من قوله تعالى: «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » بضمّه الى الآيات التي توعد هـذه الامة بالعذاب الذي يقضي بين الرسول وبينهم كآيات سورة يونس : «ولكل امة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون» يونس : ٤٧ الى آخر الآيات أن في مستقبل أمر هذه الامة يوماً ينقطع عنهم الاستغفار ويرتفع من بينهم المؤمن الإلهي فيعذبون عند ذاك .

قوله تعالى: «وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه» الى آخر الآية استفهام في معنى الإنكار او التعجب ، وقوله: «وما لهم» بتقدير فعل يتعلق به الظرف ويكون قوله : « ان لا يعذبهم » مفعوله او هو من التضمين نظير ما قيل في قوله : « هل لك الى ان تزكى » النازعات : ١٨ .

والتقدير على أي حال نحو من قولنا: «وما الذي يثبت ويحق لهم عدم تعذيب الله اياهم والحال انهم يصدون عن المسجد الحرام ويمنعون المؤمنين من دخوله وما كانوا اولياءه » . فقوله : « وهم يصدون » الخ حال عن ضمير « يعذبهم » وقوله :

« وما كانوا اولياءه » حال عن ضمير « يصدون » .

وقوله : « إن أولياؤه إلا المتقون » تعليل لقوله: « وما كانوا اولياءه » أي ليس لهم ان يلوا امر البيت فيجيزوا ويمنعوا من شاؤوا لأن هذا المسجد مبني على تقوى الله فلا يلي امره إلا المتقون وليسوا بهم .

فقوله : « إن أولياؤه إلا المتقون » جملة خبرية تعلل القول بأمر بين يدركه كل ذي لب ، وليست الجملة إنشائية مشتملة على جعل الولاية للمتقين ، ويشهد لما ذكرناه قوله بعد : « ولكن اكثرهم لا يعلمون » كما لا يخفى .

والمراد بالعذاب العذاب بالقتل أو الأعمّ منه على ما يفيده السياق باتصال الآية بالآية التالية ، وقد تقدم ان الآية غير متصلة ظاهراً بما تقدمها أي ان الآيتين: «وإذ قالوا اللهم » الخ « وما كان الله ليعذبهم » الخ خارجتان عن سياق الآيات ، ولازم ذلك ما ذكرناه .

قال في المجمع : ويسأل فيقال: كيف يجمع بين الآيتين وفي الاولى نفي تعذيبهم، وفي الثانية إثبات ذلك ؟ وجوابه على ثلاثة اوجه :

أحدها : ان المراد بالأول عذاب الاصطلام والاستئصال كما فعل بالأمم الماضية، وبالثاني عذاب القتل بالسيف والأسر وغير ذلك بعد خروج المؤمنين من بينهم .

والآخر: انه اراد: وما لهم أن لا يعذبهم الله في الآخرة، ويريد بالأول عذاب الدنيا . عن الجبائي .

والثالث : ان الأول استدعاء للاستغفار . يريد انه لا يعذبهم بعذاب دنيا ولا آخرة اذا استغفروا وتابوا فإذا لم يفعلوا عذّبوا ثم بيّن ان استحقاقهم العذاب بصدّهم عن المسجد الحرام . انتهى .

وفيه : ان مبنى الإشكال على اتصال الاية بما قبلها وقد تقدم انها غير متصلة. هذا إجمالاً .

وأما تفصيلاً فيرد على الوجه الأول: ان سياق الاية وهو كما تقدم سياق التشدد والترقّي ، ولا يلاءم ذلك نفي العذاب في الاولى مع إثباته في الثانية وإن كان العذاب غير العذاب .

وعلى الثاني ان سياق الاية ينافي كون المراد بالعذاب فيها عذاب الاخرة، وخاصة بالنظر الى قوله في الاية الثالثة ـ وهي في سياق الاية الاولى ـ « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

وعلى الثالث : ان ذلك خلاف ظاهر الاية بلا شك حيث ان ظاهرها إثبات الاستغفار لهم حالاً مستمراً لاستدعاؤه وهو ظاهر .

قوله تعالى : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » المكاء بضم الميم الصفير ، والمكّاء بصيغة المبالغة طائر بالحجاز شديد الصفير، ومنه المثل السائر: بنيك حمّري ومكّكيني. والتصدية التصفيق بضرب اليد على اليد .

وقوله : «وما كان صلاتهم» الضمير لهؤلاء الصادّين المذكورين في الآية السابقة وهم المشركون من قريش ، وقوله : «فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» بيان إنجاز العذاب الموعد لهم بقرينة التفريع بالفاء .

ومن هنا يتأيد ان الايتين متصلتان كلاماً واحداً، وقوله : «وما كان» الخ جملة حالية والمعنى : وما لهم ان لا يعذبهم الله والحال انهم يصدّون العبّاد من المؤمنين عن المسجد الحرام وما كان صلاتهم عند البيت إلا ملعبة من المكاء والتصدية فإذا كان كذلك فليذوقوا العذاب بما كانوا يكفرون، والالتفات في قوله : «فذوقوا العذاب» عن الغيبة الى الخطاب لبلوغ التشديد .

ويستفاد من الآيتين ان الكعبة المشرّفة لو تركت بالصدّ استعقب ذلك المؤاخذة الإلهية بالعذاب قال علي عليه السلام في بعض وصاياه : « الله الله في بيت ربكم فانه إن ترك لم تنظروا [١] » .

قوله تعالى : « إن الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله » الى آخر الاية يبين حال الكفار في ضلال سعيهم الذي يسعونه لإبطال دعوة الله والمنع عن سلوك السالكين لسبيل الله، ويشرح ذلك قوله: «فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » الخ .

---

(١) نهج البلاغة في باب الوصايا .

وبهذا السياق يظهر ان قوله: «والذين كفروا الى جهنم يحشرون» بمنزلة التعليل، ومحصل المعنى ان الكفر سيبعثهم – بحسب سنّة الله في الأسباب – الى ان يسعوا في إبطال الدعوة والصدّ عن سبيل الحق غير ان الظلم والفسق وكل فساد لا يهدي الى الفلاح والنجاح فسينفقون اموالهم في سبيل هذه الاغراض الفاسدة فتضيع الاموال في هذا الطريق فيكون ضيعتها موجبة لتحسّرهم، ثم يغلبون فلا ينتفعون بها، وذلك ان الكفار يحشرون الى جهنم ويكون ما يأتون به في الدنيا من التجمع على الشر والخروج الى محاربة الله ورسوله بحذاء خروجهم محشورين الى جهنم يوم القيامة .

وقوله : « فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » الى آخر الاية من ملاحم القرآن والاية من سورة الأنفال النازلة بعد غزوة بدر فكأنها تشير الى ما سيقع من غزوة أُحد او هي وغيرها، وعلى هذا فقوله: «فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة» اشارة الى غزوة أُحد او هي وغيرها، وقوله : «ثم يغلبون» الى فتح مكة، وقوله: « والذين كفروا الى جهنم يحشرون » الى حال من لا يوفق للإسلام منهم .

قوله تعالى : « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم اولئك هم الخاسرون» الخباثة والطيب معنيان متقابلان وقد مرّ شرحهما والتمييز إخراج الشيء عما يخالفه وإلحاقه بما يوافقه بحيث ينفصل عما يخالفه ، والركم جمع الشيء فوق الشيء ومنه سحاب مركوم اي مجتمع الأجزاء بعضها الى بعض ومجموعها وتراكم الاشياء تراكب بعضها بعضاً .

والآية في موضع التعليل لما أخبر به في الاية السابقة من حال الكفار بحسب السنّة الكونية ، وهو انهم يسعون بتمام وجدهم ومقدرتهم الى ان يطفؤوا نور الله ويصدوا عن سبيل الله فينفقون في ذلك الاموال ويبذلون في طريقه المساعي غير انهم لا يهتدون الى مقاصدهم ولا يبلغون آمالهم بل تضيع اموالهم، وتحبط اعمالهم وتضل مساعيهم، ويرثون بذلك الحسرة والهزيمة .

وذلك ان هذه الاعمال والتقلبات تسير على سنّة إلهية وتتوجه الى غاية تكوينية ربانية ، وهي ان الله سبحانه يميز في هذا النظام الجاري الشر من الخير والخبيث من الطيب ويركم الخبيث يجعل بعضه على بعض ، ويجعل ما اجتمع منه وتراكم في جهنم

وهي الغاية التي تسير اليها قافلة الشر والخبيث يحلها الجميع وهي دار البوار كما ان الخير والطيب الى الجنة ، والأولون هم الخاسرون كما ان الآخرين هم الرابحون المفلحون .

ومن هنا يظهر ان قوله: «ليميز الله الخبيث من الطيب» الخ قريب المضمون من قوله تعالى في مثل ضربه للحق والباطل: « أنزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض» الرعد: ١٧ والاية تشير الى قانون كلي إلهي وهو إلحاق فرع كل شيء بأصله.

قوله تعالى : «قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف» الى آخر الاية الانتهاء الإقلاع عن الشيء لأجل النهي ، والسلوف التقدم ، والسنّة هي الطريقة والسيرة.

امر النبي ﷺ ان يبلغهم ذلك وفي معناه تطميع وتخويف وحقيقته دعوة الى ترك القتال والفتنة ليغفر الله لهم بذلك ما تقدم من قتلهم وإيذائهم للمؤمنين فان لم ينتهوا عما نهوا عنه فقد مضت سنّة الله في الأولين منهم بالإهلاك والإبادة وخسران السعي.

قوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير » الآية وما بعدها يشتملان على تكليف المؤمنين بحذاء ما كلف به الكفار في الآية السابقة ، والمعنى : قل لهم إن ينتهوا عن المحادة لله ورسوله يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا الى مثل ما عملوا فقد علموا بما جرى على سابقتهم قل لهم كذا وأما انت والمؤمنون فلا تهنوا فيما يهمكم من إقامة الدين وتصفية جو صالح للمؤمنين ، وقاتلوهم حتى تنتهي هذه الفتن التي تفاجئكم كل يوم ، ولا تكون فتنة بعد فإن انتهوا فإن الله يجازيهم بما يرى من اعمالهم ، وإن تولوا عن الانتهاء فأديموا القتال والله مولاكم فاعلموا ذلك ولا تهنوا ولا تخافوا .

والفتنة ما يمتحن به النفوس وتكون لا محالة مما يشق عليها ، وغلب استعمالها في المقاتل وارتفاع الأمن وانتقاض الصلح ، وكان كفار قريش يقبضون على المؤمنين بالنبي ﷺ قبل الهجرة وبعدها الى مدة في مكة ويعذبونهم ويجبرونهم على ترك الاسلام والرجوع الى الكفر ، وكانت تسمى فتنة .

وقد ظهر بما يفيده السياق من المعنى السابق ان قوله: « وقاتلوهم حتى لا تكون

فتنة » كناية عن تضعيفهم بالقتال حتى لا يغتروا بكفرهم ولا يلقوا فتنة يفتتن بها المؤمنون، ويكون الدين كله لله لا يدعو الى خلافه احد ، وان قوله : « فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير » المراد به الانتهاء عن القتال ولذلك اردفه بمثل قوله: «فإن الله بما يعملون بصير » أي عندئذ يحكم الله فيهم بما يناسب اعمالهم وهو بصير بها، وان قوله : «وإن تولوا» الخ أي ان تولوا عن الانتهاء ، ولم يكفوا عن القتال ولم يتركوا الفتنة فاعلموا ان الله مولاكم وناصركم وقاتلوهم مطمئنين بنصر الله نعم المولى ونعم النصير .

وقد ظهر ان قوله : « ويكون الدين كله لله » لا ينافي إقرار اهل الكتاب على دينهم ان دخلوا في الذمة واعطوا الجزية فلا نسبة للآية مع قوله تعالى : « حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون » التوبة : ٢٩ . بالناسخية والمنسوخية .

ولبعض المفسرين وجوه في معنى الانتهاء والمغفرة وغيرهما من مفردات الآيات الثلاث لا كثير جدوى في التعرض لها تركناها .

وقد ورد في بعض الأخبار كون « نعم المولى ونعم النصير » من اسماء الله الحسنى والمراد بالاسم حينئذ لا محالة غير الاسم بمعناه المصطلح بل كل ما يخص بلفظه شيئاً من المصاديق كما ورد نظيره في قوله تعالى: « لا تأخذه سنة ولا نوم » وقد مر استيفاء الكلام في الاسماء الحسنى في ذيل قوله تعالى : « ولله الاسماء الحسنى » الاعراف ١٨٠ في الجزء الثامن من الكتاب .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : «وإذ يمكر بك الذين كفروا» الآية انها نزلت بمكة قبل الهجرة .

وفي الدر المنثور اخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج (رض) « وإذ يمكر بك الذين كفروا » قال : هي مكية .

اقول : وهو ظاهر ما رواه ايضاً عن عبد بن حميد عن معاوية بن قرة، لكن عرفت ان سياق الآيات لا يساعد عليه .

وفيه اخرج عبدالرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والخطيب عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك» قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا اصبح فاثبتوه بالوثاق – يريدون النبي ﷺ – وقال بعضهم : بل اقتلوه، وقال بعضهم بل اخرجوه فاطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات علي رضي الله عنه على فراش النبي ﷺ وخرج النبي (ص) حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً رضي الله عنه يحسبونه النبي (ص) فلما اصبحوا ثاروا عليه فلما رأوه علياً رضي الله عنه ردّ الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا : لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث ثلاث ليال .

وفي تفسير القمّي : كان سبب نزولها انه لما أظهر رسول الله ﷺ الدعوة بمكة قدمت عليه الأوس والخزرج فقال لهم رسول الله ﷺ : تمنعوني وتكونون لي جاراً حتى أتلو كتاب الله عليكم وثوابكم على الله الجنة ؟ فقالوا : نعم خذ لربك ولنفسك ما شئت فقال لهم : موعدكم العقبة في الليلة الوسطى من ليالي التشريق فحجوا ورجعوا إلى منى وكان فيهم ممن قد حج بشر كثير .

فلما كان اليوم الثاني من أيام التشريق قال لهم رسول الله ﷺ : إذا كان الليل فاحضروا دار عبد المطلب على العقبة، ولا تنبهوا نائماً، ولينسل واحد فواحد فجاء سبعون رجلاً من الأوس والخزرج فدخلوا الدار فقال لهم رسول الله ﷺ : تمنعوني وتجيروني حتى أتلو عليكم كتاب ربي وثوابكم على الله الجنة .

فقال أسعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبد الله بن حرام: نعم يا رسول الله اشترط لربك ونفسك ما شئت. فقال: أما ما أشترط لربي فان تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وما أشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون أنفسكم وتمنعون أهلي مما تمنعون اهليكم واولادكم . فقالوا فما لنا على ذلك ؟ فقال : الجنة في الآخرة ، وتملكون العرب، ويدين لكم العجم في الدنيا ، وتكونون ملوكاً في الجنة فقالوا: قد رضينا.

فقال : اخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً يكونون شهداء عليكم بذلك كما أخذ موسى من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً فأشار اليهم جبرائيل فقال: هذا نقيب

وهذا نقيب تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس: فمن الخزرج أسعد بن زرارة والبراء ابن معرور وعبد الله بن حرام ابو جابر بن عبد الله ورافع بن مالك وسعد بن عبادة والمنذر بن عمر وعبد الله بن رواحة وسعد بن ربيع وعبادة بن صامت ومن الأوس ابو الهيثم بن التيهان وهو من اليمن وأسيد بن حصين وسعد بن خيثمة .

فلما اجتمعوا وبايعوا لرسول الله ﷺ صاح إبليس : يا معشر قريش والعرب هذا محمد والصباة من أهل يثرب على جمرة العقبة يبايعونه على حربكم فأسمع أهل منى، وهاجت قريش فأقبلوا بالسلاح ، وسمع رسول الله ﷺ النداء فقال للأنصار: تفرقوا فقالوا : يا رسول الله إن أمرتنا ان نميل عليهم بأسيافنا فعلنا . فقال رسول الله ﷺ: لم اؤمر بذلك ولم يأذن الله لي في محاربتهم. قالوا : فتخرج معنا؟قال: أنتظر أمر الله .

فجاءت قريش على بكرة أبيها قد أخذوا السلاح وخرج حمزة وأمير المؤمنين عليه السلام بالسلاح ومعها السيوف فوقفا على العقبة فلما نظرت قريش إليها قالوا : ما هذا الذي اجتمعتم له ؟ فقال حمزة : ما اجتمعنا وما ههنا أحد والله لا يجوز هذه العقبة أحد إلا ضربته بسيفي .

فرجعوا الى مكة وقالوا : لا نأمن أن يفسد أمرنا ويدخل واحد من مشائخ قريش في دين محمد فاجتمعوا في دار الندوة، وكان لا يدخل دار الندوة إلا من أتى عليه اربعون سنة فدخلوا أربعين رجلاً من مشائخ قريش ، وجاء إبليس في صورة شيخ كبير فقال له البواب: من أنت؟ فقال : أنا شيخ من أهل نجد لا يعدمكم مني رأي صائب إني حيث بلغني اجتماعكم في أمر هذا الرجل جئت لاشير عليكم فقال: أدخل فدخل إبليس .

فلما أخذوا مجلسهم قال ابو جهل: يا معشر قريش إنه لم يكن احد من العرب أعز منا نحن أهل الله تفد إلينا العرب في السنة مرتين ويكرموننا ، ونحن في حرم الله لا يطمع فينا طامع فلم نزل كذلك حتى نشأ فينا محمد بن عبد الله فكنا نسميه الأمين لصلاحه وسكونه وصدق لهجته حتى إذا بلغ ما بلغ وأكرمناه ادعى انه رسول الله وان اخبار السماء تأتيه فسفه أحلامنا ، وسب آلهتنا ، وأفسد شباننا ، وفرق جماعتنا ، وزعم انه من مات من أسلافنا ففي النار ، ولم يرد علينا شيء أعظم من

هذا ، وقد رأيت فيه رأياً . قالوا : وما رأيت ؟ قال : رأيت ان ندس اليه رجلاً منا ليقتله فإن طلبت بنو هاشم بديته أعطيناهم عشر ديات .

فقال الخبيث : هذا رأي خبيث قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : لان قاتل محمد مقتول لا محالة فمن هذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم ؟ فانه اذا قتل محمداً تعصبت بنو هاشم وحلفاؤهم من خزاعة ، وان بني هاشم لا ترضى ان يمشي قاتل محمد على الأرض فتقع بينكم الحروب في حرمكم وتتفانون .

فقال آخر منهم: فعندي رأي آخر. قال: وما هو؟ قال: نثبته في بيت ونلقي عليه قوته حتى يأتي عليه ريب المنون فيموت كما مات زهير والنابغة وامرؤ القيس. فقال إبليس : هذا أخبث من الآخر . قالوا : وكيف ذاك ؟ قال: لأن بني هاشم لا ترضى بذلك فإذا جاء موسم من مواسم العرب استغاثوا بهم فاجتمعوا عليكم فأخرجوه .

قال آخر منهم: لا ولكنا نخرجه من بلادنا ونتفرغ لعبادة آلهتنا. قال إبليس: هذا اخبث من ذينك الرأيين المتقدمين ، قالوا : وكيف ؟ قال : لأنكم تعمدون الى أصبح الناس وجهاً ، وأتقن الناس لساناً وأفصحهم لهجة فتحملوه الى بوادي العرب فيخدعهم ويسحرهم بلسانه فلا يفجؤكم إلا وقد ملأها خيلاً ورجلاً . فبقوا حائرين.

ثم قالوا لإبليس : فما الرأي يا شيخ ؟ قال : ما فيه إلا رأي واحد . قالوا : وما هو ؟ قال: يجتمع من كل بطن من بطون قريش فيكون معهم من بني هاشم رجل فيأخذون سكّيناً أو حديدة أو سيفاً فيدخلون عليه فيضربونه كلهم ضربة واحدة حتى يتفرق دمه في قريش كلها فلا يستطيع بنو هاشم ان يطلبوا بدمه فقد شاركوه فيه فإن سألوكم ان تعطوكم الدية فأعطوهم ثلاث ديات. قالوا: نعم وعشر ديات. قالوا: الرأي رأي الشيخ النجدي فاجتمعوا فيه ، ودخل معهم في ذلك ابو لهب عم النبي ﷺ.

فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فأخبره ان قريشاً قد اجتمعت في دار الندوة يدبرون عليك فأنزل الله عليه في ذلك : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

واجتمعت قريش ان يدخلوا عليه ليلاً فيقتلوه، وخرجوا الى المسجد يصفرون ويصفقون ويطوفون بالبيت فأنزل الله: «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية

فالمكاء التصفير والتصدية صفق اليدين وهذه الآية معطوفة على قوله: «وإذ يمكر بك الذين كفروا» قد كتبت بعد آيات كثيرة .

فلما امسى رسول الله ﷺ جاءت قريش ليدخلوا عليه فقال ابو لهب: لا أدعكم ان تدخلوا عليه بالليل فإن في الدار صبياناً ونساءً ولا نأمن ان يقع بهم يد خاطئة فنحرسه الليلة فإذا اصبحنا دخلنا عليه فناموا حول حجرة رسول الله ﷺ .

وأمر رسول الله ﷺ ان يفرش له فرش فقال لعلي بن أبي طالب عليه السلام : افدني بنفسك قال : نعم يا رسول الله قال : نم على فراشي والتحف ببردتي. فنام علي عليه السلام على فراش رسول الله ﷺ والتحف ببردته .

وجاء جبرئيل فأخذ بيد رسول الله ﷺ فأخرجه على قريش وهم نيام وهو يقرأ عليهم: «وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون» وقال له جبرئيل: خذ على طريق ثور وهو جبل على طريق منى له سنام كسنام الثور فدخل الغار وكان من امره ما كان .

فلما اصبحت قريش وأتوا الى الحجرة وقصدوا الفراش فوثب علي عليه السلام في وجوههم فقال: ما شأنكم؟ قالوا: أين محمد؟ قال: أجعلتموني عليه رقيباً؟ ألستم قلتم نخرجه من بلادنا؟ فقد خرج عنكم فأقبلوا على ابي لهب يضربونه ويقولون: انت تخدعنا منذ الليل.

فتفرقوا في الجبال، وكان فيهم رجل من خزاعة يقال له: أبو كرز يقفو الآثار فقالوا : يا أبا كرز اليوم اليوم فوقف بهم على باب حجرة رسول الله ﷺ وقال لهم: هذه قدم محمد والله انها لأُخت القدم التي في المقام، وكان ابو بكر بن ابي قحافة استقبل رسول الله ﷺ فرده معه فقال ابو كرز : وهذه قدم ابن ابي قحافة او ابيه ثم قال : وههنا عبر ابن ابي قحافة ، ولا يزال يقف بهم حتى اوقفهم على باب الغار .

ثم قال: ما جاوزوا هذا المكان إما ان يكونوا صعدوا الى السماء أو دخلوا تحت الأرض، وبعث الله العنكبوت فنسجت على باب الغار، وجاء فارس من الملائكة ثم قال: ما في الغار أحد فتفرقوا في الشعاب، وصرفهم الله عن رسوله ﷺ ثم أذن لنبيه ﷺ في الهجرة.

أقول : وروي ما يقرب من هذا المعنى ملخصاً في الدر المنثور عن ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وأبي نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن

عباس لكن نسب فيه الى ابي جهل ما نسب في هذه الرواية الى الشيخ النجدي ثم ذكر ان الشيخ النجدي صدّق ابا جهل في رأيه واجتمع القوم على قوله .

وقد روي دخول ابليس عليهم في دار الندوة في زي شيخ نجدي في عدة روايات من طرق الشيعة وأهل السنّة .

وأما ما في الرواية من قول ابي كرز لما اقتفى أثر رسول الله ﷺ : « هذه قدم محمد، وهذه قدم ابن ابي قحافة، وههنا غير ابن ابي قحافة » فقد ورد في الروايات ان ثالثهما هند بن ابي هالة ربيب رسول الله ﷺ وامه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

وقد روى الشيخ في أماليه بإسناده عن ابي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن ابيه وعبدالله بن ابي رافع جميعاً عن عمار بن ياسر وأبي رافع وعن سنان بن ابي سنان عن ابن هند بن ابي هالة، وقد دخل حديث عمار وأبي رافع وهند بعضه في بعض، وهو حديث طويل في هجرة النبي ﷺ وفيه : واستتبع رسول الله ﷺ أبا بكر ابن ابي قحافة وهند بن ابي هالة مأمرهما ان يقعدا له بمكان ذكره لهما من طريقه الى الغار، وثبت رسول الله ﷺ بمكانه مع علي يأمره في ذلك بالصبر حتى صلى العشائين ثم خرج رسول الله ﷺ في فحمة العشاء والرصد من قريش قد اطافوا بداره ينتظرون ان ينتصف الليل وتنام الأعين .

فخرج وهو يقرأ هذه الآية: «وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون» وكان بيده قبضة من تراب فرمى بها في رؤوسهم فما شعر القوم به حتى تجاوزهم ومضى حتى اتى الى هند وأبي بكر فنهضا معه حتى وصلوا الى الغار . ثم رجع هند الى مكة بما امره به رسول الله ﷺ ،ودخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار .

قال بعد سوق القصة الليلة : حتى اذا اعتمّ من الليلة القابلة انطلق هو – يعني علياً عليه السلام – وهند بن ابي هالة حتى دخلا على رسول الله ﷺ في الغار فأمر رسول الله ﷺ هنداً ان يبتاع له ولصاحبه بعيرين فقال ابو بكر قد كنت اعددت لي ولك يانبي الله راحلتين نرتحلهما الى يثرب فقال: اني لا آخذهما ولا احدهما إلا بالثمن قال: فهي لك بذلك فأمر رسول الله ﷺ علياً عليه السلام فأقبضه الثمن ثم وصاه بحفظ ذمته وأداء أمانته.

وكانت قريش قد سموا محمداً في الجاهلية : الأمين، وكانت تودعه وتستحفظه اموالها وأمتعتها، وكذلك من يقدم مكة من العرب في الموسم، وجاءت النبوة والرسالة والأمر كذلك فأمر علياً عليه السلام ان يقيم صارخاً بالأبطح غدوة وعشياً : من كان له قبل محمد أمانة أو دين فليأت فلنؤد اليه أمانته .

قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: انهم لن يصلوا من الآن اليك يا علي بأمر تكرهه حتى تقدم علي فأد أماناتي على أعين الناس ظاهراً ثم اني مستخلفك على فاطمة ابنتي ومستخلف ربي عليكما ومستحفظه فيكما فأمر ان يبتاع رواحل له وللفواطم[1] ومن أزمع الهجرة معه من بني هاشم .

قال ابو عبيدة : فقلت لعبيد الله يعني ابن ابي رافع: او كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجد ما ينفقه هكذا؟ فقال: اني سألت ابي عما سألتني وكان يحدّث لي هذا الحديث. فقال : وأين يذهب بك عن مال خديجة عليها السلام .

قال عبيد الله بن أبي رافع: وقد قال علي بن ابي طالب عليه السلام يذكر مبيته على الفراش ومقام رسول الله صلى الله عليه وآله في الغار ثلاثاً نظماً :

وقيت بنفسي خير من وطىء الحصا ... ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجرِ
محمد لما خاف أن يمكروا به ... فوقاه ربي ذو الجلال من المكرِ
وبتُّ أراعيهم متى ينشرونني ... وقد وُطّنت نفسي على القتل والأسرِ
وبات رسول الله في الغار آمناً ... هناك وفي حفظ الإله وفي سترِ
أقام ثلاثاً ثم زمّت قلائص ... قلائص يفرين الحصا أينما تفرى

وقد روى الأبيات عنه عليه السلام بتفاوت يسير في الدر المنثور عن الحاكم عن علي بن الحسين عليه السلام .

وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران عن ابي جعفر وابي عبدالله عليهما السلام قوله : «خير الماكرين» قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد كان لقي من قومه بلاء شديداً حتى أتوه ذات يوم وهو ساجد حتى طرحوا عليه رحم شاة فأتته ابنته وهو ساجد لم يرفع رأسه فرفعته عنه ومسحته ثم أراه الله بعد ذلك الذي يحب. انه كان ببدر

(١) وهن على ما في ذيل الرواية: فاطمة بنت النبي عليها السلام وفاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت الزبير.

وليس معه غير فارس واحد ثم كان معه يوم الفتح اثنا عشر الفاً حتى جعل ابو سفيان والمشركون يستغيثون . الحديث .

وفي الدر المنثور اخرج ابن جرير وابن ابي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال : كان النضر بن الحارث يختلف الى الحيرة فيسمع سجع اهلها وكلامهم فلما قدم الى مكة سمع كلام النبي (ص) والقرآن فقال : قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا إلا اساطير الأولين .

اقول : وهناك بعض روايات أخر في ان القائل بهذا القول كان هو النضر بن الحارث وقد قتل يوم بدر صبراً .

وفيه اخرج البخاري وابن ابي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن انس بن مالك رضي الله عنه قال : قال ابو جهل بن هشام : اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم «فنزلت: « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » .

اقول : وروى القمي هذا المعنى في تفسيره وروى السيوطي ايضاً في الدر المنثور عن ابن جرير الطبري وابن ابي حاتم عن سعيد بن جبير وعن ابن جرير عن عطاء : ان القائل : «اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك» الآية النضر بن الحارث وقد تقدم في البيان السابق ما يقتضيه سياق الآية .

وفيه اخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالا : قالت قريش بعضها لبعض: محمد اكرمه الله من بيننا؟ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء الآية فلما امسوا ندموا على ما قالوا فقالوا : غفرانك اللهم فأنزل الله : وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون - الى قوله - لا يعلمون .

وفيه اخرج ابن جرير وابن ابي حاتم وأبو الشيخ عن ابن ابزى (رض) قال : كان رسول الله (ص) بمكة فأنزل الله : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » فخرج رسول الله (ص) الى المدينة فأنزل الله: « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » فلما خرجوا انزل الله : «وما لهم ان لا يعذبهم الله» الآية فأذن في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم.

وفيه اخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وأبو الشيخ

عن عطية (رض) في قوله : «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم» يعني المشركين حتى يخرجك منهم « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » قال : يعني المؤمنين. ثم اعاد المشركين فقال : « وما لهم ان لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام » .

وفيه اخرج ابن ابي حاتم عن السدي (رض) في قوله: « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » يقول : لو استغفروا وأقرّوا بالذنوب لكانوا مؤمنين ، وفي قوله : « وما لهم ان لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام » يقول : وكيف لا اعذبهم وهم لا يستغفرون .

وفيه اخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد (رض) في قوله : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » قال : بين اظهرهم « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » قال : يسلمون .

وفيه اخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابي مالك (رض) «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » يعني اهل مكة « وما كان الله معذبهم » وفيهم المؤمنون يستغفرون.

وفيه اخرج ابن جرير وابن ابي حاتم عن عكرمة والحسن رضي الله عنهما في قوله : « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » قالا : نسختها الآية التي تليها : « وما لهم ان لا يعذبهم الله » فقوتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع والحصر .

اقول : عدم انطباقها على الاية بظاهرها المؤيد بسياقها ظاهر ، وإنما دعاهم الى هذه التكلفات الاحتفاظ باتصال الاية في التأليف بما قبلها وما قبلها من الايات المتعرضة لحال مشركي اهل مكة ، ومن عجيب ما فيها تفسير العذاب في الاية بفتح مكة ، ولم يكن إلا رحمة للمشركين والمؤمنين جميعاً .

وفيه اخرج الترمذي عن ابي موسى الاشعري (رض) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : انزل الله علي امانين لأمتي « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار الى يوم القيامة .

اقول : مضمون الرواية مستفاد من الآية ، وقد روي ما في معناها عن ابي هريرة وابن عباس عنه صلى الله عليه وآله وسلم ورواها في نهج البلاغة عن علي عليه السلام .

وفي ذيل هذه الرواية شيء؛ وهو انه لا يلائم ما مر في البيان المتقدم من إيعاد

القرآن هذه الامة بعذاب واقع قبل يوم القيامة، ولازمه ان يرتفع الاستغفار من بينهم قبل يوم القيامة .

وفيه اخرج احمد عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله .

وفي الكافي عن علي بن ابراهيم عن ابيه عن حنان بن سدير عن ابيه عن ابي جعفر عليه‌السلام قال : قال رسول الله ﷺ مقامي بين أظهركم خير لكم فإن الله يقول: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، ومفارقتي إياكم خير لكم . فقالوا : يا رسول الله مقامك بين اظهرنا خير لنا فكيف يكون مفارقتك خير لنا ؟ فقال : أما مفارقتي لكم خير لكم فإن اعمالكم تعرض عليّ كل خميس واثنين فما كان من حسنة حمدت الله عليها، وما كان من سيئة استغفر الله لكم .

أقول : وروى هذا المعنى العياشي في تفسيره والشيخ في اماليه عن حنان بن سدير عن ابيه عنه عليه‌السلام ، وفي روايتهما ان السائل هو جابر بن عبدالله الأنصاري عليه‌السلام، ورواه ايضاً في الكافي باسناده عن محمد بن ابي حمزة وغير واحد عن ابي عبدالله عليه‌السلام.

وفي الدر المنثور اخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير (رض) قال : كانت قريش تعارض النبي ﷺ في الطواف يستهزئون ويصفرون ويصفقون فنزلت : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية » .

وفيه أخرج أبو الشيخ عن نبيط وكان من الصحابة (رض) في قوله: «وما كان صلاتهم عند البيت » الآية قال : كانوا يطوفون بالبيت الحرام وهم يصفرون .

وفيه اخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ان نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله عز وجل: «إلا مكاء وتصدية» قال : المكاء صوت القنبرة، والتصدية صوت العصافير وهو التصفيق ، وذلك ان رسول الله ﷺ كان اذا قام الى الصلاة وهو بمكة كان يصلي قائماً بين الحجر والركن اليماني فيجيء رجلان من بني سهم يقوم احدهما عن يمينه والآخر عن شماله، ويصيح أحدهما كما يصيح المكاء ، والآخر يصفق بيده تصدية العصافير ليفسد عليه صلاته .

وفي تفسير العياشي عن إبراهيم بن عمر اليماني عمن ذكره عن ابي عبدالله عليه‌السلام

في قول الله : «وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا اولياءه» يعني اولياء البيت يعني المشركين « إن اولياؤه إلا المتّقون » حيث مـا كانوا هم اولى به من المشركين « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية » قال : التصفير والتصفيق .

وفي الدر المنثور اخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم والبيهقي في الدلائل كلهم من طريقه[1] قال: حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حيان وعاصم ابن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمان بن عمر قال: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلّهم الى مكة ورجع ابو سفيان بعيره مشى عبد الله بن ربيعة وعكرمة بن ابي جهل وصفوان بن اميّة في رجال من قريش الى من كان معه تجارة فقالوا: يا معشر قريش ان محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ان ندرك منه ثاراً ففعلوا ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله : إن الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله ــ الى قوله ــ والذين كفروا الى جهنم يحشرون .

وفيه اخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : « إن الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله » قال نزلت في ابي سفيان بن حرب.

وفيه اخرج ابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن ابي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن سعيد بن جبير في قوله : «ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله » الآية قال : نزلت في ابي سفيـان بن حرب استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش من بني كنانة يقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وآله سوى من استجاش من العرب فأنزل الله فيه هذه الآية .

وهم الذين قال فيهم كعب بن مالك رضي الله عنه :

وجئنا الى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف ونحن نصيـةٌ ثلاث مئين إن كثرن فأربع

أقول : ورواه ملخّصاً عن ابن اسحاق وابن ابي حاتم عن عبّاد بن عبد الله ابن الزبير .

---

(١) يعني طريق محمد بن اسحاق .

وفي المجمع في قوله تعالى: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله» الآية ، قال : روى زرارة وغيره عن ابي عبد الله عليه السلام انه قال : لم يجيء تأويل هذه الآية ولو قام قائمنا بعدُ سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية وليبلغن دين محمد صلى الله عليه وآله ما بلغ الليل حتى لا يكون مشرك على ظهر الأرض .

أقول : ورواه العياشي في تفسيره عن زرارة عنه عليه السلام ، وفي معناه ما في الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم عن ابي جعفر عليه السلام ، وروى هذا المعنى ايضاً العياشي عن عبد الاعلى الحلبي عن ابي جعفر عليه السلام في رواية طويلة .

وقد تقدم حديث ابراهيم الليثي في تفسير قوله: «ليميز الله الخبيث من الطيب» الآية مع بعض ما يتعلق به من الكلام في ذيل قوله: «كما بدأكم تعودون» الاعراف: ٢٩ في الجزء الثامن من الكتاب .

* * *

وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِٱللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ــ ٤١ . إِذْ أَنْتُمْ بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَادِ وَلَـٰكِنْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ــ ٤٢ . إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ــ ٤٣ . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ

ٱللهُ أَمراً كَانَ مَفعُولاً وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ ٱلأُمورُ ــ ٤٤ . يٰا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ
آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفلِحُونَ ــ ٤٥ .
وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنازَعُوا فَتَفشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصبِرُوا
إِنَّ ٱللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ــ ٤٦ . وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيٰارِهِمْ
بَطَرًا وَرِئٰاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ وَٱللهُ بِمٰا يَعمَلُونَ مُحِيطٌ ــ ٤٧ .
وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱليَوْمَ مِنَ النَّاسِ
وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ ٱلفِئَتَانِ نَكَصَ عَلىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ
مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ ٱللهَ وَٱللهُ شَدِيدُ ٱلعِقَابِ ــ ٤٨ .
إِذْ يَقُولُ ٱلمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ
يَتَوَكَّلْ عَلىَ ٱللهِ فَإِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ــ ٤٩ . وَلَوْ تَرىٰ إِذْ يَتَوَفَّى
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلمَلاٰئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ وَذُوقُوا عَذابَ
ٱلحَرِيقِ ــ ٥٠ .ذٰلِكَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللهَ لَيسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ــ ٥١.
كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيٰاتِ ٱللهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللهُ
بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلعِقَابِ ــ ٥٢ . ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا
نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلىٰ قَوْمٍ حَتّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ــ ٥٣.
كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ــ ٥٤ .

(بيان)

تشتمل الآيات على الأمر بتخميس الغنائم وبالثبات عند اللقـــاء وتذكرهم ، وتقصّ عليهم بعض ما نكب الله به اعداء الدين وأخزاهم بالمكر الإلهي ، وأجرى فيهم سنّة آل فرعون ومن قبلهم من المكذبين لآيات الله الصادين عن سبيله .

قوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول » الى آخر الآية . الغنم والغنيمة إصابة الفائدة من جهة تجارة او عمل او حرب وينطبق بحسب مورد نزول الآية على غنيمة الحرب، قال الراغب : الغنم – بفتحتين – معروف قال: ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ، والغنم – بالضم فالسكون – إصابته والظفر به ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العدى وغيرهم قال: واعلموا أنما غنمتم من شيء ، فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً . والمغنم ما يغنم وجمعه مغانم قال : فعند الله مغانم كثيرة ، انتهى .

وذو القربى القريب والمراد به قرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم او خصوص اشخاص منهم على ما يفسره الآثار القطعية، واليتيم هو الانسان الذي مات ابوه وهو صغير، قالوا: كل حيوان يتيم من قِبل امه إلا الانسان فان يتمه من قِبل ابيه .

وقوله : «فأن لله خمسه» الخ قرىء بفتح أن، ويمكن ان يكون بتقدير حرف الجرّ والتقدير: واعلموا ان ما غنمتم من شيء فعلى أن لله خمسه اي هو واقع على هذا الاساس محكوم به ، ويمكن ان يكون بالعطف على أن الاولى، وحذف خبر الاولى لدلالة الكلام عليه ، والتقدير: اعلموا أن ما غنمتم من شيء يجب قسمته فاعلموا ان خمسه لله ، او يكون الفاء لاستشمام معنى الشرط فان مآل المعنى الى نحو قولنا : إن غنمتم شيئاً فخمسه لله الخ فالفاء من قبيل فاء الجزاء ، وكرر أن للتأكيد ، والأصل: اعلموا أن ما غنمتم من شيء أن خمسه لله الخ، والأصل الذي تعلق به العلم هو: ما غنمتم من شيء خمسه لله وللرسول الخ ، وقد قدم لفظ الجلالة للتعظيم .

وقوله : « إن كنتم آمنتم بالله » الخ قيد للأمر الذي يدل عليه صدر الآية اي أدوا خمسه إن كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا ، وربما قيل : انه متصل بقوله

تعالى في الآية السابقة: «فاعلموا ان الله هو مولاكم» هذا والسياق الذي يتم بحيلولة قوله : « واعلموا أنما غنمتم من شيء » الخ لا يلائم ذلك .

وقوله تعالى : «وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان» الظاهر ان المراد به القرآن بقرينة تخصيص النبي ﷺ بالإنزال ، ولو كان المراد بـه الملائكة المنزلون يوم بدر –كما قيل– لكان الأنسب اولاً: ان يقال: ومن أنزلنا على عبدنا» او ما يؤدي هذا المعنى وثانياً: ان يقال: عليكم لا على عبدنا فان الملائكة كما أنزلت لنصرة النبي ﷺ أنزلت لنصرة المؤمنين معه كما يدل عليه قوله: «فاستجاب لكم أني ممدّكم بألف من الملائكة مردفين » الأنفال : ٩ . وقوله بعد ذلك : « إذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا» الخ الأنفال: ١٢ . ونظيرهما قوله: « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثـة آلاف من الملائكين منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين » آل عمران : ١٢٥ .

وفي الإلتفات من الغيبة الى التكلم في قوله : «إن كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا » من بسط اللطف على رسول الله ﷺ واصطفائه بالقرب ما لا يخفى .

ويظهر بالتأمل فيما قدمناه من البحث في قوله تعالى في اول السورة: «يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول» الآية أن المراد بقوله: «وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان» هو قوله تبارك وتعالى: «فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً» بما يحتف به من الآيات.

والمراد بقوله: «يوم الفرقان» يوم بدر كما يشهد به قوله بعده: «يوم التقى الجمعان» فان يوم بدر هو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل فأحق الحق بنصرته ، وأبطل الباطل بخذلانه .

وقوله تعالى: « والله على كل شيء قدير » بمنزلة التعليل لقوله: « يوم الفرقان» بما يدل عليه من تمييزه تعالى بين الحق والباطل كأنه قيل : والله على كل شيء قدير فهو قادر ان يفرق بين الحق والباطل بما فرق .

فمعنى الآية –والله أعلم– واعلموا ان خمس ما غنمتم اي شيء كان هو لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل فردوه الى اهله ان كنتم آمنتم بالله وما أنزله على عبده محمد ﷺ يوم بدر ، وهو ان الأنفال وغنائم الحرب لله ولرسوله لا يشارك

الله ورسوله فيها احد، وقد أجاز الله لكم أن تأكلوا منها وأباح لكم التصرف فيها فالذي اباح لكم التصرف فيها يأمركم ان تؤدوا خمسها الى اهله .

وظاهر الآية أنها مشتملة على تشريع مؤبد كما هو ظاهر التشريعات القرآنية، وأن الحكم متعلق بما يسمى غنماً وغنيمة سواء كان غنيمة حربية مأخوذة من الكفار او غيرها مما يطلق عليه الغنيمة لغة كأرباح المكاسب والغوص والملاحة والمستخرج من الكنوز والمعادن، وإن كان مورد نزول الآية هو غنيمة الحرب فليس للمورد أن يخصص.

وكذا ظاهر ما عد من موارد الصرف بقوله: «لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» انحصار الموارد في هؤلاء الأصناف، وأن لكل منهم سهماً بمعنى استقلاله في اخذ السهم كما يستفاد مثله من آية الزكاة من غير ان يكون ذكر الأصناف من قبيل التمثيل .

فهذا كله مما لاريب فيه بالنظر الى المتبادر من ظاهر معنى الآية، وعليه وردت الأخبار من طرق الشيعة عن أئمة اهل البيت عليهم السلام وقد اختلفت كلمات المفسرين من اهل السنة في تفسير الآية وسنتعرض لها في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: « إذ انتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب اسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله امراً كان مفعولاً» العدوة بالضم وقد يكسر شفير الوادي ، والدنيا مؤنث أدنى كما ان القصوى وقد يقال: القصيا مؤنث اقصى والركب كما قيل هو العير الذي كان عليه ابو سفيان بن حرب .

والظرف في قوله: « إذ أنتم بالعدوة » بيان ثان لقوله في الآية السابقة: « يوم الفرقان كما أن قوله : « يوم التقى الجمعان » بيان اول له متعلق بقوله: «أنزلنا على عبدنا » واما ما يظهر من بعضهم إنه بيان لقوله : « والله على كل شيء قدير » بما يفيده بحسب المورد ، والمعنى: والله قدير على نصركم وأنتم أذلة إذ انتم نزول بشفير الوادي الأقرب ، فلا يخفى بعده ووجه التكلف فيه .

وقوله تعالى : « ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد »، سياق ما تقدمه من الجمل الكاشفة عن تلاقي الجيشين، وكون الركب اسفل منهم، وان الله بقدرته التي قهرت كل شيء فرق بين الحق والباطل، وأيد الحق على الباطل، وكذا قوله بعد: «ولكن

ليقضي الله امراً كان مفعولاً » كل ذلك يشهد على أن المراد بقوله : « ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد » بيان ان التلاقي على هذا الوجه لم يكن إلا بمشية خاصة من الله سبحانه حيث نزل المشركون وهم ذووا عدة وشدة بالعدوة القصوى وفيها الماء والأرض الصلبة ، والمؤمنون على قلة عددهم وهوان امرهم بالعدوة الدنيا ولا ماء فيها والأرض رملية لا تثبت تحت اقدامهم ، وتخلص العير منهم إذ ضرب ابو سفيان في الساحل أسفل ، وتلاقى الفريقان لا حاجز بينهما ولا مناص عندئذ عن الحرب ، فالتلاقي والمواجهة على هذا الوجه ثم ظهور المؤمنين على المشركين ، لم يكن عن اسباب عادية بل لمشيّة خاصة إلهية ظهرت بها قدرته وبانت بها عنايته الخاصة ونصره وتأييده للمؤمنين .

فقوله : « ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد » بيان ان هذا التلاقي لم يكن عن سابق قصد وعزيمة ، ولا روية او مشورة ، ولهذا المعنى عقبه بقوله : « ولكن ليقضي الله امراً كان مفعولاً » بما فيه من الاستدراك .

وقوله : « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » لتعليل ما قضي به من الأمر المفعول أي إن الله إنما قضى هذا الذي جرى بينكم من التلاقي والمواجهة ثم تأييد المؤمنين وخذلان المشركين ليكون ذلك بينة ظاهرة على حقية الحق وبطلان الباطل فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

وبذلك يظهر ان المراد بالهلاكة والحياة هو الهدى والضلال لأن ذلك هو الذي يرتبط به وجود الآية البينة ظاهراً .

وكذا قوله : « وأن الله لسميع عليم » عطف على قوله : « ليهلك من هلك عن بينة » الخ ، أي وإن الله إنما قضى ما قضى وفعل ما فعل لأنه سميع يسمع دعاءكم عليم يعلم ما في صدوركم ، وفيه إشارة الى ما ذكره في صدر الآيات : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم » الى آخر الآيات .

وعلى هذا السياق ـ أي لبيان أن مرجع الأمر في هذه الواقعة هو القضاء الخاص الإلهي دون الأسباب العادية ـ سيق قوله تعالى بعد : « إذ يريكهم الله في منامك قليلاً » الخ ، وقوله : « وإذ زين لهم الشيطان اعمالهم » الخ ، وقوله : « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم » الخ .

ومعنى الآية يوم الفرقان هو الوقت الذي انـتم نزول بالعدوة الدنيا وهم نزول بالعدوة القصوى، وقد توافق نزولكم بها ونزولهم بها بحيث لو تواعدتم بينكم ان تلتقوا بهذا الميعاد لاختلفتم فيه ولم تتلاقوا على هـذه الوتيرة فلم يكن ذلك منكم ولا منهم ولكن ذلك كان امراً مفعولاً والله قاضيه وحاكمه ، وإنما قضى ما قضى ليظهر آية بينة فتتم بذلك الحجة، ولأنه قد استجاب بذلك دعوتكم بما سمع من استغاثتكم وعلم به من حاجة قلوبكم .

قوله تعالى : « إذ يريكهم الله في منامك قليلاً » الى آخر الآية ، الفشل هو الضعف مع الفزع، والتنازع هو الاختلاف وهو من النزع نوع من القلع كأن المتنازعين ينزع كل منهما الآخر عما هو فيه ، والتسليم هو النتيجة .

والكلام على تقدير اذكر أي اذكر وقتاً يريكهم الله في منامك قليلاً ، وإنما أراكهم قليلاً ليربط بذلـك قلوبكم وتطمئن نفوسكم ولو اراكهم كثيراً ثم ذكرتها للمؤمنين افزعكم الضعف واختلفتم في امر الخروج اليهم ولكنه تعالى نجاكم بإراءتهم قليلاً عن الفشل والتنازع انه عليم بذات الصدور وهي القلوب يشهد ما يصلح به حال القلوب في اطمئنانها وارتباطها وقوتها .

والآية تدل على ان الله سبحانه أرى نبيه ﷺ رؤيا مبشرة رأى فيها ما وعده الله من إحدى الطائفتين انها لهم ، وقد أراهم قليلاً لا يعبأ بشأنهم ، وأن النبي ﷺ ذكر مـا رآه للمؤمنين ووعدهم وعد تبشير فعزموا على لقائهم . والدليل على ذلك قوله : « ولو أراكهم كثيراً لفشلتم » الخ وهو ظاهر .

قوله تعالى : « وإذ يريكموهم إذ التقيتم في اعينكم قليلاً ويقللكم في اعينهم الى آخر الآية » . معنى الآية ظاهر ، ولا تنافي بين هذه الآية وقوله تعالى : « قـد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء » آل عمران : ١٣ بناء على ان الآية تشير الى وقعة بدر.

وذلـك ان التقليل الذي يشير اليه في الآية المبحوث عنها مقيد بقوله : « إذ التقيتم» وبذلك يرتفع التنافي كأن الله سبحانه أرى المؤمنين قليلاً في اعين المشركين في بادىء الالتقاء ليستحقروا جمعهم ويشجعهم ذلك على القتال والنزال حتى اذا زحفوا

واختلطوا، كثّر المؤمنين في أعينهم فرأوهم مثليهم رأي العين فأوهن بذلك عزمهم وأطار قلوبهم فكانت الهزيمة فآية الأنفال تشير الى اول الوقعة، وآية آل عمران الى ما بعد الزحف والاختلاط وقوله: «ليقضي الله امراً كان مفعولاً» متعلق بقوله: «يريكموهم» وتعليل لمضمونه .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » الى آخر الآيات الثلاث. قال الراغب في المفردات : الثبات ـ بفتح الثاء ـ ضد الزوال انتهى فهو في المورد ضد الفرار من العدو ، وهو بحسب ماله من المعنى اعم من الصبر الذي يأمر به في قوله : «واصبروا إن الله مع الصابرين» فالصبر ثبات قبال المكروه بالقلب بأن لا يضعف ولا يفزع ولا يجزع، وبالبدن بأن لا يتكاسل ولا يتساهل ولا يزول عن مكانه ولا يعجل فيما لا يحمد فيه العجل فالصبر ثبات خاص.

والريح على ما قيل، العز والدولة، وقد ذكر الراغب ان الريح في الآية بمعنى الغلبة استعارة كأن من شأن الريح ان تحرك ما هبت عليه وتقلعه وتذهب به، والغلبة على العدو يفعل به ما تفعله الريح بالشيء كالتراب فاستعيرت لها .

وقال الراغب : البطر دهش يعتري الانسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها الى غير وجهها قال عز وجل : « بطراً ورئاء الناس» وقال: «بطرت معيشتها» وأصله : بطرت معيشته فصرف عنه الفعل ونصب، ويقارب البطر الطرب، وهو خفة أكثر ما يعتري من الفرح وقد يقال ذلك في الترح، والبيطرة معالجة الدابة. انتهى . والرئاء المراءاة .

وقوله : « فاثبتوا » أمر بمطلق الثبوت امام العدو ، وعدم الفرار منه فلا يتكرر بالأمر ثانياً بالصبر كما تقدمت الإشارة اليه .

وقوله : «واذكروا الله كثيراً » اي في جنانكم ولسانكم فكل ذلك ذكر، ومن المعلوم أن الأحوال القلبية الباطنة من الإنسان هي التي تميز مقاصده وتشخصها سواء وافقها اللفظ كالفقير المستغيث بالله من فقره وهو يقول: يا غني والمريض المستغيث به من مرضه وهو يقول : يا شافي ولو قال الفقير في ذلك : يا الله او قال المريض فيه ذلك لكان معناه : يا غني ويا شافي لأنهما بمقتضى الحال الباعث لهما على الاستغاثة

والدعوة لا يريدان إلا ذلك كما هو ظاهر .

والذي يخرج الى قتال عدوه ، ثم لقيه واستعد الظرف للقتال ، وليس فيه إلا زهاق النفوس ، وسفك الدماء ونقص الأطراف وكل ما يهدد الانسان بالفناء في ما يحبه فان حاله يحوّل فكرته ويصرف إرادته الى الظفر بما يريده بالقتال، والغلبة على العدو الذي يهدده بالفناء ، والذي حاله هذا الحال وتفكيره هذا التفكير انما يذكر الله سبحانه بما يناسب حاله وتنصرف اليه فكرته .

وهذا اقوى قرينة على ان المراد بذكر الله كثيراً ان يذكر المؤمن ما علّمه تعالى من المعارف المرتبطة بهذا الشأن وهو انه تعالى إلهه وربه الذي بيده الموت والحياة وهو على نصره لقدير، وأنه هو مولاه نعم المولى ونعم النصير، وقد وعده النصر إذ قال : إن تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم ، وأن الله لا يضيّع أجر من احسن عملا ، وأن مآل امره في قتاله الى احدى الحسنيين إما الظفر على عدوه ورفع راية الاسلام وإخلاص الجو لسعادته الدينية، وإما القتل في سبيل الله والانتقال بالشهادة الى رحمته ، والدخول في حظيرة كرامته ، ومجاورة المقربين من اوليائه ، وما في هذا الصف من المعارف الحقيقية التي تدعو الى السعادة الواقعية والكرامة السرمدية.

وقد قيد الذكر بالكثير لتتجدد به روح التقوى كلما لاح للانسان ما يصرف نفسه الى حب الحياة الفانية والتمتع بزخارف الدنيا الغارّة والخطورات النفسانية التي يلقيها الشيطان بتسويله .

وقوله : « وأطيعوا الله ورسوله » ظاهر السياق ان المراد بها إطاعة ما صدر من ناحيته تعالى وناحية رسوله من التكاليف والدساتير المتعلقة بالجهاد والدفاع عن حومة الدين وبيضة الإسلام مما تشتمل عليه آيات الجهاد والسنّة النبوية كالابتداء بإتمام الحجة وعدم التعرض للنساء والذراري والكف عن تبييت العدو وغير ذلك من احكام الجهاد.

وقوله : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » اي ولا تختلفوا بالنزاع فيما بينكم حتى يورث ذلكم ضعف ارادتكم وذهاب عزتكم ودولتكم او غلبتكم فان اختلاف الآراء يخلّ بالوحدة ويوهن القوة .

وقوله : « واصبروا ان الله مع الصابرين » اي الزموا الصبر على ما يصيبكم

من مكاره القتال مما يهددكم به العدو ، وعلى الإكثار من ذكر الله ، وعلى طاعة الله ورسوله من غير ان يهزهزكم الحوادث او يزجركم ثقل الطاعة او تغويكم لذة المعصية او يضلكم عجب النفس وخيلاؤها .

وقد أكد الأمر بالصبر بقوله: «إن الله مع الصابرين» لأن الصبر اقوى عون على الشدائد وأشد ركن تجاه التلون في العزم وسرعة التحول في الإرادة، وهو الذي يخلّي بين الانسان وبين التفكير الصحيح المطمئن حيث يهجم عليه الخواطر المشوشة والأفكار الموهنة لإرادته عند الأهوال والمصائب من كل جانب فالله سبحانه مع الصابرين .

وقوله : « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس » الآية نهي عن اتخاذ طريقة هؤلاء البطرين المرائين الصادين عن سبيل الله ، وهم على ما يفيده سياق الكلام في الآيات ، كفّار قريش ، وما ذكره من اوصافهم أعني البطر ورئاء الناس والصدّ عن سبيل الله هو الذي أوجب النهي عن التشبه بهم واتخاذ طريقتهم بدلالة السياق، وقوله : «والله بما يعملون محيط» ينبىء عن إحاطته تعالى بأعمالهم وسلطنته عليها وملكه لها، ومن المعلوم أن لازم ذلك كون أعمالهم داخلة في قضائه متمشية بإذنه ومشيته وما هذا شأنه لا يكون مما يعجز الله سبحانه فالجملة كالكناية عما يصرح به بعد عدّة آيات بقوله: «ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون» الأنفال: ٥٩ .

وظاهر أن أخذ هذه القيود أعني قوله : « بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله» يوجب تعلق النهي بها والتقدير: ولا تخرجوا من دياركم الى قتل اعداء الدين بطرين ومرائين بالتجملات الدنيوية ، وصد الناس عن سبيل الله بدعوتهم بأقوالكم وأفعالكم الى ترك تقوى الله والتوغل في معاصيه والانخلاع عن طاعة اوامره ودساتيره فإن ذلك يحبط اعمالكم ويطفىء نور الإيمان ويبطل أثره عن جمعكم فلا طريق إلى نجاح السعي والفوز بالمقاصد الهامة إلا سويّ الصراط الذي يمهّده الدين القويم وتسهّله الملّة الفطريّة والله لا يهدي القوم الفاسقين الى مقاصدهم الفاسدة .

وقد اشتملت الآيات الثلاث على امور ستة أوجب الله سبحانه على المؤمنين رعايتها في الحروب الإسلامية عند اللقاء وهي الثبات، وذكر الله كثيراً، وطاعة الله ورسوله، وعدم التنازع ، وأن لا يخرجوا بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله .

ومجموع الامور الستة دستور حربي جامع لا يفقد من مهام الدستورات الحربية

شيئاً، والتأمل الدقيق في تفاصيل الوقائع في تاريخ الحروب الإسلامية الواقعة في زمن النبي ﷺ كبدر وأحد والخندق وحنين وغير ذلك يوضح أن الأمر في الغلبة والهزيمة كان يدور مدار رعاية المسلمين موادّ هذا الدستور الإلهي وعدم رعايتها، والمراقبة لها والمساهلة فيها.

قوله تعالى : «وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم» الى آخر الآية، تزيين الشيطان للانسان عمله هو إلقاؤه في قلبه كون العمل حسناً جميلاً يستلذ به وذلك بتهييج قواه الباطنة وعواطفه الداخلة المتعلقة بذلك العمل فينجذب إليه قلبه، ولا يجد فراغاً يعقل ماله من سوء الأثر وشؤم العاقبة .

وليس من البعيد ان يكون قوله : «وقال لا غالب لكم اليوم» الآية مفسراً أو بمنزلة المفسّر للتزيين الشيطاني على ان يكون المراد بالأعمال نتائجها وهي ما هيّؤوه من قوّة وسلاح وعدّة وما اخرجوه من القيان والمعازف والخمور، وما تظاهروا به من نظام الجيش والجنائب تساق بين أيديهم، ويمكن أن يكون المراد بها نفس الأعمال وهي أنواع تماديهم في الغي والضلال وإصرارهم في محادّة الله ورسوله، واسترسالهم في الظلم والفسق فيكون قوله المحكيّ : «لا غالب لكم اليوم من الناس» مما يتم به تزيين الشيطان ، وتطيب به نفوسهم فيما اهتموا به من قتال المسلمين، وقد اكمل ذلك بقوله : « وإني جار لكم ».

والجوار من سنن العرب في الجاهلية التي كانت تعيش عيشة القبائل، ومن حقوق الجوار نصرة الجار للجار اذا دهمه عدو ، وله آثار مختلفة بحسب السنن الجارية في المجتمعات الإنسانية .

وقوله : « فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه » النكوص الإحجام عن الشيء و«على عقبيه» حال والعقب مؤخر القدم أي أحجم وقد رجع القهقرى منهزماً وراءه.

وقوله: «إني أرى ما لا ترون» الآية تعليل لقوله : «إني بريء منكم» ولعله إشارة إلى نزول الملائكة المردفين الذين نصر الله المسلمين بهم، وكذا قوله : «إني أخاف الله والله شديد العقاب» تعليل لقوله : «إني بريء منكم» ومفسّر للتعليل السابق .

والمعنى ويوم الفرقان هو الوقت الذي زيّن الشيطان للمشركين ما كانوا يعملونه لمحادّة الله ورسوله وقتال المؤمنين، ويتلبسون به للتهيء على إطفاء نور الله، فزيّن ذلك

في أنظارهم،وطيّب نفوسهم بقوله:لا غالب لكم اليوم من الناس،وإني مجير لكم أذب عنكم فلما تراءت الفئتان فرأى المشركون المؤمنين والمؤمنون المشركين رجع الشيطان القهقرى منهزماً وراءه وقال للمشركين إني بريء منكم إني أرى ما لا ترونه من نزول ملائكة النصر للمؤمنين ومـــا عندهم من العذاب الذي يهددكم اني اخاف عذاب الله والله شديد العقاب .

وهــذا المعنى –كما ترى – يقبل الانطباق على وسوسة الشيطان لهم في قلوبهم وتهييجهم على المؤمنين وتشجيعهم على قتالهم وتطييب نفوسهم بما استعدوا به حتى اذا تراءت الفئتان ونزل النصر واستولى الرعب على قلوبهم انتكست اوهامهم وتبــدلت افكارهم وعادت مزعمة الغلبة وامنية الفتح والظفر مخافة مستولية على نفوسهم وخيبة ويأساً شاملة لقلوبهم .

ويقبل الانطباق على تصور شيطاني يبدو لهم فتنجذب اليه حواسهم بأن يكون قد تصور لهم في صورة انسـان ويقول لهم ما حكاه الله من قوله: «لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم» فيغويهم ويسيّرهم ويقربهم من القتال حتى اذا تقاربت الفئتان وتراءتا فلما تراءت الفئتان ورأى الوضع على خلاف ما كان يؤمله ويطمع فيه نكص على عقبيه وقال: اني بريء منكم اني ارى ما لا ترون من نزول النصر والملائكة اني اخاف الله والله شديد العقاب ، وقد ورد في روايات القصة من طرق الشيعة وأهل السنّة ما يؤيد هذا الوجه .

وهو ان الشيطان تصور للمشركين في صورة سراقة بن مالك بن جشعم الكناني ثم المدلجي وكان من أشراف كنانة وقال لهم مـــا قال وحمل رايتهم حتى اذا تلاقى الفريقان فرّ منهزماً وهو يقول: « اني بريء منكم اني أرى ما لا ترون » الى آخر ما حكاه الله تعالى ، وستجيء الرواية في البحث الروائي التالي ان شاء الله تعالى .

وقد أصرّ بعض المفسرين على الوجه الأول، وردّ الثاني بتزييف الآثار المروية وتضعيف أسناد الأخبار، وهي وإن لم تكن متواترة ولا محفوفة ببعض القرائن القطعية الموجبة للوثوق التام لكن اصل المعنى ليس من المستحيل الذي يدفعه العقل السليم ، ولا من القصص التي تدفعها آثار صحيحة ، ولا مانع من ان يتمثل لهم الشيطان فيوردهم مورد الضلال والغيّ حتى اذا تم له ما اراد تركهم في تهلكتهم او حتى شاهد

عذاباً إلهياً نكص على عقبيه هارباً .

على ان سياق الآية الكريمة اقرب الى إفادة هذا الوجه الثاني منه الى الوجه الأول، وخاصة بالنظر الى قوله: «وإني جار لكم» وقوله: «حتى اذا تراءت الفئتان نكص على عقبيه» وقوله: « إني أرى ما لا ترون » الآية فان إرجاع معنى قوله : «إني أرى» الخ مثلاً الى الخواطر النفسانية بنوع من العناية الاستعارية بعيد جداً .

قوله تعالى : « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم » الى آخر الآية، اي يقول المنافقون وهم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، والذين في قلوبهم مرض وهم الضعفاء في الايمان ممن لا يخلو نفسه من الشك والارتياب. يقولون – مشيرين الى المؤمنين إشارة تحقير واستذلال – : غرّ هؤلاء دينهم إذ لولا غرور دينهم لم يقدموا على هذه المهلكة الظاهرة، وهم شرذمة أذلاء لا عدة لهم ولا عُدة، وقريش على ما بهم من العدة والقوة والشوكة .

قوله تعالى : « ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم» في مقام الجواب عن قولهم وإبانة غرورهم انفسهم ؛ وقوله : « فان الله عزيز حكيم » من وضع السبب موضع المسبب ، والمعنى: وقد أخطأ هؤلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض في قولهم فان المؤمنين توكلوا على الله ونسبوا حقيقة التأثير اليه وضموا انفسهم الى قوّته وحوله ، ومن يتوكل امره على الله فان الله يكفيه لأنه عزيز ينصر من استنصره حكيم لا يخطأ في وضع كل امر موضعه الذي يليق به .

وفي الآية دليل على حضور جمع من المنافقين وضعفاء الايمان ببدر حين تلاقي الفئتين.

اما المنافقون وهم الذين كانوا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر فلا معنى لكونهم بين المشركين فلم يكونوا إلا بين المسلمين لكن الشأن في العامل الذي اوجب منهم الثبات واليوم يوم شديد .

وأما الضعفاء الإيمان او الشاكّون في حقيقة الإسلام فمن الممكن ان يكونوا بين المؤمنين او في فئة المشركين وقد قيل: انهم كانوا فئة من قريش أسلموا بمكة واحتبسهم آباؤهم ، واضطروا الى الخروج مع المشركين الى بدر حتى اذا حضروها وشاهدوا ما عليه المسلمون من القلة والذلة قالوا : مساكين هؤلاء غرهم دينهم ،

وسيجيء في البحث الروائي التالي ان شاء الله تعالى .

وعلى أي حال ينبغي إمعان النظر في البحث عما تفيده هذه الآية من حضور جمع من المنافقين والذين في قلوبهم مرض يوم بدر عند القتال، واستخراج حقيقة السبب الذي اوجب لهؤلاء المنافقين والضعفاء حضور هذه الغزوة، والوقوف في ذلك الموقف الصعب الهائل الذي لا يساعد عليه الأسباب العادية ولا يقف فيه إلا رجال الحقيقة الذين امتحن الله قلوبهم للإيمان . وأنهم لماذا حضروها ؟ وكيف ولماذا صبروا مع الصابرين من فئة الإسلام ؟ ولعلنا نوفق لبعض البحث في ذلك فيما سيوافي من آيات سورة التوبة في شأن المنافقين والذين في قلوبهم مرض إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة » الى تمام الآيتين . التوفي اخذ الحق بتمامه ، ويستعمل في كلامه تعالى كثيراً بمعنى قبض الروح ، ونسبة قبض ارواحهم الى الملائكة مع ما في بعض الآيات من نسبته الى ملك الموت ، وفي بعض آخر الى الله سبحانه كقوله : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » الم السجدة : ١١، وقوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » الزمر: ٤٢ دليل على ان لملك الموت اعواناً يتولون قبض الارواح هم بمنزلة الأيدي العمالة له يصدرون عن إذنه ويعملون عن امره، كما انه يصدر عن إذن من الله ويعمل عن امر منه، وبذلك يصح نسبة التوفي الى الملائكة الأعوان ، وإلى ملك الموت ، وإلى الله سبحانه .

وقوله : « يضربون وجوههم وأدبارهم » ظاهره انهم يضربون مقاديم ابدانهم وخلاف ذلك فيكنى به عن إحاطتهم واستيعاب جهاتهم بالضرب ، وقيل : إن الأدبار كناية عن الاستاه فبالمناسبة يكون المراد بوجوههم مقدم رؤوسهم ، وضرب الوجوه والأدبار بهذا المعنى يراد به الإزراء والإذلال .

وقوله : « وذوقوا عذاب الحريق » أي يقول لهم الملائكة : ذوقوا عذاب الحريق وهو النار .

وقوله : « ذلك بما قدمت ايديكم » تتمة لقولهم المحكي او إشارة الى مجموع ما يفعل بهم وما يقول لهم الملائكة ، والمعنى إنما نذيقكم عذاب الحريق بما قدمت ايديكم او: نضرب وجوهكم وأدباركم ونذيقكم عذاب الحريق بما قدمت ايديكم.

وقوله : «وأن الله ليس بظلام للعبيد» معطوف على موضع قوله «ما قدمت» أي وذلك بأن الله ليس بظلام للعبيد أي لا يظلم احداً من عبيده فإنه تعالى على صراط مستقيم لا تخلف ولا اختلاف في فعله فلو ظلم احداً لظلم كل احد ، ولو كان ظالماً لكان ظلاماً للعبيد فافهم ذلك .

وسياق الآيات يشهد على ان المراد بهؤلاء الذين يصفهم الله سبحانه بأن الملائكة يتوفاهم ويعذبهم هم المقتولون ببدر من مشركي قريش .

قوله تعالى : « كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله » الى آخر الآية . الدأب والديدن : العادة وهي العمل الذي يدوم ويجري عليه الإنسان، والطريقة التي يسلكها ، والمعنى كفر هؤلاء يشبه كفر آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم الخالية الكافرة كفروا بآيات الله وأذنبوا بذلك فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي لا يضعف عن اخذهم شديد العقاب إذا اخذ .

قوله تعالى : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» الخ أي ان العقاب الذي يعاقب به الله سبحانه إنما يعقب نعمة إلهية سابقة بسلبها واستخلافها ، ولا تزول نعمة من النعم الإلهية ولا تتبدل نقمة وعقاباً إلا مع تبدل محله وهو النفوس الإنسانية ، فالنعمة التي انعم بها على قوم إنما أُفيضت عليهم لما استعدوا لها في انفسهم ، ولا يسلبونها ولا تتبدل بهم نقمة وعقاباً إلا لتغييرهم ما بأنفسهم من الاستعداد وملاك الإفاضة وتلبسهم باستعداد العقاب .

وهذا ضابط كلي في تبدل النعمة الى النقمة والعقاب، وأجمع منه قوله تعالى: « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » الرعد : ١١ وإن كان ظاهره اظهر انطباقاً على تبدل النعمة الى النقمة .

وكيف كان فقوله : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً » الخ من قبيل التعليل بأمر عام وتطبيقه على مورده الخاص أي اخذ مشركي قريش بذنوبهم، وعقابهم بهذا العقاب الشديد، وتبديل نعمة الله عليهم عقاباً شديداً إنما هو فرع من فروع سنّة جارية إلهية هي ان الله لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وقوله : « وان الله سميع عليم » تعليل آخر بعد التعليل بقوله : « ذلك بأن

الله لم يك مغيراً» الخ وظاهره ــ بمقتضى إشعار السياق ــ ان المراد به: وذلك بأن الله سميع لدعواتكم عليم بحاجاتكم سمع استغاثتكم وعلم بحاجتكم فاستجاب لكم فعذب أعداءكم الكافرين بآيات الله، ويحتمل أن يكون المراد: ذلك بأن الله سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم فعذبهم على ذلك ، ويمكن الجمع بين المحتملين .

قوله تعالى: « كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم » الخ كرر التنظير السابق لمشابهة الفرض مع ما تقدم فقوله : « كدأب آل فرعون » الخ السابق تنظير لقوله: « ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلاّم للعبيد » كما ان قوله : « كدأب آل فرعون ــ الى قوله ــ وكل كانوا ظالمين » ثانياً تنظير لقوله : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة » الخ .

غير ان التنظير الثاني يشتمل على نوع من الالتفات في قوله: «فأهلكناهم بذنوبهم» وقد وقع بحذائه في التنظير الأول: «فأخذهم الله بذنوبهم» من غير التفات ولعل الوجه فيه ان التنظير الثاني لما كان مسبوقاً بإفادة ان الله هو المفيض بالنعم على عباده ولا يغيرها إلا عن تغييرهم ما بأنفسهم، وهذا شأن الرب بالنسبة الى عبيده اقتضى ذلك ان يعد هؤلاء عبيداً غير جارين على صراط عبودية ربهم ولذلك غيّر بعض سياق التنظير فقال في الثاني: «كذبوا بآيات ربهم» وقد كان بحذائه في الأول قوله: «كفروا بآيات الله » ولذلك التفت ههنا من الغيبة الى التكلم مع الغير فقال: « فأهلكناهم بذنوبهم» للدلالة على انه سبحانه هو ربهم وهو مهلكهم، وقد أخذ المتكلم مع الغير للدلالة على عظمة الشأن وجلالة المقام ، وان له وسائط يعملون بأمره ويجرون بمشيته .

وقوله : « وأغرقنا آل فرعون » أظهر المفعول ولم يقل : وأغرقناهم ليؤمن الالتباس برجوع الضمير الى آل فرعون والذين من قبلهم جميعاً .

وقوله تعالى: « وكل كانوا ظالمين » أي جميع هؤلاء الذين أخذهم العذاب الإلهي من كفار قريش وآل فرعون والذين من قبلهم كانوا ظالمين في جنب الله .

وفيه بيان ان الله سبحانه لا يأخذ بعقابه الشديد أحداً، ولا يبدل نعمته على احد نقمة إلا اذا كان ظالماً ظلماً يبدل نعمة الله كفراً بآياته فهو لا يعذب بعذابه إلا مستحقه.

(بحث روائي)

في الكافي عن علي بن ابراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن الحسين بن عثمان عن سماعة قال: سألت ابا الحسن عليه السلام عن الخمس فقال: في كل ما أفاد الناس من قليل او كثير.

وفيه عن علي بن ابراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن بعض أصحابنا عن العبد الصالح قال : الخمس في خمسة اشياء : من الغنائم والغوص ومن الكنوز ومن المعادن والملاحة يؤخذ من كل هذه الصنوف الخمس فيجعل لمن جعل الله له ، ويقسم اربعة أخماس بين من قاتل عليه وولى ذلك .

ويقسم بينهم الخمس على ستة اسهم : سهم لله ، وسهم لرسوله ، وسهم لذي القربى وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل فسهم الله وسهم رسوله لاولي الأمر من بعد رسول الله وراثة فله ثلاثة أسهم : سهمان وراثة ، وسهم مقسوم له من الله فله نصف الخمس كلاً، ونصف الخمس الثاني بين اهل بيته: فسهم ليتاماهم، وسهم لمساكينهم ، وسهم لأبناء سبيلهم يقسم بينهم على الكتاب والسنة ما يستغنون به في سنتهم فإن فضل منهم شيء فهو للوالي ، وإن عجز او نقص عن استغنائهم كان على الوالي ان ينفق من عنده ما يستغنون به ، وإنما صار عليه ان يمونهم لأن له ما فضل عنهم ، وإنما جعل الله هذا الخمس خاصة لهم دون مساكين الناس وأبناء سبيلهم عوضاً لهم عن صدقات الناس تنزيهاً من الله لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وكرامة من الله لهم من اوساخ الناس فجعل لهم خاصة من عنده وما يغنيهم به، ان يصيرهم في موضع الذل والمسكنة ، ولا بأس بصدقة بعضهم على بعض .

وهؤلاء الذين جعل الله لهم الخمس هم قرابة النبي صلى الله عليه وآله الذين ذكرهم الله فقال : «وانذر عشيرتك الأقربين» وهم بنو عبد المطلب أنفسهم الذكر منهم والانثى ليس فيهم من أهل بيوتات قريش ولا من العرب أحد، ولا فيهم ولا منهم في هذا الخمس من مواليهم ، وقد تحل صدقات الناس لمواليهم ، وهم والناس سواء .

ومن كانت أمه من بني هاشم وأبوه من سائر قريش فإن الصدقات تحل له، وليس له من الخمس شيء لأن الله يقول ، « ادعوهم لآبائهم » .

وفي التهذيب بإسناده عن علي بن مهزيار قال: قال لي علي بن راشد: قلت له: أمرتني بالقيام بأمرك وأخذ حقك فأعلمت مواليك بذلك فقال لي بعضهم: وأي شيء حقه؟ فلم أدر ما اجيبه! فقال: يجب عليهم الخمس فقلت: ففي أي شيء؟ فقال: في أمتعتهم وضياعهم قلت: والتاجر عليه والصانع بيده؟ فقال: ذلك اذا امكنهم بعد مؤنتهم.

وفيه بإسناده عن زكريا بن مالك الجعفي عن ابي عبد الله عليه‌السلام انه سئل عن قول الله: «واعلموا ان ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» فقال: خمس الله عز وجل للإمام، وخمس الرسول للامام، وخمس ذي القربى لقرابة الرسول للامام، واليتامى يتامى آل الرسول، والمساكين منهم، وأبناء السبيل منهم فلا يخرج منهم الى غيرهم.

وفيه باسناده عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن ابي عبد الله عليه‌السلام قال: قال له ابراهيم بن ابي البلاد: وجب عليك زكاة؟ قال: لا ولكن يفضل ونعطي هكذا، وسئل عن قول الله عز وجل: «واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى» فقيل له: فما كان لله فلمن هو؟ قال: للرسول، وما كان للرسول فهو للامام. قيل: أفرأيت إن كان صنف اكثر من صنف، وصنف اقل من صنف؟ فقال: ذلك للامام. قيل أفرأيت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كيف يصنع؟ قال: إنما كان يعطي على ما يرى هو، وكذلك الإمام.

أقول: والأخبار عن أئمة اهل البيت عليهم‌السلام متواترة في اختصاص الخمس بالله ورسوله والإمام من اهل بيته ويتامى قرابته ومساكينهم وأبناء سبيلهم لا يتعداهم الى غيرهم، وانه يقسم ستة اسهم على ما مر في الروايات، وانه لا يختص بغنائم الحرب بل يعمّ كل ما كان يسمّى غنيمة لغة من ارباح المكاسب والكنوز والغوص والمعادن والملاحة، وفي رواياتهم ـ كما تقدم ـ ان ذلك موهبة من الله لأهل البيت بما حرّم عليهم الزكوات والصدقات.

وفي الدر المنثور اخرج ابن ابي شيبة وابن المنذر من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما: ان نجدة الحروري أرسل يسأله عن سهم ذي القربى الذين ذكر الله فكتب اليه: إنا كنا نرى أنـّاهم فأبى ذلك علينا قومنا، وقالوا: ويقول لمن تراه؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو لقربى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قسّمه لهم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم.

وقد كان عمر (رض) عرض علينا من ذلك عرضاً رأيناه دون حقنا فرددناه عليه وأبينا ان نقبله. وكان عرض عليهم ان يعين ناكحهم، وأن يقضي عن غارمهم، وأن يعطي فقيرهم، وأبى ان يزيدهم على ذلك .

أقول : وقوله في الرواية: «قالوا ويقول لمن تراه» معناه : قال الذين ارسلهم نجدة الحروري لابن عباس: ويقول نجدة لمن ترى الخمس أي يسألك عن فتواك فيمن يصرف إليه الخمس .

وقوله: هو لقربى رسول الله قسمها لهم «الخ» ظاهره انه فسّر ذي القربى باقرباء النبي ﷺ، وظاهر الروايات السابقة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام انهم فسروا ذي القربى بالإمام من اهل البيت، وظاهر الآية يؤيد ذلك حيث عبّر بلفظ المفرد!

وفيه اخرج ابن المنذر عن عبد الرحمان بن ابي ليلى قال : سألت علياً رضي الله عنـه فقلت : يا امير المؤمنين اخبرني كيف كان صنع ابي بكر وعمر رضي الله عنهما في الخمس نصيبكم؟ فقال: اما ابو بكر (رض) فلم يكن في ولايته اخماس، وأما عمر (رض) فلم يزل يدفعه اليّ في كل خمس حتى كان خمس السوس وجند نيسابور فقال وأنا عنده، هذا نصيبكم أهل البيت من الخمس وقد أحل ببعض المسلمين واشتدت حاجتهم. فقلت، نعم، فوثب العباس بن عبد المطلب فقال، لا تعرض في الذي لنا. فقلت؛ ألسنا من ارفق المسلمين، وشفع امير المؤمنين، فقبضه فوالله ما قبضناه ولا قدرت عليه في ولاية عثمان رضي الله عنه .

ثم أنشأ علي رضي الله عنه يحدث فقال: ان الله حرم الصدقة على رسوله (ص) فعوضه سهماً من الخمس عوضاً مما حرم عليه، وحرمها على اهل بيته خاصة دون أمته فضرب لهم مع رسول الله (ص) سهماً عوضاً مما حرم عليهم .

وفيه أخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ص) رغبت لكم عن غسالة الأيدي لأن لكم في خمس الخمس ما يغنيكم او يكفيكم .

أقول : وهو مبني على كون سهم اهل البيت هو ما لذي القربى فحسب .

وفيه أخرج ابن ابي شيبة عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قسّم رسول الله (ص) سهم ذي القربى على بني هاشم وبني المطلب . قال : فمشيت انا وعثمان بن

عفان حتى دخلنا عليه فقلنا : يا رسول الله هؤلاء إخوانك من بني هاشم لا ينكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله به منهم . أرأيت إخواننا من بني المطلب اعطيتهم دوننا، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب؟ فقال: إنهم لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام. وفيه اخرج ابن مردويه عن زيد بن ارقم رضي الله عنه قال: آل محمد الذين أعطوا الخمس : آل علي وآل عباس وآل جعفر وآل عقيل .

أقول : والروايات في هذا الباب كثيرة من طرق اهل السنّة وقد اختلفت الروايات الحاكية لعمل النبي ﷺ من طرقهم بين ما مضمونه انه ﷺ كان يقسم الخمس على اربعة اسهم وبين ما مضمونه التقسيم على خمسة اسهم .

غير انه يقرب من المسلّم فيها ان من سهام الخمس ما يختص بقرابة النبي ﷺ وهم المعنيون بذي القربى في آية الخمس على خلاف ما في الروايات المروية عن أئمة اهل البيت (ع).

ومما يقرب من المسلّم فيها ان النبي ﷺ كان يقسمه بين المطّلبيين مادام حياً، وانه انقطع عنهم على هذا الوصف في زمن الخلفاء الثلاث ثم جرى على ذلك الأمر بعدهم.

ومن المسلم فيها ايضاً ان الخمس يختص بغنائم الحرب –على خلاف ما عليه الروايات من طرق ائمة اهل البيت (ع)– ولا يتعداها الى كل ما يصدق عليه اسم الغنيمة لغة.

وما يتعلق بالآية من محصل البحث التفسيري هو الذي قدمناه وهناك ابحاث أخر كلامية او فقهية خارجة عن غرضنا. وهناك بحث حقوقي اجتماعي في ما يؤثره الخمس من الأثر في المجتمع الإسلامي سيوافيك في ضمن الكلام على الزكاة .

بقي الكلام فيما تتضمنه الروايات ان الله سبحانه اراد بتشريع الخمس إكرام اهل بيت النبي ﷺ وأسرته وترفيعهم من ان يأخذوا اوساخ الناس في اموالهم ، والظاهر ان ذلك مأخوذ من قوله تعالى في آية الزكاة خطاباً لنبيه ﷺ : « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم» التوبة : ١٠٣ فان التطهير والتزكية إنما يتعلق بما لا يخلو من دنس ووسخ ونحوهما ولم يقع في آية الخمس ما يشعر بذلك .

وفي الدر المنثور اخرج عبد الرزاق وابن جرير عن عروة بن الزبير (رض) قال: أمر رسول الله (ص) بالقتل في آي من القرآن فكان اول مشهد شهده رسول الله (ص)

بدراً، وكان رئيس المشركين يومئذ عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فالتقوا يوم الجمعة ببدر لسبع او ست عشرة ليلة مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ ثلاث مائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون بين الألف والتسعمائة، وكان ذلك يوم الفرقان يوم فرّق الله بين الحق والباطل فكان اول قتيل قتل يومئذ مهجع مولى عمرو رجل من الأنصار، وهزم الله يومئذ المشركين فقتل منهم زيادة على سبعين رجـلاً، وأسر منهم مثل ذلك.

وفيه اخرج ابن مردويه عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال: كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان.

اقول: وروى مثل ذلك عن ابن جرير عن الحسن بن علي وعن ابن ابي شيبة عن جعفر عن ابيه، وأيضاً عنه عن ابي بكر عن عبد الرحمن بن هشام، وعنه عن عامر بن ربيعة البدري مثله لكن فيه، كان يوم بدر يوم الاثنين لسبع عشرة من رمضان.

وربما أطلق في بعض اخبار أئمة اهل البيت عليهم السلام على التسعة عشر من رمضان يوم يلتقي الجمعان لما عدّ ليلته في اخبارهم من ليلة القدر، وهذا معنى آخر غير ما اريد في الآية من «يوم الفرقان يوم التقى الجمعان» ففي تفسير العياشي عن إسحاق بن عمار عن ابي عبدالله عليه السلام قال: في تسعة عشر من شهر رمضان يلتقي الجمعان. قلت: ما معنى قوله: يلتقي الجمعان؟ قال: يجتمع فيها ما يريد من تقديمه وتأخيره وإرادته وقضائه.

وفي تفسير العياشي عن محمد بن يحيى عن ابي عبدالله عليه السلام في قوله: «والركب اسفل منكم» قال: ابو سفيان وأصحابه.

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى: «ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة» الآية قال: قال: يعلم من بقي ان الله نصره.

وفي الدر المنثور في قوله تعالى: «وإذ يريكموهم إذ التقيتم» الآية اخرج ابن ابي شيبة وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قللوا في اعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل الى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: لا بل مائة.

وفيه في قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم» الخ اخرج الحاكم وصححه عن ابي موسى رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ كان يكره الصوت عند القتال.

وفيه اخرج ابن ابي شيبة عن النعمان بن مقرن رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ اذا كان عند القتال لم يقاتل اول النهار ، وأخره الى ان تزول الشمس وتهبّ الرياح وتنزل النصر .

وفي تفسير البرهان فيقوله تعالى: «وإذ زين لهم الشيطان اعمالهم» الآية بإسناده عن يحيى بن الحسن بن فرات قال: حدثنا ابو المقدم ثعلبة بن زيد الانصاري قال: سمعت جابر بن عبدالله بن حرام الانصاري رحمه الله يقول : تمثل إبليس في اربع صور :

تمثل يوم بدر في صورة سراقة بن مالك بن جشعم المدلجي فقال لقريش : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم .

وتصور يوم العقبة في صورة منبه بن الحجاج فنادى : إن محمداً والصباة معه عند العقبة فأدركوهم. قال رسول الله ﷺ للأنصار: لا تخافوا فإن صوته لن يعدوه.

وتصور في يوم اجتماع قريش في دار الندوة في صورة شيخ من اهل نجد وأشار عليهم في امرهم فأنزل الله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

وتصور في يوم قبض رسول الله ﷺ في صورة المغيرة بن شعبة فقال : أيها الناس لا تجعلوا كسروانية ولا قيصرانية وسعوها تتسع فلا تردوا الى بني هاشم فينظر بها الحبالى .

وفي المجمع قيل : إنهم لما التقوا كان إبليس في صف المشركين اخذ بيده الحارث بن هشام فنكص على عقبيه فقال له الحارث بن هشام : يا سراقة الى أين ؟ أتخذلنا في هذه الحالة ؟ فقال : اني أرى ما لا ترون ، فقال : والله ما نرى إلا جماميس يثرب فدفع في صدر الحارث وانطلق وانهزم الناس .

فلما قدموا مكة قالوا : هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم فقالوا : انك أتيتنا يوم كذا فحلف لهم فلما اسلموا علموا ان ذلك كان الشيطان. قال: وروي ذلك عن ابي جعفر وأبي عبدالله عليهم السلام.

اقول : وروى مثله ابن شهر آشوب عنهما عليهما السلام ، وفي معنى هاتين الروايتين روايات كثيرة من طرق اهل السنّة عن ابن عباس وغيره .

وقد مرّ في البيان المتقدم استبعاد بعض المفسرين ذلك وتضعيفه ما ورد فيه من الروايات ، وهي إنما تثبت امراً ممكناً غير مستحيل، والاستبعاد الخالي لا يبنى عليه في الأبحاث العلمية، والتمثلات البرزخية ليست بشاذة نادرة فلا موجب للإصرار على النفي كما ان الإثبات كذلك غير أن ظاهر الآية اوفق للإثبات .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « وإذ زين لهم الشيطان » الآيتين اخرج ابن ابي حاتم عن ابن إسحاق في قوله : « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض » قال : هم الفئة الذين خرجوا مع قريش احتبسهم آباؤهم فخرجوا وهم على الارتياب فلما رأوا قلة اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالوا : غرّ هؤلاء دينهم حين قدموا على ما قدموا عليه من قلة عددهم وكثرة عدوّهم .

وهم فئة من قريش مسمّون خمسة: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه ابن المغيرة المخزوميان، والحارث بن زمعة، وعلي بن امية بن خلف، والعاصي بن منبه.

اقول : وهذا يقبل الانطباق بوجه على قوله تعالى: «والذين في قلوبهم مرض» فحسب، وفي بعض التفاسير ان القائل : « غر هؤلاء دينهم » هم المنافقون والذين في قلوبهم مرض من اهل المدينة ، ولم يخرجوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وسياق الآية الظاهر في حضورهم وقولهم ذلك عند التقاء الفئتين يأبى ذلك .

وفي رواية ابي هريرة –على ما رواه في الدر المنثور عن الطبراني في الأوسط عنه– ما لفظه ، وقال عتبة بن ربيعة وناس معه من المشركين يوم بدر، «غر هؤلاء دينهم» فأنزل الله ، « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم» . والذي ذكره لا ينطبق على الآية البتة فالقرآن الكريم لا يسمي المشركين منافقين ولا الذين في قلوبهم مرض .

وفي تفسير العياشي عن ابي علي المحمودي عن ابيه رفعه في قول الله، يضربون وجوههم وأدبارهم قال ، إنما اراد أستاههم . إن الله كريم يكنى .

وفي تفسير الصافي عن الكافي عن الصادق عليه السلام ان الله بعث نبياً من انبيائه إلى

قومه،وأوحى اليه ؛ أن قل لقومك انه ليس من اهل قرية ولا ناس كانوا على طاعتي فأصابهم فيها سرّاء فتحولوا عما أحب الى ما اكره إلا تحولت لهم عما يحبون إلى ما يكرهون،وانه ليس من اهل قرية ولا اهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عما اكره الى ما أحب إلا تحولت لهم عما يكرهون الى ما يحبون .

وفيه ايضاً عنه عليه‌السلام انه قال ، كان ابي يقول؛ان الله عز وجل قضى قضاءً حتماً،لا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها اياه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة.

* * *

إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ــ ٥٥ . الَّذينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ في كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ــ ٥٦. فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ــ ٥٧. وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخائِنينَ ــ ٥٨. وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ــ ٥٩. وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ في سَبيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ــ ٦٠ . وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّميعُ الْعَليمُ ــ ٦١. وَإِنْ يُريدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنينَ ــ ٦٢ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَميعاً

مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ – ٦٣. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ – ٦٤. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ – ٦٥. الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ – ٦٦.

(بيان)

أحكام ودستورات في الحرب والسلم والمعاهدات ونقضها وغير ذلك ، وصدر الآيات يقبل الانطباق على طوائف اليهود التي كانت في المدينة وحولها وقد كان النبي ﷺ عاهدهم بعد هجرته الى المدينة ان لا يضروه ولا يغدروا به ولا يعينوا عليه عدواً ويقرّوا على دينهم ويأمنوا في انفسهم فنقضوا العهد نقضاً بعد نقض حتى أمر الله سبحانه بقتالهم فآل امرهم الى ما آل اليه ، وسيجيء بعض اخبارهم في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

وعلى هذا فالآيات الأربع الاول غير نازلة مع ما سبقها من الآيات ولا متصلة بها كما يعطيه سياقها وأما السبع الباقية فليست بواضحة الاتصال بما قبلها من الآيات الأربع ولا بما قبل ما قبلها .

قوله تعالى : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون » الكلام مسوق لبيان كون هؤلاء شر جميع الموجودات الحية من غير شك في ذلك لما في تقييد الحكم بقوله: «عند الله» من الدلالة عليه فان معناه الحكم؛ وما يحكم ويقضي به الله سبحانه لا يتطرق اليه خطأ وقد قال تعالى : «لا يضل ربي ولا ينسى» طه : ٥٢ .

وقد افتتح هذه القطعة من الكلام المتعلق بهم بكونهم شر الدواب عنده لأن مغزى الكلام التحرز منهم ودفعهم، ومن المغروز في الطباع ان الشر الذي لا يرجى معه خير يجب دفعه بأي وسيلة صحت وأمكنت فناسب ما سيأمره في حقهم بقوله: «فإما تثقفنهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم» الخ الافتتاح ببيان كونهم شر الدواب.

وعقّب قوله: «الذين كفروا» بقوله: «فهم لا يؤمنون» مبتدأ بفاء التفريع اي ان من وصفهم الذي يتفرع على كفرهم انهم لا يؤمنون، ولا يتفرع عدم الايمان على الكفر إلا اذا رسخ في النفس رسوخاً لا يرجى معه زواله فلا مطمع حينئذ في دخول الإيمان في قلب هذا شأنه لمكان المضادة التي بين الكفر والايمان.

ومن هنا يظهر ان المراد بقوله: «الذين كفروا» الذين ثبتوا على الكفر، وعند هذا يرجع معنى هذه الآية الى نظيرتها السابقة: «ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون» الأنفال: ٢٣.

على ان الآيتين لما دلتا على حصر الشر عند الله في طائفة معينة من الدواب كانت الآية الاولى مع دلالتها على كون اهلها ممن لا يؤمنون البتة دالة على ان المراد بقوله في الآية الثانية: «الذين كفروا فهم لا يؤمنون» كونهم ثابتين على كفرهم لا يزولون عنه البتة.

قوله تعالى: «الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون» بيان للذين كفروا في الآية السابقة او بدل منهم بدل البعض من الكل، ويتفرع عليه أن «من» في قوله «منهم» تبعيضية والمعنى: الذين عاهدتهم من بين الذين كفروا، وأما احتمال ان يكون من زائدة والمعنى: الذين عاهدتهم، او بمعنى مع والمعنى: الذين عاهدت معهم: فليس بشيء.

والمراد بكل مرة مرات المعاهدة اي ينقضون عهدهم في كل مرة عاهدتهم وهم لا يتقون الله في نقض العهد او لا يتقونكم ولا يخافون نقض عهدكم، وفيه دلالة على تكرر النقض منهم.

قوله تعالى: «فإما تثقفنهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلهم يذّكّرون»

قال في المجمع الثقف الظفر والادراك بسرعة، والتشريد التفريق على اضطراب. انتهى، وقوله: «فإما تثقفنهم» أصله إن تثقفهم دخل «ما» التأكيد على ان الشرطية ليصحح دخول نون التأكيد على الشرط والكلام مسوق للتأكيد في ضمن الشرط.

والمراد بتشريد من خلفهم بهم ان يفعل بهم من التنكيل والتشديد ما يعتبر به من خلفهم، ويستولي الرعب والخوف على قلوبهم فيتفرقوا وينحل عقد عزيمتهم واتحاد ارادتهم على قتال المؤمنين وإبطال كلمة الحق.

وعلى هذا فالمراد بقوله: «لعلهم يذكّرون» رجاء ان يتذكروا ما لنقض العهد والإفساد في الارض والمحادّة مع كلمة الحق من التبعة السيئة والعاقبة المشؤومة فان الله لا يهدي القوم الفاسقين وإن الله لا يهدي كيد الخائنين.

ففي الآية إيماء الى الأمر بقتالهم ثم التشديد عليهم والتنكيل بهم عند الظفر بهم وثقفهم، وإيماء الى ان وراءهم من حاله حالهم في نقض العهد وتربّص الدوائر على الحق وأهله.

قوله تعالى: «وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين» الخيانة – على ما في المجمع – نقض العهد فيما يؤتمن عليه، وهذا معنى الخيانة في العهود والمواثيق، وأما الخيانة بمعناها العام فهي نقض ما أُبرم من الحق في عهد أو امانة، والنبذ هو الإلقاء ومنه قوله: «فنبذوه وراء ظهورهم» آل عمران: ١٨٧ والسواء بمعنى الاستواء والعدل.

وقوله: «وإما تخافن» كقوله في الآية السابقة: «فإما تثقفنهم» ومعنى الخوف ظهور امارات تدل على وقوع ما يجب التحرز منه والحذر عنه وقوله: «إن الله لا يحب الخائنين» تعليل لقوله: «فانبذ اليهم على سواء».

ومعنى الآية: وإن خفت من قوم بينك وبينهم عهد ان يخونوك وينقضوا عهدهم ولاحت آثار دالـة على ذلك فانبذ وألق إليهم عهدهم وأعلمهم إلغاء العهد لتكونوا انتم وهم على استواء من نقض العهد او تكون مستوياً على عدل فإن من العدل المعاملة بالمثل والسواء لأنك إن قاتلتهم بغير إعلام إلغاء العهد كان ذلك منك خيانة والله لا يحب الخائنين.

وملخص الآيتين دستوران إلهيان في قتال الذين لا عهد لهم بالنقض او بخوفه فان كان اهل العهد من الكفار لا يثبتون على عهدهم بنقضه في كل مرة فعلى ولي الأمر ان يقاتلهم ويشدد عليهم، وإن كانوا بحيث يخاف من خيانتهم ولا وثوق بعهدهم فيُعلمون إلغاء عهدهم ثم يقاتلون ولا يبدأ بقتالهم قبل الإعلام فإنما ذلك خيانة، وأما إن كانوا عاهدوا ولم ينقضوا ولم يخف خيانتهم فمن الواجب حفظ عهدهم واحترام عقدهم وقد قال تعالى: «فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم» التوبة: ٤ . وقال: «اوفوا بالعقود» المائدة: ١ .

قوله تعالى: « ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا انهم لا يعجزون» القراءة المشهورة «تحسبن» بتاء الخطاب، وهو خطاب للنبي ﷺ تطييباً لنفسه وتقوية لقلبه كالخطاب الآتي بعد عدة آيات : «يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين» وكالخطاب الملقى بعده لتحريض المؤمنين : « يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال » .

والسبق تقدم الشي على طالب اللحوق به ، والإعجاز إيجاد العجز ، وقوله : «انهم لا يعجزون» تعليل لقوله: « ولا تحسبن » الخ ، والمعنى: يا أيها النبي لا تحسبن ان الذين كفروا سبقونا فلا ندركهم، لأنهم لا يعجزون الله وله القدرة على كل شيء .

قوله تعالى: « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» . الى آخر الآية الإعداد تهيئة الشيء للظفر بشيء آخر وإيجاد مـا يحتاج اليه الشيء المطلوب في تحققه كإعداد الحطب والوقود للإيقاد وإعداد الإيقاد للطبخ، والقوة كل ما يمكن معه عمل من الأعمال، وهي في الحرب كل ما يتمشى به الحرب والدفاع من انواع الاسلحة، والرجـال المدربين والمعاهد الحربية التي تقوم بمصلحة ذلك كله ، والرباط مبالغة في الربط وهو أيسر من العقد يقال: ربطه يربطه ربطاً ورابطه يرابطه مرابطة ورباطاً فالكل بمعنى غير ان الرباط ابلغ من الربط ، والخيل هو الفرس ، والإرهاب قريب المعنى من التخويف .

وقوله : « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» امر عام بتهيئة المؤمنين مبلغ استطاعتهم من القوى الحربية ما يحتاجون اليه قبال ما لهم من الأعداء في الوجود او في الفرض والاعتبار فان المجتمع الانساني لا يخلو من التألف من أفراد او أقوام مختلفي الطباع ومتضادي الأفكار لا ينعقد بينهم مجتمع على سنّة قيّمة بمنافعهم إلا وهناك مجتمع آخر يضادّه في منافعه ، ويخالفه في سنّته ، ولا يعيشان

معاً برهة من الدهر إلا وينشب بينهما الخلاف ويؤدي ذلك الى التغلب والقهر .

فالحروب المبيدة والاختلافات الداعية إليها مما لا مناص عنها في المجتمعات الانسانية والمجتمعات هي هذه المجتمعات، ويدل على ذلك ما نشاهده من تجهّز الانسان في خلقه بقوى لا يستفاد منها إلا للدفاع كالغضب والشدّة في الأبدان، والفكر العامل في القهر والغلبة، فمن الواجب الفطرىّ على المجتمع الإسلامي أن يتجهّز دائماً بإعداد ما استطاع من قوّة ومن رباط الخيل بحسب ما يفترضه من عدو لمجتمعه الصالح .

والذي اختاره الله للمجتمع الإسلامي بما أنزل عليهم من الدين الفطريّ الذي هو الدين القيّم هي الحكومة الإنسانية التي يحفظ فيها حقوق كل فرد من أفراد مجتمعها، ويراعى فيها مصلحة الضعيف والقوي والغني والفقير والحر والعبد والرجل والمرأة والفرد والجماعة والبعض والكل على حد سواء دون الحكومة الفردية الاستبدادية التي لا تسير إلا على ما تهواه نفس الفرد المتولي لها الحاكم في دماء الناس وأعراضهم وأموالهم بما شاء وأراد، ولا الحكومة الأكثرية التي تطابق أهواء الجمهور من الناس وتبطل منافع آخرين وترضي الأكثرين (النصف+واحد) وتضطهد وتسخط الأقلين (النصف–واحد) .

ولعل هذا هو السر في قوله تعالى: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» حيث وجّه الخطاب الى الناس بعدما كان الخطاب في الآيات السابقة موجهاً الى النبي ﷺ كقوله: «فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم» وقوله: «فانبذ اليهم على سواء» وقوله: «ولا تحسبنّ الذين كفروا سبقوا» وكذا في الآيات التالية كقوله: «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها» الى غير ذلك .

وذلك ان الحكومة الإسلامية حكومة إنسانية بمعنى مراعاة حقوق كل فرد وتعظيم ارادة البعض واحترام جانبه أي من كان من غير اختصاص الإرادة المؤثّرة بفرد واحد او بأكثر الأفراد .

فالمنافع التي يهددها عدوهم هي منافع كل فرد فعلى كل فرد ان يقوم بالذب عنها، ويعدما استطاع من قوة لحفظها من الضيعة، والإعداد وان كان منه ما لا يقوم بأمره إلا الحكومات بما لها من الاستطاعة القوية والإمكانات البالغة لكن منها ما يقوم بالأفراد بفرديتهم كتعلم العلوم الحربية والتدرب بفنونها فالتكليف تكليف الجميع .

وقوله تعالى:«ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم»في مقام التعليل لقوله:«وأعدوا لهم»أي وأعدوا لهم ذلك لترهبوا وتخوفوا به عدو الله وعدوكم،وفي عدّهم عدواً لله ولهم جميعاً بيان للواقع وتأكيد في التحريض.

وفي قوله:«وآخرين من دونهم»لا تعلمونهم»دلالة على ان المراد بالأولين هم الذين يعرفهم المؤمنون بالعداوة لله ولهم،والمراد بهؤلاء الذين لا يعلمهم المؤمنون ـ على ما يعطيه إطلاق اللفظ ـ كل من لا خبرة للمؤمنين بتهديده إياهم بالعداوة من المنافقين الذين هم في كسوة المؤمنين وصورتهم يصلّون ويصومون ويحجون ويجاهدون ظاهراً،ومن غير المنافقين من الكفار الذين لم يبتل بهم المؤمنون بعد .

والإرهاب باعداد القوة، وان كان في نفسه من الأغراض الصحيحة التي تتفرع عليها فوائد عظيمة ظاهرة غير أنه ليس تمام الغرض المقصود من إعداد القوة ، ولذلك أردفه بقوله:«وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون»ليدل على جماع الغرض .

وذلك ان الغرض الحقيقي من إعداد القوى هو التمكن من الدفع مبلغ الاستطاعة، وحفظ المجتمع من العدو الذي يهدده في نفوسه وأعراضه وأمواله ، وباللفظ المناسب لغرض الدين إطفاء نائرة الفساد الذي يبطل كلمة الحق ويهدم بنيان دين الفطرة الذي به يعبد الله في أرضه ويقوم ملاك العدل في عباده .

وهذا أمر ينتفع به كل فرد من أفراد المجتمع الديني فما أنفقه فرد او جماعة في سبيل الله، وهو الجهاد لإحياء أمره فهو بعينه يرجع الى نفسه وان كان في صورة اخرى فان أنفق في سبيله مالاً أو جاهاً او اي نعمة من هذا القبيل فهو من الإنفاق في سبيل الضروريات الذي لا يلبث دون ان يرجع إليه نفسه نفعه وما استعقبه من نماء في الدنيا والآخرة، وان أنفق في سبيله نفساً فهو الشهادة في سبيل الله التي تستتبع حياة باقية خالدة حقة لمثلها فليعمل العاملون لا كما يغر به آحاد الفادين في سبيل المقاصد الدنيوية ببقاء الاسم وخلود الذكر وتمام الفخر فهؤلاء وان تنبهوا اليوم لهذا التعليم الإسلامي، وأن المجتمع كنفس واحدة تشترك أعضاؤها فيما يعود إليها من نفع وضرر لكنهم خبطوا في مسيرهم واشتبه عليهم الأمر في تشخيص الكمال الانساني الذي لأجله تندبه الفطرة وتدعوه الى الاجتماع ، وهو التمتع من الحياة الدائمة ، فحسبوه الحياة الدنيا

الدائرة فضاق عليهم المسلك في أمثال التفدية بالنفس لأجل تمتع الغير بلذائذ المادة .

وبالجملة فاعداد القوة إنما هو لغرض الدفاع عن حقوق المجتمع الاسلامي ومنافعه الحيوية ، والتظاهر بالقوة المعدة ينتج إرهاب العدو ، وهو أيضاً من شعب الدفع ونوع معه ،فقوله تعالى : «ترهبون به عدو الله» الخ يذكر فائدة من فوائد الإعداد الراجعة الى افراد المجتمع ، وقوله : « وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون » يذكر ان ما أنفقوه في سبيله لا يبطل ولا يفوت بل يرجع اليهم من غير ان يفوت عن ذي حق حقه .

وهذا اعني قوله : «وما تنفقوا من شيء في سبيل الله» الخ اعم فائدة من مثل قوله : « وما تنفقوا من خير يوف اليكم » البقرة : ٢٧٢ فإن الخير منصرف الى المال فلا يشمل النفس بخلاف قوله ههنا : « وما تنفقوا من شيء » .

قوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » في المجمع : الجنوح الميل ، ومنه جناح الطائر لأنه يميل بـه في احد شقيه ، ولا جناح عليه أي لا ميل الى مأثم . انتهى ، والسلم بفتح السين وكسرها الصلح .

وقوله : «وتوكل على الله» من تتمة الأمر بالجنوح فالجميع في معنى امر واحد، والمعنى : وإن مالوا الى الصلح والمسالمة فمل اليها وتوكل في ذلـك على الله ولا تخف من ان يضطهدك أسباب خفية عنك على غفلة منك وعدم تهيؤ لها فإن الله هو السميع العليم لا يغفله سبب ولا يعجزه مكربل ينصرك ويكفيك وهذا هو الذي يثبته قوله في الآية التالية « وإن يريدوا ان يخدعوك فإن حسبك الله » .

وقد تقدم فيما اسلفناه من معنى التوكل على الله انه ليس اعتماداً عليه سبحانه بإلغاء الأسباب الظاهرية بـل سلب الاعتماد القطعي على الأسباب الظاهرية لأن الذي يبدو للإنسان منها بعض يسير منها دون جميعها، والسبب التام الذي لا يتخلف عن مسببه هو الجميع الذي يحمل إرادته سبحانه .

فالتوكل هو توجيه الثقـة والاعتماد الى الله سبحانه الذي بمشيته يدور رحى الأسباب عامة ، ولا ينافيه ان يتوسل المتوكل بما يمكنه التوسل بـه من الأسباب اللائحة عليه من غير ان يلغي شيئاً منها فيركب مطية الجهل .

قوله تعالى: «وإن يريدوا ان يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين» الآية متصلة بما قبلها وهي بمنزلة دفع الدخل ، وذلك ان الله سبحانه لما امر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالجنوح للسلم ان جنحوا له ولم يرض بالخديعة لأنها من الخيانة في حقوق المعاشرة والمواصلة للعامة والله لا يحب الخائنين كان امره بالجنوح المذكور مظنة سؤال وهو ان من الجائز ان يكون جنوحهم للسلم خديعة منهم يضلون بها المؤمنين ليغيروا عليهم في شرائط وأحوال مناسبة فأجاب سبحانه بأنا امرناك بالتوكل فإن أرادوا بذلك ان يخدعوك فإن حسبك الله وقد قال تعالى: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ امره» .

وهذا مما يدل على ان هناك أسباباً وراء ما ينكشف لنا من الأسباب الطبيعية العادية تجري على ما يوافق صلاح العبد المتوكل إذا خانته الأسباب الطبيعية العادية ولم تساعده على مطلوبه الحق .

وقوله : «هو الذي ايّدك بنصره وبالمؤمنين» بمنزلة الاحتجاج على قوله : «فإن حسبك الله» بذكر شواهد تدل على كفايته تعالى وهي انه ايّده بنصره وأيّده بالمؤمنين وألف بين قلوبهم وهي شيء متباغضة .

قوله تعالى : «وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم» الخ ، قال الراغب : الإلف اجتماع مع التيام يقال : ألفت بينهم ، ومنه الألفة ، ويقال : للمألوف إلف وآلف قال تعالى : «إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم» انتهى .

أورد سبحانه في جملة ما استشهد على كفايته لمن توكل عليه انه كفى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بتأليف قلوب المؤمنين بعد ذكر تأييده بهم ، والكلام مطلق والملاك المذكور فيه عام يشمل جميع المؤمنين وإن كانت الآية اظهر انطباقاً على الأنصار حيث ايّد الله بهم نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فآووه ونصروه وألف الله سبحانه بدينه بينهم أنفسهم وقد نشبت فيهم الحروب المبيدة وكانت قائمة على ساقها دهراً طويلاً وهي حرب «بغاث» بين الأوس والخزرج حتى اصطلحوا بنزول الاسلام في دارهم وأصبحوا بنعمته إخواناً .

وقد امتن الله بتأليفه بين قلوب المسلمين في مواضع من كلامه وبين أهمية موقعه

بمثل قوله : « لو أنفقت مـا في الأرض جميعاً ما ألفت بـين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم » .

وذلك أن الإنسان مفطور على حب النعم الحيوية التي تتم بها حياته لا بغية له دونها ولا يريد في الحقيقة شيئاً ولا يقصده إلا لينتفع به في نفسه وما ربما يلوح انه يريد نفعاً عائداً الى غيره فالتأمل الدقيق يكشف عن اشتماله على نفع عائد اليه نفسه، وإذ كان يحب الوجدان فهو يبغض الفقدان .

وبهذين الوصفين الغريزيين أعني الحب والبغض يتم له امر الحياة ولو انه احب كل شيء ومنهـا الأضداد والمتناقضات لبطلت الحياة ولو انـه أبغض كل شيء حتى المتنافيات لبطلت الحياة ، وقد فطره الله سبحانه على الحياة الاجتماعية ؛ لقصور ما عنده من القوى والأدوات عن القيام بجميع ما يحتاج اليه من ضروريات حياته ومن الضروري ان الاجتماع لا يتم إلا باختصاص كل فرد بما يحرم عنه آخرون من مال أو جـاه او زينة او جمال او كل ما يتنافس فيه الطباع الإنساني او يتعلق بـه الهوى النفساني على اختلاف فيه بالزيادة والنقيصة .

وهذا اول ما يودع انواع العداوة والبغضاء في القلوب والشح في النفوس ثم ما ينبسط بينهم من وجوه الحرمان بالظلم والعدوان وبغي البعض على البعض في دم او عرض او مال او غير ذلك مما يتنعمون به ويتنافسون فيه ويعملون لأجله ، تثير في داخل نفوسهم كل بغضاء وشنآن .

وهذا كله اوصاف وغرائز باطنية في الجماعة لا تلبث دون ان تظهر في اعمالهم وتتلاقى في افعالهم ويماسّ بعضها بعضاً بينهم في مسير حياتهم وفيه البلوى التي تتعقب الفتن والمصائب الاجتماعية التي تبيد النفوس وتهلك الحرث والنسل، وقد شهدت بذلك الحوادث الجارية على توالي القرون والأجيال .

ومهما ظنّت الامم المجتمعة ان بغيتهـا في اجتماعها هي التمتع من العيشة المادية المحدودة بالحياة الدنيوية فلا سبيل الى قلع مادة هذا الفساد من اصلها وقطع منابته فإن الدار دار التزاحم، والمجتمع قائم على قاعدة الاختصاص، والنفوس مختلفة في الاستعداد، والحوادث الواقعة والعوامل المؤثرة والأحوال الخارجة دخيلة في معايشهم وحياتهم.

قال تعالى : إن الإنسان خلق هلوعاً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً » المعارج : ٢١ ، وقال : « إن النفس لأمّارة بالسوء » يوسف: ٥٣، وقال: «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم»هود: ١١٩ ،الى غير ذلك من الآيات.

وغاية ما يمكن الإنسان في بسط الالفة وإرضاء القلوب المشحونة بالعداوة والبغضاء ان يقنعهم او يسكتهم ببذل ما يحبون من مال او جاه او سائر النعم الدنيوية المحبوبة عندهم غير انه إنما ينفع في موارد جزئية خاصة ، وأما العداوة والبغضاء العامتان فلا سبيل الى إزالتها عن القلوب ببذل النعمة فإنه لا يبطل غريزة الاستزادة والشح الملتهب في كل نفس بما يشاهد من المزايا الحيوية عند غيره .

على ان من النعم ما لا يقبل إلا الاختصاص والانفراد كالملك والرئاسة العالية وأمور أخرى تجري مجراهما حتى ان الامم الراقية ذوي المدنية والحضارة لم يتمكنوا من معالجة هذا الداء إلا بما يزول به بعض شدته ، ويستريح جثمان المجتمع من بعض عذابه، وأما البغضاءات المتعلقة بالامور التي تختص به بعض مجتمعهم كالرئاسة والملك فهي على حالها تتقد بشررها القلوب ولا يزال يأكل بعضها بعضاً .

على ان ذلك ينحصر فيما بينهم وأما المجتمعات الخارجة من مجتمعهم فلا يعبأ بحالهم ولا يعتنى من منافعهم الحيوية إلا بما يوافق منافع اولئك وإن اعيتهم طوارق البلاء وعفاهم الدهر بالعناء .

وقد منّ الله على الامة الإسلامية إذ أزال الشح عن نفوسهم وألف بين قلوبهم بمعرفة إلهية علمه إياهم وبثه فيما بينهم ببيان ان الحياة الإنسانية حياة خالدة غير محصورة في هذه الأيام القلائل التي ستفنى ويبقى الإنسان ولا خبر عنها، وان سعادة هذه الحياة الدائمة غير التمتع بلذائذ المادة والرعي في كلا الخسة بل هي حياة واقعية وعيشة حقيقية يحيى ويعيش بها الإنسان في كرامة عبودية الله سبحانه، ويتنعم بنعم القرب والزلفى ثم يتمتع بما تيسر له من متاع الحياة الدنيا مما ساقه اليه الحظ او الاكتساب عارفاً بحقوق النعمة ثم ينتقل الى جوار الله ويدخل دار رضوانه ويخالط هناك الصالحين من عباده ، ويحيى حق الحياة قال تعالى : « وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع» الرعد: ٢٦ ، وقال تعالى: «وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » العنكبوت: ٦٤ وقال: «فأعرض عمّن تولى عن ذكرنا

ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ان ربك هو اعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » النجم : ٣٠ .

فعلى المسلم ان يؤمن بربه ويتربى بتربيته ، ويعزم عزمه ويجمع بغيته على ما عند ربه فانما هو عبد مدبَّر لا يملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ومن كان هذا وصفه لم يكن له شغل إلا بربه الذي بيده الخير والشر والنفع والضر والغنى والفقر والموت والحياة ، وكان عليه ان يسير مسير الحياة بالعلم النافع والعمل الصالح فما سعد به من مزايا الحياة الدنيا فموهبة من عند ربه ، وما حرمه منه احتسب عند ربه أجره ، وما عند الله خير وأبقى .

وليس هذا من إلغاء الأسباب في شيء ولا إبطالاً للفطرة الانسانية الداعية الى العمل والاكتساب ، النادبة الى التوسل بالفكر والإرادة ، المحرضة الى الاجتهاد في تنظيم العوامل والعلل ، الموصلة الى المقاصد الانسانية والأغراض الصحيحة الحيوية فقد فصلنا القول في توضيح ذلك في موارد متفرقة من هذا الكتاب .

واذا تسنن المسلمون بهذه السنّة الإلهية ، وحولوا هوى قلوبهم عن ذلك التمتع المادي الذي ليس إلا بغية حيوانية وغرضاً مادياً الى هذا التمتع المعنوي الذي لا تزاحم فيه ولا حرمان عنده ، ارتفعت عن قلوبهم العداوة والبغضاء ، وخلصت نفوسهم من الشح والرين ، وأصبحوا بنعمة الله اخواناً ، وأفلحوا حق الفلاح ، قال : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » آل عمران : ١٠٣ وقال : « ومن يوق شحّ نفسه فاولئك هم المفلحون » الحشر : ٩ .

قوله تعالى : « يا ايها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » تطييب لنفس النبي ﷺ ، وقد قال تعالى قبله : « فان حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين » فالمراد – والله اعلم – يكفيك الله بنصره وبمن اتبعك من المؤمنين ، وليس المراد ان هناك سببين كافيين او سبباً كافياً ذا جزئين يتألف منهما سبب واحد كاف فالتوحيد القرآني يأبى ذلك .

وربما قيل : ان المعنى حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين بعطف قوله : « من اتبعك » على موضع الكاف من « حسبك » .

والكلام على اي حال مسوق للتحريض على القتال على ما يفيده السياق والقرائن الخارجة فان تأثير المؤمنين في كفايتهم له صلى الله عليه وآله وسلم إنما هو في القتال على ما يسبق الى الذهن.

وذكر بعضهم: ان الآية نزلت بالبيداء قبل غزوة بدر، وعلى هذا لا اتصال لها بما بعدها ، وأما اتصالها بما قبلها فغير مقطوع به .

قوله تعالى : « يا ايها النبي حرّض المؤمنين على القتال » الى آخر الآية . التحريض والتحضيض والترغيب والحضّ والحث بمعنى والفقه ابلغ وأغزر من الفهم، وقوله : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » اي من الذين كفروا كما قيد به الألف بعداً ، وكذلك قوله : « وإن يكن منكم مائة » اي مائة صابرة كما قيد بها « عشرون » قبلاً .

وقوله: « بأنهم قوم لا يفقهون » الباء للسببية او الآلة، والجملة تعليلية متعلقة بقوله: « يغلبوا » اي عشرون صابرون منكم يغلبون مائتين من الذين كفروا، ومائة صابرة منكم يغلبون الفاً من الذين كفروا كل ذلك بسبب ان الكفار قوم لا يفقهون.

وفقدان الفقه في الكفار وبالمقابلة ثبوته في المؤمنين هو الذي اوجب ان يعدل الواحد من العشرين من المؤمنين اكثر من العشرة من المائتين من الذين كفروا حتى يغلب العشرون من هؤلاء المائتين من اولئك على ما بني عليه الحكم في الآية فان المؤمنين انما يقدمون فيما يقدمون عن ايمان بالله وهو القوة التي لا يعادله ولا يقاومه اي قوة اخرى لابتنائه على الفقه الصحيح الذي يوصفهم بكل سجية نفسانية فاضلة كالشجاعة والشهامة والجرأة والاستقامة والوقار والطمأنينة والثقة بالله واليقين بأنه على احدى الحسنيين ان قتل ففي الجنة وإن قتل ففي الجنة، وأن الموت بالمعنى الذي يراه الكفار وهو الفناء لا مصداق له .

وأما الكفار فإنما اتكاؤهم على هوى النفس، واعتمادهم على ظاهر ما يسوّله لهم الشيطان، والنفوس المعتمدة على اهوائها لا تتفق للغاية وإن اتفقت احياناً فإنما تدوم عليه ما لم يلح لائح الموت الذي تراه فناء، وما اندر ما تثبت النفس على هواها حتى حال ما تهدد بالموت وهي على استقامة من الفكر بل تميل بأدنى ريح مخالف، وخاصة في المخاوف العامة والمهاول الشاملة كما أثبته التاريخ من انهزام المشركين يوم بدر وهم

ألف بقتل سبعين منهم، ونسبة السبعين الى الألف قريبة من نسبة الواحد الى اربعة عشر فكان انهزامهم في معنى انهزام الأربعة عشر مقاتلاً من مقاتل واحد، وليس ذلك إلا لفقه المؤمنين الذي يستصحب العلم والايمان، وجهل الكفار الذي يلازمه الكفر والهوى.

قوله تعالى : « الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فإن يكن » الخ أي إن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين من الذين كفروا وإن يكن منكم ألف صابر يغلبوا الفين من الذين كفروا على وزان ما مرّ في الآية السابقة .

وقوله : « وعلم ان فيكم ضعفاً » المراد به الضعف في الصفات الروحية ولا محالة ينتهي الى الايمان فإن الايقان بالحق هو الذي ينبعث عنه جميع السجايا الحسنة الموجبة للفتح والظفر كالشجاعة والصبر والرأي المصيب وأما الضعف من حيث العدة والقوة فمن الضروري ان المؤمنين لم يزالوا يزيدون عدة وقوة في زمن النبي ﷺ .

وقوله : « بإذن الله » تقييد لقوله : « يغلبوا » أي إن الله لا يشاء خلافه والحال انكم مؤمنون صابرون ، وبذلك يظهر ان قوله : « والله مع الصابرين » يفيد فائدة التعليل بالنسبة الى الإذن .

وقوله تعالى فى الآية السابقة تعليلاً للحكم : «بأنهم قوم لا يفقهون» وكذا في هذه الآية : « وعلم ان فيكم ضعفاً » « والله مع الصابرين » وعدم الفقه والضعف الروحي والصبر من العلل والأسباب الخارجية المؤثرة في الغلبة والظفر والفوز بلا شك يدل على ان الحكم في الآيتين مبني على ما اعتبر من الأوصاف الروحية في الفئتين : المؤمنين والكفار ، وأن القوى الداخلة الروحية التي اعتبرت في الآية الاولى ما في المؤمن الواحد منها غالبة على القوى الداخلة الروحية في عشر من الكفار عادت بعد زمان يسير يشير اليه بقوله: « الآن خفف الله عنكم » لا يربو ما في المؤمن الواحد منها – من متوسطي المؤمنين – إلا على اثنين من الكفار فقد فقدت القوة من أثرها بنسبة الثمانين في المائة، وتبدلت العشرون والمائتان في الآية الاولى الى المائة والمائتين في الآية الثانية ، والمائة والألف في الاولى الى الألف والألفين في الثانية .

والبحث الدقيق في العوامل المولدة للسجايا النفسانية بحسب الأحوال الطارئة على الإنسان في المجتمعات يهدي الى ذلك فإن المجتمعات المنزلية والأحزاب المنعقدة

في سبيل غرض من الأغراض الحيوية دنيوية او دينية في اول تكونها ونشأتها تحس بالموانع المضادة والمحن الهادمة لبنيانها من كل جانب فتتنبه قواها الدافعة للجهاد في سبيل هدفها المشروع عندها ، ويستيقظ ما نامت من نفسانياتها للتحذر من المكاره والتفدية في طريق مطلوبها بالمال والنفس .

ولا تزال تجاهد وتفدي ليلها ونهارها، وتتقوى وتتقدم حتى تمهّد لنفسها حياة فيها بعض الاستقلال ، ويصفو لها الجو بعض الصفاء ويكثر جمعها ويضرب بجرانها الأرض اخذت بالاستفادة من فوائد جهدها والتنعم بنعمة الراحة، والتوسع في متسع الأمن ، وشرعت القوى الروحية الباسطة الباعثة للعمل في الخمود .

على ان المجتمع وان قلت افراده لا يخلو من اختلاف في الايمان ، والسجايا الروحية الجميلة من قوي فيها وضعيف ، وكلما كثرت الأفراد ازداد ضعفاء الايمان والذين في قلوبهم مرض والمنافقون فتنزلت القوى الروحية في الفرد المتوسط وارتفعت كفة الميزان عما كانت عليه من الثقل .

والجماعات الدينية والأحزاب الدنيوية في ذلك على السواء والسنّة الطبيعية الجارية في النظام الإنساني تجري على الجميع على نسق واحد، وقد اثبتت التجربة القطعية ان المجتمعات المؤتلفة لغرض هام كلما قلت افرادها وقويت رقباؤها ومزاحموها، وأحاطت بها المحن والفتن كانت اكثر نشاطاً للعمل وأحدّ في الأثر و كلما كثرت افرادها وقلت مزاحماتها والموانع الحائلة بينها وبين مقاصدها ومطالبها كانت اكثر خموداً وأقل تيقظاً وأسفه حلماً.

والتدبر الكافي في مغازي النبي ﷺ ينور ذلك فهذه غزوة بدر غلب فيها المسلمون وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً على ما بهم من رثاثة الحال وقلة العدة وفقد السلاح والقوة كفار قريش وهم يعدلون ثلاثة امثال المسلمين او يزيدون على ما لهم من العزة والشوكة والقوة ثم ما جرى على المسلمين في غزوة أحد ثم في غزوة الخندق ثم في غزوة خيبر ثم في غزوة حنين وهي أعجبها وقد ذكرها الله سبحانه بما لا يبقي لباحث ريباً في ذلك إذ قال : « ويوم حنين إذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » الى آخر الآيات .

فالآية تدل اولاً على ان الإسلام كان كلما زاد في زمن النبي ﷺ عزة وشوكة

ظاهراً زادت نقصاً وخموداً في قوى المسلمين الروحية العامة ودرجة إيمانهم وسجاياهم الجميلة النفسانية المعنوية باطناً حتى استقرت بعد غزوة بدر – بقليل او كثير – على خمس ما كانت عليه قبلها كما يشير اليه بعض الإشارة قوله تعالى في الآيات التالية : « ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » الآيات.

وثانياً: ان الظاهر ان الآيتين نزلتا دفعة واحدة فإنهما وان كانتا تخبران عن حال المؤمنين في زمانين مختلفين كما يشير اليه قوله في الآية الثانية: « الآن خفف الله عنكم » لكن الآيتين تقيسان كما مر طبع قوى المؤمنين الروحية في زمانين مختلفين، وسياق الثانية بالنظر الى هذا القياس بحيث لا يستقل عن الاولى، ووجود حكمين مختلفين في زمانين لا يوجب ان ينزل الآية المتضمنة لأحدهما في زمان غير زمان نزول الاخرى المتضمنة للآخر .

نعم لو كانت الآيتان مقصورتين في بيان الحكم التكليفي فحسب كان الظاهر نزول الثانية بعد زمان نزلت فيه الاولى .

وثالثاً : ان ظاهر قوله تعالى : « الآن خفف الله عنكم » كما قيل كون الآيتين مسوقتين لبيان الحكم التكليفي لأن التخفيف لا يكون الا بعد التكليف فاللفظ لفظ الخبر والمراد به الأمر ومحصل المراد في الآية الاولى: ليثبت الواحد منكم للعشرة من الكفار وفي الآية الثانية : الآن خفف الله في امره فليثبت الواحد منكم للاثنين من الكفار.

واختصاص التخفيف بباب التكاليف – كما قيل – وان امكنت المناقشة فيه لكن ظهور الآيتين في وجود حكمين مختلفين مترتبين بحسب الزمان احدهما اخف من الآخر لا ينبغي الارتياب فيه .

ورابعاً : ان ظاهر التعليل في الآية الاولى بالفقه ، وفي الآية الثانية بالصبر مع تقييد المقاتل من المؤمنين في الآيتين جميعاً بالصبر يدل على ان الصبر يرجح الواحد في قوة الروح على مثليه ، والفقه يرجحه فيهـا على خمسة أمثاله فإذا اجتمعا في واحد يرجح على عشرة امثال نفسه ، والصبر لا يفارق الفقه وان جاز العكس .

وخامساً : ان الصبر واجب في القتال على اي حال

(بحث روائي)

في تفسير البيضاوي في قوله تعالى: « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة » هم يهود بني قريظة عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وآله ان لا يمالؤوا عليه فأعانوا المشركين بالسلاح وقالوا: نسينا، ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤوهم عليه يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف الى مكة فحالفهم.

أقول: وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد، وروي عن سعيدبن جبير ان الآية نزلت في ستة رهط من اليهود منهم ابن تابوت. وايضاح ما تشير اليه الآية من نقض اليهود ميثاق النبي صلى الله عليه وآله مرة بعد مرة وما قاساه من المحن من ناحيتهم يحتاج الى سير اجمالي فيما جرى بينه صلى الله عليه وآله وبينهم من الأمر بعد هجرته صلى الله عليه وآله الى المدينة الى سبع سنين من الهجرة.

وقد كانت طوائف من اليهود هاجرت من بلادها الى الحجاز وتوطنوا بها وبنوا فيها الحصون والقلاع، وزادت نفوسهم وكثرت اموالهم وعظم امرهم وقد مرت في ذيل قوله تعالى: « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » البقرة: ٨٩ في الجزء الاول من الكتاب روايات في بدء مهاجرتهم الى الحجاز وكيفية نزولهم حول المدينة وبشارتهم الناس بالنبي صلى الله عليه وآله.

ولما هاجر النبي صلى الله عليه وآله الى المدينة ودعاهم الى الإسلام استنكفوا عن الإيمان به فصالح يهود المدينة وعاهدهم بكتاب كتب بينه وبينهم وهم ثلاثة رهط حول المدينة: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة أما بنو قينقاع فنكثوا العهد في غزوة بدر فسار إليهم النبي صلى الله عليه وآله في منتصف شوال في السنة الثانية من الهجرة بعد بضعة وعشرين يوماً من وقعة بدر فتحصّنوا في حصونهم فحاصرهم أشد الحصار، وبقوا على ذلك خمسة عشر يوماً.

ثم نزلوا على حكم النبي صلى الله عليه وآله في نفوسهم وأموالهم ونسائهم وذراريهم فأمر بهم فكتفوا، وكلّم عبدالله بن ابي بن سلول النبي صلى الله عليه وآله فيهم وألح عليه وكانوا حلفاءه فوهبهم له، وأمرهم ان يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها فخرجوا الى أذرعات الشام ومعهم نسائهم وذراريهم، وقبض منهم أموالهم غنيمة الحرب، وكانوا ستمأة مقاتل من أشجع اليهود.

وأما بنو النضير فانهم كادوا النبي ﷺ إذ خرج إليهم في نفر من أصحابه بعد أشهر من غزوة بدر، وكلمهم ان يعينوه في دية نفر أو رجلين من الكلابيّين قتلهم عمرو بن أمية الضمري فقالوا: نفعل يا أبا القاسم اجلس هنا حتى نقضي حاجتك، وخلا بعضهم ببعض فتآمروا بقتله واختاروا من بينهم عمرو بن جحاش ان يأخذ حجر رحى فيصعد فيلقه على رأسه ويشدخه به وحذرهم سلام بن مشكم وقال لهم: لا تفعلوا ذلك فوالله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه.

فجاءه الوحي وأخبره ربه بما هموا به فقام ﷺ من مجلسه مسرعاً وتوجه الى المدينة، ولحقه أصحابه واستفسروه عن قيامه وتوجهه فأخبرهم بما همت به بنو النضير، وبعث إليهم من المدينة ان اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم فمن وجدته بعد ذلك بها، منكم ضربت عنقه فأقاموا أياماً يتجهزون للخروج.

وأرسل إليهم المنافق عبدالله بن أبي ان لا تخرجوا من دياركم فان معي ألفين يدخلون معكم حصنكم ويموتون دونكم، وينصركم بنو قريظة وحلفاؤكم من غطفان، وأرضاهم بذلك.

فبعث رئيسهم حُيي بن أخطب الى النبي ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك فكبّر رسول الله ﷺ وكبر أصحابه، وأمر علياً عليه السلام بحمل الراية والسير إليهم فساروا وأحاطوا بديارهم، وغدر بهم عبدالله بن أبي، ولم ينصرهم بنو قريظة ولا حلفاؤهم من غطفان.

وقد كان النبي ﷺ أمر بقطع نخيلهم وإحراقها فجزعوا من ذلك وقالوا: يا محمد لاتقطع فان كان لك فخذه، وان كان لنا فاتركه لنا. ثم قالوا له بعد أيام: يا محمد نخرج من بلادك فأعطنا أموالنا قال: لا ولكن تخرجون ولكم ما حملت الإبل فلم يقبلوا ذلك وبقوا أياماً على ذلك ثم رضوا وسألوه ذلك قال: لا ولكن تخرجون ولا يحمل أحد منكم شيئاً، ومن وجدنا معه شيئاً من ذلك قتلناه فخرجوا فوقع قوم منهم الى فدك ووادي القرى، وقوم الى أرض الشام، وكان مالهم فيئاً لله ورسوله من غير ان ينال شيئاً من ذلك جيش الإسلام، وقصتهم مذكورة في سورة الحشر، ومن كيد بني النضير للنبي ﷺ تحزيب الأحزاب من قريش وغطفان وغيرهم عليه ﷺ.

وأما بنو قريظة فقد كانوا على الصلح والسلم حتى وقعت غزوة الخندق وقد كان

حيي بن أخطب رئيس بني النضير ركب الى مكة وحث قريشاً على النبي ﷺ وحزّب الأحزاب، وفي ذلك ركب الى بني قريظة وجاءهم في ديارهم فلم يزل يوسوس إليهم ويعزهم ويلح عليهم ويكلم رئيسهم كعب بن أسد في ذلك ونقض العهد ومناجزة النبي ﷺ حتى أرضاهم بذلك واشترطوا عليه ان يدخل في حصنهم فيصيبه ما أصابهم فقبل ودخل.

فنقضوا العهد ومالوا الى الأحزاب الذين حاصروا المدينة وأظهروا سب النبي ﷺ وأحدثوا ثلمة اخرى .

فلما فرغ النبي ﷺ من أمر الأحزاب أتاه جبرئيل بوحي من الله يأمره بالمسير إليهم فسار إليهم ويحمل رايته علي عليه السلام ونازل حصون بني قريظة، وحصرهم خمسة وعشرين يوماً .

فلما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن اسد ان يختاروا احد ثلاث خصال: إما أن يسلموا ويدخلوا في دين محمد، وإما ان يقتلوا زراريهم ويخرجوا اليه بسيوفهم مصلتة يناجزونه حتى يظفروا به او يقتلوا عن آخرهم، وإما ان يهجموا عليه ويكبسوه يوم السبت لأنهم - يعني المسلمين - قد أمنوا ان يقاتلوهم فيه !

فأبوا عليه ان يجيبوه الى واحدة منهن فبعثوا الى النبي ﷺ أن ارسل الينا ابا لبابة بن عبد المنذر نستشيره في الامر؛ وكان ابو لبابة مناصحاً لهم لأن عياله وذريته وماله كانت عندهم .

فأرسله اليهم فلما رأوه قاموا اليه يبكون، وقالوا له: كيف ترى ان ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده الى حلقه : انه الذبح ، قال ابو لبابة : فوالله ما زلّت قدماي حتى علمت اني خنت الله ورسوله ، وأوحى الله الى نبيه ﷺ في امر ابي لبابة .

فندم ابو لبابة ومضى على وجهه حتى اتى المسجد وربط نفسه على سارية من سواري المسجد تائباً لله، وحلف ألا يحله إلا النبي ﷺ او يموت، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: دعوه حتى يتوب الله عليه، ثم ان الله تاب عليه وأنزل توبته وحله النبي ﷺ.

ثم ان بني قريظة نزلوا على حكم النبي ﷺ، وكانوا موالي أوس فكلمته أوس في امرهم مستشفعين وآل الامر الى تحكيم سعد بن معاذ الاوسي في امرهم ورضوا

ورضي به النبي (ص) فاحضر سعد وكان جريحاً .

ولما كلم سعد رحمه الله في امرهم قال: لقد آن لسعد ان لا يأخذه في الله لومة لائم ثم حكم فيهم بقتل الرجال وسبي النساء والذراري وأخذ الاموال فاجري عليهم ما حكم به سعد فضربت اعناقهم عن آخرهم، وكانوا ستمائة مقاتل او سبعمائة، وقيل اكثر، ولم ينج منهم إلا نفر يسير آمنوا قبل تقتيلهم، وهرب عمرو بن سعدى منهم ولم يكن داخلاً معهم في نقض العهد، وسبيت النساء إلا امرأة واحدة ضربت عنقها وهي التي طرحت على رأس خلاد بن السويد بن الصامت رحى فقتلته .

ثم أجلى النبي (ص) من كان بالمدينة من اليهود ثم سار (ص) الى يهود خيبر لما كان من كيدهم وسعيهم في حث الاحزاب عليه وتأليفهم من جميع القبائل العربية لحربه فنازل حصونهم وحصرهم اياماً ، وأرسل النبي (ص) الى قتالهم ابا بكر في جمع يوماً فانهزم ، ثم عمر بن الخطاب في جمع يوماً فانهزم .

وعند ذلك قال النبي (ص) : « لاعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه » ولما كان من غد اعطى الراية علياً عليه السلام وأرسله الى قتال القوم فتقدم اليهم وقتل مرحباً الفارس المعروف منهم ، وهزمهم وقلع بيده باب حصنهم وفتح الله على يده الحصن ، وكان ذلك بعد صلح الحديبية في المحرّم سنة سبع من الهجرة .

ثم اجلى النبي (ص) من بقي من اليهود وقد نصحهم قبل ذلك ان يبيعوا اموالهم ويأخذوا اثمانها . انتهى ما اردنا تلخيصه من قصة اليهود مع النبي (ص) .

وفي تفسير العياشي عن جابر في قوله تعالى : «ان شر الدواب عند الله» الآية نزلت في بني امية هم شر خلق الله هم « الذين كفروا » في باطن القرآن، وهم « الذين لا يؤمنون » .

أقول : وروى مثله القمي عن ابي حمزة عنه عليه السلام ، وهو من باطن القرآن كما صرح به في الرواية ليس بالظاهر .

وفي الكافي بإسناده عن سهل بن زياد عن بعض اصحابه عن عبدالله بن سنان

عن ابي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله (ص) : ثلاث من كنّ فيه كان منافقاً وإن صام وصلى وزعم انه مسلم: من اذا ائتمن خان، وإن حدّث كذب، واذا وعد أخلف ان الله عز وجل قال في كتابه: «ان الله لا يحب الخائنين» وقال: «ان لعنة الله على الكاذبين» وفي قوله عز وجل: « واذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً » .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وأعدوا لهم مـا استطعتم من قوة » الآية قال : قال : السلاح .

وفي تفسير العياشي عن محمد بن عيسى عمن ذكره عن ابي عبدالله عليه السلام في الآية قال : سيف وترس .

وفي الفقيه عن الصادق عليه السلام مرسلاً في الآية قال : منه الخضاب بالسواد .

وفي الكافي بإسناده عن جابر عن ابي جعفر عليه السلام : دخل قوم على الحسين بن علي عليه السلام فرأوه مختضباً بالسواد فسألوه عن ذلك فمدّ يده الى لحيته ثم قال : امر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزاة غزاها ان يختضبوا بالسواد ليقووا به على المشركين .

وفي تفسير العياشي عن جابر الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » قال : الرمي .

اقول : ورواه في الكافي بإسناده عـن عبد الله بن المغيرة رفعه عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، والزمخشري في ربيع الأبرار عن عقبة بن عامر عنه، والسيوطي في الدر المنثور عن احمد ومسلم وأبي داود وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وأبي الشيخ وأبي يعقوب إسحاق بن ابراهيم والبيهقي عن عقبة بن عامر الجهني عنه صلى الله عليه وسلم .

وفي الدر المنثور اخرج ابو داود والترمذي وابن ماجـه والحاكم وصححه والبيهقي عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير والذي يجهز به في سبيل الله ، والذي يرمي به في سبيل الله .

وقال : ارموا واركبوا ، وأن ترموا خير من ان تركبوا ، وقال : كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثة : رميه عن قوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته

اهله فإنهن من الحق ، ومن علم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها .

أقول : وفي هذه المعاني روايات أخر ، وخاصة في الخيل والرمي والروايات على أي حال من باب عد المصاديق .

وفي الدر المنثور اخرج سعد والحارث بن ابي اسامة وأبو يعلى وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن قانع في معجمه والطبراني وأبو الشيخ وابن منده والروياني في مسنده وابن مردويه وابن عساكر عن يزيد بن عبدالله بن غريب عن ابيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وآله قال : في قوله : « وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » قال : هم الجن ، ولا تخبل الشيطان انساناً في داره فرس عتيق .

أقول : وفي معناها روايات أُخر ، ومحصّل الروايات ربط قوله : « وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » بقوله : «ومن رباط الخيل» وهي من قبيل الجري وليس من التفسير في شيء ، والمراد من الآية بظاهرها العدو من الإنسان كالكفار والمنافقين.

وفيه اخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن أبزى ان النبي صلى الله عليه وآله كان يقرأ : وإن جنحوا للسلم .

وفيه اخرج ابو عبيد وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » قال: نسختها هذه الآية : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر – الى قوله – صاغرون » .

أقول : وروي نسخها بآية البراءة : «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» والآية لا تخلو عن إيماء الى كون الحكم مؤجلاً حيث قال: « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » .

وفي الكافي بإسناده عن الحلبي عن ابي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لهـا » قلت : ما السلم ؟ قال : الدخول في امرنا ، وفي رواية اخرى : الدخول في امرك .

أقول : وهو من الجري .

وفي الدر المنثور اخرج ابن عساكر عن ابي هريرة قال: مكتوب على العرش:

لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي محمد عبدي ورسولي أيدته بعليّ ؛ وذلك قوله : « هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين » .

أقول : ورواه الصدوق في المعاني بإسناده عن ابي هريرة، وأبو نعيم في حلية الأولياء بإسناده عنه ، وكذا ابن شهر آشوب مسنداً عن انس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي تفسير البرهان عن شرف الدين النجفي قال : تأويله ذكره ابو نعيم في حلية الاولياء بطريقه عن ابي هريرة قال : نزلت هذه الآية في علي بن ابي طالب ، وهو المعنيّ بقوله : المؤمنين .

أقول : ولفظ الآية لا يساعد على ذلك اللهم إلا ان يكون المراد بالاتباع تمام الاتباع الذي لا يشذ عنه شأن من الشؤون، و من للتبعيض دون البيان ان ساعد عليه السياق .

وفي الدر المنثور اخرج البزّار عن ابن عباس قال: لما اسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم منا اليوم، وأنزل الله: «يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين».

أقول : وروي هذا المعنى في روايات أُخر ، والاعتبار لا يساعد عليه فإن الزمان الذي أسلم فيه لم يكن على نعت يصحح الخطاب بمثل قوله: «يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » واليوم يوم الفتنة والعسرة ، وقد دام الحال على ذلك بعده سنين متمادية، وما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ يحتاج الى شيء يعينه العدة، وفي هذه الروايات انه كان تمام الأربعين او رابع أربعين . على ان الظاهر ان الآية مدنية من جملة آيات سورة الأنفال .

وفيه أخرج ابن اسحاق وابن ابي حاتم عن الزهري في قوله : « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » قال : نزلت في الأنصار .

أقول : وسياق الآية في عدم المساعدة عليه كالروايتين السابقتين اللهم إلا ان يكون المراد نزولها يوم آمن به الأنصار او يوم تابعوه ، والظاهر ان الآية نزلت في تطييب نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم بجميع من كان معه من المؤمنين : مهاجريهم وأنصارهم ، وهي توطئة وتمهيد لما في الآية التالية من الأمر بتحريض المؤمنين على القتال .

وفي تفسير القمي قال: قال ، كان الحكم في اول النبوة في أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وآله ان الرجل الواحد وجب عليه ان يقاتل عشرة من الكفار فان هرب منهم فهو الفار من الزحف ، والمائة يقاتلون ألفاً .

ثم علم الله ان فيهم ضعفاً لا يقدرون على ذلك فأنزل الله : «الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين » ففرض عليهم ان يقاتل اقل رجل من المؤمنين رجلين من الكفار فان فر منهما فهو الفار من الزحف فإن كانوا ثلاثة من الكفار وواحداً من المسلمين ففر المسلم منهم فليس هو الفار من الزحف.

أقول: وفي تفسير العياشي عن الحسين بن صالح عن الصادق عن علي عليهما السلام ما يقرب منه ، وروى ما في معناها في الدر المنثور بطرق عديدة عن ابن عباس وغيره.

وفي الدر المنثور أخرج الشيرازي في الألقاب وابن عدي والحاكم وصححه عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وآله قرأ: « الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضُعفاً» رفع .

* * *

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ — ٦٧ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ — ٦٨ . فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ — ٦٩ . يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ ٱلْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ — ٧٠ . وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا ٱللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ — ٧١ .

(بيان)

عتاب من الله سبحانه لأهل بدر حين اخذوا الاسرى من المشركين ثم اقترحوا على رسول الله ﷺ ان لا يقتلهم ويأخذ منهم الفداء ليصلح به حالهم ويتقووا بذلك على أعداء الدين، وقد شدد سبحانه في العتاب إلا انه اجابهم الى مقترحهم وأباح لهم التصرف من الغنائم . وهي تشمل الفداء .

وفي آخر الآيات ما هو بمنزلة التطميع والوعد الجميل للاسرى ان أسلموا والاستغناء عنهم ان أرادوا خيانة النبي ﷺ .

قوله تعالى : « وما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الأرض» إلى آخر الآيات الثلاث، الأسر: الشد على المحارب بما يصير به في قبضة الآخذ له كما قيل والأسير هو المشدود عليه ، وجمعه الأسرى والاسراء والاسارى والأسارى ، وقيل الأسارى جمع جمع وعلى هذا فالسبي أعم مورداً من الأسر لصدقه على أخذ من لا يحتاج الى شد كالذراري .

والثخن بالكسر فالفتح الغلظ ، ومنه قولهم : أثخنته الجراح وأثخنه المرض قال الراغب في المفردات: يقال: ثخن الشيء فهو ثخين اذا غلظ فلم يسل ولم يستمر في ذهابه ، ومنه استعير قولهم : أثخنته ضرباً واستخفافاً قال الله تعالى: « ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض» «حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق» فالمراد بإثخان النبي في الأرض استقرار دينه بين الناس كأنه شيء غليظ انجمد فثبت، بعد ما كان رقيقاً سائلاً يخشى الزوال بالسيلان .

والعرض ما يطرأ على الشيء ويسرع فيه الزوال، ولذلك سمي به متاع الدنيا لدثوره وزواله عما قليل ، والحلال وصف من الحل مقابل العقد والحرمة كأن الشيء الحلال كان معقوداً عليه محروماً منه فحل بعد ذلك؛ وقد مر معنى الطيب وهو الملائمة للطبع.

وقد اختلف المفسرون في تفسير الآيات بعد اتفاقهم على انها إنما نزلت بعد وقعة بدر تعاتب أهل بدر وتبيح لهم الغنائم .

والسبب في اختلاف ما ورد في سبب نزولها ومعاني جملها من الاخبار المختلفة،

ولو صحت الروايات لكان التأمل فيها قاضياً بتوسّع عجيب في نقل الحديث بالمعنى حتى ربما اختلفت الروايات كالأخبار المتعارضة .

فاختلفت التفاسير بحسب اختلافها فمن ظاهر في ان العتاب والتهديد متوجّه الى النبي ﷺ والمؤمنين جميعاً ، او الى النبي والمؤمنين ما عدا عمر ، او ما عدا عمر وسعد بن معاذ ، او الى المؤمنين دون النبي او الى شخص او اشخاص اشاروا اليه بالفداء بعدما استشارهم .

ومن قال : ان العتاب انما هو على اخذهم الفداء ، او على استحلالهم الغنيمة قبل الإباحة من جانب الله، والنبي ﷺ يشاركهم في ذلك لما انه بدأ باستشارتهم مع ان القوم انما اخذوا الفداء بعد نزول الآيات لا قبله حتى يعاتبوا عليه، والنبي ﷺ أجلّ من ان يجوز في حقه استحلال شيء قبل ان يأذن الله له فيه ويوحي بذلك اليه، وحاشا ساحة الحق سبحانه ان يهدد نبيه بعذاب عظيم ليس من شأنه ان ينزل عليه من غير جرم أجرمه وقد عصمه من المعاصي، والعذاب العظيم ليس ينزل إلا على جرم عظيم لا كما قيل : ان المراد به الصغائر .

فالذي ينبغي ان يقال : ان قوله تعالى : « ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الارض » ان السنّة الجارية في الأنبياء الماضين عليهم السلام انهم كانوا اذا حاربوا اعداءهم وظفروا بهم ينكلونهم بالقتل ليعتبر به من وراءهم فيكفّوا عن محادّة الله ورسوله ، وكانوا لا يأخذون اسرى حتى يثخنوا في الأرض ، ويستقر دينهم بين الناس فلا مانع بعد ذلك من الأسر ثم المنّ او الفداء كما قال تعالى فيما يوحي الى نبيه ﷺ بعدما علا امر الإسلام واستقر في الحجاز واليمن: « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّاً بعدُ وإما فداء » سورة محمد : ٤ .

والعتاب على ما يهدي اليه سياق الكلام في الآية الاولى إنما هو على اخذهم الاسرى كما يشهد به ايضاً قوله في الآية الثانية : « لمسّكم فيما اخذتم عذاب عظيم » اي في اخذكم وإنما كانوا اخذوا عند نزول الآيات الاسرى دون الفداء وليس العتاب على استباحة الفداء او اخذه كما احتمل .

بل يشهد قوله في الآية التالية: «فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله ان الله

غفور رحيم » — حيث افتتحت بفاء التفريع التي تفرّع معناها على ما تقدمها — : على ان المراد بالغنيمة ما يعمّ الفداء ، وأنهم اقترحوا على النبي ﷺ ان لا يقتل الاسرى ويأخذ منهم الفداء كما سألوه عن الأنفال او سألوه ان يعطيهموها كما في آية صدر السورة وكيف يتصور ان يسألوه الأنفال،ولا يسألوه ان يأخذ الفداء وقد كان الفداء المأخوذ — على ما في الزوايات — يقرب من مائتين وثمانين الف درهم ؟

فقد كانوا سألوا النبي ﷺ ان يعطيهم الغنائم ، ويأخذ لهم منهم الفداء فعاتبهم الله من رأس على اخذهم الاسرى ثم أباح لهم ما اخذوا الاسرى لأجله وهو الفداء لا لأن النبي ﷺ شاركهم في استباحة الفداء واستشارهم في الفداء والقتل حتى يشاركهم في العتاب المتوجه اليهم .

ومن الدليل من لفظ الآية على أن النبي ﷺ لا يشاركهم في العتاب أن العتاب في الآية متعلق بأخذ الأسرى وليس فيها ما يشعر بأنه استشارهم فيه او رضي بذلك ولم يرد في شيء من الآثار أنه ﷺ وصّاهم بأخذ الأسرى ولا قال قولاً يشعر بالرضا بذلك بل كان ذلك مما أقدمت عليه عامة المهاجرين والأنصار على قاعدتهم في الحروب: اذا ظفروا بعدوهم أخذوا الأسرى للاسترقاق او الفداء فقد ورد في الآثار أنهم بالغوا في الأسر وكان الرجل يقي أسيره ان يناله الناس بسوء إلا علي عليه السلام فقد أكثر من قتل الرجال ولم يأخذ أسيراً .

فمعنى الآيات : «ما كان لنبي» ولم يعهد في سنّة الله في أنبيائه « أن يكون له أسرى»ويحقّ له ان يأخذهم ويستدرّ على ذلك شيئاً «حتى يثخن» ويغلظ«في الأرض» ويستقر دينه بين الناس « تريدون » انتم معاشر اهل بدر — وخطاب الجميع بهذا العموم المشتمل على عتاب الجميع لكون أكثرهم متلبّسين باقتراح الفداء على النبي ﷺ — «عرض الدنيا» ومتاعها السريع الزوال « والله يريد الآخرة » بتشريع الدين والأمر بقتال الكفار، ثم في هذه السنّة التي أخبر بها في كلامه ؛ « والله عزيز » لا يُغلَب « حكيم » لا يلغو في أحكامه المتقنة .

« ولولا كتاب من الله سبق» يقتضي ان لا يعذبكم ولا يهلككم ، وإنما أبهم لأن الإبهام أنسب في مقام المعاتبة ليذهب ذهن السامع كل مذهب ممكن ، ولا يتعين له فيهون عنده أمره « لمسّكم فيما أخذتم» أي في أخذكم الأسرى فإن الفداء والغنيمة لم

يؤخذا قبل نزول الآيات وإخبارهم بحلّيتها وطيبها «عذاب عظيم» وهو كما تقدم يدل على عظم المعصية لأن العذاب العظيم إنما يستحق بالمعصية العظيمة «فكلوا مما غنمتم» وتصرّفوا فيما أحرزتم من الفائدة سواء كان مما تسلطتم عليه من أموال المشركين او مما أخذتم منهم من الفداء «حلالاً طيباً» أي حال كونه حلالاً طيباً بإباحة الله سبحانه « واتقوا الله إن الله غفور رحيم » وهو تعليل لقوله : « فكلوا مما غنمتم » الخ أي غفرنا لكم ورحمناكم فكلوا مما غنمتم او تعليل لجميع ما تقدم أي لم يعذبكم الله بل أباحه لكم لأنه غفور رحيم .

قوله تعالى : «يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى» الى آخر الآية كون الأسرى بأيديهم استعارة لتسلطهم عليهم تمام التسلط كالشيء يكون في يد الانسان يقلبه كيف يشاء .

وقوله: « إن يعلم الله في قلوبكم خيراً » كناية عن الإيمان او اتباع الحق الذي يلازمه الإيمان فإنه تعالى يعدهم في آخر الآية بالمغفرة، ولا مغفرة مع شرك قال تعالى: « إن الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » النساء : ٤٨ .

ومعنى الآية : يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى الذين تسلطتم عليهم وأخذت منهم الفداء: إن ثبت في قلوبكم الإيمان وعلم الله منكم ذلك ـ ولا يعلم إلا ما ثبت وتحقق ـ يؤتكم خيراً مما أُخذ منكم من الفداء ويغفر لكم والله غفور رحيم.

قوله تعالى : «وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم» الخ أمكنه منه أي أقدره عليه، وإنما قال اولاً: «خيانتك» ثم قال: «خانوا الله» لأنهم أرادوا بالفدية ان يجمعوا الشمل ثانياً ويعودوا الى محاربته ﷺ، وأما خيانتهم لله من قبل فهي كفرهم وإصرارهم على ان يطفؤوا نور الله وكيدهم ومكرهم .

ومعنى الآية : إن آمنوا بالله وثبت الإيمان في قلوبهم آتاهم الله خيراً مما أُخذ منهم وغفر لهم ، وإن أرادوا خيانتك والعود الى ما كانوا عليه من العناد والفساد فإنهم خانوا الله من قبل فأمكنك منهم وأقدرك عليهم وهو قادر على ان يفعل بهم ذلك ثانياً ، والله عليم بخيانتهم لو خانوا حكيم في إمكانك منهم .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى: «ما كان لنبي ان يكون له أسرى» الخ قال: كان القتلى من المشركين يوم بدر سبعين قتل منهم علي بن ابي طالب عليه‌السلام سبعة وعشرين[١]، وكان الأسرى ايضاً سبعين، ولم يؤسر احد من اصحاب النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فجمعوا الاسارى، وقرنوهم في الحبـال، وساقوهم على أقدامهم، وقتل من اصحاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم تسعة رجال منهم سعد بن خيثمة وكان من النقباء من الأوس.

قال: وعن محمد بن إسحاق قال: استشهد من المسلمين يوم بدر أحد عشر رجلاً: أربعة من قريش، وسبعة من الأنصار، وقيل: ثمانية، وقتل من المشركين بضعة وأربعون رجلاً[٢].

قال: وعن ابن عبّاس: قال: لما أمسى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يوم بدر والناس محبوسون بالوثاق بات ساهراً أول الليلة فقال له أصحابه: مالك لا تنام؟ فقال عليه‌السلام: سمعت أنين عمّي العباس في وثاقه، فأطلقوه فسكت فنام رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم.

قال: وروى عبيدة السلماني عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنه قال لأصحابه يوم بدر في الأسارى: إن شئتم قتلتموهم، وان شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم، وكانت الأسارى سبعين فقالوا: بل نأخذ الفداء فنستمتع به ونتقوى به على عدونا، وليستشهد منا بعدتهم قال عبيدة طلبوا الخيرتين كلتيهما[٣] فقتل منهم يوم أُحد سبعون.

وفي كتاب عليّ بن ابراهيم: لما قتل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط خافت الانصار ان يقتل الأسارى فقالوا: يا رسول الله قتلنا سبعين وهم قومك وأسرتك أتجد أصلهم فخذ يا رسول الله منهم الفداء، وقد كانوا أخذوا ما وجدوه من الغنائم في عسكر قريش فلما طلبوا إليه وسألوه نزلت الآية: «ما كان لنبي ان يكون له أسرى» الآيات فأطلق لهم ذلك.

---

(١) ولم يأسر احداً على ما في الروايات.

(٢) وهؤلاء هم الذين ضبط علماء الآثار أسماءهم غير من لم يضبط اسمه.

(٣) لكن قوله تعالى في عتابهم «تريدون عرض الدنيا» يخطىء عبيدة في قوله.

وكان أكثر الفداء أربعة آلاف درهم وأقله ألف درهم فبعثت قريش بالفداء أولاً فأولاً فبعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من فداء زوجها أبي العاص بن الربيع، وبعثت قلائد لها كانت خديجة جهّزتها بها، وكان أبو العاص ابن أخت خديجة، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلك القلائد قال: رحم الله خديجة هذه قلائد هي جهّزتها بها فأطلقه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشرط ان يبعث إليه زينب، ولا يمنعها من اللحوق به فعاهده على ذلك ووفى له.

قال: وروي ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كره أخذ الفداء حتى رأى سعد بن معاذ كراهية ذلك في وجهه فقال: يا رسول الله هذا أول حرب لقينا فئة المشركين، والإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال، وقال عمر بن الخطاب: يارسول الله كذّبوك وأخرجوك فقدّمهم واضرب أعناقهم، ومكّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، ومكني من فلان أضرب عنقه فان هؤلاء أئمة الكفر، وقال أبوبكر: أهلك وقومك استأن بهم واستبقهم وخذ منهم فدية فيكون لنا قوة على الكفار قال ابن زيد فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لو نزل عذاب من السماء ما نجا منكم أحد غير عمر وسعد بن معاذ.

وقال أبوجعفر الباقر عليه السلام: كان الفداء يوم بدر كل رجل من المشركين بأربعين أوقية، والأوقية أربعون مثقالاً إلا العباس فان فداءه كان مائة أوقية، وكان أخذ منه حين أسر عشرون أوقية ذهباً فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ذلك غنيمة ففاد نفسك وابني أخيك نوفلاً وعقيلاً فقال: ليس معي شيء. فقال: أين الذهب الذي سلّمته إلى أم الفضل وقلت: ان حدث بي حدث فهو لك وللفضل وعبدالله وقثم. فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: الله تعالى فقال: أشهد أنك رسول الله والله ما اطلع على هذا أحد إلا الله تعالى.

أقول: والروايات في هذه المعاني كثيرة من طرق الفريقين تركنا إيرادها إيثاراً للاختصار.

وفي قرب الإسناد للحميري عن عبدالله بن ميمون عن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال: اوتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمال دراهم فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم للعباس: يا عباس ابسط رداءك وخذ من هذا المال طرفاً فبسط رداءه وأخذ منه طائفة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا عباس هذا من الذي قال الله تبارك وتعالى: «يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم» قال: نزلت في العباس ونوفل وعقيل.

وقال: ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى يوم بدر ان يقتل أحد من بني هاشم وأبو البختري فأسروا علياً فقال : انظر من ههنا من بني هاشم ؟ قال: فمر على عقيل بن ابي طالب فحاد عنه قال فقال له : يابن أم علي أما والله لقد رأيت مكاني .

قال: فرجع الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: هذا أبو الفضل في يد فلان، وهذا عقيل في يد فلان، وهذا نوفل في يد فلان يعني نوفل بن الحارث فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى انتهى الى عقيل فقال: يا أبا يزيد قتل أبو جهل! فقال: اذاً لا تنازعوا في تهامة . قال: ان كنتم أثخنتم القوم وإلا فاركبوا أكتافهم .

قال: فجيء بالعباس فقيل له: افد نفسك وافد ابن [ابني ظ] اخيك فقال : يا محمد تتركني أسأل قريشاً في كفي؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم له: أعط مما خلفت عند ام الفضل وقلت لها إن اصابني شيء في وجهي فأنفقيه على ولدك ونفسك . قال : يا ابن اخي من اخبرك بهذا ؟ قال: أتاني به جبرئيل . فقال: ومحلوفة ما علم بهذا إلا انا وهي . أشهد انك رسول الله. قال: فرجع الاسارى كلهم مشركين إلا العباس وعقيل ونوفل ابن الحارث، وفيهم نزلت هذه الآية : « قل لمن في ايديكم من الاسرى » . الآية .

أقول : وروى في الدر المنثور هذه المعاني بطرق مختلفة عن الصحابة وروى نزول الآية في العباس وابني اخيه عن ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس ، وروى مقدار الفدية التي فدي بها عن كل رجل من الاسارى ، وقصة فدية العباس عنه وعن ابني اخيه الطبرسي في مجمع البيان عن الباقر عليه السلام كما في الحديث .

* * *

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَٱللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ـــ ٧٢ . وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ـــ ٧٣ . وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ـــ ٧٤ . وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَـٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ـــ ٧٥ .

(بيان)

الآيات تختم السورة، ويرجع معناها نوع رجوع الى ما افتتحت به السورة وفيها إيجاب الموالاة بين المؤمنين إلا اذا اختلفوا بالمهاجرة وعدمها وقطع موالاة الكافرين .

قوله تعالى : «ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا» الى قوله: «اولياء بعض» المراد بالذين آمنوا وهاجروا : الطائفة الاولى من المهاجرين قبل نزول السورة بدليل ما سيذكر من المهاجرين في آخر الآيات ، والمراد بالذين آووا ونصروا : هم الانصار الذين آووا النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين المهاجرين ونصروا الله ورسوله، وكان ينحصر المسلمون يومئذ في هاتين الطائفتين إلا قليل ممن آمن بمكة ولم يهاجر .

وقد جعل الله بينهم ولاية بقوله: «اولئك بعضهم اولياء بعض» والولاية اعمّ من ولاية الميراث وولاية النصرة وولاية الأمن، فمن آمن منهم كافراً كان نافذاً عند الجميع؛ فالبعض من الجميع وليّ البعض من الجميع كالمهاجر هو ولي كل مهاجر وأنصاري ، والأنصاري ولي كل أنصاري ومهاجر، كل ذلك بدليل إطلاق الولاية في الآية .

فلا شاهد على صرف الآية الى ولاية الإرث بالمواخاة التي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعلها في بدء الهجرة بين المهاجرين والأنصار وكانوا يتوارثون بها زماناً حتى نسخت .

قوله تعالى: «والذين آمنوا ولم يهاجروا» الى آخر الآية، معناه واضح وقد نفيت

فيها الولاية بين المؤمنين المهاجرين والأنصار وبين المؤمنين غير المهاجرين إلا ولاية النصرة اذا استنصروهم بشرط ان يكون الاستنصار على قوم ليس بينهم وبين المؤمنين ميثاق.

قوله تعالى: «والذين كفروا بعضهم اولياء بعض» اي ان ولايتهم بينهم لا تتعداهم الى المؤمنين فليس للمؤمنين ان يتولوهم، وذلك ان قوله هنا في الكفار: «بعضهم اولياء بعض» كقوله في المؤمنين: «أولئك بعضهم اولياء بعض» إنشاء وتشريع في صورة الإخبار، وجعل الولاية بين الكفار أنفسهم لا يحتمل بحسب الاعتبار إلا ما ذكرناه من نفي تعديه عنهم الى المؤمنين.

قوله تعالى: «إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» إشارة الى مصلحة جعل الولاية على النحو الذي جعلت، فان الولاية مما لا غنى عنها في مجتمع من المجتمعات البشرية سيما المجتمع الإسلامي الذي أسس على اتباع الحق وبسط العدل الإلهي كما ان تولي الكفار وهم أعداء هذا المجتمع يوجب الاختلاط بينهم فيسري فيه عقائدهم وأخلاقهم، وتفسد سيرة الإسلام المبنية على الحق بسيرهم المبنية على اتباع الهوى وعبادة الشيطان، وقد صدق جريان الحوادث في هذه الآونة ما أشارت اليه هذه الآية.

قوله تعالى: «والذين آمنوا وهاجروا» الى آخر الآية اثبات لحق الإيمان على من اتصف بآثاره اتصافاً حقاً، ووعد لهم بالمغفرة والرزق الكريم.

قوله تعالى: «والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئك منكم» خطاب للمهاجرين الاولين والأنصار وإلحاق من آمن وهاجر وجاهد معهم بهم فيشار كونهم في الولاية.

قوله تعالى: «وأُولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله» الى آخر الآية. جعل للولاية بين أولي الأرحام والقرابات، وهي ولاية الإرث فان سائر أقسام الولاية لا ينحصر فيما بينهم.

والآية تنسخ ولاية الإرث بالمواخاة التي أجراها النبي ﷺ بين المسلمين في اول الهجرة، وتثبت الإرث بالقرابة سواء كان هناك ذو سهم او لم يكن او كان عصبة او لم يكن فالآية مطلقة كما هو ظاهر.

(بحث روائي)

في المجمع عن الباقر عليه السلام انهم كانوا يتوارثون بالمواخاة .

أقول : ولا دلالة فيه على ان الآية نزلت في ولاية الاخوة .

في الكافي بإسناده عن ابي بصير عن ابي جعفر عليه السلام قال: الخال والخالة يرثان اذا لم يكن معهما احد ان الله يقول: «وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله».

أقول : ورواه العياشي عن ابي بصير عنه مرسلا .

وفي تفسير العياشي عن زرارة عن ابي جعفر عليه السلام في قول الله: «واولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله» ان بعضهم أولى بالميراث من بعض لأن أقربهم اليه أولى به . ثم قال ابو جعفر عليه السلام ، إنهم أولى بالميت ، وأقربهم اليه أمه وأخوه واخته لامه وابنه أليس الام أقرب الى الميت من إخوانه وأخواته ؟

وفيه عن ابن سنان عن ابي عبد الله عليه السلام قال : لما اختلف علي بن ابي طالب عليه السلام وعثمان بن عفان في الرجل يموت وليس له عصبة يرثونه وله ذوو قرابة لا يرثونه : ليس له بينهم مفروض ، فقال علي عليه السلام ميراثه لذوي قرابته لأن الله تعالى يقول: واولو الأرحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله ، وقال عثمان اجعل ميراثه في بيت مال المسلمين ولا يرثه احد من قرابته .

أقول : والروايات في نفي القول بالعصبة والاستناد في ذلك الى الآية كثيرة من أئمة اهل البيت عليهم السلام .

وفي الدرّ المنثور أخرج الطيالسي والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: آخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين اصحابه وورّث بعضهم من بعض حتى نزلت هذه الآية «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله» فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب.

وفي المعاني بإسناده فيه رفع عن موسى بن جعفر عليه السلام فيما جرى بينه وبين هارون وفيه: قال هارون: فلم ادّعيتم أنكم ورثتم رسول الله والعم يحجب ابن العم ، وقبض رسول الله وقد توفي ابو طالب قبله والعباس عمه حيّ – الى ان قال – فقلت: إن

النبي لم يورّث من لم يهاجر ولا أثبت له ولاية حتى يهاجر فقال: ما حجّتك فيه؟ قلت: قول الله تبارك وتعالى: «والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا» وإن عمي العباس لم يهاجر فقال: إني سائلك يا موسى هل أفتيت بذلك احداً من أعدائنا أم أخبرت احداً من الفقهاء في هذه المسألة بشيء ؟ فقلت: اللهم لا وما سألني عنها إلا امير المؤمنين . الحديث .

أقول : ورواه المفيد في الاختصاص .

* * *

(سورة التوبة مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية)

بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ـــ ١ . فَسِيحُوا
فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللهِ وَأَنَّ ٱللهَ مُخْزِي
ٱلْكَافِرِينَ ـــ ٢ . وَأَذَانٌ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ
أَنَّ ٱللهَ بَرِيءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ
تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ـــ ٣ . إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ
يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ
ٱلْمُتَّقِينَ ـــ ٤ . فَإِذَا ٱنْسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا
ٱلصَّلَوٰةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ـــ ٥ . وَإِنْ
أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ

مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ــ ٦ . كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ
عِنْدَ ٱللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا
ٱسْتَقَامُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ــ ٧ . كَيْفَ وَإِنْ
يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ــ ٨ . ٱشْتَرَوْا بِآيَاتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ــ ٩ . لَا يَرْقُبُونَ فِي
مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ــ ١٠ . فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا
ٱلصَّلَوٰةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ــ ١١ . وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ
فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ــ ١٢ . أَلَا
تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ــ ١٣ .
قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ
صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ــ ١٤ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَنْ
يَشَاءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ــ ١٥ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ــ ١٦ .

(بيان)

الآيات مفتتح قبيل من الآيات سمّوها سورة التوبة او سورة البراءة، وقد اختلفوا في كونها سورة مستقلة او جزءً من سورة الأنفال، واختلاف المفسرين في ذلك ينتهي الى اختلاف الصحابة ثم التابعين فيه، وقد اختلف في ذلك الحديث عن ائمة اهل البيت (ع) غير ان الأرجح بحسب الصناعة ما يدل من حديثهم على انها ملحقة بسورة الأنفال.

والبحث عن معاني آياتها وما اشتملت عليه من المضامين لا يهدي الى غرض واحد متعين على حد سائر السور المشتملة على أغراض مشخصة تؤمّها اوائلها وتنعطف اليها أواخرها، فأولها آيات تؤذن بالبراءة وفيها آيات القتال مع المشركين، والقتال مع اهل الكتاب، وشطر عظيم منها يتكلم في أمر المنافقين، وآيات في الاستنهاض على القتال وما يتعرض لحال المخلفين، وآيات ولاية الكفار، وآيات الزكاة وغير ذلك، ومعظمها ما يرجع الى قتال الكفار وما يرجع الى المنافقين .

وعلى اي حال لا يترتب من جهة التفسير على هذا البحث فائدة مهمة وإن امكن ذلك من جهة البحث الفقهي الخارج عن غرضنا .

قوله تعالى: «براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين» قال الراغب: أصل البرء والبراء والتبرّي: التفصي مما يكره مجاورته، ولذلك قيل: برأت من المرض وبرأت من فلان وتبرأت، وأبرأته من كذا وبرّأته، ورجل بريء وقوم براء وبريؤون قال تعالى : براءة من الله ورسوله . انتهى .

والآية بالنسبة الى الآيات التالية كالعنوان المصدر به الكلام المشير الى خلاصة القول على نهج سائر السور المفصلة التي تشير الآية والآيتان من اولها على إجمال الغرض المسرود لأجل بيانه آياتها .

والخطاب في الآية للمؤمنين او للنبي ﷺ وهم على ما يدل عليه قوله: «عاهدتم» وقد أخذ الله تعالى ومنه الخطاب ورسوله ﷺ وهو الواسطة، والمشركون وهم الذين أريدت البراءة منهم ، ووجه الخطاب ليبلغ اليهم جميعاً في الغيبة، وهذه الطريقة في الأحكام والفرامين المراد إيصالها الى الناس نوع تعظيم لصاحب الحكم والأمر .

والآية تتضمن إنشاء الحكم والقضاء بالبراءة من هؤلاء المشركين وليس بتشريع محض بدليل تشريكه النبي ﷺ في البراءة فان دأب القرآن ان ينسب الحكم التشريعي المحض الى الله سبحانه وحده، وقد قال تعالى: «ولا يشرك في حكمه احداً» الكهف: ٢٦ ولا ينسب الى النبي ﷺ إلا الحكم بالمعنى الذي في الولاية والسياسة وقطع الخصومة.

فالمراد بالآية القضاء برفع الأمان عن الذين عاهدوهم من المشركين وليس رفعاً جزافياً وإبطالاً للعهد من غير سبب يبيح ذلك فان الله تعالى سيذكر بعد عدة آيات أنهم لا وثوق بعهدهم الذي عاهدوه وقد فسق اكثرهم ولم يراعوا حرمة العهد ونقضوا ميثاقهم، وقد أباح تعالى عند ذلك إبطال العهد بالمقابلة نقضاً بنقض حيث قال: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين» الأنفال: ٥٨ فأباح إبطال العهد عند مخافة الخيانة ولم يرض مع ذلك إلا بابلاغ النقض اليهم لئلا يؤخذوا على الغفلة فيكون ذلك من الخيانة المحظورة.

ولو كان إبطالاً لعهدهم من غير سبب مبيح لذلك من قبل المشركين لم يفرق بين من دام على عهده منهم وبين من لم يدم عليه، وقد قال تعالى مستثنياً: «إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم احداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم إن الله يحب المتقين».

ولم يرض تعالى بنقض عهد هؤلاء المعاهدين الناقضين لعهدهم دون ان ضرب لهم أجلاً ليفكروا في أمرهم ويرتاؤا رأيهم ولا يكونوا مأخوذين بالمباغتة والمفاجأة.

فمحصل الآية الحكم ببطلان العهد ورفع الأمان عن جماعة من المشركين كانوا قد عاهدوا المسلمين ثم نقضه اكثرهم ولم يبق الى من بقي منهم وثوق تطمئن به النفس الى عهدهم وتعتمد على يمينهم وتأمن شرهم وانواع مكرهم.

قوله تعالى: «فسيحوا في الأرض اربعة اشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وان الله مخزي الكافرين» السياحة هي السير في الأرض والجري ولذلك يقال للماء الدائم الجرية في ساحة: السائح.

وأمرهم بالسياحة اربعة اشهر كناية عن جعلهم في مأمن في هذه البرهة من الزمان وتركهم بحيث لا يتعرض لهم بشرّ حتى يختاروا ما يرونه أنفع بحالهم من البقاء او

الفناء مع ما في قوله: « واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين » من إعلامهم ان الأصلح بحالهم رفض الشرك، والإقبال الى دين التوحيد، وموعظتهم ان لا يهلكوا أنفسهم بالاستكبار والتعرض للخزي الإلهي .

وقد وجه في الآية الخطاب اليهم بالإلتفات من الغيبة الى الخطاب لما في توجيه الخطاب القاطع والإرادة الجازمة الى الخصم من الدلالة على بسط الاستيلاء والظهور عليه واستذلاله واستحقار ما عنده من قوة وشدة .

وقد اختلفت أقوال المفسرين في المراد بقوله: « أربعة أشهر » والذي يدل عليه السياق ويؤيده اعتبار إصدار الحكم وضرب الأجل ليكونوا في فسحة لاختيار ما وجدوه من الحياة او الموت أنفع بحالهم: ان تبتدىء الأربعة الأشهر من يوم الحج الأكبر الذي يذكره الله تعالى في الآية التالية فإن يوم الحج الاكبر هو يوم الإبلاغ والإيذان والانسب بضرب الاجل الذي فيه نوع من التوسعة للمحكوم عليهم وإتمام الحجة، أن تبتدىء من حين الإعلام والإيذان .

وقد اتفقت كلمة اهل النقل أن الآيات نزلت سنة تسع من الهجرة فإذا فرض ان يوم الحج الاكبر هو يوم النحر العاشر من ذي الحجة كانت الاربعة الاشهر هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الاول وعشرة ايام من ربيع الآخر .

وعند قوم ان الاربعة الاشهر تبتدىء من يوم العشرين من ذي القعدة وهو يوم الحج الاكبر عندهم فالاربعة الاشهر هي عشرة أيام من ذي القعدة وذو الحجة والمحرم وصفر وعشرون من ربيع الاول ، وسيأتي ما فيه .

وذكر آخرون : ان الآيات نزلت اول شوّال سنة تسع من الهجرة فتكون الاربعة الاشهر هي شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم فتنقضي بانقضاء الاشهر الحرم ، وقد حداهم الى ذلك القول بأن المراد بقوله تعالى فيما سيأتي : « فإذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا » الاشهر الحرم المعروفة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم فيوافي انسلاخ الاشهر الحرم انقضاء الاربعة الاشهر، وهذا قول بعيد عن الصواب لا يساعد عليه السياق وقرينة المقام كما عرفت .

قوله تعالى: « وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر أن الله بريء

من المشركين ورسوله» الأذان هو الإعلام، وليست الآية تكراراً لقوله تعالى السابق «براءة من الله ورسوله» فإن الجملتين وان رجعتا الى معنى واحد وهو البراءة من المشركين إلا ان الآية الاولى إعلام البراءة وإبلاغه الى المشركين بدليل قوله في ذيل الآية : «الى الذين عاهدتم من المشركين» بخلاف الآية الثانية فإن وجه الخطاب فيه الى الناس ليعلموا براءة الله ورسوله من المشركين ، ويستعدوا ويتهيأوا لإنفاذ أمر الله فيهم بعد انسلاخ الاشهر الحرم بدليل قوله : «الى الناس» وقوله تفريعاً : «فإذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» الى آخر الآية .

وقد اختلفوا في تعيين المراد بيوم الحج الاكبر على أقوال :

منها : أنه يوم النحر من سنة التسع من الهجرة لأنه كان يوماً اجتمع فيه المسلمون والمشركون ولم يحج بعد ذلك العام مشرك ، وهو المؤيد بالأحاديث المروية عن أئمة اهل البيت عليهم السلام والأنسب بأذان البراءة، والاعتبار يساعد عليه لأنه كان اكبر يوم اجتمع فيه المسلمون والمشركون من اهل الحج عامة بمنى وقد ورد من طرق اهل السنة روايات في هذا المعنى غير ان مدلول جلها أن الحج الاكبر اسم يوم النحر فيتكرر على هذا كل سنة ولم يثبت من طريق النقل تسمية على هذا النحو .

ومنها : أنه يوم عرفة لأن فيه الوقوف ، والحج الاصغر هو الذي ليس فيه وقوف وهو العمرة، وهو استحسان لا دليل عليه، ولا سبيل الى تشخيص صحته .

ومنها : أنه اليوم الثاني ليوم النحر لأن الإمام يخطب فيه وسقم هذا الوجه ظاهر.

ومنها : أنه جميع ايام الحج كما يقال : يوم الجمل، ويوم صفين، ويوم بغاث ، ويراد به الحين والزمان ، وهذا القول لا يقابل سائر الاقوال كل المقابلة فانه انما يبين أن المراد باليوم جميع ايام الحج ، وأما وجه تسمية هذا الحج بالحج الاكبر فيمكن أن يوجه ببعض ما في الاقوال السابقة كما في القول الاول .

وكيف كان فالاعتبار لا يساعد على هذا القول لأن وجود يوم بين ايام الحج يجتمع فيه عامة اهل الحج يتمكن فيه من أذان براءة كل التمكن كيوم النحر يصرف قوله: «يوم الحج الاكبر» الى نفسه ، ويمنع شموله لسائر ايام الحج التي لا يجتمع فيها الناس ذاك الاجتماع .

ثم التفت سبحانه الى المشركين ثانياً وذكّرهم أنهم غير معجزين لله ليكونوا على بصيرة من امرهم كما ذكّرهم بذلك في الآية السابقة بقوله: «واعلموا انكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين» غير انه زاد عليه في هذه الآية قوله: «فان تبتم فهو خير لكم» ليكون تصريحاً بما لوّح اليه في الآية السابقة فان التذكير بأنهم غير معجزي الله انما كان بمنزلة العظة وبذل النصح لهم لئلا يلقوا بأيديهم الى التهلكة باختيار البقاء على الشرك والتولي عن الدخول في دين التوحيد ففي الترديد تهديد ونصيحة وعظة .

ثم التفت سبحانه الى رسوله فخاطبه ان يبشر الذين كفروا بعذاب أليم فقال: « وبشّر الذين كفروا بعذاب أليم » والوجه في الالتفات الذي في قوله: «فان تبتم فهو خير لكم» الخ ما تقدم في قوله: «فسيحوا في الارض» الخ» وفي الالتفات الذي في قوله: « وبشّر الذين كفروا » الخ أنه رسالة لا تتم إلا من جهة مخاطبة النبي ﷺ .

قوله تعالى : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم احداً » الخ ، استثناء من عموم البراءة من المشركين ، والمستثنون هم المشركون الذين لهم عهد لم ينقضوه لا مستقيماً ولا غير مستقيم فمن الواجب الوفاء بميثاقهم وإتمام عهدهم الى مدتهم .

وقد ظهر بذلك أن المراد من اضافة قوله: «ولم يظاهروا عليكم احداً» الى قوله: « لم ينقصوكم شيئاً » استيفاء قسمي النقض وهما النقض المستقيم كقتلهم بعض المسلمين ، والنقض غير المستقيم نظير مظاهرتهم بعض اعداء المسلمين عليهم كإمداد مشركي مكة بني بكر على خزاعة بالسلاح ، وكانت بنو بكر في عهـــد قريش وخزاعة في عهد النبي ﷺ فحاربوا فأعانت قريش بني بكر على خزاعة ونقضت بذلك عهد حديبية الذي عقدوه بينهم وبين النبي ﷺ ، وكان ذلك من اسباب فتح مكة سنة ثمان .

وقوله تعالى : «إن الله يحب المتقين» في مقام التعليل لوجوب الوفاء بالعهد ما لم ينقضه المعاهد المشرك ، وذلك يجعل احترام العهد وحفظ الميثاق احد مصاديق التقوى المطلق الذي لا يزال يأمر به القرآن وقد صرح به في نظائر هذا المورد كقوله تعالى: « ولا يجرمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى» المائدة : ٨ وقوله: «ولا يجرمنّكم شنآن قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله » المائدة : ٢ .

وبذلك يظهر ما في قول بعضهم: إن المراد بالمتقين الذين يتقون نقض العهد من غير سبب، وذلك أن التقوى بمعنى الورع عن محارم الله عامة كالحقيقة الثانية في القرآن فيحتاج إرادة خلافه الى قرينة صارفة .

قوله تعالى : « فإذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد » أصل الانسلاخ من سلخ الشاة وهو نزع جلدها عنها، وانسلاخ الشهر نوع كناية عن خروجه، والحصر هو المنع من الخروج عن محيط ، والمرصد اسم مكان من الرصد بمعنى الاستعداد للرقوب .

قال الراغب: الرصد الاستعداد للترقّب يقال: رصدله وترصّد وأرصدته له، قال عزّ وجلّ: «وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل»، وقوله عزّ وجل: «إن ربّك لبا لمرصاد» تنبيهاً أنه لا ملجأ ولا مهرب ، والرصد يقال للراصد الواحد والجماعة الراصدين وللمرصود واحداً كان او جمعاً ، وقوله تعالى : « يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً » يحتمل كل ذلك ، والمرصد موضع الرصد . انتهى .

والمراد بالأشهر الحرم هي الأربعة الأشهر: أشهر السياحة التي ذكرها الله سبحانه في قوله: «فسيحوا في الأرض أربعة أشهر» وجعلها أجلاً مضروباً للمشركين لا يتعرّض فيها لحالهم وأما الأشهر الحرم المعروفة أعني ذا القعدة وذا الحجة والمحرم فإنها لا تنطبق على أذان براءة الواقع في يوم النحر عاشر ذي الحجة بوجه كما تقدمت الإشارة إليه.

وعلى هذا فاللام في الأشهر الحرم للعهد الذكري أي إذا انسلخ هذه الأشهر التي ذكرناها وحرمناها للمشركين لا يتعرّض لحالهم فيها فاقتلوا المشركين الخ .

ويظهر بذلك ان لاوجه لحمل قوله : « فاذا انسلخ الأشهر الحرم » على انسلاخ ذي القعدة وذي الحجة والمحرم بأن يكون انسلاخ الاربعة الأشهر بانسلاخ الأشهر الثلاثة منطبقاً عليه او يكون انسلاخ الأشهر الحرم مأخوذاً على نحو الإشارة الى انقضاء الاربعة الاشهر وان لم ينطبق الاشهر على الاشهر فان ذلك كله مما لا سبيل اليه بحسب السياق وان كان لفظ الاشهر الحرم في نفسه ظاهراً في شهور رجب وذي القعدة وذي الحجة والمحرم .

وقوله: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» محقق للبراءة منهم ورفع الاحترام

عن نفوسهم باهدار الدماء فلا مانع من اي نازلة نزلت بهم، وفي قوله: «حيث وجدتموهم» تعميم للحكم فلا مانع حاجب عن وجوب قتلهم حيثما وجدوا في حل او حرم بل ولو ظفر بهم في الشهر الحرام- بناء على تعميم «حيث» للزمان والمكان كليهما - فيجب على المسلمين كائنين من كانوا اذا ظفروا بهم ان يقتلوهم، كان ذلك في الحل او الحرم في الشهر الحرام او غيره .

وانما امر بقتلهم حيث وجدوا للتوسّل بذلك الى إيرادهم مورد الفناء والانقراض، وتطييب الارض منهم ، وإنجاء الناس من مخالطتهم ومعاشرتهم بعد ما سمح وأُبيح لهم ذلك في قوله : « فسيحوا في الارض اربعة اشهر » .

ولازم ذلك أن يكون كل من قوله: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وقوله: «وخذوهم» وقوله : «واحصروهم» وقوله : «واقعدوا لهم كل مرصد» بياناً لنوع من الوسيلة الى افناء جمعهم وانفاد عددهم ، ليتفصّى المجتمع من شرهم .

فان ظفر بهم وأمكن قتلهم قتلوا، وان لم يمكن ذلك قبض عليهم وأُخذوا ، وان لم يمكن أخذهم حصروا وحبسوا في كهفهم ومنعوا من الخروج الى الناس ومخالطتهم وان لم يعلم محلهم قعد لهم في كل مرصد ليظفر بهم فيقتلوا او يؤخذوا .

ولعل هذا المعنى هو مراد من قال: ان المراد: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم او خذوهم واحصروهم على وجه التخيير في اعتبار الاصلح من الامرين، وان كان لا يخلو عن تكلّف من جهة اعتبار الاخذ والحصر والقعود في كل مرصد امراً واحداً في قبال القتل ، وكيف كان فالسياق إنما يلائم ما قدمناه من المعنى .

واما قول من قال: ان في قوله: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم ، تقديماً وتأخيراً، والتقدير: فخذوا المشركين حيث وجدتموهم واقتلوهم فهو من التصرّف في معنى الآية من غير دليل مجوّز ، والآية وخاصة ذيلها يدفع ذلك سياقاً .

ومعنى الآية: فاذا انسلخ الاشهر الحرم وانقضى الاربعة الاشهر التي امهلناهم بها بقولنا: «فسيحوا في الارض اربعة اشهر» فأفنوا المشركين بأي وسيلة ممكنة رأيتموها اقرب وأوصل الى إفناء جمعهم وإمحاء رسمهم من قتلهم اينما وجدتموهم من حل او حرم

ومتى ما ظفرتم بهم في شهر حرام او غيره، ومن أخذهم او حصرهم او القعود لهم في كل مرصد حتى يفنوا عن آخرهم .

قوله تعالى : «فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم ان الله غفور رحيم» اشتراط في معنى الغاية للحكم السابق، والمراد بالتوبة معناها اللغوي وهو الرجوع اي ان رجعوا من الشرك الى التوحيد بالايمان ونصبوا لذلك حجة من اعمالهم وهي الصلاة والزكاة والتزموا احكام دينكم الراجعة الى الخالق جميعاً فخلوا سبيلهم .

وتخلية السبيل كناية عن عدم التعرض لسالكيه وان عادت مبتذلة بكثرة التداول كأن سبيلهم مسدودة مشغولة بتعرُّض المتعرضين فاذا خلّي عنها كان ذلك ملازماً او منطبقاً على عدم التعرض لهم .

وقوله: «ان الله غفور رحيم» تعليل لقوله: «فخلّوا سبيلهم» إما من جهة الأمر الذي يدل عليه بصورته او من جهة المأمور به الذى يدل عليه بمادته اعني تخلية سبيلهم

والمعنى على الاول: وإنما امر الله بتخلية سبيلهم لانه غفور رحيم يغفر لمن تاب اليه ويرحمه .

وعلى الثاني : خلّوا سبيلهم لان تخليتكم سبيلهم من المغفرة والرحمة ، وهما من صفات الله العليا فتتصفون بذلك بصفة ربكم ، وأظهر الوجهين هو الاول .

قوله تعالى : «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله» الى آخر الآية ، الآية تتضمن حكم الإجارة لمن استجار من المشركين لان يسمع كلام الله، وهي بما تشتمل عليه من الحكم وان كانت معترضة او كالمعترضة بين ما يدل على البراءة ورفع الامان عن المشركين إلا أنها بمنزلة دفع الدخل الواجب الذي لا يجوز إهماله فان أساس هذه الدعوة الحقة وما يصاحبها من الوعد والوعيد والتبشير والانذار، وما يترتب عليه من عقد العقود وإبرام العهود او النقض والبراءة واحكام القتال كل ذلك انما هو لصرف الناس عن سبيل الغي والضلال الى صراط الرشد والهدى ، وانجائهم من شقاء الشرك الى سعادة التوحيد .

ولازم ذلك الاعتناء التام بكل طريق يرجى فيه الوصول الى هداية ضال والفوز باحياء حق وان كان يسيراً قليلاً فان الحق حق وان كان يسيراً، والمشرك غير المعاهد

وإن أبرء الله منه الذمة وأهدر دمه ورفع الحرمة عن كل ما يعود اليه من مال وعرض لكنه تعالى إنما فعل به ذلك ليحيى حق ويبطل باطل فاذا رجي منه الخير منع ذلك من اي قصد سيىء يقصد به حق يحصل اليأس من هدايته وانجائه .

فإذا استجار المشرك لينظر فيما تندب اليه الدعوة الحقة ويتبعها ان اتضحت له كان من الواجب اجارته حتى يسمع كلام الله ويرتفع عنه غشاوة الجهل وتتم عليه الحجة فاذا تمادى بعد ذلك في ضلاله وأصر في استكباره صار ممن ارتفع عنه الأمان وبرأت منه الذمة ووجب تطييب الارض من قذارة وجوده بأية وسيلة امكنت واي طريق كان اقرب واسهل وهذا هو الذي يفيده قوله تعالى: «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون» الآية بما يكتنف به من الآيات .

فمعنى الآية : ان طلب منك بعض هؤلاء المشركين الذين رفع عنهم الأمان أن تأمنه في جوارك ليحضر عندك ويكلمك فيما تدعو اليه من الحق الذي يتضمنه كلام الله فأجره حتى يسمع كلام الله ويرتفع عنه غشاوة الجهل ثم أبلغه مأمنة حتى يملك منك امناً تاماً كاملاً ، وإنما شرع الله هذا الحكم وبذل لهم هذا الامن التام لانهم قوم جاهلون ولا بأس على جاهل اذا رجي منه الخير بقبول الحق لو وضح له .

وهذا غاية ما يمكن مراعاته من اصول الفضيلة وحفظ الكرامة ونشر الرحمة والرأفة وشرافة الانسانية اعتبره القرآن الكريم ، وندب اليه الدين القويم .

وقد بان بما قد مناه اولاً: ان الآية مخصصة لعموم قوله في الآية السابقة: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » .

وثانياً: أن قوله : « حتى يسمع كلام الله » غاية للاستجارة والاجارة فيتغيا به الحكم، فالاستئمان إنما كان لسمع كلام الله واستفسار ما عند الرسول من مواد الرسالة فيتقدر الامان الذي يعطاه المستجير المستأمن بقدره فاذا سمع من كلام الله ما يتبين به الرشد من الغي ويتميّز به الهدى من الضلال انتهت مدة الاستجارة وحان أن يرد المستجير الى مأمنه والمكان الخاص به الذي هو في أمن فيه، لا يهدده فيه سيوف المسلمين ليرجع الى حاله الذي فارقه ، ويختار لنفسه ما يشاء على حرية من المشية والارادة.

وثالثاً : أن المراد بكلام الله مطلق آيات القرآن الكريم ، نعم يتقيد بما ينفع المستجير من الآيات التي توضح له أصول المعارف الإلهية ومعالم الدين والجواب عما يختلج في صدره من الشبهات كل ذلك بدلالة المقام والسياق .

وبذلك يظهر فساد ما قيل : إن المراد بكلام الله آيات التوحيد من القرآن ، وكذا ما قيل : ان المراد به سورة براءة او خصوص ما بلّغوه في الموسم من آيات صدر السورة فإن ذلك كله تخصيص من غير مخصص .

ورابعاً: أن المراد بسمع كلام الله الوقوف على أصول الدين ومعالمه وإن امكن أن يقال : إن لاستماع نفس كلام الله فيما اذا كان المستجير عربياً يفهم الكلام الإلهي دخلاً في ذلك أما اذا كان غير عربي ولا يفهم الكلام العربي فالمستفاد من السياق أن الغاية في حقه مجرد تفقّه اصول الدين ومعالمه .

وخامساً : أن الآية محكمة غير منسوخة ولا قابلة له لأن من الضروري البيّن من مذاق الدين، وظواهر الكتاب والسنة ان لا مؤاخذة قبل تمام الحجة، ولاتشديد أيّ تشديد كان إلا بعد البيان فالجاهل السالك في سبيل الفحص او المستعلم للحق المستفهم للحقيقة لا يرد خائباً ولا يؤخذ غافلاً فعلى الإسلام والمسلمين ان يعطوا كل الامان لمن استأمنهم ليستحضر معارف الدين ويستعلم اصول الدعوة حتى يتّبعها إن لاحت له فيها لوائح الصدق ، وهذا اصل لا يقبل بطلاناً ولا تغييراً ما دام الإسلام إسلاماً فالآية محكمة غير قابلة للنسخ الى يوم القيامة .

ومن هنا يظهر فساد قول من قال : أن قوله : « وإن احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » الآية منسوخة بالآية الآتية : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » الآية .

وسادساً : أن الآية إنما توجب إجارة المستجير اذا استجار لامر ديني يرجى فيه خير الدين، واما مطلق الاستجارة لا لغرض ديني ولا نفع عائد اليه فلا دلالة لها عليه أصلاً بل الآيات السابقة الآمرة بالتشديد عليهم في محلها .

وسابعاً : أن قوله في تتميم الامر بالإجارة: « ثم أبلغه مأمنه » مع تمام قوله: « فأجره حتى يسمع » بدونه في الدلالة على المقصد يدل على كمال العناية بفتح باب

الهداية على وجوه الناس ، والتحفظ على حرية الناس في حياتهم وأعمالهم الحيوية ، والإغماض في طريقه عن كل حكم حتمي وعزيمة قاطعة ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيي من حيّ عن بيّنة ، ولا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وثامناً : أن الآية – كما قيل – تدل على ان الاعتقاد بأصل الدين يجب ان يكون عن علم يقيني لا يداخله شك ولا يمازجه ريب ولا يكفي فيه غيره ولو كان الظن الراجح ، وقد ذم الله تعالى اتباع الظن، وندب الى اتباع العلم في آيات كثيرة كقوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » أسرى : ٣٦ وقوله: « إن يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئاً » النجم : ٢٨ وقوله: « ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » الزخرف : ٢٠ .

ولو كفى في اصل الدين الاعتقاد التقليدي لم يستقم الحكم بإجارة من استجار لتفهم أُصول الدين ومعارفه لجواز ان يكلف بالتقليد والكف عن البحث عن انه حق أو باطل هذا .

ولكن المقدار الواجب في ذلك ان يكون عن علم قطعي سواء كان حاصلاً عن الاستدلال بطرق فنية او بغير ذلك من الوجوه المفيدة للعلم ولو على سبيل الاتفاق، وهذا غير القول بأن الاستدلال على اصول المعارف لا يصح إلا من طريق العقل فإن صحة الاستدلال أمر ، وجواز الاعتماد على العلم بأي طريق حصل أمر آخر .

قوله تعالى: « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله » الآية ، تبيين وتوضيح لما مر إجمالاً من الحكم بنقض عهد المشركين ممن لا وثوق بوفائه بعهده ، وقتلهم الى ان يؤمنوا بالله ويخضعوا لدين التوحيد ، واستثناء من لم ينقض العهد وبقي على الميثاق حتى ينقضي مدة عهدهم .

فالآية وما يتلوها الى تمام ست آيات تبين ذلك وتوضح الحكم واستثناء ما استثني منه والغاية والمغيّى جميعاً .

فقوله: « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله » استفهام في مقام الإنكار ، وقد بادرت الآية الى استثناء الذين عاهدوهم من المشركين عند المسجد الحرام لكونهم لم ينقضوا عهداً ولم يساهلوا فيما واتقوا به بدليل قوله تعالى: « فما استقاموا

لكم فاستقيموا لهم» وذلك أن الاستقامة لمن استقام والسلم لمن يسالم من لوازم التقوى الديني، ولذلك علل قوله ذلك بقوله : «إن الله يحب المتقين» كما جاء مثله بعينه في الآية السابقة : « فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم إن الله يحب المتقين » .

قوله تعالى : « كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة » الى آخر الآية، قال الراغب في المفردات: الإلّ كل حالة ظاهرة من عهد حلف، وقرابة تئل: تلمع فلا يمكن انكاره، قال تعالى: لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، وألّ الفرس : اسرع ، حقيقته لمع ، وذلك استعارة في باب الإسراع نحو برق وطار . انتهى .

وقال ايضا : الذمام ـ بكسر الذال ـ ما يذمّ الرجل على إضاعته من عهد، وكذلك الذمة والمذمة، وقيل: لي مذمة فلا تهتكها ، وأذهب مذمتهم بشيء : اي اعطهم شيئاً لما لهم من الذمام . انتهى . وهو ظاهر في أن الذمة مأخوذة من الذم بالمعنى الذي يقابل المدح .

ولعل إلقاء المقابلة في الآية بين الإلّ والذمة للدلالة على انهم لا يحفظون في المؤمنين شيئاً من المواثيق التي يجب رقوبها وحفظها سواء كانت مبنية على اصول واقعية تكوينية كالقرابة التي توجب بوجه على القريب رعاية حال قريبه ، او على الجعل والاصطلاح كالعهود والمواثيق المعقودة بحلف ونحوه .

وقد كررت لفظة « كيف » للتأكيد ولرفع الإبهام في البيان الناشي من تخلل قوله : « إلا الذين عاهدتم » الآية بطولها بين قوله : «كيف يكون للمشركين» الآية وقوله : « وإن يظهروا عليكم » الآية .

فمعنى الآية : كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله والحال أنهم إن يظهروا عليكم ويغلبوكم على الامر لا يحفظوا ولا يراعوا فيكم قرابة ولا عهداً من العهود يرضونكم بالكلام المدلّس والقول المزوّق، ويأبى ذلك قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون.

ومن هنا ظهر أن قوله : « يرضونكم بأفواههم » من المجاز العقلي نسب فيه الإرضاء الى الأفواه وهو في الحقيقة منسوب الى القول والكلام الخارج من الأفواه المكوّن فيها .

وقوله : « يرضونكم » الآية تعليل لإنكار وجود العهد للمشركين ولذلك

جيء به بالفصل ، والتقدير: كيف يكون لهم عهد وهم يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون .

وأما قوله : «وأكثرهم فاسقون» ففيه بيان أن أكثرهم ناقضون للعهد والميثاق بالفعل من غير ان ينتظروا ظهورهم جميعاً عليكم فالآية توضح حال آحادهم وجميعهم بأن اكثرهم فاسقون بنقض العهد من غير ان يرقبوا في مؤمن إلاً ولا ذمة ، ولو انهم ظهروا عليكم جميعاً لم يرقبوا فيكم الإلّ والذمة .

قوله تعالى : « اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً » الى آخر الايتين ، بيان وتفسير لقوله في الآية السابقة : « وأكثرهم فاسقون » وكأن قوله: « اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً » الى آخر الآية توطئة وتمهيد لقوله في الآية الثانية : « لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة » .

وبذلك يظهر أن الأقرب أن المراد بالفسق الخروج عن العهد والذمة دون الفسق بمعنى الخروج عن زي عبودية الله سبحانه وإن كان الامر كذلك .

وقوله: « واولئك هم المعتدون » كالتفسير لجميع ما مر من أحوالهم الروحية وأعمالهم الجسمية ، وتفيد الجملة مع ذلك جواباً عن سؤال مقدّر او ما يجري مجراه والمعنى: اذا كان هذا حالهم وهذه افعالهم فلا تحسبوا ان لو نقضتم عهدهم اعتديتم عليهم فاولئك هم المعتدون عليكم لما اضمروه من العداوة والبغضاء ولما اظهره اكثرهم في مقام العمل من الصد عن سبيل الله ، وعدم رعاية قرابة ولا عهد في المؤمنين .

قوله تعالى : «فإن تابوا وأقاموا الصلاة» الى آخر الايتين، الايتان بيان تفصيلي لقوله فيما تقدم: «فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا انكم غير معجزي الله».

والمراد بالتوبه بدلالة السياق الرجوع الى الايمان بالله وآياته، ولذلك لم يقتصر على التوبة فقط بل عطف عليها إقامة الصلاة التي هي أظهر مظاهر عبادة الله، وإيتاء الزكاة الذي هو اقوى اركان المجتمع الديني، وقد أشير بهما الى نوع الوظائف الدينية التي بإتيانها يتم الايمان بآيات الله بعد الايمان بالله عز اسمه فهذا معنى قوله : « تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

واما قوله: «فاخوانكم في الدين» فالمراد به بيان التساوي بينهم وبين سائر المؤمنين

في الحقوق التي يعتبرها الاسلام في المجتمع الاسلامي : لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين .

وقد عبّر في الآية عن ذلك بالاخوّة في الدين، وقال في موضع آخر: «انما المؤمنون إخوة» الحجرات : ١٠ اعتباراً بما بينهم من التساوي في الحقوق الدينية فان الأخوين شقيقان اشتقا من مادة واحدة وهما لذلك متساويان في الشؤون الراجعة الى ذلك في مجتمع المنزل عند والدهما الذي هو رب البيت، وفي مجتمع القرابة عند الأقرباء والعشيرة.

واذ كان لهذا المعنى المسمّى بلسان الدين أُخوّة أحكام وآثار شرعية اعتنى بها قانون الاسلام فهو اعتبار حقيقة لنوع من الاخوّة بين افراد المجتمع الاسلامي لها آثار مترتبة كما أن الاخوّة الطبيعية فيما اعتبرها الاسلام لها آثار مترتبة عقلائية ودينية وليست تسمية ذلك أُخوّة مجرد استعارة لفظية عن عناية مجازية، وفيما نقل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : قوله « المؤمنون إخوة يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد واحدة على من سواهم».

وقوله: «وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا ائمة الكفر إنهم لا أيمان لهم» الآية يدل السياق أنهم غير المشركين الذين أمر الله سبحانه في الآية السابقة بنقض عهدهم وذكر انهم هم المعتدون لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة فانهم ناكثون للأيمان ناقضون للعهد ، فلا يستقيم فيهم الاشتراط الذي ذكره الله سبحانه بقوله : « وإن نكثوا أيمانهم » الآية .

فهؤلاء قوم آخرون لهم مع ولي الأمر من المسلمين عهود وأيمان ينكثون أيمانهم من بعد عهدهم، اي ينقضون عهودهم من بعد عقدها فأمر الله سبحانه بقتالهم وألغى أيمانهم وسمّاهم أئمة الكفر لأنهم السابقون في الكفر بآيات الله يتّبعهم غيرهم ممن يليهم ، يقاتلون جميعاً لعلهم ينتهون عن نكث الأيمان ونقض العهود .

قوله تعالى : « ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول » الآية وما بعدها الى تمام اربع آيات تحريض للمؤمنين وتهييج لهم على قتال المشركين ببيان ما اجرموا به في جنب الله وخانوا به الحق والحقيقة ، وعدّ خطاياهم وطغياناتهم من نكث الأيمان والهمّ بإخراج الرسول والبدء بالقتال اول مرة .

ثم بتعريف المؤمنين أن لازم إيمانهم بالله الذي يملك كل خير وشر ونفع وضر

أن لا يخشوا إلا إياه ان كانوا مؤمنين به ففي ذلك تقوية لقلوبهم وتشجيعهم عليهم ، وينتهي الى بيان أنهم ممتحنون من عند الله بإخلاص الإيمان له والقطع من المشركين حتى يؤجروا بما يؤجر به المؤمن المتحقق في ايمانه .

قوله تعالى : «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم» الى آخر الآيتين. أعاد الأمر بالقتال لأنه صار من جهة ما تقدم من التحريض والتحضيض اوقع في القبول فان الأمر الاول كان ابتدائياً غير مسبوق بتمهيد وتوطئة بخلاف الامر الثاني الوارد بعد اشتداد الاستعداد وكمال التهيؤ من المأمورين .

على ان ما أتبع به الامر من قوله: « يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم » الى قوله : « ويذهب غيظ قلوبهم » يؤكد الامر ويغري المأمورين على امتثاله وإجرائه على المشركين فان تذكرهم أن قتل المشركين عذاب إلهي لهم بأيدي المؤمنين، وأن المؤمنين أياد مجرية لله سبحانه وأن في ذلك خزياً للمشركين ونصرة من الله للمؤمنين عليهم وشفاء لصدور قوم مؤمنين وإذهاباً لغيظ قلوبهم، يجرّئهم للعمل وينشطهم ويصفي إرادتهم.

وقوله: « ويتوب الله على من يشاء » الآية بمنزلة الاستثناء لئلا يجري حكم القتال على إطلاقه .

قوله تعالى : « أم حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » الى آخر الآية بمنزلة تعليل آخر لوجوب قتالهم لينتج تحريضهم على القتال وفيه بيان حقيقة الامر، ومحصله أن الدار دار الامتحان والإبتلاء فان نفوس الآدميين تقبل الخير والشر والسعادة والشقاوة فهي في اول كينونتها ساذجة مبهمة ، ومراتب القرب والزلفى إنما تبذل بإزاء الايمان الخالص بالله وآياته، ولا يظهر صفاء الايمان إلا بالامتحان الذي يورد المؤمن مقام العمل، ليميّز الله بذلك الطيب من الخبيث، والصافي الإيمان ممن ليس عنده إلا مجرد الدعوى او المزعمة .

فمن الواجب أن يمتحن هؤلاء المدّعون أنهم باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة، ويبتلوا بمثل القتال الذي يميز به الصادق من الكاذب ويفصل الذي قطع روابط المحبة والصلة من أعداء الله سبحانه ممن في قلبه بقايا من ولايتهم ومودتهم حتى يحيى هؤلاء ويهلك أولئك .

فعلى المؤمنين أن يمتثلوا امر القتال بل يتسارعوا اليه ويتسابقوا فيه ليظهروا بذلك صفاء جوهرهم وحقيقة إيمانهم ويحتجوا به على ربهم يوم لانجاح فيه إلا بحجة الحق.

فقوله: «أم حسبتم أن تتركوا» اي بل أظننتم ان تتركوا على ما أنتم عليه من الحال ولما تظهر حقيقة صدقكم في دعوى الإيمان بالله وبآياته .

وقوله: «ولما يعلم الله» الآية اي ولما يظهر في الخارج جهادكم وعدم اتخاذكم من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة فان تحقق الأشياء علم منه تعالى بها وقد مر نظير الكلام مع بسط ما في تفسير قوله تعالى: «أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » الآية آل عمران : ١٤٢ في الجزء الرابع من الكتاب. ومن الدليل على هذا الذي ذكرنا في معنى العلم قوله في ذيل الآية: «والله خبير بما تعملون».

والوليجة على ما في مفردات الراغب كل ما يتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من اهله.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: «براءة من الله ورسوله » حدثني ابي عن محمد بن الفضل عن ابن أبي عمير عن ابي الصباح الكناني عن ابي عبدالله عليه السلام قال: نزلت هذه الآية بعد ما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من غزوة تبوك في سنة تسع من الهجرة .

قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لما فتح مكة لم يمنع المشركين الحج في تلك السنة، وكان سنة من العرب في الحج انه من دخل مكة وطاف البيت في ثيابه لم يحل له إمساكها، وكانوا يتصدقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف فكان من وافى مكة يستعير ثوباً ويطوف فيه ثم يرده، ومن لم يجده عارية ولا كرى ولم يكن له إلا ثوب واحد طاف بالبيت عرياناً .

فجاءت امرأة من العرب وسيمة جميلة فطلبت ثوباً عارية او كرى فلم تجده فقالوا لها : إن طفت في ثيابك احتجت ان تتصدقي بها فقالت : كيف أتصدق وليس لي غيرها ؟ فطافت بالبيت عريانة وأشرف لها الناس فوضعت إحدى يديها على قبلها والاخرى على دبرها وقالت شعراً :

اليوم يبدو بعضه او كله فما بدا منه فـــلا احله

فلما فرغت من الطواف خطبها جماعة فقالت : إن لي زوجاً .

وكانت سيرة رسول الله ﷺ قبل نزول سورة براءة ان لا يقاتل إلا من قاتله ولا يحارب إلا من حاربه وأراده ، وقد كان أنزل عليه [في] ذلك « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً » فكان رسول الله ﷺ لا يقاتل احداً قد تنحّى عنه واعتزله حتى نزلت عليه سورة براءة وأمره بقتل المشركين من اعتزله ومن لم يعتزله إلا الذين قد عاهدهم رسول الله ﷺ يوم فتح مكة الى مدة: منهم صفوان بن امية وسهيل بن عمرو فقال الله عز وجل: «براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض اربعة اشهر» ثم يقتلون حيثما وجدوا بعد. هذه اشهر السياحة: عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشراً من ربيع الآخر.

فلما نزلت الآيات من سورة براءة دفعها رسول الله ﷺ الى ابي بكر وأمره ان يخرج الى مكة ويقرأها على الناس بمنى يوم النحر فلما خرج ابو بكر نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال : يا محمد لا يؤدي عنك إلا رجل منك .

فبعث رسول الله ﷺ امير المؤمنين عليه السلام في طلب ابي بكر فلحقه بالروحاء وأخذ منه الآيات فرجع ابو بكر الى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أنزل الله في شيئاً ؟ فقال : لا إن الله أمرني ان لا يؤدي عني إلا انا او رجل مني .

وفي تفسير العياشي عن حريز عن ابي عبدالله عليه السلام أن رسول الله بعث ابابكر مع براءة الى الموسم ليقرأها على الناس فنزل جبرئيل فقال : لا يبلـّغ عنك إلا علي فدعا رسول الله ﷺ علياً وامر ان يركب ناقته العضباء، وأمره ان يلحق ابا بكر فيأخذ منه براءة ويقرأها على الناس بمكة فقال ابو بكر: أسخط؟ فقال :لا إلا انه أنزل عليه انه لا يبلـّغ إلا رجل منك .

فلما قدم على مكة وكان يوم النحر بعد الظهر وهو يوم الحج الاكبر قام ثم قال: إني رسول رسول الله اليكم فقرأها عليهم: «براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الارض اربعة اشهر» عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشراً من شهر ربيع الآخر، وقال: لا يطوف بالبيت عريان ولا عريانة

ولا مشرك بعد هذا العام ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فمدته إلى هذه الأربعة اشهر .

أقول : المراد تعيين المدة للعهود التي لا مدة لها بقرينة ما سيأتي من الرواية ، وأما العهود التي لها مدة فاعتبارها الى مدتها مدلول لنفس الآيات الكريمة .

وفي تفسيري العياشي والمجمع عن ابي بصير عن ابي جعفر عليه‌السلام قال: خطب علي عليه‌السلام بالناس واخترط سيفه وقال: لا يطوفنّ بالبيت عريان، ولا يحجّنّ بالبيت مشرك ، ومن كانت له مدة فهو الى مدته ، ومن لم يكن له مدة فمدته اربعة اشهر ، وكان خطب يوم النحر ، وكانت عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الاول وعشر من شهر ربيع الآخر ، وقال : يوم النحر يوم الحج الاكبر .

أقول : والروايات من طرق أئمة اهل البيت عليهم السلام في هذه المعاني فوق حد الإحصاء .

وفي الدر المنثور اخرج عبدالله بن احمد بن حنبل في زوائد المسند وأبو الشيخ وابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي ﷺ دعا أبا بكر رضي الله عنه ليقرأها على اهل مكة ثم دعاني فقال لي: ادرك ابا بكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه .

ورجع ابو بكر رضي الله عنه فقال : يا رسول الله نزل فيّ شيء ؟ قال : لا ولكن جبرئيل جاءني فقال : لا يؤدّي عنك إلا انت او رجل منك .

وفيه اخرج ابن مردويه عن سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ بعث أبا بكر رضي الله عنه ببراءة الى اهل مكة ثم بعث علياً رضي الله عنه على أثره فأخذها منه فكأن أبا بكر وجد في نفسه فقال النبي ﷺ : يا أبا بكر إنه لا يؤدّي عني إلا أنا او رجل مني .

وفيه اخرج ابن مردويه عن ابي رافع رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ ابا بكر رضي الله عنه ببراءة الى الموسم فأتى جبرئيل عليه‌السلام فقال : انه لا يؤديها إلا انت او رجل منك فبعث علياً رضي الله عنه على أثره حتى لحقه بين مكة والمدينة فأخذها فقرأها على الناس في الموسم .

وفيه اخرج ابن حبان وابن مردويه عن ابي سعيد الخدري قال: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه يؤدي عنه براءة فلما ارسله بعث الى علي رضي الله عنه فقال : يا علي لا يؤدّي عني إلا أنا او انت، فحمله على ناقته العضباء فسار حتى لحق بأبي بكر رضي الله عنه فأخذ منه براءة .

فأتى ابو بكر النبي ﷺ وقد دخله من ذلك مخافة ان يكون قد انزلت فيه شيء فلما اتاه قال: ما لي يا رسول الله؟ قال:خيرٌ انت أخي وصاحبي في الغار وأنت معي على الحوض غير انه لا يبلغ عني إلا رجل مني .

أقول : وهناك روايات أخرى في معنى ما تقدم ، وقد نقل في تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب انه رواه الطبرسي، والبلاذري، والترمذي، والواقدي، والشعبي، والسدّي، والثعلبي، والواحدي، والقرطبي، والقشيري، والسمعاني، وأحمد بن حنبل، وابن بطة، ومحمد بن اسحاق، وأبو يعلى الموصلي، والأعمش، وسماك بن حرب في كتبهم عن عروة بن الزبير، وأبي هريرة ، وانس، وأبي رافع، وزيد بن نفيع ، وابن عمر، وابن عباس، واللفظ له: انه لما نزل : « براءة من الله ورسوله » الى تسع آيات أنفذ النبي ﷺ ابا بكر الى مكة لأدائها فنزل جبرئيل وقال : انه لا يؤديها إلا انت او رجل منك فقال النبي ﷺ لأمير المؤمنين : اركب ناقتي العضباء والحق ابا بكر وخذ براءة من يده .

قال : ولما رجع ابو بكر الى النبي ﷺ جزع وقال: يا رسول الله انك أهّلتني لأمر طالت الاعناق فيه فلما توجهت اليه رددتني منه؟ فقال ﷺ : الأمين هبط إليّ عن الله تعالى : انه لا يؤدّي عنك إلا انت او رجل منك ؛ وعليّ مني ولا يؤدّي عني إلا علي .

وفيما نقلناه من الروايات وما تركناه منها وهو اكثر وفيما سيجيء في هذا الباب نكتتان أصليتان .

إحداهما : ان بعث النبي ﷺ علياً ببراءة وعزله ابا بكر انما كان بأمر من ربه بنزول جبرئيل : « انه لا يؤدي عنك الا أنت او رجل منك » ولم يقيد الحكم في شيء من الروايات ببراءة او نقض العهد فلم يرد في شيء منها: لا يؤدي براءة او لا ينقض العهد الا أنت او رجل منك فلا دليل على تقييده ببراءة على ما وقع في كثير

من التفاسير ؛ ويؤيد الإطلاق ما سيأتي .

وثانيتها : ان علياً عليه السلام كما كان ينادي ببراءة، كذلك كان ينادي بحكم آخر وهو ان من كان له مدة فهو الى مدته ومن لم يكن له مدة فمدته اربعة أشهر: وهذا أيضاً مما يدل عليه آيات براءة .

وبحكم آخر وهو انه لايطوفن بالبيت عريان، وهو ايضاً حكم إلهي مدلول عليه بقوله تعالى : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » الأعراف : ٣١ وقد ورد في بعض الروايات ذكر الآية مع الحكم كما سيجيء .

وحكم آخر انه لا يطوف او لا يحج البيت مشرك بعد هذا العام وهو مدلول قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » التوبة : ٢٨ .

وهناك أمر خامس ذكر في بعض روايات الباب انه عليه السلام كان ينادي به وهو انه لا يدخل الجنة إلا مؤمن وهذا وان لم يذكر في سائر الروايات، والاعتبار لايساعد على ذلك لنزول آيات كثيرة مكية ومدنية في ذلك وخفاء الأمر في ذلك على المشركين الى سنة تسع من الهجرة كالمحال عادة لكن ذلك ايضاً مدلول للآيات الكريمة(١)، وعلى أي حال لم تكن رسالة علي عليه السلام مقصوراً على تأدية آيات براءة بل لها ولتبليغ ثلاثة او اربعة أحكام قرآنية أخرى، والجميع مشمول لما أنزل به جبرئيل عن الله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم : انه لا يؤدي عنك إلا انت او رجل منك، إذ لا دليل على تقييد الكلام على إطلاقه أصلاً .

وفي الدر المنثور أخرج الترمذي وحسّنه وابن ابي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر رضي الله عنه وأمره ان ينادي بهؤلاء الكلمات ثم اتبعه علياً رضي الله عنه وأمره ان ينادي بها فانطلقا فحجا فقام علي رضي الله عنه في ايام التشريق فنادى: ان الله بريء من المشركين ورسوله فسيحوا في الأرض اربعة اشهر ولا يحجن بعد العام مشرك،

(١) واما على ما في بعضها بدلا من ذلك : « لا يدخل الكعبة – او البيت – الا مؤمن » فالحكم المستفاد منه نظير الحكم بأنه لا يطوفن بالبيت مشرك حكم ابتدائي .

ولا يطوفن بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن فكان علي رضي الله عنه ينادي بها.

أقول: والخبر قريب المضمون مما استفدناه من الروايات.

وفيه اخرج عبدالرزاق وابن المنذر وابن ابي حاتم من طريق سعيد بن المسيب عن ابي هريرة ان ابا بكر رضي الله عنه أمره ان يؤذن ببراءة في حجة ابي بكر.

قال ابو هريرة: ثم اتبعنا النبي ﷺ علياً رضي الله عنه أمره ان يؤذن ببراءة وابو بكر رضي الله عنه على الموسم كما هو – أو قال: على هيئته –.

أقول: وقد ورد في عدة من طرق اهل السنة: ان النبي استعمل ابا بكر على الحج عامه ذلك فكان هو امير الحاج وعلي ينادي ببراءة وقد روت الشيعة انه صلى الله عليه وآله وسلم استعمل للإمارة علياً كما انه حمله تأدية آيات براءة وقد ذكر ذلك الطبرسي في مجمع البيان ورواه العياشي عن زرارة عن ابي جعفر عليه السلام، وربما تأيد ذلك بما ورد أن علياً كان يقضي في سفره ذلك، وان النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا له في ذلك إذ من المعلوم ان مجرد الرسالة بتأدية براءة لا تتضمن الحكم بالقضاء بين الناس، وأوفق ما يكون ذلك في تلك الأيام بالإمارة، والرواية ما سيأتي:

في تفسير العياشي عن الحسن عن علي عليه السلام ان النبي (ص) حين بعثه ببراءة قال: يانبي الله إني لست بلسن ولا بخطيب قال صلى الله عليه وآله وسلم: يأبى الله مابي إلا ان أذهب بها او تذهب أنت قال: فإن كان لابد فسأذهب أنا قال: فانطلق فإن الله يثبت لسانك ويهدي قلبك ثم وضع يده على فمه فقال: انطلق واقرأها على الناس، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: الناس سيتقاضون اليك فإذا أتاك الخصمان فلا تقض لواحد حتى تسمع الآخر فإنه أجدر ان تعلم الحق.

أقول: وهذا المعنى مروي من طرق اهل السنة كما في الدر المنثور عن ابي الشيخ عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ الى اليمن ببراءة فقلت: يا رسول الله تبعثني وأنا غلام حديث السن وأسأل عن القضاء ولا أدري ما اجيب؟ قال: ما بد من ان تذهب بها او اذهب بها. قلت: إن كان لا بد انا اذهب، قال: انطلق فإن الله يثبّت لسانك ويهدي قلبك، ثم قال: انطلق واقرأها على الناس.

إلا أن اشتمال الرواية على لفظ اليمن يسيء الظن بها إذ من البيّن من لفظ آيات براءة أنها مقرّة على اهل مكة يوم الحج الاكبر بمكة وأين ذلك من اليمن وأهلها

وكان لفظ الرواية كان : « الى مكة » فوضع موضعه « الى اليمن » تصحيحاً لما اشتملت عليه من حديث القضاء .

وفي الدر المنثور اخرج احمد والنسائي وابن المنذر وابن مردويه عن ابي هريرة قال : كنت مع علي رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ ، بعث علياً بأربع : لا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو الى عهده ، وأن الله ورسوله بريء من المشركين .

أقول : وهذا المعنى مروي عن ابي هريرة بعدة طرق بألفاظ مختلفة لا تخلو من شيء في متنها ـ على ما سيجيء ـ وأمتن الروايات متناً هذه التي أوردناها .

وفيه اخرج احمد والنسائي وابن المنذر وابن مردويه عن ابي هريرة قال: كنت مع علي حين بعثه رسول الله الى اهل مكة ببراءة فكنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أمره او أجله الى اربعة اشهر فإذا مضت الاربعة اشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله ولا يحجُّ هذا البيت بعد العام مشرك .

أقول : وفي متن الرواية اضطراب بيّن، أما اولاً: فلاشتمالها على النداء بأنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وقد سبق أنه نزلت في معناه آيات كثيرة مكية ومدنية منذ سنين وقد سمعها الحضري والبدوي والمشرك والمؤمن فأي حاجة متصورة الى إبلاغها اهل الجمع.

وأما ثانياً : فلأن النداء الثاني أعني قوله : ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد الخ، لا ينطبق لا على مضامين الآيات ولا على مضامين الروايات المتظافرة السابقة، على أنه قد جعل فيه البراءة بعد مضي اربعة اشهر .

وأما ثالثاً : فلما سنذكره ذيلاً .

وفيه اخرج البخاري ومسلم وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابي هريرة قال: بعثني ابوبكر رضي الله عنه في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان ثم اردف النبي ﷺ بعلي بن ابي طالب رضي الله عنه فأمره ان يؤذن ببراءة فأذن معنا علي في اهل منى يوم النحر ببراءة ، وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان .

وفي تفسير المنار عن الترمذي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله بعث ابا بكر ـ الى ان قال ـ فقام علي ايام التشريق فنادى: ذمة الله وذمة رسوله بريئة من كل مشرك فسيحوا في الأرض اربعة اشهر، ولا يحجنّ بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا كل مؤمن فكان علي ينادي بها فإذا بحّ قام ابو هريرة فنادى بها .

وفيه ايضاً عن احمد والنسائي ـ من طريق محرز بن ابي هريرة عن ابيه قال: كنت مع علي حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله الى مكة ببراءة فكنا ننادي ان لا يدخل الجنة إلا كل نفس مسلمة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله عهد فعهده الى مدته ، ولا يحج بعد العام مشرك فكنت انادي حتى صحل صوتي .

أقول : قد عرفت أن الذي وقع في الروايات على كثرتها في قصة بعث علي وعزل ابي بكر من كلمة الوحي الذي نزل به جبرئيل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو قوله : « لا يؤدي عنك إلا انت او رجل منك » وكذا ما ذكره النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين أجاب ابا بكر لما سأله عن سبب عزله ، إنما هو متن ما أوحى اليه الله سبحانه ، او قوله ـ وهو في معناه ـ : « لا يؤدي عني إلا انا او رجل مني » .

وكيفما كان فهو كلام مطلق يشمل تأدية براءة وكل حكم إلهي احتاج النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى ان يؤديه عنه مؤد غيره ، ولا دليل لا من متون الروايات ولا غيرها يدل على اختصاص ذلك ببراءة، وقد اتضح ان المنع عن طواف البيت عرياناً والمنع عن حج المشركين بعد ذلك العام وكذا تأجيل من له عهد الى مدة او من غير مدة كل ذلك أحكام إلهية نزل بها القرآن فما معنى ارجاع امرها الى ابي بكر او نداء ابي هريرة بها وحده او ندائه ببراءة وسائر الأحكام المذكورة في الجمع اذا بحّ علي عليه السلام حتى يصحل صوته من كثرة النداء ؟ ولو جاز لأبي هريرة ان يقوم بها والحال هذه فلمَ لم يجز لأبي بكر ذلك ؟

نعم أبدع بعض المفسرين كابن كثير وأترابه هنا وجهاً وجهوا به ما تتضمنه هذه الروايات انتصاراً لها وهو ان قوله : « لا يؤدّي عني إلا انا او رجل مني » مخصوص بتأدية براءة فقط من غير ان يشمل سائر الأحكام التي كان ينادي بها علي عليه السلام ، وأن تعيينه صلى الله عليه وآله وسلم علياً بتبليغ آيات براءة اهل الجمع إنما هو لما كان من عادة العرب أن لا ينقض العهد إلا عاقده او رجل من اهل بيته ومراعاة هذه العادة الجارية هي

التي دعت النبي ﷺ ان يأخذ براءة ــ وفيها نقضما للمشركين من عهد ــ من ابي بكر ويسلمها الى علي ليستحفظ بذلك السنّة العربية فيؤدّيها عنه بعض اهل بيته .

قالوا : وهذا معنى قوله ﷺ لما سأله ابو بكر قائلاً : يا رسول الله هل نزل فيّ شيء ؟ قال : « لا ولكن لا يؤدّي عني إلا انا او رجل مني » ومعناه اني إنما عزلتك ونصبت علياً لذلك لئلا أنقض هذه السنّة العربية الجارية .

ولذلك لم ينفصل ابوبكر من شأنه فقدكان قلّده إمارة الحاجّ وكان لأبي بكر مؤذنون يؤذنون بهذه الأحكام كأبي هريرة وغيره من الرجال الذين لم يذكر أسماؤهم في الروايات، وكان علي احد من عنده لهذا الشأن، ولذا ورد في بعضها: انه خطب بمنى ولما فرغ من خطبته التفت الى علي وقال: قم يا علي وأدّ رسالة رسول الله ﷺ. وهذا ما ذكروه ووجهوا به الروايات .

والباحث الناقد اذا راجع هذه الآيات والروايات ثم تأمل ما جرت من المشاجرات الكلامية بين الفريقين: أهل السنّة والشيعة في باب الأفضلية لم يرتب في انهم خلطوا بين البحث التفسيري الذي شأنه تحصيل مداليل الآيات القرآنية ، والبحث الروائي الذي شأنه نقد معاني الأحاديث وتمييز غثّها من سمينها، وبين البحث الكلامي الناظر في ان ابابكر افضل من علي او علياً افضل من ابي بكر؟ وفي أن إمارة الحاجّ افضل او الرسالة في تبليغ آيات براءة ؟ ولمن كان إمارة الحج إذ ذاك لأبي بكر او لعلي ؟ أما البحث الكلامي فلسنا نشتغل به في هذا المقام فهو خارج عن غرضنا، وأما البحث الروائي او التفسيري فيما يرتبط به الآيات الى اسباب نزولها مما يتعلق بمعاني الآيات فالذي ينبغي ان يقال بالنظر اليه انهم أخطأوا في هذا التوجيه .

فليت شعري من اين تسلموا ان هذه الجملة التي نزل بها جبرئيل: «انه لا يؤدي عنك إلا انت او رجل منك » مقيدة بنقض العهد لا يدل على ازيد من ذلك ، ولا دليل عليه من نقل او عقل فالجملة ظاهرة أتم ظهور في أن ما كان على رسول الله ﷺ ان يؤديه لا يجوز ان يؤديه إلا هو او رجل منه سواه، كان نقض عهد من جانب الله كما في مورد براءة او حكماً آخر إلهياً على رسول الله ﷺ أن يؤديه ويبلّغه .

وهذا غير ما كان من اقسام الرسالة منه ﷺ مما ليس عليه ان يؤديه بنفسه

الشريفة كالكتب التي ارسل بهـــا الى الملوك والامم والأقوام في الدعوة الى الاسلام وكذا سائر الرسالات التي كان يبعث بها رجالاً من المؤمنين الى الناس في امور يرجع الى دينهم والإمارات والولايات ونحو ذلك .

ففرق جليّ بين هذه الامور وبين براءة ونظائرها فان ما تتضمنه آيات براءة وأمثال النهي عن الطواف عرياناً ، والنهي عن حج المشركين بعد العام أحكام إلهية ابتدائية لم تبلّغ بعد ولم تؤدّ الى من يجب ان تبلّغه، وهم المشركون بمكة والحجاج منهم ، ولا رسالة من الله في ذلك إلا لرسوله ، وأما سائر الموارد التي كان يكتفي النبي (ص) ببعث الرسل للتبليغ فقد كانت ممـــا فرغ (ص) فيها من اصل التبليغ والتأدية، بتبليغه من وسعه تبليغه ممن حضر كالدعوة الى الإسلام وسائر شرائع الدين وكان يقول : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب » ثم اذا مسّت الحاجة الى تبليغه بعض من لا وثوق عادة ببلوغ الحكم اليه او لا أثر لمجرد البلوغ إلا ان يعتني لشأنه بكتاب او رسول او توسّل عند ذلك الى رسالة او كتاب كما في دعوة الملوك .

وليتأمل الباحث المنصف قوله: «لا يؤدي عنك إلا انت او رجل منك» فقد قيل: «لا يؤدي عنك إلا انت» ولم يقل: «لا يؤدي إلا انت او رجل منك» حتى يفيد اشتراك الرسالة، ولم يقل: «لا يؤدي منك إلا رجل منك» حتى يشمل سائر الرسالات التي كان (ص) يقلدها كل من كان من صالحي المؤمنين فإنما مفاد قوله: «لا يؤدي عنك إلا انت او رجل منك» أن الامور الرسالية التي يجب عليك نفسك ان تقوم بها لا يقوم بها غيرك عوضاً منك إلا رجل منك أي لا يخلفك فيما عليك كالتأدية الابتدائية إلا رجل منك.

ثم ليت شعري ما الذي دعاهم الى ان اهملوا كلمة الوحي التي هي قول الله نزل به جبرئيل على النبي (ص): «لا يؤدي عنك إلا انت او رجل منك» وذكروا مكانها أنه «كانت السنة الجارية عند العرب ان لا ينقض العهد إلا عاقده او رجل من اهل بيته» تلك السنة العربية التي لا خبر عنها في ايامهم ومغازيهم ولا أثر إلا ما ذكره ابن كثير ونسبه الى العلماء عند البحث عن آيات براءة !

ثم لو كانت سنة عربية جاهلية على هذا النعت فمـــا وزنها في الاسلام وما هي قيمتها عند النبي (ص) وقد كان ينسخ كل يوم سنة جاهلية وينقض كل حين عادة قومية، ولم تكن من جملة الاخلاق الكريمة او السنن والعادات النافعة بل سليقة قبائلية تشبه

سلائق الأشراف وقد قال(ص) يوم فتح مكة عند الكعبة على ما رواه اصحاب السير: «ألا كل مأثرة او دم او مال يدّعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج».

ثم لو كانت سنة عربية غير مذمومة فهل كان رسول الله(ص) ذهل عنها ونسيها حين اسلم الآيات الى ابي بكر وأرسله، وخرج هو الى مكة حتى اذا كان في بعض الطريق ذكر(ص) ما نسيه او ذكّره بعض من عنده بما اهمله وذهل عنه من أمر كان من الواجب مراعاته؟ وهو(ص) المثل الأعلى في مكارم الاخلاق واعتبار ما يجب ان يعتبر من الحزم وحسن التدبير، وكيف جاز لهؤلاء المذكّرين ان يغفلوا عن ذلك وليس من الامور التي يغفل عنها وتخفى عادة فإنما الذهول عنه كغفلة المقاتل عن سلاحه؟

وهل كان ذلك بوحي من الله اليه أنه يجب له ان لا يلغي هذه السنة العربية الكريمة، وأن ذلك أحد الأحكام الشرعية في الباب وأنه يحرم على ولي أمر المسلمين ان ينقض عهداً إلا بنفسه او بيد احد من اهل بيته؟ وما معنى هذا الحكم؟

او أنه حكم اخلاقي اضطر الى اعتباره لما أن المشركين ما كانوا يقبلون هذا النقض إلا بأن يسمعوه من النبي (ص) نفسه او من احد من اهل بيته؟ وقد كانت السيطرة يومئذ له (ص) عليهم، والزمام بيده دونهم، والإبلاغ إبلاغ.

او أن المؤمنين المخاطبين بقوله: «عاهدتم» وقوله: «وأذان من الله ورسوله الى الناس» وقوله: «فاقتلوا المشركين» ما كانوا يعتبرون هذا النقض نقضاً دون ان يسمعوه منه ﷺ او من واحد من اهل بيته وإن علموا بالنقض اذا سمعوا الآيات من ابي بكر؟

ولو كان كذلك فكيف قبله واعتبره نقضاً من سمعه من ابي هريرة الذي كان ينادي به حتى صحل صوته؟ وهل كان ابو هريرة أقرب الى علي وأمسّ به من ابي بكر الى رسول الله ﷺ فالحق أن هذه الروايات الحاكية لنداء ابي هريرة وغيره غير سديدة لا ينبغي الركون اليها.

قال صاحب المنار في تفسيره: جملة الروايات تدل على أن النبي(ص) جعل ابا بكر أميراً على الحج سنة تسع، وأمره ان يبلّغ المشركين الذين يحضرون الحج أنهم يمنعون منه بعد ذلك العام ثم اردفه بعلي ليبلغهم عنه نبذ عهودهم المطلقة وإعطاءهم مهلة اربعة اشهر لينظروا في أمرهم، وأن العهود الموقتة أجلها نهاية وقتها، ويتلو عليهم الآيات المتضمنة لمسألة نبذ العهود وما يتعلق بها من اول سورة براءة.

وهي اربعون او ثلاث وثلاثون آية ، وما ذكر في بعض الروايات من التردد بين ثلاثين وأربعين فتعبير بالأعشار مع إلغاء كسرها من زيادة ونقصان .

وذلك لأن من عادة العرب أن العهود ونبذها إنما تكون من عاقدها او احد عصبته القريبة ، وأن علياً كان مختصاً بذلك مع بقاء إمارة الحج لأبي بكر الذي كان يساعده على ذلك ويأمر بعض الصحابة كأبي هريرة بمساعدته . انتهى .

وقال ايضاً: إن بعض الشيعة يكبّرون هذه المزيّة لعلي عليه السلام كعادتهم ويضيفون اليها ما لاتصح به رواية، ولا تؤيده دراية فيستدلون بها على تفضيله على أبي بكر رضي الله عنهما وكونه أحق بالخلافة منه ، ويزعمون ان النبي صلى الله عليه وسلم عزل ابا بكر من تبليغ سورة براءة لأن جبرئيل أمره بذلك ، وانه لا يبلّغ عنه إلا هو او رجل منه ولا يخصون هذا النفي بتبليغ نبذ العهود وما يتعلق به بل يجعلونه عاماً لأمر الدين كله.

مع استفاضة الأخبار الصحيحة بوجوب تبليغ الدين على المسلمين كافة كالجهاد في حمايته والدفاع عنه، وكونه فريضة لا فضيلة فقط ومنها قوله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على مسمع الالوف من الناس: « ألا فليبلغ الشاهد الغائب» وهو مكرر في الصحيحين وغيرهما ، وفي بعض الروايات عن ابن عباس : فو الذي نفسي بيده إنها لوصيته الى أمته «فليبلّغ الشاهد الغائب» الخ وحديث: «بلّغوا عني ولو آية» رواه البخاري في صحيحه والترمذي ، ولولا ذلك لما انتشر الإسلام ذلك الإنتشار السريع في العالم .

بل زعم بعضهم – كما قيل – انه صلى الله عليه وسلم عزل ابا بكر من إمارة الحج وولاها علياً، وهذا بهتان صريح مخالف لجميع الروايات في مسألة عملية عرفها الخاص والعام.

والحق ان علياً كرّم الله وجهه كان مكلفاً بتبليغ أمر خاص ، وكان في تلك الحجة تابعاً لأبي بكر في إمارته العامة في إقامة ركن الإسلام الإجتماعي العام حتى كان ابو بكر يعين له الوقت الذي يبلغ ذلك فيه فيقول: يا علي قم فبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم التصريح به في الروايات الصحيحة كما أمر بعض الصحابة بمساعدته على هذا التبليغ كما تقدم في حديث ابي هريرة في الصحيحين وغيرهما .

ثم ساق الكلام واستدل بإمارة ابي بكر في تلك الحجة – وضم اليها صلاته موضع النبي صلى الله عليه وآله قبيل وفاته – على تقدمه وأفضليته من جميع الصحابة على من سواه انتهى.

أما قوله: مع استفاضة الأخبار بوجوب تبليغ الدين على المسلمين كافة إلى آخر ما قال فيكشف عن انه لم يحصّل معنى كلمة الوحي: «لا يؤدي عنك إلا انت او رجل منك» حق التحصيل، ولم يفرق بين قولنا: «لا يؤدي منك إلا رجل منك» وبين قوله: «لا يؤدي عنك إلا أنت او رجل منك» فزعم ان الكلام بإطلاقه يمنع عن كل تبليغ ديني يتصداه غير النبي ﷺ او رجل منه فدفع ذلك باستفاضة الأخبار بوجوب تبليغ الدين على المسلمين كافة وقيّد به إطلاق قوله: «لا يؤدي عنك» الخ فجعله خاصاً بتبليغ نبذ العهد بعد تحويل الحكم الإلهي الى سنّة عربية جاهلية.

وقد ساقه اشتباه معنى الكلمة الى ان زعم ان إبقاء الكلام على إطلاقه منشأه الغفلة عن أمر هو كالضروري عند عامة المسلمين أعني وجوب التبليغ العام حتى استدل على ذلك بما في الصحيحين وغيرهما من قوله ﷺ: «فليبلغ الشاهد الغائب»، وقد عرفت ما هو حق المعنى لكلمة الوحي.

وأما قوله: «بل زعم بعضهم كما قيل انه عزل ابا بكر من إمارة الحج وولاها علياً وهذا بهتان صريح مخالف لجميع الروايات في مسألة عملية عرفها العام والخاص» فليس ذلك زعماً من البعض ولا بهتاناً كما بهته بل رواية روتها الشيعة وقد أوردناها في ضمن الروايات المتقدمة.

وليس التوغل في مسألة الإمارة مما يهمنا في تفهم معنى قوله: «لا يؤدي عنك إلا انت او رجل منك» فإمارة الحاج سواء صحّت لأبي بكر او لعلي، دلت على فضل او لم تدل إنما هي من شعب الولاية الإسلامية العامة التي شأنها التصرف في امور المجتمع الإسلامي الحيوية، وإجراء الأحكام والشرائع الدينية، ولا حكومة لها على المعارف الإلهية ومواد الوحي النازلة من السماء في أمر الدين.

إنما هي ولاية رسول الله ﷺ ينصب يوماً أبابكر او علياً لإمارة الحاج، ويؤمر يوماً أسامة على أبي بكر وعامة الصحابة في جيشه، ويولي يوماً ابن أم مكتوم على المدينة وفيها من هو أفضل منه، ويولي هذا مكة بعد فتحها، وذاك اليمن، وذلك أمر الصدقات، وقد استعمل ﷺ ابا دجانة الساعدي او سباع بن عرفطة الغفاري على ما في سيرة ابن هشام على المدينة عام حجة الوداع، وفيها ابوبكر لم يخرج الى الحج على ما رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وغيرهم وإنما تدل على إذعانه ﷺ بصلاحية من نصبه لأمر لتصديه وإدارة رحاه.

وأما الوحي السماوي بما يشتمل عليه من المعارف والشرائع فليس للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا لمن دونه صنع فيه، ولا تأثير فيه مما له من الولاية العامة على امور المجتمع الاسلامي بإطلاق او تقييد او امضاء او نسخ او غير ذلك، ولا تحكم عليه سنة قومية او عادة جارية حتى توجب تطبيقه على ما يوافقها او قيام العصبة مقام الانسان فيما يهمه من امر.

والخلط بين البابين يوجب نزول المعارف الإلهية من أوج علوها وكرامتها الى حضيض الافكار الاجتماعية التي لا حكومة فيها إلا للرسوم والعادات والاصطلاحات، فيعود الانسان يفسر حقائق المعارف بما يسعه الأفكار العامية ويستعظم ما استعظمه المجتمع دون ما عظّمه الله، ويستصغر ما استصغره الناس حتى يقول القائل في معنى كلمة الوحي إنه عادة عربية محترمة.

وأنت اذا تأملت هذه القصة ـ اخذ آيات براءة من ابي بكر وإعطاءها علياً على ما تقصها الروايات ـ وجدت فيها من مساهلة الرواة وتوسعهم في حفظ القصة بما لها من الخصوصيات ـ إن لم يستند الى غرض آخر ـ امراً عجيباً ففي بعضها ـ وهو الأكثر ـ انه صلى الله عليه وآله وسلم بعث ابا بكر بالآيات ثم بعث علياً وأمره ان يأخذها منه ويتلوها على الناس فرجع ابوبكر الخ، وفي بعضها انه بعث ابابكر بإمارة الحج ثم بعث علياً بعده بآيات براءة، وفي بعضها: ان ابا بكر امره بالتبليغ وأمر بعض الصحابة ان يشاركه في النداء حتى آل الامر الى مثل ما رواه الطبري وغيره عن مجاهد في قوله تعالى: « براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين » الى اهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد وغيرهم. أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج ثم قال: انه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا احب ان احج حتى لا يكون ذلك فأرسل أبابكر وعلياً فطافا في الناس بذي المجاز وبأمكنتهم التي كانوا يبيعون بها وبالموسم كله فآذنوا اصحاب العهد ان يأمنوا اربعة اشهر وهي الاشهر الحرم المنسلخات المتواليات: عشرون من آخر ذي الحجة الى عشر تخلو من ربيع الاول [1] ثم عهد لهم وآذن الناس كلهم بالقتال الى ان يموتوا.

واذا كان هذا هو الحال فما معنى قوله: « بهتان صريح مخالف لجميع الروايات

---

(١) كذا.

في مسألة عملية عرفها العام والخاص» ؟ فان كان يعني: عرفها العام والخاص في عصر النبي ﷺ ممن شاهد الامر او سمع ذلك ممن شاهده ووصفه فماذا ينفعنا ذلك ؟

وإن كان يعني : ان العام والخاص ممن يلي عهد النبي ﷺ او يلي من يليه عرفا ذلك ولم يشك احد في ذلك فهذا حال الروايات المنقولة عنهم لا يجتمع على كلمة .

منها ما يحكي ان علياً اختص بتأدية براءة واخرى تدل على ان ابا بكر شاركه فيه ، واخرى تدل على ان ابا هريرة شاركه في التأدية ورجال آخرون لم يسموا في الروايات .

ومنها ما يدل على أن الآيات كانت تسع آيات، واخرى عشراً ، واخرى ست عشرة ، واخرى ثلاثين ، واخرى ثلاثاً وثلاثين ، واخرى سبعاً وثلاثين ، واخرى اربعين ، واخرى سورة براءة .

ومنها ما يدل على أن ابا بكر ذهب لوجهه اميراً على الحاج، واخرى على انه رجع حتى أوّله بعضهم كابن كثير أنه رجع بعد إتمام الحج، وآخرون انه رجع ليسأل النبي ﷺ عن سبب عزله، وفي رواية انس الآتية انه صلى الله عليه وآله بعث ابابكر ببراءة ثم دعاه فأخذها منه .

ومنها ما يدل على أن الحجة وقعت في ذي الحجة وأن يوم الحج الاكبر تمام ايام تلك الحجة او يوم عرفة او يوم النحر او اليوم التالي ليوم النحر او غير ذلك واخرى ان ابا بكر حج في تلك السنة في ذي القعدة .

ومنها ما يدل على ان اشهر السياحة تأخذ من شوّال، واخرى من ذي القعدة، واخرى من عاشر ذي الحجة، واخرى من الحادي عشر من ذي الحجة وغير ذلك.

ومنها ما يدل على أن الاشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم من تلك السنة، وأخرى على أنها أشهر السياحة تبتدىء من يوم التبليغ او يوم النزول .

فهذا حال اختلاف الروايات ، ومع ذلك كيف يستقيم دعوى انه أمر عرفه العام والخاص ، وبعض المحتملات السابقة وان كان قولاً من مفسري السلف إلا ان المفسرين يعاملون أقوالهم معاملة الروايات الموقوفة .

وأما قوله: والحق ان علياً كان مكلفاً بتبليغ أمر خاص وكان في تلك الحجة

تابعاً لأبي بكر في إمارته الى آخر ما قال فلا ريب ان الذي بعث به النبي ﷺ علياً من الأحكام كان أمراً خاصاً وهو تلاوة آيات براءة وسائر ما يلحق بها من الامور الأربعة المتقدمة غير ان الكلام في ان كلمة الوحي: «لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» لا تختص في دلالتها بتأدية آيات براءة على ما تقدم بيانه فلا ينبغي الخلط بين ما يدل عليه الكلمة وبين ما أمر به علي في خصوص تلك السفرة .

وأما قوله: وكان في تلك الحجة تابعاً «الخ» فأمر استفاده من كلام ابي هريرة وما يشبه ، وقد عرفت الكلام فيه .

وفي الدر المنثور أخرج ابن ابي شيبة واحمد والترمذي وحسنه وابو الشيخ وابن مردويه عن انس (رض) قال: بعث النبي (ص) ببراءة مع ابي بكر (رض) ثم دعاه فقال : لا ينبغي لأحد ان يبلّغ هذا إلا رجل من أهلي فدعا علياً فأعطاه إياه .

أقول : ذكر صاحب المنار في بعض كلامه: أن قوله ﷺ: «أو رجل مني» في رواية السدي قد فسرتها الروايات الاخرى عند الطبري وغيره بقوله(ص): «أو رجل من اهل بيتي» وهذا النص الصريح يبطل تأويل كلمة «مني» بأن معناها ان نفس عليٍّ كنفس رسول الله (ص) وانه مثله وانه أفضل من كل أصحابه – انتهى – .

والذي أشار اليه من الروايات هو ما رواه قبلاً بقوله: وأخرج احمد بسند حسن عن انس ان النبي (ص) بعث ببراءة مع أبي بكر فلما بلغ ذا الحليفة قال : لا يبلغها الا أنا او رجل من أهل بيتي فبعث بها مع علي .

وهذه بعينها – على ما لا يخفى – هي الرواية السابقة التي اوردناها عن انس ، وقد وقع فيها « او رجل من اهلي » وان اختلف لفظا الروايتين بما عملت فيها يد النقل بالمعنى .

وأول ما في كلامه : ان اللفظ: « او رجل مني » لم يقع الا في رواية واحدة موقوفة هي رواية السدي التي استضعفها قبيل ذلك بل الأصل في ذلك كلمة الوحي التي أثبتتها معظم الروايات الصحيحة على بلوغ كثرتها، والروايات الاخر المشتملة على قوله: « من أهل بيتي » وهو يستكثرها انما هي رواية انس – على ما عثرنا عليها – وقد وقع في بعض ألفاظها قوله « من أهلي » مكان « من أهل بيتي » .

والثاني : أن الرواية – كما اتضح لك – منقولة بالمعنى، ومع ذلك لا يصلح ما وقع فيها من بعض الألفاظ لتفسير ما اتفقت عليه معظم الروايات الصحيحة الواردة من طرق الفريقين من لفظ الوحي المنقول فيها .

على أن قوله : « من اهل بيتي » في هذه لو صلح لتفسير ما وقع في سائر الروايات من لفظ « رجل منك » او « رجل مني » لكان الواقع في رواية ابي سعيد الخدري السابقة من قوله ﷺ: « يا علي إنه لا يؤدي عني إلا انا او انت » مفسراً لما في رواية أنس : « إلا رجل من اهل بيتي » او « إلا رجل من اهلي » وما في سائر الروايات : « إلا رجل منك » او « إلا رجل مني » .

فيعود هذه الألفاظ كناية عن شخص علي عليه السلام، بل الكناية بما لها من المعنى مشيرة إلى أنه من نفس النبي عليه السلام ومن اهله ومن اهل بيته جميعاً، وهذا عين ما فرّ منه وزيادة .

والثالث: أن استفادة كونه عليه السلام بمنزلة نفسه ﷺ ليست بمستندة الى مجرد قوله ﷺ : « رجل مني » كما حسبه فإن مجرد قول القائل: فلان مني لا يدل على تنزيله منزلته في جميع شؤون وجوده ومما ثلته إياه، وإنما يدل على نوع من الاتصال والاتباع كما في قول ابراهيم عليه السلام : « فمن تبعني فإنه مني » ابراهيم: ٣٦ إلا بنوع من القرينة الدالة على عناية كلامية كقوله تعالى : « ومن يتولّهم منكم فإنه منهم » .

بل انما استفيد ذلك من قوله : «رجل مني» او «رجل منك» بمعونة قوله : «لا يؤدي عنك إلا أنت» على البيان الذي تقدم وعلى هذا فلو كان هناك قوله: « لا يؤدي عني إلا رجل من اهلي او رجل من اهل بيتي» لأستفيد منه عين ما استفيد من قوله: «لا يؤدي عنك إلا انت او رجل منك» وقوله: «لا يؤدي عني إلا أنا او رجل مني» مضافاً (١) الى انه ﷺ عدّه منه في خطابه أبابكر وهو ايضاً منه بالاتّباع.

---

(١) وفي رواية الحاكم الآتية عن مصعب بن عبد الرحمن عن ابيه عنه صلى الله عليه وآله فيما قاله لأهل الطائف: « والذي نفسي بيده لتقيمن الصلاة ولتؤتن الزكاة او لأبعثن عليكم رجلاً مني او كنفسي » فرأى الناس انه يعني ابا بكر او عمر فأخذ بيد علي فقال : « هذا! » دلالة على هذا الفهم من جهة ما فيها من الترديد .

والرابع : انه أهمل في البحث الروايات الصحيحة المستفيضة او المتواترة التي تدل على ان اهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم هم: علي وفاطمة والحسنان على ما تقدم في اخبار آية المباهلة وسيجيء معظمها في اخبار آية التطهير ان شاء الله تعالى .

ولا رجل في اهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم إلا علي عليه السلام فيؤول الامر الى كون اللفظ كناية عن علي عليه السلام فيرجع الى ما تقدم من الوجه .

وأما ما احتمله من المعنى فهو ان المراد بأهل بيته عامة اقربائه من بني هاشم او بنو هاشم ونساؤه فينزّل اللفظ منزلة عادية من غير ان يحمل شيئاً من المزية، والمعنى لا يؤدّي نبذ العهد عني إلا رجل من بني هاشم ، والقوم يرجعون غالباً في مفاهيم امثال هذه الألفاظ إلى ما يعطيه العرف اللغوي في ذلك من غير توجه الى ما اعتبره الشرع، وقد تقدم نظير ذلك في معنى الابن والبنت حيث حسبوا ان كون ابن البنت ابناً للرجل وعدمه مرجعه الى بحث لغوي يعيّن كون الابن يصدق بحسب الوضع اللغوي على ابن البنت مثلاً او لا يصدق عليه ، وجميع ذلك يرجع الى الخلط بين الأبحاث اللفظية والأبحاث المعنوية ، وكذا الخلط بين الأنظار الاجتماعية والأنظار الدينية السماوية على ما تقدمت الاشارة اليه .

وأعجب من الجميع قوله : وهذا النص الصريح يبطل تأويل كلمة «منّي» فان مراده بدلالة السياق ان كلمة « من اهل بيتي » نص صريح في ان المراد برجل منّي رجل من بني هاشم، ولا ندري اي نصوصية او صراحة لكلمة «اهل البيت» في بني هاشم بعدما تكاثرت الروايات ان اهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم هم علي وفاطمة والحسنان عليهم السلام ثم في قوله : «اهل بيتي» بمعنى بني هاشم ان المراد بكلمة «منّي» هو ذلك !

وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن ابي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام « فسيحوا في الارض اربعة اشهر» قال: عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الاول وعشراً من ربيع الآخر .

أقول : وقد استفاضت الروايات من طرق الشيعة عن أئمة اهل البيت عليهم السلام ان المراد من الاربعة الاشهر هو ذلك، روى ذلك الكليني والصدوق والعياشي والقمي وغيرهم في كتبهم، وروي ذلك من طرق أهل السنّة ، وهناك روايات اخرى

من طرقهم في غير هذا المعنى حق وقع في بعضها ان ابا بكر حج بالناس عام تسع في شهر ذي القعدة ، وهي غير متأيدة ولذلك أغمضنا عنها .

وفي تفسير العياشي عن حكيم بن جبير عن علي بن الحسين عليه السلام في قوله تعالى: « وأذان من الله ورسوله » قال : الأذان امير المؤمنين عليه السلام .

أقول : وروي هذا المعنى ايضاً عن حريز عن ابي عبدالله عليه السلام، وعن جابر عن جعفر بن محمد وابي جعفر عليهما السلام، ورواه القمي عن ابيه عن فضالة عن أبان ابن عثمان عن حكيم بن جبير عن علي بن الحسين عليه السلام قال: وفي حديث آخر قال: كنت انا الأذان في الناس ، ورواه الصدوق ايضاً بإسناده عن حكيم عنه عليه السلام ، ورواه في الدر المنثور عن ابن ابي حاتم عن حكيم بن حميد عن علي بن الحسين عليه السلام، وقال في تفسير البرهان: قال السدّي وأبو مالك وابن عباس وزين العابدين: الأذان هو علي بن ابي طالب فادي به .

وفي تفسير البرهان عن الصدوق بإسناده عن الفضيل بن عياض عن ابي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن الحج الاكبر فقال: عندك فيه شيء؟ فقلت: نعم كان ابن عباس يقول : الحج الاكبر يوم عرفة يعني انه من ادرك يوم عرفة الى طلوع الشمس من يوم النحر فقد ادرك الحج، ومن فاته ذلك فاته الحج فجعل ليلة عرفة لما قبلها ولما بعدها، والدليل على ذلك انه من ادرك ليلة النحر الى طلوع الفجر فقد ادرك الحج وأجزى عنه من عرفة .

فقال ابو عبدالله عليه السلام: قال امير المؤمنين عليه السلام الحج الأكبر يوم النحر واحتج بقول الله عز وجل : «فسيحوا في الأرض أربعة أشهر» فهي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من شهر ربيع الآخر، ولو كان الحج الأكبر يوم عرفة لكان السيح أربعة أشهر ويوماً ، واحتج بقوله عز وجل: «وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر » وكنت أنا الأذان في الناس .

قلت: فما معنى هذه اللفظة: الحج الأكبر ؟ فقال: إنما سمي الأكبر لأنها كانت سنة حج فيها المسلمون والمشركون ، ولم يحج المشركون بعد تلك السنة .

وفيه عنه بإسناده عن معاوية بن عمار قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن يوم

الحج الأكبر فقال : يوم النحر والأصغر العمرة .

أقول: وفي الرواية مضافاً الى تفسير اليوم بيوم النحر إشارة الى وجه تسمية الحج بالأكبر، وقد أطبقت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام إلا ما شذعلى أن المراد بيوم الحج الأكبر في الآية هو يوم الأضحى عاشر ذي الحجة وهو يوم النحر، ورووا ذلك عن علي عليه السلام .

وروى هذه الرواية الكليني في الكافي عن علي بن ابراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام، وروى ذلك ايضاً بإسناده عن ذريح عنه عليه السلام ، وكذا الصدوق بإسناده إلى ذريح عنه عليه السلام ، ورواه العياشي عن عبد الرحمن وابن أذينة والفضيل بن عياض عنه عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن أبي أوفى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال يوم الأضحى : هذا يوم الحج الأكبر .

وفيه أيضاً أخرج البخاري تعليقاً وأبو داود وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر أن رسول الله (ص) وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال : أي يوم هذا ؟ قالوا : يوم النحر قال : هذا يوم الحج الأكبر .

أقول: وروي ذلك بطرق مختلفة عن علي عليه السلام وابن عباس ومغيرة بن شعبة وأبي جحيفة وعبدالله بن أبي أوفى ، وقد روي بطرق مختلفة اخرى عن النبي (ص) أنه يوم عرفة، وكذا روي ذلك عن علي وابن عباس وابن الزبير، وروي عن سعيد ابن المسيب أنه اليوم التالي ليوم النحر ، وروي انه أيام الحج كلها، وروي أنه الحج في العام الذي حج فيها أبو بكر، وهذا الوجه الأخير لا يأبى الانطباق على ما تقدم من الحديث عن الصادق عليه السلام أنه سمي الحج الأكبر لما حج في تلك السنة المسلمون والمشركون جميعاً .

وفي تفسير العياشي، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله: «فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» قال: هي يوم النحر الى عشر مضين من شهر ربيع الآخر .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة» أخرج الحاكم وصححه عن مصعب بن عبدالرحمن عن أبيه رضي الله عنه قال: افتتح رسول الله (ص) مكة ثم انصرف الى الطائف فحاصرهم ثمانية أو سبعة ثم ارتحل غدوة وروحة ثم نزل ثم هجر .

ثم قال: أيها الناس إني لكم فرط، وإني أوصيكم بعترتي خيراً موعدكم الحوض، والذي نفسي بيده لتقيمن الصلاة ولتؤتن الزكاة أو لأبعثن عليكم رجلا مني او كنفسي فليضربن أعناق مقاتلهم وليسبين ذراريهم . فرأى الناس أنه يعني أبا بكر أو عمر رضي الله عنهما فأخذ بيد علي رضي الله عنه فقال : هذا .

أقول : يعني صلى الله عليه وآله وسلم به الكفر .

وفي تفسير العياشي في حديث جابر عن أبي جعفر عليه السلام « فإن تابوا » يعني فإن آمنوا فإخوانكم في الدين .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره » الآية قال : قال ، إقرأ عليه وعرفه ثم لا تتعرض له حتى يرجع الى مأمنه .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن تفسير القشيري : إن رجلا قال لعلي يابن ابي طالب فمن اراد منا ان يلقى رسول الله في بعض الأمر من بعد انقضاء الاربعة فليس له عهد ؟ قال علي : بلى لان الله قال : « وان احد من المشركين استجارك فأجره » الآية .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم » الآية اخرج ابن ابي‌شيبة وابن ابي‌حاتم وابو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة رضي الله عنه أنهم ذكروا عنده هذه الآية فقال : ما قوتل اهل هذه الآية بعد .

وفيه اخرج ابن ابي شيبة والبخاري وابن مردويه عن زيد بن وهب في قوله: « فقاتلوا أئمة الكفر » قال : كنا عند حذيفة رضي الله عنه فقال : ما بقي من اصحاب هذه الآية إلا ثلاثة ولا من المنافقين إلا اربعة . فقال اعرابي: انكم اصحاب محمد تخبروننا بامور لا ندري ما هي ؟ فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون اعلاقنا ؟ قال : اولئك الفساق ، اجل لم يبق منهم إلا اربعة احدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده .

وفي قرب الإسناد للحميري : حدثني عبد الحميد وعبد الصمد بن محمد جميعاً عن حنّان بن سدير قال : سمعت ابا عبـد الله عليه السلام يقول : دخـل علي اناس من اهل البصرة فسألوني عن طلحة والزبير فقلت لهم: كانوا (١) من أئمة الكفر ان علياً يوم البصرة لمّا صف الخيل قال لأصحابه لا تعجلوا على القوم حتى اعـذر فيما بيني وبين الله وبينهم .

فقام اليهم فقال : يا اهل البصرة هل تجدون علي جوراً في حكم ؟ قالوا : لا. قال : فحيفاً في قسم ؟ قالوا : لا . قال : فرغبة في دنيا اخذتها لي ولأهـل بيتي دونكم فنقمتم علي فنكثتم بيعتي؟ قالوا:لا ،قال فأقمت فيكم الحدود وعطلتها فيغيركم؟ قالوا : لا . قال : فما بال بيعتي تنكث وبيعـة غيري لا تنكث اني ضربت الامر أنفه وعينه فلم اجد الا الكفر او السيف .

ثم ثنى الى اصحابه فقال ان الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: « وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقـاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمـان لهم لعلّهم ينتهون » فقال امير المؤمنين عليه السلام : والذي فلق الحبة وبرء النسمة واصطفى محمداً بالنبوة إنهم لأصحاب هذه الآية وما قوتلوا مذ نزلت .

أقول : ورواه العياشي عن حنّان بن سدير عنه عليه السلام .

وفي أمالي المفيد بإسناده عن ابي عثمان مؤذن بني قصي قال : سمعت علي بن ابي طالب عليه السلام حين خرج طلحة والزبير على قتاله: عذرني الله من طلحة والزبير، بايعاني طائعين غير مكرهين ثم نكثا بيعتي من غير حدث احدثته ثم تلا هذه الآية: « وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلّهم ينتهون » .

أقول : ورواه العياشي في تفسيره عن ابي عثمان المؤذن وابي الطفيل والحسن البصري مثله، ورواه الشيخ في اماليه عن ابي عثمان المؤذن.وفي حديثه قال بكير : فسألت عنها ابا جعفر عليه السلام فقال : صدق الشيخ هكذا قال علي . هكذا كان .

وفي الدر المنثور اخرج ابن اسحاق والبيهقي في الدلائل عن مروان بن الحكم

---

(١) كانا ظ .

والمسور بن مخرمة قالا : كان في صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية بينه وبين قريش ان من شاء ان يدخل في عقد النبي ﷺ وعهده دخل فيه ، ومن شاء ان يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه فتواثبت خزاعة فقالوا: ندخل في عهد محمد وعقده . وتواثبت بنو بكر فقالوا : ندخل في عقد قريش وعهدهم فمكثوافي تلك الهدنة نحو السبعة عشر او الثمانية عشر شهراً .

ثم ان بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله ﷺ وعهده ليلاً بماء لهم يقال له : الوتير قريب من مكة فقالت قريش ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا احد فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح فقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ .

وركب عمرو بن سالم عندما كان من امر خزاعة وبني بكر بالوتير حتى قدم المدينة على رسول الله ﷺ بأبيات انشده اياها :

يا ربّ [(١)] اني ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولدا وكنا والدا ... ثُمّت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجرّدا ... إن سيم خسفاً وجهه تربّدا
في فيلق كالبحر يجري مُزبدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لي في كداء رُصّدا
وزعموا أن لستُ أدعوا أحدا ... وهم أذلُّ وأقلُّ عددا
هم بيّتونا بالوتير هُجّدا ... وقتّلونا ركّعا وسجّدا [(٢)]

فقال رسول الله ﷺ : نصرت يا عمرو بن سالم فما برح حتى مرت غمامة في السماء فقال رسول الله ﷺ : إن هذه السحابة لتشهد [(٣)] بنصر بني كعب ، وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاد وكتمهم مخرجه ، وسأل الله ان يعمي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم .

---

(١) في الدر المنثور : لا هم .
(٢) الابيات منقولة على ما يطابق نسخة السيرة لابن هشام لكثرة الغلط في نسخة الدر المنثور .
(٣) لتستهل . نسخة سيرة النبي .

أقول: أورد الرواية في الدر المنثور بعدما روى بطرق عن مجاهد وعكرمة ان قصة نقض قريش عهد الحديبية وإعانتهم بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ كان هو السبب لنزول قوله تعالى: « ألا تقاتلون قوماً » الى قوله : «ويشف صدور قوم مؤمنين » وهم خزاعة .

ولو كان الامر على ما ذكروا كانت الآية: « ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم » – الى تمام ثلاث آيات بل اربع – على ما يعطيه السياق مما نزل قبل فتح مكة فتكون نازلة قبل آيات براءة لا محالة .

لكن القصة التي رواها ابن اسحاق والبيهقي على اعتبارها لمكان المسور بن مخرمة لا تصرح بنزول الآيات في ذلك ، وما رواها مجاهد وعكرمة لا اعتماد عليه لمكان الوقف والانقطاع، وسياق الآيات لا يأبى نزولها مع ما تقدم عليها واتصالها بها على ما لا يخفى .

والذي ذكر فيها من قوله : « ونكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم اول مرة » وإن كان يشير الى صفات قريش الخاصة بهم لكن من الجائز ان تكون الآية مشيرة الى حلفاء قريش وجيرانهم ممن لم يؤمنوا بعد فتح مكة وهم لاتحادهم مع قريش واتصالهم بهم وصفوا بما يوصف به قريش بالأصالة .

واعلم أن هناك روايات متفرقة من طرق اهل البيت عليهم السلام تطبق الآيات على ظهور المهدي عليه السلام ، وهي من الجري .

(كلام في معنى العهد وأقسامه وأحكامه)

قدمنا في اوائل الجزء السادس من الكتاب كلاماً في معنى العقد والعهد ونستأنف البيان ههنا في معنى ما تقدم وما يستتبعه من الاقسام والأحكام بتقرير آخر في فصول:

١ – قد لاح لك من تضاعيف الأبحاث المتقدمة في هذا الكتاب أن الانسان في مسير حياته لايزال يصور اعماله وما يتعلق به اعماله من المادة تصور الامور الكونية ويمثلها بها ويجري بينها احكام الامور الكونية وآثارها من القوانين العامة الجارية في الكون بحسب ما يناسب اغراضه الحيوية كما انه يأخذ مثلاً اصواتاً متفرقة هي الزاي

والياء والدال ، ويؤلفها بشكل مخصوص ويعمل لفظ « زيد » ثم يفترض انه زيد الانسان الخارجي فيسميه به ثم كلما اراد ان يحضر زيداً في ذهن مخاطبه ألقى اليه لفظ « زيد » فكان ممثلاً لعين زيد عنده ، وحصل بذلك غرضه .

واذا أراد ان يدبر امراً لا يدور إلا بعمل عدة مؤتلفة من الناس اختار جماعة وافترضهم واحداً كالإنسان الواحد ، وفرض واحداً منهم للباقين كما يفرض الرأس لبدن الانسان ويسميه رئيساً ، وفرض كلاً من الباقين كما يفرض العضو من البدن ذي الأعضاء ويسميه عضواً ثم يرتب على الرأس أحكام الرأس الخارجي ، وعلى العضو آثار العضو الخارجي وعلى هذا القياس .

والى هذا يؤول جميع أفكار الإنسان الاجتماعية بلا واسطة أو بواسطة أو وسائط من التصورات والتصديقات إذا حللت تحليلاً صحيحاً كما تؤول اليه أنظاره الفردية فيما يرتبط بأعماله وأفعاله .

الإنسان شديد الاهتمام بعقد العقود وتمثيل العهود وما يرتبط بها من الحلف واليمين والبيعة ونحو ذلك ، والعامل الأولي في ذلك أن الإنسان لا همّ له إلا التحفظ على حياته والوصول الى مزاياها والتمتع بالسعادة التي تستعقبها لو جرت على حقيقة مجراها .

فأي بغية من مبتغياته وجدها وسلّط عليها أخذ في التمتع منها بما يناسبها من التمتع كالأكل والشرب وغيرهما بما جهز به من أدوات التمتع ، ودفع كل ما يمنعه من التمتع لو عرض هناك مانع عارض ورأى انه إنما وفق لذلك في ضوء ما أُوتيه من السلطة .

وقد أوتي الإنسان سلعة الفكر وبذلك يدبر أمر حياته ويصلح شأن معاشه فيعمل ليومه ويمهد لغده ، وأعماله التي هي تصرفات منه في المادة او عائدة الى ذلك في عين انها جميعاً متوقفة على انبساط سلطته على الفعل وإحاطته بكل ما يتعلق به عمله ، مختلفة في ان بعضها يتم بالسلطة المقصورة على الفعل مقدار زمانه كمن صادف غذاء وهو جوعان فتناوله فأكله ، فإنه لا يتوقف على سلطة أوسع من زمان العمل ، ولا على تمهيد وتقدمة .

وبعضها ـ وهو جل الأعمال الإنسانية الاجتماعية ـ يتوقف على سلطة وسيعة تنبسط على العمل في وقته وعلى زمان قبله فقط أو على زمان قبله وبعده ، لحاجته

الى مقدمات يمهدها له، وتدبير سابق يقدمه لوجوده ، فما كل عمل يعمله الإنسان بصدفة ، بل جل الامور الحيوية من شأنها ان يتهيأ الإنسان له قبل أوانه .

ومن التهيؤ له ان يتهيأ لجمع أسبابه ونظم الوسائل التي يتوسل بها اليه وان يتهيأ لرفع موانعه التي من شأنهـا ان تزاحمه في وجوده وعند حصوله ، فالإنسان لا يوفق لعمل ولا ينجح في مسعاه الا اذا كان في أمن من ان تفوته الأسباب او تعارضه الموانع والمزاحمات .

والتنبه لهذه الحقيقة هو الذي بعث الإنسان الى ان يأخذ أمناً من رقبائـه في الحياة : ان يعينوه فيما يحتاج من الامور الى معين مشارك، أو ان لا يمانعوه من العمل فيما يتوقف الى ارتفاع الموانع وزوالها .

فالإنسان وهو يريد أن يتخذ لباساً يلبسه من مادة بسيطة كالقطن او الصوف، والأمر متوقف على أعمال كثيرة يعملها الغزّال والنساج والخياط ومن يصنع لهم أدوات الغزل والنسج والخياطة، لا يتم له ما يريده من اتخاذ اللباس ولا ينجح سعيه الا اذا كان في أمن من ناحية هؤلاء الرقباء: ان يعملوا على ما يريده ولا يخلوه وحده فيخيب سعيه ويخسر في عمله .

وكذا الإنسان القاطن في أرض او الساكن في دار لايتم له سكناه الا مع الأمن من ممانعة الناس ومزاحمتهم له في سكناه والتصرف فيه بما يصلح به لذلك .

وهذا هو الذي هدى الإنسان الى اعتبار العقد وإبرام العهد ، فهو يأخـذ ما يريده من العمل ويربطه بما يعينه عليه من عمل غيره ويعقدهما : يمثل به عقد الحبال الذي يفيد اتصال بعض أجزائها ببعض وعدم تخلف بعضها عن بعض ، ومثله العهد الذي يعهده اليه غيره ان يساعده في ما يريده من الأمر او ان لا يمانعه في ذلك .

والى ذلك يؤول أمر عامة العقود لعقد النكاح وعقد البيع والشري وعقـد الإجارة ، ويصدق عليها العهد بمعناها العـام وهو ان يعطي الإنسان لغيره قولاً او كتاباً ان يعينه على كذا او ان لا يمنعه من كذا الى أجل مضروب او لا الى اجل .

والكلام في المقـام في العهد الذي لم يختص باسم خاص كعقد البيع والنكاح وغيرهما من عقود المعاملات فهي خارجة من غرضنا ولها في المجتمعات الإنسانية أحكام

خاصة وآثار وخواص مخصوصة بل الكلام في العهد بمعنى ما يعقده الإنسان لغيره من الإعانة او عدم الممانعة في متفرقات المقاصد الإجتماعية ، وما يجعله لذلك من الآثار كمن يعاهد غيره ان يعطيه كل سنة كذا مالاً ليستعين به على حوائجه ،ويأخذ منه كذا مالاً او نفعاً ، او يعاهده ان لا يزاحمه في عمله او لا يمانعه في مسيره الى اجل كذا او لا الى اجل ،وهو نوع احكام وإبرام لا ينتقض إلا بنقض احد الطرفين او بنقضهما معاً.

وربما زيد على إحكام العهد بالحلف وهو ان يقيّد المعاهد ما يعطيه من العهد ويربطه بأمر عظيم شأنه يقدسه ويحترمه كأنه يجعل ما له من الحرمة والعزة رهناً يرهن به عهده يمثّل به انه لو نقضه فقد أذهب حرمته يقول المعاهد : والله لا اخوننّك ، ولعمري لأساعدنك ، وأقسم لأنصرنك ، يمثل به انه لو اخلف وعده ونقض عهده فقد ابطل حرمة ربه ، او حرمة عمره او حرمة قسمه فلا مروة له .

وربما أُبرم العهد والميثاق بالبيعة والصفقة :يضع المعاهد يده في يد معاهده يمثل به انه اعطاه يده التي بها يفعل ما يفعل فلا يفعل ما يكره معاهده لأن يده قبضة يده.

٢ ـ العهود والمواثيق كما تمسّها حياة الانسان الذي هو فرد المجتمع كذلك تمسّها حياة المجتمع فليس المجتمع إلا المجتمع من افراد الانسان، حياته بمجموع حياة اجزائه، وأعماله الحيوية بمجموع اعمال اجزائه وله من الخير والشر والنفع والضر والصحة والسقم والنشوء والرشد والاستقامة والانحراف والسعادة والشقاوة والبقاء والزوال بمجموع ما لأجزائه من ذلك .

فالمجتمع انسان كبير له من مقاصد الحياة ما للانسان الصغير ، ونسبة المجتمع الى المجتمع تقرب من نسبة الانسان الفرد الى الانسان الفرد فهو يحتاج في ركوب مقاصده وإتيان اعماله من الأمن والسلامة الى مثل ما يحتاج اليه الانسان الفرد بل الحاجة فيه أشدّ وأقوى لأن العمل يعظم بعظمة فاعله وعظمة غرضه ،والمجتمع في حاجة الى الأمن والسلام من قبل اجزائه لئلا يتلاشى ويتفرّق ،والى الأمن والسلام من قبل رقبائه من سائر المجتمعات.

وعلى هذا جرى ديدن المجتمعات الانسانية على ما بأيدينا من تاريخ الامم والأقوام الماضية ،وما نسمعه او نشاهده من الملل الحاضرة فلم يزل ولا يزال المجتمع من المجتمعات الانسانية في حاجة قائمة الى ان يعاهد غيره في بعض شؤون حياته السياسية والاقتصادية

او الثقافية او غيرها ، فلا يصفو الجو للإقدام على شيء من مقاصد الحياة او التقدم في شيء من مآربها إلا بالاعتضاد بالأعضاد والأمن من معارضة الموانع .

٣ ـ الاسلام بما أنه متعرّض لأمر المجتمع كالفرد، ويهتم بإصلاح حياة الناس العامة كاهتمامه بإصلاح حياة الفرد الخاصة قنّن فيه كليات ما يرجع الى شؤون الحياة الاجتماعية كالجهاد والدفاع ومقاتلة اهل البغي والنكث والصلح والسلم والعهود والمواثيق وغير ذلك.

والعهد الذي نتكلم فيه قد اعتبره اعتباراً تاماً وأحكمه إحكاماً يعدُّ نقضه من طرف اهله من اكبر الإثم إلا ان ينقضه المعاهد الآخر فيقابل بالمثل فإن الله سبحانه أمر بالوفاء بالعهود والعقود، وذمّ نقض العهود والمواثيق ذمّاً بالغاً في آيات كثيرة جداً قال تعالى: «يا ايها الذين آمنوا أوفوا بالعقود» المائدة: ١، وقال: «والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ـ الى ان قال ـ اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار» الرعد: ٢٥، وقال: «وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً» أسرى: ٣٤ الى غير ذلك .

ولم يبح نقض العهود والمواثيق إلا فيما يبيحه حق العدل وهو ان ينقضه المعاهد المقابل نقضاً بالبغي والعتوّ او لا يؤمَن نقضه لسقوطه عن درجة الاعتبار، وهذا مما لا اعتراض فيه لمعترض ولا لوم للائم، قال تعالى: «وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين» الأنفال: ٥٨ فأجاز نقض العهد عند خوف الخيانة ولم يرضَ بالنقض من غير إخبارهم به واغتيالهم وهم غافلون دون ان قال: «فانبذ اليهم على سواء» فأوجب ان يخبروهم بالنقض المتقابل احترازاً من رذيلة الخيانة .

وقال: «براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر» براءة: ٢ فلم يرضَ بالبراءة دون ان وسّع عليهم اربعة اشهر حتى يكونوا على مهل من التفكّر في أمرهم والتروّي في شأنهم فيروا رأيهم على حرية من الفكر فإن شاؤا آمنوا ونجوا وإن لم يشاؤا قتلوا وفنوا، وقد كان من حسن أثر هذا التأجيل أن آمنوا فلم يفنوا.

وقد تمّم سبحانه هذه الفائدة أحسن إتمام بقوله بعد إعلام البراءة : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » التوبة : ٦ .

وقال مستثنياً الموفين بعهدهم من المشركين: «كيف يكون للمشركين عهد عند

الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين، كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم واكثرهم فاسقون » التوبة : ٨ وقد علل الاستقامة لمن استقام بأنه من التقوى – ذاك التقوى الذي لا دعوة في الدين إلا اليـــه – وان الله يحب المتقين ، وهذا تعليل حي الى يوم القيامة .

وقال تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مـــا اعتدى عليكم » البقرة : ١٩٤ وقال : « ولا يجرمنكم شنآن قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » المائدة : ٢ .

واما النقض الابتدائي من غير نقض من العدو المعاهد فلا مجوّز له في هذا الدين الحنيف اصلاً ، وقد تقدم قوله تعالى : « فمــا استقاموا لكم فاستقيموا لهم » الآية وقال : « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » البقرة : ١٩٠ .

وعلى ذلك جرى عمل النبي ﷺ ايام حياته فقد عاهد بني قينقاع وبني قريظة وغيرهم من اليهود ولم ينقض الا بعدما نقضوا، وعاهد قريشاً في الحديبية ولم ينقض حتى نقضوا باظهاز بني بكر على خزاعة وقد كانت خزاعة في عهـد النبي ﷺ ، وبنو بكر في عهد قريش .

وأما النقض من غير نقض فلا مبيح له في الاسلام وإن كان الوفاء ممـــا يفوّت على المسلمين بعض منافعهم، ويجلب اليهم بعض الضرر وهم على قدرة من حفظ منافعهم بالبأس والقوة او امكنهم الاعتذار ببعض ما تصور لهم الحجة ظاهراً وتصرف عنهم اللوم والعذل فان مدار الامر على الحق ، والحق لا يستعقب شراً ولا ضراً إلا على من انحرف عنه وآوى الى غيره .

٣ – المجتمعات الانسانية سيما الراقية المتمدنة منها غير المجتمع الديني لا هدف لاجتماعهم ولا غرض لسننهم الجارية إلا التمتع من مزايا الحياة المادية ما قدروا عليه فلا موجب لهم للتحفظ على شيء أزيد مما بأيديهم من القوانين العملية الناظمة لشتات مقاصدهم الحيوية .

ومن الضروري ان الظرف الذي هذا شأنه لا قيمة فيها للمعنويات إلا بمقدار

ما يوافق المقاصد الحيوية المادية فالفضائل والرذائل المعنوية كالصدق والفتوة والمروة ونشر الرحمة والرأفة والإحسان وأمثال ذلك لا اعتبار لهـا إلا بمقدار ما درّت بها منافع المجتمع ، ولم يتضرروا بها لو لم تعتبر، وأما فيما ينافي منافع القوم فلا موجب للعمل بها بل الموجب لخلافها .

ولذلك ترى المؤتمرات الرسمية وأولياء الامور في المجتمعات لا يرون لأنفسهم وظيفة إلا التحفظ على منافع المجتمع الحيوية، وما يعقد فيها من العهود والمواثيق انما يعقد على حسب مصلحة الوقت، ويوزن بزنة ما عليه الدولة المعاهدة من القوة والعدة، وما عليه المعاهد المقابل من القوة والعدة في نفسه وبما يضاف اليه من سائر المقتضيات المنضمة اليه المعينة له .

فما كان التوازن على حالة التعادل كان العهد على حاله، واذا مالت كفة الميزان للدولة المعاهدة على خصمه ابطلت اعتبار العهد بأعذار مصطنعة واتهامات مفتعلة للتوسل الى نقضه، وانما يراد بتقديم الاعذار ان يتحفظ على ظاهر القوانين العالمية التي لاعقبى لنقضها والتخلف عنها إلا ما يهدد حياة المجتمع او بعض منافع حياتهم، ولولا ذلك لم يكن ما يمنع النقض ولو من غير عذر اذا اقتضته منافع المجتمع القوي الحيوية .

واما الكذب او الخيانة او التعدي لما يتخذه الغير منافع لنفسه فليس مما يمنع مجتمعاً من المجتمعات من حيازة ما يراه نافعاً لشأنه اذ الأخلاق والمعنويات لا أصالة لها عندهم وانما تعتبر على حسب ما تقدره غاية المجتمع وغرضه الحيوي وهو التمتع من الحياة.

وانت اذا تتبعت الحوادث العامة بين المجتمعات سابقها ولاحقها وخاصة الحوادث العالمية الجارية في هذا العصر الأخير عثرت على شيء كثير من العهود الموثقة ونقوضها على ما وصفناه .

وأما الإسلام فلم يعد حياة الإنسان المادية حياة له حقيقية ، ولا التمتع من مزاياها سعادة له واقعية، وانما يرى حياته الحقيقية حياته الجامعة بين المادة والمعنى، وسعادته الحقيقية اللازم إحرازها ما يسعده في دنياه وأخراه .

ويستوجب ذلك ان يبني قوانين الحياة على الفطرة والخلقة دون ما يعده الإنسان صالحاً لحال نفسه، ويؤسس دعوته الحقة على اتباع الحق والاهتداء به دون اتباع الهوى

والاقتداء بما يميل اليه الأكثرية بعواطفهم وإحساساتهم الباطنة قال تعالى: «فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم» الروم: ٣٠ وقال: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين[1] الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» التوبة: ٣٣، وقال: «بل أتيناهم بالحق» المؤمنون: ٩٠، وقال: «ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن» المؤمنون: ٧١.

ومن لوازم ذلك ان يراعي حق الاعتقاد وفضيلة الخلق وصالح العمل جميعاً فلا غنى للمادة عن المعنى ولا غنى للمعنى عن المادة فمن الواجب رعاية جانب الفضائل الإنسانية نفعت او ضرّت والتجنب عن الرذائل نفعت او ضرت لأن ذلك من اتباع الحق، وحاشا ان يضر الا من انحرف عن ميزانه وتخطى ما يخط له الحق.

ومن هنا ما نرى ان الله سبحانه ينقض عهد المشركين لنقضهم عهده ويستعمل الرحمة بإمهالهم أربعة أشهر، ويأمر بالاستقامة لمن استقام في عهده من المشركين وقد استذلهم الحوادث يومئذ وضعفوا دون شوكة الإسلام، وكذا يأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ان خاف من قوم خيانة ان ينقض عهدهم لكن يأمره بإعلامهم ذلك ويعلله بأنه لا يحب الخيانة.

(كلام في نسبة الاعمال الى الاسباب طولا)

تقدم في مواضع من هذا الكتاب ان الذي تنتجه الأبحاث العقلية ان الحوادث كما ان لها نسبة الى اسبابها القريبة المتصلة بها كذلك لها نسبة الى اسبابها القصوى التي هي اسباب لهذه الأسباب فالحوادث افعال لها في عين أنها من افعال اسبابها القريبة المباشرة للعمل فان الفعل كالحركة مثلاً يتوقف على فاعله المحرك ويتوقف على محرك محركه بعين ما يتوقف على محركه، نظير العجلة المحركة للاخرى المحركة لثالثة وليست من الحركة بالعرض.

فللفعل نسبة الى فاعله، وله انتساب الى فاعل فاعله بعين هذه النسبة التي الى فاعله لا بنسبة اخرى منفصلة عنها مستقلة بنفسها غير انه اذا انتسب الى فاعل الفاعل عاد الفاعل القريب بمنزلة الآلة بالنسبة الى فاعل الفاعل أي واسطة محضة لا استقلال لها

(١) ظاهر الآية كون الاضافة حقيقية لا من اضافة الموصوف الى صفته.

في العمل بمعنى أنه لا يستغنى في تأثيره عن فاعل الفاعل إذ فرضُ عدمه يساوق انعدام الفاعل وانعدام أثره .

وليس من شرط الواسطة ان تكون غير ذات شعور بفعلها او غير مختارة فان الشعور الذي يؤثر به الفاعل الشاعر في فعله لم يوجده هو لنفسه وانما اوجده فيه فاعله الذي اوجد الفاعل وشعوره، وكذلك الاختيار لم يوجده الفاعل المختار لنفسه وانما أوجده الفاعل الذي أوجد الفاعل المختار، وكما يتوقف الفعل في غير موارد الشعور والاختيار الى فاعله، ويتوقّف بعين هذا التوقف الى فاعل فاعله، كذلك يتوقف الفعل الشعوري والفعل الاختياري الى فاعله ويتوقف بعين هذا التوقف الى فاعل فاعله الذي اوجد لفاعله الشعور والاختيار .

ففاعل الفاعل الشاعر او المختار اراد من الفاعل الشاعر او المختار ان يفعل من طريق شعوره فعلاً كذا او يفعل باختياره فعلاً اختيارياً كذا فقد أُريد الفعل من طريق الاختيار لأنه أُريد الفعل وأُهمل الاختيار الذي ظهر به فاعله فافهم ذلك فلا تزلّ قدم بعد ثبوتها .

وعلى هذه الحقيقة يجري الناس بحسب فهمهم الغريزي فينسبون الفعل الى السبب البعيد كما ينسبونه الى السبب القريب المباشر بما انه أثر مترشح منه يقال: بنى فلان داراً، وحفر بئراً وانما باشر ذلك البناء والحفّار، ويقال: جلد الامير فلاناً، وقتل فلاناً، وأسر فلاناً، وحارب قوماً كذا، وانما باشر الجلد جلاده، والقتل سيّافه، والأسر جلاوزته، والمحاربة جنده، ويقال، أحرق فلان ثوب فلان، وإنما احرقه النار، وشفى فلان مريضاً كذا وانما شفاه الدواء الذي ناوله وأمره بشربه واستعماله.

ففي جميع ذلك يعتبر امر الآمر او توسل المتوسّل تأثيراً منه في الفاعل القريب ثم ينسب الفعل المنسوب الى الفاعل القريب الى الفاعل البعيد، وليس اصل النسبة إلا نسبة حقيقية من غير مجاز قطعاً .

ومن قال من علماء الأدب وغيرهم ان ذلك كله من المجاز في الكلمة لصحة سلب الفعل عن الفاعل البعيد فان مالك البناء لم يضع لبنة على لبنة وإنما هو شأن البنّاء الذي باشر العمل! انما اراد الفعل بخصوصية صدوره عن الفعل المباشر ومن المسلّم ان المباشرة انما هو شأن الفاعل القريب، ولا كلام لنا فيه، وانما الكلام فيما يتصور له

من الوجود المتوقّف الى فاعل موجد ، وهذا المعنى كما يقوم بالفاعل المباشر كذلك يقوم بعين هذا القيام بفاعل الفاعل .

واعتبار هذه النكتة هو الذي اوجب لهم ان يميزوا بين الأعمال وينسبوا بعضها الى الفاعل القريب والبعيد معاً ، ولا ينسبوا بعضها إلا الى الفاعل القريب المباشر للعمل فما كان منها يكشف بمفهومه عن خصوصيات المباشرة والاتصال بالعمل كالأكل بمعنى الالتقام والبلع والشرب بمعنى المصّ والتجرع والقعود بمعنى الجلوس ونحو ذلك لم ينسب إلا الى الفاعل المباشر فإذا أمر السيد خادمه ان يأكل غذاء كذا ويشرب شراباً كذا ويقعد على كرسي كذا ، قيل : أكل الخادم وشرب وقعد ولا يقال: أكله سيده وشربه وقعد عليه ، وإنما يقال : تصرّف في كذا اذا استعمل كذا او أنفق كذا ونحو ذلك لما ذكرناه .

وأما الأعمال التي لا تعتبر فيها خصوصيات المباشرة والحركات المادية التي تقوم بالفاعل المباشر للحركة كالقتل والأسر والإحياء والإماتة والإعطاء والإحسان والإكرام ونظائر ذلك فانها تنسب الى الفاعل القريب والبعيد على السوية بل ربما كانت نسبتها الى الفاعل البعيد اقوى منها الى الفاعل القريب كما اذا كان الفاعل البعيد اقوى وجوداً وأشد سلطة وإحاطة .

فهذا ما ينتجه البحث العقلي ويجري عليه الانسان بفهمه الغريزي ، والقرآن الكريم يصدق ذلك اوضح تصديق كقوله تعالى في الآيات السابقة: « قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم» الآيتان . حيث نسب التعذيب الذي تباشره ايدي المؤمنين الى نفسه بجعل ايديهم بمنزلة الآلة .

ونظيره قوله تعالى: « والله خلقكم وما تعملون » الصافات: ٩٦ فان المراد بما تعملون إما الأصنام التي كانوا يعملونها من الحجارة او الأخشاب او الفلزات فإنما أريد به المادة بما عليها من عمل الانسان ففيه نسبة الخلق الى الأعمال كنسبته الى فواعلها، وأما نفس الأعمال فالأمر أوضح .

ويقرب من ذلك قوله تعالى: « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون »

الزخرف ١٢ ، ففيه نسبة الخلق الى الفلك والفلك بما هي من عمل الانسان .

هذا فيما نسب فيه الخلق الى الأعمال الصادرة عن الشعور والإرادة ، وأما الأفعال التي لا تتوقف في صدورها على شعور وإرادة كالأفعال الطبيعية فقد ورد نسبتها الى الله سبحانه في آيات كثيرة جداً لا حاجة الى إحصائها كإحياء الأرض وإنبات النبات وإخراج الحب وإمطار السماء وإجراء الأنهار وتسيير الفلك التي تجري في البحر بأمره الى غير ذلك .

ولا منافاة في جميع هذه الموارد بين انتساب الامر اليه تعالى وانتسابه الى غيره من الاسباب والعلل الطبيعية وغيرها إذ ليست النسبة عرضية تزاحم احدى النسبتين الاخرى بل هي طولية لا محذور في تعلقها بأزيد من طرف واحد .

وقد تقدم في مطاوي أبحاثنا السابقة دفع ما اشتبه على الماديين من إسناد الحوادث العامة كالسيول والزلازل والجدب والوباء والطاعون الى الله سبحانه مع الحصول على اسبابها الطبيعية اليوم حيث خلطوا بين العلل والأسباب العرضية والطولية ، وحسبوا أن استنادها الى عللها الطبيعية يبطل ما أثبته الكتاب العزيز وأذعن به الإلهيون من استنادها الى مسبّب الأسباب الذي اليه يرجع الامر كله .

وللأشاعرة والمعتزلة بحث غريب في الآية السابقة : «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم» وما يناظرها من الآيات ، اورده الرازي في تفسيره نورده ملخّصاً .

قال : استدلت الأشاعرة بقوله تعالى : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم » الآية على أن افعال العباد مخلوقة لله ، وأن الناس مجبرون في افعالهم غير مختارين فان الله سبحانه يخبر فيها انه هو الذي يعذب المشركين بقتل بعضهم وجرح آخرين بأيدي المؤمنين ويدل ذلك على ان ايدي المؤمنين كسيوفهم ورماحهم آلات محضة لا تأثير لها أصلا وإنما الفعل لله سبحانه ، وأن الكسب الذي يعدّ مناطاً للتكليف اسم لا مسمى له.

وهذه الآية اقوى دلالة على المطلوب من دلالة مثل قوله تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » إذ فيه إثبات الرمي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم — وإن كان مع ذلك نفي عنه — وإثبات لإسناده الى الله سبحانه لكن الآية أعني قوله : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم » إثبات للتعذيب على الله سبحانه وجعل ايدي المؤمنين التي لهم آلات

في الفعل لا تأثير لها وفيها اصلاً .

وأجاب عنه الجبّائي من المعتزلة : بأنه لو جاز ان يقال : ان الله يعذب الكافرين بأيدي المؤمنين بحقيقة ما ادّعي له من المعنى لجاز ان يقال : انه يعذب المؤمنين بأيدي الكافرين ، وإنه تعالى يكذب انبياءه بألسنتهم ، ويلعن المؤمنين ويسبهم بأفواههم لأنه تعالى خالق لذلك كله ، وإذ لم يجز ذلك علمنا انه تعالى لم يخلق أعمال العباد ، وإنما أعمالهم خلق انفسهم .

وبذلك يعلم ان إسناد التعذيب في الآية اليه تعالى بنوع من التوسع لأنه إنما تحقق عن امره ولطفه كما انه تعالى ينسب جميع الطاعات والحسنات الى نفسه لتحققها عن امره وتوفيقه .

وأجاب عنه الرازي بأن اصحابنا يلتزمون جميع ما ألزم به الجبائي وأصحابه من لزوم إسناد القبائح اليه تعالى ويعتقدون به لبّاً وإن كانوا لا ينطقون به لساناً ادباً مع الله سبحانه ، انتهى ملخصاً .

والأبحاث التي قدمناها في هذا الكتاب حول هذه المعاني تكفي لإيضاح الحق وإنارته في هذا المقام ، والكشف عما وقع فيه الفريقان جميعاً .

أما ما ذكرته الأشاعرة والتزموا به فإنما اوقعهم في ذلك ما ذهبوا اليه من نفي رابطة العلّية والمعلولية من بين الاشياء وقصرها فيما بينه تعالى وبين خلقه عامة فلا سبب في الوجود لا استقلالاً ولا بالوساطة غيره تعالى ، وأما رابطة السببية التي بين الاشياء انفسها فإنما هي سببية بالاسم فقط لا بالحقيقة ، وإنما هي العادة الإلهية جرت بإيجاد ما نسميها مسببات عقيب ما نسميها اسباباً فما بينها وبينه تعالى سببية حقيقية ، وما بينها انفسها يعود الى الاتفاق الدائم او الاكثري .

ولازم ذلك إبطال العلّية والسببية من اصلها ، وببطلانها يبطل ما أثبتوه من انحصار السببية فيه تعالى إذ لو جاز ان يكون نسبة كل شيء الى كل شيء نسبة واحدة من غير اختلاف بالتأثير والتأثر لم يبق للإنسان ما يتنبه به لأصل معنى السببية فلا سبيل له الى اثبات سببيته تعالى لكل شيء .

على ان الانسان يترقب حوادث من حوادث اخرى ، ويقطع بالنتائج عن

مقدماتها ويبني حياته على التعليم والتربية ، وعلى تقديم الأسباب طمعاً في مسبباتها سواء اعترف بالصانع او لم يعترف ، ولا يتم له شيء من ذلك إلا عن إذعان فطري بأصل العلّية والمعلولية، ولو أجازت الفطرة الانسانية بطلان ذلك وجريان الحوادث على مجرد الاتفاق اختل نظام حياته ببطلان سعيه الفكري والعملي ، وانسد طريق إثبات سببٍ ما فوق طبيعة الحوادث .

على أن الكتاب العزيز يجري في بياناته على تصديق اصل العلّية والمعلولية ، وينسب كل حسنة اليه تعالى وينفي استناد السيئات والمعاصي اليه ويسميه بكل اسم أحسن ويصفه بكل وصف جميل، وينفي عنه كل هزل وعبث ولغو ولهو وجزاف، ولا يتم شيء من ذلك إلا على اصل العلّية والمعلولية، وقد تقدم في الأبحاث السابقة ما يتبين به ذلك كله .

وقد ذهب طائفة من المادّيين وخاصة اصحاب المادية المتحوّلة الى عين ما ذهب اليه الأشاعرة من ثبوت الجبر ونفي الاختيار عن الأفعال الانسانية، وانما الفارق بين قولي الطائفتين هو ان الأشاعرة بنوا ذلك على سببيّة الواجب تعالى المنحصرة واستنتجوا من ذلك بطلان السببيّة الاختيارية وانتفاءها عن الانسان، والمادّيون بنوه على معلولية الافعال الانسانية لمجموع الحوادث المحتفّة بالفعل التي هي علّـة حدوثه ، ولا معنى للعليّة الا بالايجاب ، فالانسان موجب في فعله مجبر عليه .

وقد فات منهم ان الذي نسبة المعلول اليه بالايجاب انما هو العلّة التامة، وهي مجموع الحوادث المتقدمة على المعلول التي لا يتوقف هو في وجوده على شيء وراءها ، وبوجودها جميعاً لا يبقى له إلا ان يوجد ، وأما بعض اجزاء العلّة التامة فانما نسبة المعلول اليه بالامكان لا بالوجوب لتوقّف وجوده على اشياء أُخر وراءه فلا يتحقق بوجود الجزء المفروض جميع ما يتوقف عليه وجوده حتى يعود واجباً وجوده .

والأفعال الانسانية يتوقف في وجودها على الانسان وارادته وعلى امور غير محصورة اخرى من المادة والشرائط الزمانية والمكانية فهي اذا نسبت اليها جميعاً كانت النسبة الحاصلة نسبة الوجوب والضرورة، واما اذا نسبت الى الانسان وحده او الى الانسان المريد فقد نسبت الى جزء العلّة التامة وعادت النسبة الى الامكان دون الوجوب، فالأفعال الارادية الانسانية اختيارية اي انه يمكنه ان يفعل وان لا يفعل فان فعل

فبمشيئته وارادته ، وان لم يفعل فلم يختره ولم يرده وانما اختار واراد شيئاً آخر ، لكنها لا تقع في الخارج الا واجبة لاستنادها حينئذ الى جميع اجزاء عللها .

فهؤلاء خلطوا في كلامهم بين النسبتين فوضعوا النسبة الوجوبية التي للفعل الى مجموع اجزاء علتها التامة موضع النسبة الإمكانية التي للفعل الى بعض اجزاء علته التامة وهي التي تسمى في الانسان بالاختيار على نحو من العناية .

وأما ما ذكره المعتزلة انه لو جاز كونه تعالى هو الفاعل للفعل الذي اتى به المؤمنون وهو التعذيب ، وليس لهم إلا مقام الآلية المحضة من غير تأثير لجاز إسناد تعذيب الكفار للمؤمنين وتكذيبهم للأنبياء ولعنهم المؤمنين ايضاً اليه ، وهو باطل قطعاً فأفعال العباد مخلوقة لهم لا صنع لله تعالى فيها .

ففيه ان الملازمة حقة لكن بطلان التالي لا يستلزم كون الافعال مخلوقة لهم لا نسبة لها الى الله سبحانه اصلاً لجواز كونها منسوبة اليه تعالى بعين ما ينتسب به اليهم فإنهم فاعلون لها وهو فاعل الفاعلين فينتسب اليهم بالصدور عن الفاعل المباشر ، وينتسب اليه بالصدور عن الفاعل الذي هو فاعله والنسبتان في الحقيقة نسبة واحدة مختلفة بالقرب والبعد وانتفاء الواسطة وثبوتها ، ولا يستلزم ذلك اجتماع فاعلين مستقلين على فعل واحد لكونهما طوليين لا عرضيين .

فان قلت: فيبقى محذور استناد الحسنات والسيئات والايمان والكفر اليه تعالى في محله.

قلت : كلا وإنما ينتسب اليه اصل وجودها ، وأما عنوان الفعل الذي يشير الى جهة قيام الحركة والسكون بالموضوع المتحرك كالنكاح والزنا والأكل المحرم والمحلل فإنما ينسب الى الانسان لكونه هو الموضوع المادي الذي يتحرك بهذه الحركات: وأما الذي يوجد هذا المتحرك الذي من جملة آثاره حركته وليس بنفسه متحركاً بها وإنما يوجدها إيجاداً اذا تمت شرائطها وأسبابها فلا يتصف بأنواع هذه الحركات حتى يتصف بفعل النكاح او الزنا او أي فعل قائم بالإنسان .

نعم هناك عناوين عامة لا تستتبع معنى الحركة والمادة، لا مانع من إسنادها الى الانسان واليه سبحانه اذا لم يستلزم محذوراً كالهداية والإضلال اذا لم يكن اضلالاً ابتدائياً ، وكالتعذيب والابتلاء ، فقتل المؤمن للكافر تعذيب إلهي للكافر ، وقتل

الكافر للمؤمن بلاء حسن للمؤمن يستوجب به أجراً حسناً عند الله، وعلى هذا القياس.

على ان الذي ذهب اليه المعتزلة يوقعهم فيما وقعت فيه الأشاعرة وهو انسداد طريق إثبات الصانع عليهم فانه لو جاز ان يوجد في العالم حادث من الحوادث عن سبب له وينقطع عمّا وراء سببه ذلك انقطاعاً تاماً لا تأثير له فيه جاز في كل ما فرض من الحوادث أن يستند الى ما يليه من غير ان يرتبط بشيء آخر وراءه، ومن الجائز ان يفنى الفاعل ويبقى أثره فمن الجائز ان يستند كل ما فرض معلولاً الى فاعل له غير واجب الوجود ومن الجائز أن يستند كل عالم مفروض الى عالم قبله هو فاعله وقد فنى قبله على ما هو المشهود من حوادث هذا العالم المولد بعضها بعضاً: والمتولد بعضها من بعض، ولا يلزم محذور التسلسل لعدم تحقق سلسلة ذات أجزاء في وقت من الأوقات إلا في الذهن.

وفي كلامهم مفاسد كثيرة أخرى مبينة في المحل المربوط به ، وقد تقدم في الكلام على نسبة الخلق اليه تعالى في الجزء السابع من الكتاب ما ينفع في هذا المقام.

وكيف يسع لمسلم موحّد أن يثبت مع الله سبحانه خالقاً آخر بحقيقة معنى الخلق والإيجاد وقد قال الله سبحانه: «ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو» المؤمن : ٦٢ وقد كرر ذلك في كلامه، وليس في تجاهه إلا نسبة أفعال الإنسان اليه من غير قطع رابطتها اليه تعالى بل مع إثبات النسبة بدليل آيات القدر ودلالة العقل على ان لفعل الفاعل نسبة الى فاعل فاعله بحسب ما يليق بساحته .

فالحق ان للأفعال الإنسانية نسبة الى فواعلها بالمباشرة ، ونسبة اليه تعالى بما يليق بساحة قدسه، قال تعالى: «كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً » أسرى : ٢٠ .

* * *

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ـــ ١٧ . إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلٰوةَ وَآتَى ٱلزَّكٰوةَ

وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ــ ١٨. أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ
ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَاهَدَ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ــ ١٩.
ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ
دَرَجَةً عِنْدَ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ ــ ٢٠. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ
وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ــ ٢١. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ ٱللَّهَ
عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ــ ٢٢. يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ
وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ــ ٢٣. قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ
وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا
وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ
فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ ــ ٢٤.

(بيان)

آيات تبين أن الأعمال إنما تكون حية مرضية اذا صدرت عن حقيقة الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وإلا فإنما هي حبط لاتهدي صاحبها الى سعادة، وان من لوازم الإيمان بحقيقته قصر الولاية والحب والوداد في الله ورسوله .

وهي ظاهرة الاتصال والارتباط فيما بينها أنفسها، وأما اتصالها بما تقدمها من الآيات فليس بذاك الوضوح ، وما ذكره بعض المفسرين في وجه اتصالها بما قبلها لا يخلو من تكلف .

قوله تعالى : « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر » العمارة ضد الخراب يقال : عمر الأرض اذا بنى بها بناء ، وعمر البيت اذا اصلح ما أشرف منها على الفساد، والتعمير بمعناه ومنه العمر لأنه عمارة البدن بالروح، والعمرة بمعنى زيارة البيت الحرام لأن فيها تعميره .

والمسجد اسم مكان بمعنى المحل الذي يتعلق به السجدة كالبيت الذي يبنى ليسجد فيه الله تعالى، وأعضاء السجدة التي تتعلق بها السجدة نوع تعلق وهي الجبهة والكفان والركبتان ورؤوس إبهامي القدمين .

وقوله : « ما كان للمشركين » الآية لنفي الحق والملك فإن اللام للملك والحق، والنفي الحالي للكون السابق يفيد أنه لم يتحقق منهم سبب سابق يوجب لهم أن يملكوا هذا الحق وهو حق ان يعمروا مساجد الله ويرمّوا ما استرمّ منها أو يزوروها كقوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى » الأنفال : ٦٧ وقوله: « وما كان لنبي أن يغل » آل عمران : ١٦١ .

والمراد بالعمارة في قوله : « أن يعمروا » إصلاح ما أشرف على الخراب من البناء ورم ما استرم منه دون عمارة المسجد بالزيارة فإن المراد بمساجد الله هي المسجد الحرام وكل مسجد لله ولا عمرة في غير المسجد الحرام، والدخول في المساجد للعبادة فيها وإن أمكن ان يسمى عمارة وزيارة لكن التعبير المعهود من القرآن فيه الدخول .

على أن في قوله في الآية الآتية: « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام » تأييداً ما لكون المراد بالعمارة هو إصلاح البناء دون زيارة البيت الحرام .

والمراد بمساجد الله بيوت العبادة المبنية لله لكن السياق يدل على أن المراد نفي جواز عمارتهم للمسجد الحرام، ويؤيده قراءة من قرأ « أن يعمروا مسجد الله » بالإفراد.

ولا ضير في التعبير بالجمع والمقصود الأصيل بيان حكم فرد خاص من أفراده لأن الملاك عام، والتعليل الوارد في الآية غير مقيد بخصوص المسجد الحرام فالكلام في معنى: ما كان لهم ان يعمروا المسجد الحرام لأنه مسجد والمساجد من شأنها ذلك .

وقوله : « شاهدين على أنفسهم بالكفر » المراد بالشهادة أداؤها وهو الاعتراف إما قولاً كمن يعترف بالكفر لفظاً ، وإما فعلاً كمن يعبد الأصنام ويتظاهر بكفره

فكل ذلك من الشهادة والملاك واحد .

فمعنى الآية: لا يحق ولا يجوز للمشركين أن يرمّوا ما استرمّ من المسجد الحرام كسائر مساجد الله والحال أنهم معترفون بالكفر بدلالة قولهم أو فعلهم .

قوله تعالى : « أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون » في مقام التعليل لما أفيد من الحكم في قوله : « ما كان » الخ ولذلك جيء به بالفصل دون الوصل.

والمراد بالجملة الاولى بيان بطلان الأثر وارتفاعه عن أعمالهم، والعمل إنما يؤتى به للتوسل به الى أثر مطلوب، وإذ كانت أعمالهم حابطة لا أثر لها لم يكن ما يجوز لهم الإتيان بها ، والأعمال العبادية كعمارة مساجد الله إنما تقصد لما يطمع فيه ويرجى من أثرها وهو السعادة والجنة ، والعمل الحابط لا يتعقب سعادة ولا جنة البتة .

والمراد بالجملة الثانية بيان ظرفهم الذي يستقرون فيه لولا السعادة والجنة وهو النار فكأنه قيل: اولئك لا يهديهم أعمالهم العبادية الى الجنة بل هم في النار الخالدة، ولا تفيد لهم سعادة بل هم في الشقاوة المؤبدة .

وفي الآية دلالة على أصلين لطيفين من أُصول التشريع :

أحدهما: أن تشريع الجواز بالمعنى الأعم الشامل للواجبات والمستحبات والمباحات يتوقف على أثر في الفعل ينتفع به فاعله فلا لغو مشروعاً في الدين، وهذا أصل يؤيده العقل، وهو منطبق على الناموس الجاري في الكون: أن لا فعل إلا لنفع عائد إلى فاعله.

وثانيهما : ان الجواز في جميع موارده مسبوق بحق مجعول من الله لفاعله في أن يأتي بالفعل من غير مانع .

قوله تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » الآية السياق كاشف عن ان الحصر من قبيل قصر الإفراد كأن متوهماً يتوهم أن للمشركين والمؤمنين جميعاً أن يعمروا مساجد الله فافرد وقصر ذلك في المؤمنين، ولازم ذلك ان يكون المراد بقوله: «يعمر» إنشاء الحق والجواز في صورة الإخبار دون الإخبار، وهو ظاهر.

وقد اشترط سبحانه في ثبوت حق العمارة وجوازها أن يتّصف العامر بالإيمان بالله واليوم الآخر قبال ما نفى عن المشركين ان يكون لهم ذلك ولم يقنع بالإيمان بالله

وحده لأن المشركين يذعنون به تعالى بل شفّع ذلك بالإيمان باليوم الآخر لأن المشركين ما كانوا مؤمنين به، وبذلك يختص حق العمارة وجوازها بأهل الدين السماوي من المؤمنين.

ولم يقنع بذلك ايضاً بل ألحق به قوله: «وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله»، لأن المقام مقام بيان من ينتفع بعمله فيحق له بذلك ان يقترفه، ومن كان تاركاً للفروع المشروعة في الدين وخاصة الركنين: الصلاة والزكاة فهو كافر بآيات الله لا ينفعه مجرّد الإيمان بالله واليوم الآخر وإن كان مسلماً، اذا لم ينكرها بلسانه، ولو انكرها بلسانه ايضاً كان كافراً غير مسلم.

وقد خصّ من بينها الصلاة والزكاة بالذكر لكونهما الركنين الذين لا غنى عنهما في حال من الاحوال.

وبما ذكرنا من اقتضاء المقام يظهر ان المراد بقوله: «ولم يخش إلا الله» الخشية الدينية وهي العبادة دون الخشية الغريزية التي لا يسلم منها إلا المقرّبون من اولياء الله كالأنبياء قال تعالى: «الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون احداً إلا الله» الأحزاب: ٣٩.

والوجه في التكنية عن العبادة بالخشية ان الأعرف عند الانسان من علل اتخاذ الإله للعبادة الخوف من سخطه او الرجاء لرحمته، ورجاء الرحمة ايضاً يعود بوجه الى الخوف من انقطاعها وهو السخط فمن عبدالله سبحانه او عبد شيئاً من الاصنام فقد دعاه الى ذلك اما الخوف من شمول سخطه او الخوف من انقطاع نعمته ورحمته فالعبادة ممثلة للخوف والخشية مصداق لها لتمثيلها اياها، وبينهما حالة الاستلزام، ولذلك كني بها عنها، فالمعنى – والله اعلم – ولم يعبد احداً من دون الله من الآلهة.

وقوله: «فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين» اي اولئك الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ولم يعبدوا أحداً غير الله سبحانه يرجى في حقهم ان يكونوا من المهتدين، وهذا الرجاء قائم بأنفسهم او بأنفس المخاطبين بالآية، وأما هو تعالى فمن المستحيل ان يقوم به الرجاء الذي لا يتم إلا مع الجهل بتحقق الأمر المرجو الحصول.

وانما أخذ الاهتداء مرجو الحصول لا محقق الوقوع مع أن من آمن بالله واليوم الآخر حقيقة وحققه اعماله العبادية فقد اهتدى حقيقة لأن حصول الاهتداء مرة او مرات لا يستوجب كون العامل من المهتدين، واستقرار صفة الاهتداء ولزومها له،

فالتلبس بالفعل الواقع مرة أو مرات غـــير التلبس بالصفة اللازمة فاولئك حصول الاهتداء لهم محقق، وأما حصول صفة المهتدين فهو مرجوّ التحقق لا محقق .

وقد تحصّل من الآية أن عمارة المساجد لا تحق ولا تجوز لغير المسلم أما المشركون فلعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر ، وأما اهل الكتاب فلأن القرآن لا يعدّ ايمانهم بالله ايماناً قال تعالى: «إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلاً اولئك هم الكافرون حقاً » النساء : ١٥١ ، وقال ايضاً في آية ٢٩ من السورة : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب » الآية .

قوله تعالى : « أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله » الآية ، السقاية كالحكاية والجناية والنكاية مصدر يقال : سقى يسقي سقاية .

والسقاية ايضاً الموضع الذي يسقى فيه الماء، والإناء الذي يسقى به قال تعالى: « جعل السقاية في رحل اخيه » يوسف: ٧٠ ، وقد رووا في الآثار ان سقاية الحاجّ كانت احدى الشؤونات الفاخرة والمآثر التي يباهى بها في الجاهلية، وأن السقاية كانت حياضاً من أدم على عهد قصّي بن كلاب احد اجداد النبي ﷺ توضع بفناء الكعبة ، ويستقى فيها الماء العذب من الآبار على الإبل، ويسقى الحاج فجعل قصي امر السقاية عند وفاته لابنه عبد مناف ولم يزل في ولده حتى ورثه العباس بن عبد المطلب .

وسقاية العباس هو الموضع الذي كان يسقى فيه الماء في الجاهلية والاسلام وهو في جهة الجنوب من زمزم بينهما اربعون ذراعاً، وقد بني عليه بناء هو المعروف اليوم بسقاية العباس.

والمراد بالسقاية في الآية ـ على اي حال ـ معناها المصدري وهو السقي، ويؤيده مقابلتها في الآية عمارة المسجد الحرام والمراد بها المعنى المصدري قطعاً بمعنى الشغل.

وقد قوبل في الآية سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، ولا معنى لدعوى المساواة بين الانسان وبين عمل من الاعمال كالسقاية والعمارة او نفيها فالمعادلة والمساواة إما بين عمل وعمل او بين انسان ذي عمل وانسان ذي عمل.

ولذلك اضطر المفسرون الى القول بأن تقدير الكلام: أجعلتم اهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر حتى يستقيم السياق .

وأوجب منه النظر في قيود الكلام المأخوذة في الآية الكريمة فقد أخذ في احد الجانبين سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحدهما من غير اي قيد زائد، وفي الجانب الآخر الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله وإن شئت فقل: الجهاد في سبيل الله مع اعتبار الإيمان معه .

وهو يدلُ على أن المراد : السقاية والعمارة خاليتين من الإيمان ، ويؤيده قوله تعالى في ذيل الآية : « والله لا يهدي القوم الظالمين » على تقدير كونه تعريضاً لأهل السقاية والعمارة لا تعريضاً لمن يسوّى بينهما كما يتبادر من السياق .

وهذا يكشف اولاً عن أن هؤلاء الذين كانوا يسوُّون بين كذا و كذا وبين كذا إنما كانوا يسوُّون بين عمل جاهلي خالٍ عن الإيمان بالله واليوم الآخر كالسقاية والعمارة من غير ان يكون عن إيمان ، وبين عمل ديني عن إيمان بالله واليوم الآخر كالجهاد في سبيل الله عن إيمان ، اي كانوا يسوُّون بين جسد عمل لا حياة فيه وبين عمل حيّ طيّب نفعه فأنكره الله عليهم .

وثانياً: أن هؤلاء المسوّين كانوا من المؤمنين يسوُّون بين عمل من غير إيمان، كان صدر عنهم قبل الإيمان او صدر عن مشرك غيرهم، وبين عمل صدر عن مؤمن بالله عن محض الإيمان حال إيمانه كما يشهد به سياق الإنكار وبيان الدرجات في الآيات .

بل يشعر بل يدلّ ذكر نفس السقاية والعمارة من غير ذكر صاحبهما على أن صاحبيهما كانا من اهل الإيمان عند التسوية فلم يذكرا حفظاً لكرامتهما وهما مؤمنان حين الخطاب ووقاية لهما بالنظر الى التعريض الظاهر الذي في آخر الآية من ان يسمّيا ظالمين.

بل يدلُ قوله تعالى في الآية التالية في مقام بيان أجر هؤلاء المجاهدين في سبيل الله عن إيمان: « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله » على أن طرفي التسوية في قوله: « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن » الآية كانا من اهل مكة، وأن اهل احد الطرفين وهو الذي آمن وجاهد كان ممن اسلم وهاجر، وأهل الطرف الآخر اسلم ولم يهاجر فإن هذا هو الوجه في ذكره تعالى اولاً الإيمان والجهاد في احد

الطرفين ثم إضافة الهجرة الى ذلك عندما أعيد ثانياً، وقد ذكر تعالى السقاية والعمارة في الجانب الآخر ولم يزد على ذلك شيئاً لا اولاً ولا ثانياً فما هذه القيود بلاغية في قوله الفصل.

وهذا كله يؤيد ما ورد في سبب نزول الآية أن الآيات نزلت في العباس وشيبة وعلي عليه السلام حين تفاخروا فذكر العباس سقاية الحاج، وشيبة عمارة المسجد الحرام، وعلي الإيمان والجهاد في سبيل الله فنزلت الآيات وستجيء الرواية في البحث الروائي المتعلق بالآيات.

وكيف كان فالآية وما يتلوها من الآيات تبيّن أن الزنة والقيمة إنما هو للعمل اذا كان حيّاً بولوج روح الإيمان فيه وأما الجسد الخالي الذي لا روح فيه ولا حياة له فلا وزن له في ميزان الدين ولا قيمة له في سوق الحقائق فليس للمؤمنين ان يعتبروا مجرّد هياكل الأعمال، ويجعلوها ملاكات للفضل وأسباباً للقرب منه تعالى إلا بعد اعتبار حياتها بالإيمان والخلوص.

ومن هذه الجهة ترتبط الآية: «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام» وما بعدها من الآيات بالآيتين اللتين قبلها: «ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر» الى آخر الآيتين.

وبذلك كله يظهر أولاً ان قوله: «والله لا يهدي القوم الظالمين» جملة حالية تبين وجه الإنكار لحكمهم بالمساواة في قوله: «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن» الآية.

وثانياً: ان المراد بالظلم هو ما كانوا عليه من الشرك في حال السقاية والعمارة لا حكمهم بالمساواة بين السقاية والعمارة وبين الجهاد عن إيمان.

وثالثاً: ان المراد نفي ان ينفعهم العمل ويهديهم الى السعادة التي هي عظم الدرجة والفوز والرحمة والرضوان والجنة الخالدة.

قوله تعالى: «الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم» الى آخر الآية بيان لحق الحكم الذي عند الله في المسألة بعد إنكار المساواة، وهو ان الذي آمن وهاجر وجاهد في سبيل الله ما استطاع ببذل ما عنده من مال ونفس، أعظم درجة عند الله وإنما عبر في صورة الجمع – الذين آمنوا الخ – إشارة الى ان ملاك الفضل هو الوصف دون الشخص.

وما تقدم من دلالة الكلام على أن الأعمال من غير إيمان بالله لا فضل لها ولا درجة

لصاحبها عند الله، قرينة على ان ليس المراد بالقياس الذي يدل عليه أفعل التفضيل في قوله: « اولئك أعظم درجة » الخ هو ان بين الفريقين اشتراكاً في الدرجات غير ان درجة من جاهد عن إيمان أعظم ممن سقى وعمر .

بل المراد بيان ان النسبة بينهما نسبة الأفضل الى من لافضل له كالمقايسة المأخوذة بين الأكثر والأقل فإنها تستدعي وجود حد متوسط بينهما يقاسان اليه فهناك ثلاثة امور أمر متوسط يؤخذ مقياساً معدلاً وآخر يكون أكثر منه ، وآخر يكون أقل منه فاذا قيس الأكثر من الأقل كان الأكثر مقيساً الى ما لا كثرة فيه أصلاً .

فقوله: «اولئك أعظم درجة عندالله» أي بالقياس الى هؤلاء الذين لا درجة لهم أصلاً، وهذا نوع من الكناية عن ان لا نسبة حقيقة بين الفريقين لأن أحدهما ذو قدم رفيع فيما لا قدم للآخر فيه أصلاً .

ويدل على ذلك أيضاً قوله: « واولئك هم الفائزون » بما يدل على انحصار الفوز فيهم وثبوتها لهم على نهج الاستقرار .

قوله تعالى : « يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات » الى آخر الآيتين ظاهر السياق أن ما بعده من الفضل في حقهم بيان وتفصيل لما ذكر في الآية السابقة من فوزهم جيء به بلسان التبشير .

فالمعنى «يبشرهم» أي هؤلاء المؤمنين «ربهم برحمة منه» عظيمة لا يقدر قدرها «ورضوان» كذلك «وجنات لهم فيها» في تلك الجنات «نعيم مقيم» لا يزول ولا ينفد حال كونهم « خالدين فيها أبداً » لا ينقطع خلودهم بأجل ولا أمد .

ثم لما كان المقام مقام التعجب والاستبعاد لكونها بشارة بأمر عظيم لم يعهد فيما نشاهده من أنواع النعيم الذي في الدنيا، رفع الاستبعاد بقوله: «إن الله عنده أجر عظيم» .

وسيوافيك الكلام في توضيح معنى رحمته تعالى ورضوانه فيما سيمر من موضع مناسب وقد تقدم بعض الكلام فيها .

قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء » الى آخر الآية نهي عن تولي الكفار ولو كانوا آباءً وإخواناً فإن الملاك عام ، والآية التالية

تنهي عن تولي الجميع غير أن ظاهر لفظ الآية النهي عن اتخاذ الآباء والإخوان أولياء إن استحبوا الكفر ورجحوه على الإيمان .

وإنما ذكر الآباء والإخوان دون الأبناء والأزواج مع كون القبيلين وخاصة الأبناء محبوبين عندهم كالآباء والإخوان لأن التولي يعطي للولي ان يداخل امور وليّه ويتصرف في بعض شؤون حياته ، وهذا هو المحذور الذي يستدعي النهي عن تولي الكفار حتى لا يداخلوا في امورهم الداخلية ولا يأخذوا بمجامع قلوبهم ، ولا يكف المؤمنون ولا يستنكفوا عن الإقدام فيما يسوؤهم ويضرّهم ، ومن المعلوم ان النساء والذراري لا يترقب منهم هذا الأثر السيء إلا بواسطة ، فلذلك خصّ النهي عن التولي بالآباء والإخوان فهم الذين يخاف نفوذهم في قلوب المؤمنين وتصرفهم في شؤونهم .

وقد ورد النهي عن اتخاذ الكفار اولياء في مواضع من كلامه تقدم بعضها في سورة المائدة وآل عمران والنساء والأعراف وفيها إنذار شديد وتهديدات بالغة كقوله تعالى: « ومن يتولهم منكم فانه منهم » المائدة : ٥١ ، وقوله: « ويحذركم الله نفسه » آل عمران: ٢٨ ، وقوله: « ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء » آل عمران: ٢٨ ، وقوله : « أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » النساء : ١٤٤ .

وأنذرهم في الآية التي نحن فيها بقوله: « ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون » ولم يقل: « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » إذ من الجائز ان يتوهم بعض هؤلاء انه منهم لأنهم آباؤه وإخوانه فلا يؤثر فيه التهديد أثراً جديداً يبعثه نحو رفض الولاية.

وكيف كان فقوله: « ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون » بما في الجملة من المؤكدات كإسمية الجملة ، ودخول اللام على الخبر وضمير الفصل يفيد تحقق الظلم منهم واستقراره فيهم ، وقد كرر الله في كلامه ان الله لا يهدي القوم الظالمين ، وقال في نظير الآية من سورة المائدة : « ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين » فهؤلاء محرومون من الهداية الإلهية لا ينفعهم شيء من اعمالهم الحسنة في جلب السعادة اليهم ، والسماحة بالفوز والفلاح عليهم .

قوله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم » الى آخر الآية التفت من مخاطبتهم الى مخاطبة النبي ﷺ إيماءً الى الإعراض عنهم لما يستشعر من حالهم أن

قلوبهم مائلة الى الاشتغال بما لا ينفع معه النهي عن تولّي آبائهم وإخوانهم الكافرين، وإيجاد الداعي في نفوسهم الى الصدور عن امر الله ورسوله، وقتال الكافرين جهاداً في سبيل الله وإن كانوا آباءهم وإخوانهم .

والذي يمنعهم من ذلك هو الحب المتعلق بغير الله ورسوله والجهاد في سبيل الله، وقد عدّ الله سبحانه اصول ما يتعلق به الحب النفساني من زينة الحياة الدنيا، وهي الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة — وهؤلاء هم الذين يجمعهم المجتمع الطبيعي بقرابـــة نسبية قريبة او بعيدة او سببية — والأموال التي اكتسبوها وجمعوها ، والتجارة التي يخشون كسادها والمساكن التي يرضونها — وهذه اصول مـا يقوم به المجتمع في المرتبة الثانية — .

وذكر تعالى أنهم إن تولوا أعداء الدين، وقدموا حكم هؤلاء الامور على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله فليتربصوا ولينتظروا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين .

ومن المعلوم أن الشرط أعني قوله: « إن كان آباؤكم » الى قوله: « في سبيله» في معنى أن يقال : إن لم تنتهوا عما ينهاكم عنه من اتخاذ الآباء والإخوان الكافرين اولياء باتخاذكم سبباً يؤدي الى خلاف ما يدعوكم اليه، وإهمالكم في أمر غرض الدين وهو الجهاد في سبيل الله .

فقوله في الجزاء : « فتربصوا حتى يأتي الله بأمره » لا محالة إما أمر يتدارك به ما عرض على الدين من ثلمة وسقوط غرض في ظرف مخالفتهم، وإما عذاب يأتيهم عن مخالفة أمر الله ورسوله والإعراض عن الجهاد في سبيله .

غير ان قوله تعالى في ذيل الآية: « والله لا يهدي القوم الفاسقين» يعرّض لهم أنهم خارجون حينئـذ عن زيّ العبودية ، فاسقون عن أمر الله ورسوله فهم بمعزل من أن يهديهم الله بأعمالهم ويوفقهم لنصرة الله ورسوله ، وإعلاء كلمة الدين وإمحاء آثار الشرك .

فذيل الآية يهدي الى أن المراد بهذا الأمر الذي يأمرهم الله أن يتربصوا له حتى يأتي به أمر منه تعالى، متعلق بنصرة دينه وإعلاء كلمته فينطبق على مثل قوله تعالى

في سورة المائدة بعد آيات ينهى فيها عن تولّي الكافرين: « يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » المائدة : ٥٤ . والآية بقيودها وخصوصياتها – كما ترى – تنطبق على ما تفيده الآية التي نحن فيها .

فالمراد – والله اعلم – ان اتخذتم هؤلاء اولياء ، واستنكفتم عن اطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيل الله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، ويبعث قوماً لا يحبون إلا الله ، ولا يوالون اعداءه ويقومون بنصرة الدين والجهاد في سبيل الله افضل قيام فانكم اذاً فاسقون لا ينتفع بكم الدين، ولا يهدي الله شيئاً من اعمالكم الى غرض حق وسعادة مطلوبة .

وربما قيل : ان المراد بقوله : « فتربّصوا حتى يأتي الله بأمره » الاشارة الى فتح مكة، وليس بسديد فان الخطاب في الآية للمؤمنين من المهاجرين والانصار وخاصة المهاجرين ، وهؤلاء هم الذين فتح الله مكة بأيديهم ، ولا معنى لأن يخاطبوا ويقال لهم: ان كان آباؤكم وابناؤكم «الخ» أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فواليتموهم واستنكفتم عن اطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله فتربصوا حتى يفتح الله مكة بأيديكم والله لا يهدي القوم الفاسقين ، او فتربصوا حتى يفتح الله مكة والله لا يهديكم لمكان فسقكم فتأمل .

(بحث روائي)

في تفسير البرهان في قوله تعالى: «أجعلتم سقاية الحاج» الآية عن أمالي الشيخ باسناده عن الأعمش عن سالم بن ابي الجعد يرفعه الى ابي ذر– في حديث الشوري – فيما احتج به علي عليه‌السلام على القوم : وقال لهم في ذلك : فهل فيكم احد نزلت فيه هذه الآية « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله » غيري ؟ قالوا : لا .

وفي تفسير القمي قال : وفي رواية أبي الجارود عن ابي جعفر عليه‌السلام قال : نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب عليه‌السلام: «الذين آمنوا وهاجروا — الى قوله — الفائزون » ثم وصف ما لعلي عليه‌السلام عنده فقال : يبشّرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنّات لهم فيها نعيم مقيم » .

وفي المجمع روى الحاكم ابوالقاسم الحسكاني باسناده عن ابي بريدة عن ابيه قال: بينما شيبة والعبّاس يتفاخران إذ مرّ عليهما علي بن ابي طالب قال : بما تفتخران ؟ قال العبّاس : لقد ارتيت من الفضل ما لم يؤت احد سقاية الحاج ، وقال شيبة : اوتيت عمارة المسجد الحرام ، وقال علي : وأنا اقول لكما لقد اوتيت على صغري ما لم تؤتيا فقالا : وما اوتيت يا علي؟ قال: ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله تبارك وتعالى ورسوله .

فقام العباس مغضباً يجرُ ذيله حتى دخل على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال: أما ترى ما استقبلني به علي؟ فقال: ادعوا لي علياً ، فدعي له فقال: ما حملك يا علي على ما استقبلت به عمك؟ فقال: يا رسول الله صدقته الحق فان شاء فليغضب، وإن شاء فليرض.

فنزل جبرئيل عليه‌السلام وقال : يا محمد ربك يقرأ عليك السلام ويقول : أتل عليهم : « أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر » الى قوله : « إن الله عنده أجر عظيم » .

وفي تفسير الطبري بإسناده عن محمد بن كعب القرظيّ قال : افتخر طلحة ابن شيبة والعباس وعلي بن ابي طالب فقال طلحة: انا صاحب البيت معي مفتاحه، وقال العباس : وأنا صاحب السقاية والقائم عليها ، فقال علي : ما أدري ما تقولان لقد صليت الى القبلة ستة اشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله: «أجعلتم سقاية الحاجّ » الآية كلها .

وفي الدر المنثور اخرج الفاريابي عن ابن سيرين قال : قدم علي بن ابي طالب مكة فقال للعباس : أي عمّ ألا تهاجر؟ ألا تلحق برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ؟ فقال : أعمر المسجد الحرام وأحجب البيت فأنزل الله: « أجعلتم سقاية الحاجّ » الآية، وقال لقوم قد سمّاهم : ألا تهاجرون؟ ألا تلحقون برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ؟ فقالوا : نقيم مع إخواننا وعشائرنا ومساكننا فأنزل الله تعالى : « قل إن كان آباؤكم » الآية كلها .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم عن ابن عباس قال: قال العباس حين أسر يوم بدر: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفكّ العاني (١) فأنزل الله: « أجعلتم سقاية الحاج » الآية، يعني أن ذلك كان في الشرك فلا أقبل ما كان في الشرك.

وفيه أخرج مسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن حبّان والطبراني وأبوالشيخ وابن مردويه عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من اصحابه فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاجّ، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم.

فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا اصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة، ولكن اذا صلّيتم الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله: « أجعلتم سقاية الحاجّ » الى قوله: « والله لا يهدي القوم الظالمين ».

أقول: قال صاحب المنار في تفسيره بعد إيراد هذه الروايات الأربع الأخيرة: والمعتمد من هذه الروايات حديث النعمان لصحة سنده وموافقة متنه لما دلت عليه الآيات من كون موضوعها في المفاضلة او المساواة بين خدمة البيت وحجابته – من اعمال البر البدنية الهينة المستلذة – وبين الإيمان والجهاد بالمال والنفس والهجرة، وهي أشقّ العبادات النفسية البدنية المالية، والآيات تتضمن الرد عليها كلها. انتهى.

اما ما ذكره من رجحان رواية النعمان على غيرها بصحة السند ففيه اولاً أن رواية القرظيّ ايضاً في مضمونها موافقة لرواية الحاكم في المستدرك وقد صححها. وثانياً: ان روايات التفسير اذا كانت آحاداً لا حجية لها إلا ما وافق مضامين الآيات بقدر ما يوافقها على ما بيّن في فن الاصول فإن الحجيّة الشرعية تدور مدار الآثار الشرعية المترتبة فتنحصر في الأحكام الشرعية وأما ما وراءها كالروايات الواردة في القصص والتفسير الخالي عن الحكم الشرعي فلا حجيّة شرعية فيها.

وأما الحجية العقلية أعني العقلائية فلا مسرح لها بعد توافر الدس والجعل في

(١) العاني: الأسير.

الأخبار سيا اخبار[١] التفسير والقصص إلا ما تقوم قرائن قطعية يجوز التعويل عليها على صحة متنه ، ومن ذلك موافقة متنه لظواهر الآيات الكريمة .

فالذي يهم الباحث عن الروايات غير الفقهية ان يبحث عن موافقتها للكتاب فان وافقتها فهي الملاك لاعتبارها ولو كانت مع ذلك صحيحة السند فإنما هي زينة زيّنت بها وإن لم توافق فلا قيمة لها في سوق الاعتبار .

وأما ترك البحث عن موافقة الكتاب ، والتوغل في البحث عن حال السند ـ إلا ما كان للتوسل الى تحصيل القرائن ـ ثم الحكم باعتبار الرواية بصحة سندها ثم تحميل ما يدل عليه متن الرواية على الكتاب ، واتخاذه تبعاً لذلك كما هو دأب كثير منهم فمما لا سبيل اليه من جهة الدليل .

وأما ما ذكره من رجحان رواية النعمان على غيرها من جهة المتن مبيناً ذلك بأن الآيات تدل على ان موضوع المساواة او المفاضلة كان بين خدمة البيت او حجابته وهي من أعمال البر البدنية الهيّنة المستلذة ، وبين الايمان والجهاد والهجرة وهي من أعمال البر النفسية والبدنية الشاقة ، والآيات تتضمن الرد عليها كلها . انتهى .

ففيه اولاً : إن الذي ذكره من مدلول الآيات مشترك بين جميع ما أورده من الروايات :

أما رواية ابن عباس التي مضمونها وقوع الكلام في المساواة او المفاضلة حين أسر العباس يوم بدر بين العباس وبين المسلمين حيث عيّروه فقد ذكر فيها صريحاً المقايسة بين الإسلام والهجرة والجهاد وبين سقاية الحاج وعمارة المسجد وفكّ العاني، وهناك روايات أخر في معناها .

وأما رواية ابن سيرين الدالة على وقوع النزاع بين علي والعباس بمكة حين دعاه الى الهجرة واللحوق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فأجابه بأن له عمارة المسجد الحرام وحجابة البيت وقد روى هذا المعنى ابن مردويه عن الشعبيّ وفيها : أن العباس قال لعلي : أنا عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنت ابن عمه ، وإليّ سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، فأنزل الله: « أجعلتم سقاية الحاج » الآية .

---

(١) وقد اعترف في مواضع من كلامه ونقل عن احمد انه قال : لا اصل لها .

ورواه ايضاً ابن ابي شيبة وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبدالله بن عبيدة وفيها: ان العباس قال لعلي: أولست في افضل من الهجرة؟ ألست أسقي الحاج وأعمر المسجد الحرام فنزلت هذه الآية .

وعلى أي حال فالواقع في هذه الرواية ايضاً المقايسة بين السقاية والعمارة وبين الهجرة وما يترتب عليها مما يستلزمه اللحوق بالنبي ﷺ كالجهاد وغيره من الأعمال الشريفة الدينية .

وأما رواية القرظي وما في معناها كالذي رواه الحاكم وصححه ، وما رواه عبد الرزاق عن الحسن قال : نزلت في علي والعباس وعثمان وشيبة (١) تكلموا في ذلك ، وكذا رواية النعمان التي تقدمت فكون المنازعة فيها في السقاية والعمارة والإيمان والجهاد ظاهر فإذا كان الحال هذا الحال فأي مزية في رواية النعمان بن بشير توجب اختصاصها بموافقة الكتاب من بين سائر الروايات .

وثانياً : ان قوله : إن موضوع المفاضلة هي اعمال البر الهينة المستلذة كالسقاية والحجابة وأعمال البر الشاقة كالإيمان والهجرة والجهاد لا يوافق ما يدل عليه الآيات فإنها كما تقدم ظاهرة الدلالة على ان المقايسة كانت بينهم بين اجساد الأعمال الخالية عن روح الإيمان وليست من البر حينئذ وبين اعمال حية بولوج روح الإيمان فيها كالهجرة والجهاد عن ايمان بالله واليوم الآخر .

فالآيات تدل على انهم كانوا يسوون او يفضلون غير اعمال البر كالسقاية والعمارة من غير ايمان على اعمال البر كالجهاد عن ايمان وهجرة والهجرة عن ايمان فأين ما ذكره من اعمال البر الهينة قبال اعمال البر الشاقة (٢) ؟

ودلالة الآيات ـ بما فيها من القيود المأخوذة ـ على ذلك بمكان من الظهور والجلاء فقد قيد الجهاد فيها بالإيمان بالله واليوم الآخر، وأطلق السقاية والعمارة من غير تقييد بالإيمان ثم قال تعالى : «لا يستوون عند الله» ثم زاد: «والله لا يهدي القوم الظالمين»

---

(١) ابن شيبة ظ .

(٢) نعم زعم هو ان السقاية والعمارة من العباس في حال شركه من اعمال البر كما زعمه العباس غير ان الآيات بنزولها نبهت العباس انه كان قد اخطأ في مزعمته كما يشعر به ذيل رواية ابن عباس ولم يتنبه هو لما تنبه له العباس رضي الله عنه .

وحاشا ان يكون الآتي بأعمال البر عند الله من القوم الظالمين المحرومين عن نعمة الهداية الإلهية .

حتى لو فرض ان المراد بالظالمين اولئك المسوون او المفضلون من المؤمنين للسقاية والعمارة على الجهاد فإن المؤمن على ايمانه اذا حكم بمثل هذا الحكم فإنما هو خاطئ يهتدى إذا دل على الصواب لا ظالم محروم من الهداية فافهم ذلك .

وثالثاً : ما تقدم من ان قوله : « كمن آمن بالله » الآية وقوله : «لا يستوون» الآية دليل على ان للشخص دخلاً فيما تتضمن الآيات من الحكم .

والتدبر في الآيات الكريمة والتأمل فيما ذكرناه هنا وهناك يوضح للباحث الناقد ان اضعف الروايات وأبعدها من الانطباق على مضمون الايات هي رواية النعمان بن بشير فإنها لا تقبل الانطباق على الايات الكريمة بما فيها من القيود المأخوذة .

ويليها في الضعف رواية ابن سيرين وما في معناها من الروايات فإن ظاهرها ان العباس إنما دعي الى الهجرة وهو مسلم فافتخر بالسقاية والحجابة والآيات لا تساعد على ذلك كما مر .

على أن الواقع في رواية ابن سيرين ذكر العباس للسقاية وحجابة البيت ولم يكن له حجابة إنما هي السقاية .

ويليها في الضعف رواية ابن عباس فظاهرها ان المقايسة إنما كانت بين الأعمال فقط والآية لا تساعد على ذلك .

على أن فيها ان العباس ذكر فيما ذكر سقاية الحاج وعمارة المسجد وفك العاني وهو الأسير . ولو كان لذكر في الاية، وقد وقع في رواية ابن جرير وأبي الشيخ عن الضحاك في هذا المعنى قال : اقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أُسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك. فقال العباس: أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونفك العاني ، ونحجب البيت ونسقي الحاج فأنزل الله : « أجعلتم سقاية الحاج » الآية ، والكلام في فك العاني وحجابة البيت الواقعين فيها كالكلام في سابقها .

فأسلم الروايات في الباب وأقربها الى الانطباق على الآيات مضموناً رواية القرظي وما في معناها كرواية الحاكم في المستدرك ورواية عبد الرزاق عن الحسن ورواية أبي

نعيم وابن عساكر عن انس الآتية ، وقد تقدم توضيح ذلك .

وفي الدر المنثور أخرج أبو نعيم في فضائل الصحابة وابن عساكر عن انس قال: قعد العباس وشيبة صاحب البيت يفتخران فقال العباس: أنا أشرف منك أنا عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ووصي أبيه ، وساقي الحجيج ، فقال شيبة : أنا أشرف منك أنا أمين الله على بيته وخازنه أفلا ائتمنك كما ائتمنني ؟

فاطلع عليهما علي فأخبراه بما قالا فقال علي: أنا أشرف منكما أنا أول من آمن وهاجر فانطلق ثلاثتهم الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبروه فما أجابهم بشيء فانصرفوا فنزل عليه الوحي بعد أيام فأرسل اليهم فقرأ عليهم : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام » إلى آخر العشر .

وفي تفسير القمي عن أبيه عن صفوان عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام : قال : نزلت في علي والعباس وشيبة . قال العباس : أنا افضل لأن سقاية الحاج بيدي ، وقال شيبة: أنا أفضل لأن حجابة البيت بيدي، وقال علي: أنا أفضل فإني آمنت قبلكما ثم هاجرت وجاهدت فرضوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله: «أجعلتم سقاية الحاج ـ الى قوله ـ إن الله عنده أجر عظيم » .

أقول: ورواه العياشي عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام مثله، وفيه عثمان بن أبي شيبة مكان شيبة .

وفي الكافي عن أبي علي الأشعري عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام في قول الله: «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر» نزلت في حمزة وعلي وجعفر والعباس وشيبة ، إنهم فخروا بالسقاية والحجابة فأنزل الله عز ذكره : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر» وكان علي وحمزة وجعفر هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وجاهدوا في سبيل الله . لا يستوون عند الله .

أقول: ورواه أيضاً العياشي في تفسيره عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام مثله.

والرواية لا تلائم ما يثبته النقل القطعي فقد كان حمزة من المهاجرين الأولين لحق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم استشهد في غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة، وقد كان جعفر

هاجر الى الحبشة قبل هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم رجع الى المدينة أيام فتح خيبر وقد استشهد حمزة قبل ذلك بمدة فلو كان من الخمسة اجتماع على التفاخر فقد كان قبل الهجرة النبوية وحينئذ فما معنى ما وقع في الرواية: «وكان علي وحمزة وجعفر هم الذين آمنوا بالله واليوم الاخر وجاهدوا في سبيل الله» ؟

وإن كان المراد بالنزول فيهم انطباق الآية عليهم على سبيل الجري فقد كان العباس مثلهم فإنه آمن يوم أسر ببدر ثم حضر بعض غزوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي تفسير البرهان عن الجمع بين الصحاح الستة للعبدي في الجزء الثاني من صحيح النسائي بإسناده قال: افتخر طلحة بن شيبة من بني عبد الدار والعباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب فقال طلحة: بيدي مفتاح البيت ولو أشاء بت فيه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بت في المسجد، وقال علي: ما أدري ما تقولان ؟ لقد صليت الى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله: «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام» الآية .

أقول: المراد بالصلاة ستة أشهر قبل الناس التقدم في الإيمان بالله على ما تعرضت له الآية وإلا كان من الواجب أن تذكر في الآية، وقد ذكر ثالث القوم طلحة بن شيبة، وقد تقدم في بعضها أنه شيبة، وفي بعضها أنه عثمان بن أبي شيبة .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: «ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان» قال: الإيمان ولاية علي بن أبي طالب .

أقول: هو من باطن القرآن مبني على تحليل معنى الإيمان الى مراتب كماله .

وفي تفسير القمي: لما أذن امير المؤمنين ان لا يدخل المسجد الحرام مشرك بعد ذلك جزعت قريش جزعاً شديداً، وقالوا: ذهبت تجارتنا وضاعت عيالنا وخربت دورنا فأنزل الله في ذلك: «قل - يا محمد - إن كان آباؤكم وابناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم - الى قوله - والله لا يهدي القوم الفاسقين» .

أقول: وعلى هذا كان من الحري أن يفسر قوله في الآية: «حتى يأتي الله بأمره» بتدارك ما ينزل بهم من الكساد وفتح باب الرزق عليهم من وجه آخر كما

وقع مثله في قوله تعالى في ضمن الآيات التالية : « يا ايها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يدخلوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ان الله عليم حكيم » التوبة : ٢٨ .

بل اتحد حينئذ موردا الآيتين، ولسان الرفق وكرامة الخطاب بمثل قوله : « يا ايها الذين آمنوا » يأبى ان يكون الخطاب بقوله : « ان كان آباؤكم وابناؤكم » الآية متوجهاً اليهم بأعيانهم على ما في آخرها من الخشونة في قوله : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

على ان الآية تذكر حب الآباء والإخوان والعشيرة والأموال التي اقترفوها ، ولم يذكر شيء منها في الرواية ، ولا حسبت قريش ضيعة بالنسبة اليها فما معنى ذكرها في الآية والتهديد على اختيار حبها على حب الله ورسوله؟ وما معنى ذكر الجهاد في سبيله في الآية ؟ فافهم ذلك .

وفي الدر المنثور أخرج احمد والبخاري عن عبد الله بن هشام قال : كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: والله لأنت يا رسول الله أحب اليّ من كل شيء إلا من نفسي . فقال النبي ﷺ : لا يؤمن احدكم حتى أكون احب اليه من نفسه .

* * *

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ــ ٢٥ . ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ ــ ٢٦ . ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ــ ٢٧ . يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ

بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ــ ٢٨ .

(بيان)

تشير الآيات الى قصة غزوة حنين وتمتنّ بما نصر الله فيه المؤمنين كسائر المواطن من الغزوات التي نصرهم الله بعجيب نصرته على ضعفهم وقلّتهم ، وأظهر اعاجيب آياته بتأييد نبيّه ﷺ وإنزال جنود لم يروها وإنزال السكينة على رسوله والمؤمنين وتعذيب الكافرين بأيدي المؤمنين .

وفيها الآية التي تحرّم على المشركين أن يدخلوا المسجد الحرام بعد عام تسع من الهجرة ، وهي العام الذي أذن فيه علي عليه‌السلام ببراءة ، ومنع طواف البيت عرياناً ، ودخول المشركين في المسجد الحرام .

قوله تعالى : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين ــ الى قوله ــ ثم ولّيتم مدبرين » المواطن جمع موطن وهو الموضع الذي يسكنه الإنسان ويتوطن فيه. وحنين إسم واد بين مكة والطائف وقع فيه غزوة حنين قاتل فيه النبي ﷺ هوازن وثقيف وكان يوماً شديداً على المسلمين انهزموا اولاً ثم أيدهم الله بنصره فغلبوا .

والإعجاب الإسرار والعجب سرور النفس بما يشاهده نادراً ، والرحب السعة في المكان وضدّه الضيق .

وقوله : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة » ذكر لنصرته تعالى لهم في مواطن كثيرة ومواضع متعددة يدّل السياق على انها مواطن الحروب كوقائع بدر وأحد والخندق وخيبر وغيرها ، ويدل السياق أيضاً أن الجملة كالمقدمة الممهدة لقوله: « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم » الآية فإن الآيات الثلاث مسوقة لتذكير قصة وقعة حنين ، وعجيب ما أفاض الله عليهم من نصرته وخصّهم به من تأييده فيها .

وقد استظهر بعض المفسرين كون الاية وما يتلوها الى تمام الايات الثلاث تتمة لقول النبي ﷺ فيما أمره ربه أن يواجه به المؤمنين في قوله: « قل ان كان آباؤكم »

الاية وتكلف في توجيه الفصل الذي في قوله : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة».

ولا دليل من جهة اللفظ على ذلك بل الدليل على خلافه فان قصة حنين وما يشتمل عليه من الإمتنان بنصر الله وإنزال السكينة وإنزال الجنود وتعذيب الكافرين والتوبة على من يشاء أمر مستقل في نفسه ذو اهمية في ذاته وهو أهم هدفاً من قوله تعالى: « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم» الآية أو هو مثله لا يقصر عنه فلا معنى لإتباعه إياه وعطفه عليه في المعنى .

وحينئذ لو كان مما يجب ان يخاطب به القوم لكان من الواجب ان يقال: «وقل لهم لقد نصركم الله في مواطن كثيرة » الآية ، على ما جرى عليه القرآن في نظائره كقوله تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد – الى ان قال–قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين» حم السجدة: ٩ وغيره من الموارد.

على ان سياق الآيات وما يجب ان تشتمل عليه من الالتفات وغيره – لوكانت الآيات مقولة للقول – لا تلائم كونها مقولة للقول السابق .

والخطاب في قوله : « لقد نصركم الله » وما يتلوه من قوله : « اذ اعجبتكم كثرتكم» الآية ، للمسلمين وهم الذين يؤلفون مجتمعاً إسلامياً واحداً حضروا بوحدتهم هذه الوحدة امثال وقائع بدر وأحد والخندق وخيبر أو حنيناً وغيرها .

وهؤلاء فيهم المنافقون والضعفاء في الايمان والمؤمنون صدقاً على اختلافهم في المنازل إلا أن الخطاب متوجه الى الجميع باعتبار اشتماله على من يصح ان يخاطب بمثل قوله : « إذ اعجبتكم كثرتكم » الى آخر الاية .

وقوله : « ويوم حنين » أي ويوماً وقعت فيه القتال بينكم وبين اعدائكم بوادي حنين ، وإضافة اليوم الى امكنة الوقائع العظيمة شائع في العرف كما يقال: يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق نظير إضافته الى الجماعة المتلبسين بذلك كيوم الأحزاب ويوم تميم ، وإضافته الى نفس الحادثة كيوم فتح مكة .

وقوله : « إذ أعجبتكم كثرتكم » اي أسرّتكم الكثرة التي شاهدتموها في انفسكم فانقطعتم عن الاعتماد بالله والثقة بأيده وقوّته واستندتم الى الكثرة فرجوتم ان ستدفع عنكم كيد العدو وتهزم جمعهم ، وإنما هو سبب من الأسباب الظاهرية

لا أثر فيها إلا ما شاء الله الذي اليه تسبيب الأسباب .

وبالنظر الى هذا المعنى أردف قوله : « اذ اعجبتكم كثرتكم » بقوله: «فلم تغن عنكم شيئاً » اي اتخذتموها سبباً مستقلاً دون الله فأنساكم الاعتماد بالله ، وركنتم اليها فبان لكم ما في وسع هذا السبب الموهوم وهو ان لا غنى عنده حتى يغنيكم فلم يغن عنكم شيئاً لا نصراً ولا شيئاً آخر .

وقوله : « وضاقت عليكم الأرض بما رحبت » اي مع ما رحبت ، وهو كناية عن إحاطة العدو بهم احاطة لا يجدون مع ذلك مأمناً من الأرض يستقرون فيه ولا كهفاً يأوون اليه فيقيهم من العدو ، اي فررتم فراراً لاتلوون على شيء .

فهو قريب المعنى من قوله تعالى في قصة الأحزاب: « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون باللهالظنونا» الأحزاب : ١٠ .

وقول بعضهم: أي ضاقت عليكم الأرض فلم تجدوا موضعاً تفرون اليه. غير سديد.

وقوله : « ثم وليتم مدبرين » أي جعلتم العدو يـلي أدباركم وهو كناية عن الانهزام وهـذا هو الفرار من الزحف ساقهم إليه اطمئنانهم بكثرتهم والانقطاع من ربهم، قال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره ـ الى ان قـال ـ فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » الأنفال : ١٦ وقال ايضاً : « ولقـد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً » الأحزاب : ١٥ .

فهذا كله اعني ضيق الأرض عليهم بما رحبت ثم انهزامهم وفرارهم من الزحف على ما فيه من كبير الإثم ، ووقوفهم هذا الموقف الذي يستتبع العتاب من ربهم إنما ساقهم إليه اعتمادهم واطمئنانهم الى هذه الأسباب السرابية التي لا تغني عنهم شيئاً .

والله سبحانه بسعة رحمته وعظم منه امتن عليهم بنصره وإنزال سكينته وإنزال جنود لم يروها ، وتعذيب الكافرين ، ووعد مجمل بمغفرته : وعـداً ليس بالمقطوع وجوده حتى تبطل به صفة الخوف من قلوبهم ، ولا بالمقطوع عدمه حتى تزول صفة الرجاء من نفوسهم بـل وعداً يحفظ فيهم الاعتدال والتوسط بـين صفتي الخوف

والرجاء ، ويربيهم تربية حسنة تعدهم وتهيأهم للسعادة الواقعية .

وقد اغرب بعض المفسرين في تفسير الآية مستظهراً بما جمع به بين الروايات على اختلافها فأصر على ما ملخصه ان المسلمين لم يفروا على جبن ، وإنما انكشفوا عن موضعهم لما فاجأهم من شد كتائب ثقيف وهوازن عليهم شد رجل واحد فاضطربوا اضطرابة زلزلتهم وكشفتهم عن موضعهم دفعة واحدة وهذا امر طبيعي في الإنسان اذا فاجأه الخطر ودهمته بلية دفعة ومن غير مهل اضطربت نفسه وخلى عن موضعه.

ويشهد به نزول السكينة على رسول الله ﷺ وعليهم جميعاً فقد كان الاضطراب شمله وإياهم جميعاً ، غير ان النبي ﷺ أصابه ما أصابه من الاضطراب والقلق حزناً وأسفاً مما وقع ، والمسلمون شملهم ذلك لما فوجئوا به من حملة الكتائب حملة رجل واحد.

ومن الشواهد انهم بمجرد ما سمعوا نداء الرسول ﷺ ونداء العباس بن عبد المطلب رجعوا من فورهم وهزموا الكفار بالسكينة النازلة عليهم من عند الله تعالى.

ثم ذكر ما نزل من الايات في صفة الصحابة كآية بيعة الرضوان ، وقوله تعالى: « محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار » الآية ، وقوله : « إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » الاية ، وما ورد من طريق الرواية في مدح صحابة النبي ﷺ . انتهى .

والذي اورده من الخلط بين البحث التفسيري الذي لا همّ له إلا الكشف عما يدل عليه الايات الكريمة ، وبين البحث الكلامي الذي يرام به إثبات ما يدعيه المتكلم في شيء من المذاهب من أي طريق أمكن من عقل او كتاب او سنّة او إجماع او المختلط منها والبحث التفسيري لا يبيح لباحثه شيئاً من ذلك ، ولا تحميل أي نظر من الأنظار العلمية على الكتاب الذي أنزله الله تبياناً .

أما قوله: إنهم لم يفروا جبناً ولا خذلاناً للنبي ﷺ ، وإنما كان انكشافاً لأمر فاجأهم فاضطربوا وزلزلوا ففروا ثم كروا فهذا مما لا يندفع به صريح قوله تعالى : « ثم وليتم مدبرين » مع اندراج هذا الفعل منهم تحت كلية قوله تعالى في آية تحريم الفرار من الزحف : « فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره ــ الى ان قال ــ فقد باء بغضب من الله » الاية .

ولم يقيد سبحانه النهي عن تولية الأدبار بأنـــه يجب ان يكون عن جبن او لغرض الخذلان ، ولا استثنى من حكم التحريم كون الفرار عن اضطراب مفاجىء ، ولا اورد في استثنائه إلا ما ذكره بقوله : «إلا متحرفاً لقتال او متحيزاً الى فئة» وليس هذان المستثنيان في الحقيقة من الفرار من الزحف .

ولم يورد تعالى ايضاً فيما حكى من عهدهم شيئاً من الاستثناء إذ قال : «ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً» الأحزاب: ١٥.

وأما استشهاده على ذلك بأن الإضطراب كان مشتركاً بينهم وبين النبي ﷺ، واستدلاله على ذلك بقوله تعالى : « ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين» حيث إن نزول السكينة بعد انكشافهم بزمان ـ على ما تدل عليه كلمة ثم ـ يلازم نزول الاضطراب عند ذلك على النبي ﷺ وإن كان عن حزن وأسف إذ لا يتصور في حقه ﷺ التزلزل في ثباته وشجاعته .

فلننظر فيما اعتبره للنبي ﷺ من الحزن والأسف هل كان ذلك حزناً وأسفاً على ما وقع من الأمر من انهزام المسلمين وما ابتلاهم الله به من الفتنة والمحنة جزاءً لما أعجبوا من كثرة عددهم،وبالجملة حزناً مكروهاً عند الله؟فقد نزهه الله عن ذلك وأدبه بما نزّل عليه من كتابه وعلمه من علمه ، وقد أنزل عليه مثل قوله عز من قائل:«ليس لك من الأمر شيء» آل عمران:١٢٨، وقال : « سنقرؤك فلا تنسى» الأعلى : ٦ .

ولم يرد في شيء من روايات القصة أنه ﷺ زال عن مكانه يومئذ أو اضطرب اضطراباً مما نزل على المسلمين من الوهن والانهزام .

وإن كان ذلك حزناً وأسفاً على المسلمين لما أصابهم من ناحية خطإهم في الاعتماد بغير الله والركون الى سراب الأسباب الظاهرة، والذهول عن الاعتصام بالله سبحانه حتى أوقعهم في خطيئة الفرار من الزحف لما كان هو ﷺ عليه من الرأفة والرحمة بالمؤمنين فهذا أمر يحبه الله سبحانه وقد مدح رسوله ﷺ به إذ قال : « بالمؤمنين رؤوف رحيم » التوبة : ١٢٨ .

وليس يزول مثل هذا الأسف والحزن بنزول السكينة عليه، ولا أن السكينة لو فرض نزولها لأجله مما حدث بعد وقوع الانهزام حتى يكون النبي ﷺ خالياً عنها

قبل ذلك بل كان ﷺ على بينة من ربه منذ بعثه الله الى ان قبضه اليه ، وكانت السكينة بهذا المعنى نازلة عليه حيناً بعد حين .

ثم السكينة التي نزلت على المؤمنين ما هي ؟ وماذا يحسبها ؟ أكانت هي الحالة النفسانية التي تحصل من السكون والطمأنينة كما فسرها بها واستشهد عليه بقول صاحب المصباح: إنها تطلق على الرزانة والمهابة والوقار حتى كانت ثبات الكفار وسكونهم في مواقفهم الحربية عن سكينة نازلة اليهم ؟ فإن كانت السكينة هي هذه فقد كانت في أول الوقعة عند كفار هوازن وثقيف خصماء المسلمين ثم تركتهم ونزلت على عامة جيش المسلمين من مؤمن ثبت مع رسول الله ﷺ ومن مؤمن لم يثبت واختار الفرار على القرار ، ومن منافق ومن ضعيف الإيمان مريض القلب فإنهم جميعاً رجعوا ثانياً إلى النبي ﷺ ، وثبتوا معه حتى هزموا العدو فهم جميعاً أصحاب السكينة أنزلها الله إليهم فما باله تعالى يقصر إنزال السكينة على رسوله وعلى المؤمنين إذ يقول: « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » ؟

على انه إن كانت السكينة هي هذه ، وهي مبتذلة مبذولة لكل مؤمن وكافر فما معنى ما امتن الله به على المؤمنين بما ظاهره انها عطية خاصة غير مبتذلة ؟ ولم يذكرها في كلامه إلا في موارد معدودة – بضعة موارد – لا تبلغ تمام العشرة .

وبذلك يظهر ان السكينة أمر وراء السكون والثبات لا ان لها معنى في اللغة او العرف وراء مفهوم الحالة النفسانية الحاصلة من السكون والطمأنينة بل بمعنى ان الذي يريده تعالى من السكينة في كلامه له مصداق غير المصداق الذي نجده عند كل شجاع باسل له نفس ساكنة وجاش مربوط ، وإنما هي نوع خاص من الطمأنينة النفسانية له نعت خاص وصفة مخصوصة .

كيف؟ وكلما ذكرها الله سبحانه في كلامه امتناناً بها على رسوله وعلى المؤمنين خصها بالإنزال من عنده فهي حالة إلهية لا ينسى العبد معها مقام ربه لا كما عليه عامة الشجعان أولوا الشدة والبسالة المعجبون ببسالتهم المعتمدون على أنفسهم .

وقد احتفت في كلامه بأوصاف وآثار لا تعم كل وقار وطمأنينة نفسانية كما قال في حق رسوله: « إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه

وأيده بجنود لم تروها» التوبة: ٤٠وقال تعالى في المؤمنين«لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم » الفتح :١٨ فذكر انه إنما أنزل السكينة عليهم لما علمه من قلوبهم فنزولها يحتاج الى حالة قلبية طاهرة سابقة يدل السياق على انها الصدق ونزاهة القلب عن إبطان نية الخلاف .

وقال أيضاً:«هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض » الفتح: ٤ فذكر ان من اثرها زيادة الإيمان مع الإيمان وقال ايضاً:«إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها» الفتح : ٢٦،

والآية ـ كما ترى ـ تذكر ان نزول السكينة من عنده تعالى مسبوق باستعداد سابق وأهليّة وأحقية قبلية وهو الذي اشير اليه في الآية السابقة بقوله : « فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة » . وتذكر أن من آثارها لزوم كلمة التقوى، وطهارة ساحة الانسان عن مخالفة الله ورسوله باقتراف المحارم وورود المعاصي .

وهذا كالمفسر يفسر قوله في الآية الاخرى:«ليزدادوا إيماناً مع ايمانهم» فازدياد الايمان مع الايمان بنزول السكينة هو ان يكون الانسان على وقاية إلهية من اقتراف المعاصي وهتك المحارم مع ايمان صادق بأصل الدعوة الحقّة .

وهذا نعم الشاهد يشهد أولاً : ان المراد بالمؤمنين في قوله في الآية المبحوث عنها « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » غير المنافقين وغير مرضى القلوب وضعفاء الايمان ، ولا يبقى إلا من ثبت من المؤمنين مع النبي ﷺ ، وهم ثلاثة او اربعة او تسعة او عشرة او ثمانون او دون المائة على اختلاف الروايات في احصائهم ، ومن فرّ وانكشف عن النبي ﷺ أولاً ثم رجع وقاتل ثانياً وفيهم جلّ أصحاب النبي ﷺ وعدّة من خواصهم .

فهل المراد بالمؤمنين الذين نزلت عليهم، جميع من ثبت مع النبي ﷺ ومن فرّ أولاً ثم رجع ثانياً ، أو انهم هم الذين ثبتوا معه من المؤمنين حتى نزل النصر ؟

الذي يستفاد من آيات السكينة ان نزولها متوقف على طهارة قلبيه وصفاء نفسي سابق حتى يقرها الله تعالى بالسكينة، وهؤلاء كانوا مقترفين لكبيرة الفرار من الزحف

آثمين قلوباً ، ولا محل لنزول السكينة على من هـذا شأنه فإن كانوا ممن نزلت عليهم السكينة كان من الواجب ان يندموا على ما فعلوا، ويتوبوا الى ربهم توبة نصوحاً بقلوب صادقة حتى يعلم الله ما في قلوبهم فينزل السكينة عليهم فيكونون أذنبوا اولاً ثم تابوا ورجعوا ثانياً، فأنزل الله سكينته عليهم ونصرهم على عدوّهم، ولعل هذا هو الذي يشير إليه التراخي المفهوم من قوله تعالى «ثم أنزل الله سكينته عليهم» حيث عبر بـ «ثم».

لكن يبقى عليه اولاً : أنـــه كان من اللازم على هذا ان يتعرض في الكلام لتوبتهم فيختص حينئذ قوله : «ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » على الكفار الذين اسلموا بعد منهم ، ولا أثر من ذلك في الكلام ولا قرينة تخص قوله : « ثم يتوب الله » الخ بالكافرين الذين اسلموا بعد ، فافهمْ ذلك .

وثانياً : أن في ذلك غمضاً عن جميل المسعى والمحنة الحسنة التي امتحن بهـــا اولئك النفر القليل الذين ثبتوا مع النبي ﷺ حين تركه جموع المسلمين بين الأعداء وانهزموا فارين لا يلوون على شيء ، ومن المستبعد من دأب القرآن ان يهمل امر من تحمّل محنة في ذات الله ، وألقى نفسه في أشق المهالك ابتغاء مرضاته ـ وهو شاكر عليم ـ فلا يحمده ولا يشكر سعيه .

والمعهود من دأب القرآن أنه اذا عمّ قوماً بعتاب او توبيخ وذم ، وفيهم من هو بريء من استحقاق اللوم او العتاب او طاهر من دنس الإثم والخطيئة ان يستثنيه منهم ويخصّه بجميل الذكر، ويحمده على عمله وإحسانه كما نراه كثيراً في الخطابات التي تعمّم اليهود او النصارى عتاباً او ذمّاً وتوبيخاً فانه تعالى يخاطبهم بمـــا يخاطب ويوبخهم وينسب اليهم الكفر بآياتـــه والتخلف عن أوامره ونواهيه، ثم يمدح منهم الأقلـّين الذين آمنوا به وبآياته وأطاعوه فيما أراد منهم .

وأوضح من ذلك مـــا يتعرض من الآيات لوقعة أُحد ، وتمتنّ على المؤمنين بما أنزل الله عليهم من النصرة والكرامة، ويعاتبهم على مـــا اظهروه من الوهن والفشل ثم يستثني الثابتين منهم على أقدام الصدق، ويعدهم وعداً حسناً إذ قال مرة بعد مرة: «وسيجزي الله الشاكرين» آل عمران: ١٤٤ ، «وسنجزي الشاكرين» آل عمران: ١٤٥.

ونجد مثله في ما يذكره الله سبحانه من أمر وقعة الأحزاب فان في كلامه عتاباً

شديداً لجمع من المؤمنين، وتوبيخاً وذمّاً للمنافقين والذين في قلوبهم مرض حتى قال فيما قال : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً » الأحزاب : ١٥ ، ثم إنه تعالى ختم القصة بمثل قوله : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا » الأحزاب: ٢٣.

فما باله تعالى لم يتعرّض لحالهم في قصة حنين، وليست بأهون من غيرها ، ولا خصّهم بشيء من الشكر، ولا حمدهم بما يمتنّون به من لطيف حمده تعالى كغيرهم في غيرها.

فهذا الذي ذكرناه مما يقرّب الى الاعتبار أن يكون المراد بالمؤمنين الذين ذكر نزول السكينة عليهم هم الذين ثبتوا مع النبي ﷺ ، وأما سائر المؤمنين ممن رجع بعد الانكشاف فهم تحت شمول قوله: «ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » يشمل من شملته العناية منهم كما يشمل من شملته العناية والتوفيق من كفّار هوازن وثقيف ومن الطلقاء والذين في قلوبهم مرض . هذا ما يهدي اليه البحث التفسيري ، وأما الروايات فلها شأنها وسيأتي طرف منها .

وأما ما ذكره من شهادة رجوعهم من فورهم حين سمعوا نداء النبي ﷺ ونداء العباس فذلك مما لا يبطل ما قدّمناه من ظهور قوله تعالى : « ثم ولّيتم مدبرين » اذا انضم الى قوله : « اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار » الآية في أن ما ظهر منهم في الوقعة من الفعل كان فراراً من الزحف فعلوه عن جبن او تعمد في خذلان او عن قلق واضطراب وتزلزل .

وأما ما ذكره من الآيات التي تمدحهم وتذكر رضى الرب عنهم واستحقاقهم جزيل الأجر من ربهم . ففيه أن هذه المحامد مقيدة فيها بقيود لا يتحتم معها لهم الأمر فان الآيات إنما تحمد من تحمده منهم لما به من نعوت العبودية كالإيمان والإخلاص والصدق والنصيحة والمجاهدة الدينية فالحمد باق ما بقيت الصفات، والوعد الحسن على اعتباره ما لبثت فيهم النعوت والأحوال الموجبة له فاذا زالت الحادثة او خطيئة زال بتبعه.

وليس ما عندهم من مبادىء الخير والبركات بأعظم ولا أهم مما عند الأنبياء من صفة العصمة يستحيل معها صدور الذنب منهم ، وقد قال الله تعالى بعد ثناء طويل عليهم : « ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون » الأنعام : ٨٨ .

وقد قال تعالى قبالما ظنّوا أنهم مصونون عن ما يكرهونه من أقسام المجازاة كرامة لإسلامهم كما ظنَّ نظيره أهل الكتاب: « ليس بأمانيكم ولا أماني اهل الكتاب من يعمل سوء يجزَ به » النساء : ١٢٣ .

والذي ورد في بيعة الرضوان من قوله : « لقد رضي الله » فإنما رضاه تعالى من صفاته الفعلية التي هي عين أفعاله الخارجية منتزعة منها فهو عين ما أفاض عليهم من الحالات الطاهرة النفسية التي تستعقب بطباعها جزيل الجزاء وخير الثواب إن بقيت أعمالهم على ما هي عليها وإن تغيّرت تغيّر الرضى سخطاً والنعمة نقمة ولم يأخذ أحد عليه تعالى عهداً أن لا يخلف عهده فيحمله على السعادة والكرامة أحسن او أساء ، أطاع او عصى ، آمن او كفر .

وليس رضى الرب من صفاته الذاتية التي يتصف بها في ذاته فلا يعرضه تغيُّر او تبدُّل ولا يطرأ عليه زوال او دثور .

قوله تعالى : « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » الى آخر الآية السكينة ــ كما تقدم ــ حالة قلبية توجب سكون النفس وثبات القلب ملازمة لازدياد الإيمان مع الإيمان ولكلمة التقوى التي تهدي الى الورع عن محارم الله على ما تفسّرها الآيات.

وهي غير العدالة التي هي ملكة نفسانية تردع عن ركوب الكبائر والإصرار على الصغائر فان السكينة تردع عن الصغائر والكبائر جميعاً .

وقد نسب الله السكينة في كتابه الى نفسه نسبة تشعر بنوع من الاختصاص كما نسب الروح الى نفسه دون العدالة ووصفها بالإنزال فلها اختصاص عنديٌ به تعالى بل ربما يشعر بعض الآيات بأنه عدَّها من جنوده كقوله تعالى: «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض» الفتح: ٤ .

وفي غير واحد من الآيات المشتملة على ذكر السكينة ذكر الجنود كقوله: «فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها » التوبة: ٤٠ ، وكما في الآية المبحوث عنها: « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها » .

والذي يفهم من السياق ان هذه الجنود هي الملائكة النازلة الى المعركة ، او أن يقال من جملتها الملائكة النازلة والذي ينتسب الى السكينة والملائكة أن يعذّب بهم

الكفار ويسدد ويسعد بهم المؤمنون كما اشتملت عليه آيات آل عمران القاصّة قصة أحد، وآيات في أول سورة الفتح فراجعها حتى يتبين لك حقيقة الحال إن شاء الله تعالى.

وقد تقدم في قوله تعالى: «فيه سكينة من ربكم» البقرة: ٢٤٨ في الجزء الثاني من الكتاب بعض ما يتعلق بالسكينة الإلهية من الكلام مما لا يخلو من نفع في هذا المقام.

قوله تعالى: «ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم» قد تقدّم مراراً أن التوبة من الله سبحانه هي الرجوع الى عبده بالعناية والتوفيق اولاً ثم بالعفو والمغفرة ثانياً، ومن العبد الرجوع الى ربه بالندامة والاستغفار، ولا يتوب الله على من لا يتوب اليه .

والإشارة في قوله: «من بعد ذلك» على ما يعطيه السياق الى ما ذكره في الآيتين السابقتين من خطيئتهم بالركون الى غير الله سبحانه ومعصيتهم بالفرار والتولي ثم إنزال السكينة وإنزال الجنود وتعذيب الذين كفروا .

والملائم لذلك ان يكون الموصول في «من يشاء» شاملاً للمسلمين والكافرين جميعاً فقد ذكر من الفريقين جميعاً ما يصلح لأن يتوب الله عليهم فيه إن تابوا، وهو من الكفار كفرهم ومن المسلمين خطيئتهم ومعصيتهم، ولا وجه لتخصيص التوبة على بعضهم مع ما في آيات التوبة من عموم الحكم وسعته ولم يقيّد في هذه الآية المبحوث عنها بما يوجب اختصاصها بأحد الفريقين: المسلمين او الكافرين مع وجود المقتضي فيهما جميعاً .

ومما ذكرنا يظهر فساد ما فسّر به بعضهم الآية مع قصر الإشارة على التعذيب إذ قال: إن معناها ثم يتوب الله تعالى بعد هذا التعذيب الذي يكون في الدنيا على من يشاء من الكافرين فيهديهم الى الاسلام وهم الذين لم يحط بهم خطيئات جهالة الشرك وخرافاته من جميع جوانب انفسهم، ولم يختم على نفوسهم بالإصرار على الجحود والتكذيب او الجمود على ما ألفوا بمحض التقليد . انتهى .

وقد عرفت أن تخصيص الآية بما ذكر والتصرّف في سائر قيوده كقصر الإشارة على التعذيب وغير ذلك مما لا دليل عليه البتة .

والوجه في التعبير بالاستقبال في قوله: «ثم يتوب الله» الاشارة الى انفتاح باب التوبة دائماً، وجريان العناية وفيضان العفو والمغفرة الإلهية مستمراً بخلاف ما

يشير اليه قوله : « فأنزل الله سكينته » الآية، فإن ذلك امور محدودة غير جارية.

قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » قال في المجمع : كل مستقذر نجس يقال: رجل نجس وامرأة نجس وقوم نجس لأنه مصدر ، واذا استعملت هذه اللفظة مع الرجس قيل : رجس نجس — بكسر النون — قال : والعيلة الفقر يقال عال يعيل اذا افتقر . انتهى .

والنهي عن دخول المشركين المسجد الحرام بحسب المتفاهم العرفي يفيد أمر المؤمنين بمنعهم عن دخول المسجد الحرام، وفي تعليله تعالى منع دخولهم المسجد بكونهم نجساً اعتبار نوع من القذارة لهم كاعتبار نوع من الطهارة والنزاهة للمسجد الحرام ، وهي كيف كانت أمر آخر وراء الحكم باجتناب ملاقاتهم بالرطوبة وغير ذلك .

والمراد بقوله : « عامهم هذا » سنة تسع من الهجرة ، وهي السنة التي أذّن فيها علي عليه‌السلام بالبراءة ، ومنع طواف البيت عرياناً ، وحج المشركين البيت .

وقوله : « وإن خفتم عيلة » الآية ، أي وإن خفتم في إجراء هذا الحكم أن ينقطعوا عن الحج، ويتعطل أسواقكم، وتذهب تجارتكم فتفتقروا وتعيلوا فلا تخافوا فسوف يغنيكم الله من فضله ، ويؤمنكم من الفقر الذي تخافونه .

وهذا وعد حسن منه تعالى فيه تطييب نفوس أهل مكة ومن كان له تجارة هناك بالموسم، وكان حاضر العالم الاسلامي يبشرهم يومئذ بمضمون هذا الوعد فقد كان الاسلام تعلو كلمته، وينتشر صيته حالاً بعد حال، وكانت عامة المشركين في عتبة الاستئصال بعد إيذان براءة لم يبقَ لهم إلا اربعة أشهر إلا شرذمة قليلة من العرب كان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله عاهدهم عند المسجد الحرام الى أجل ما بعده من مهل فالجميع كانوا في معرض قبول الاسلام.

(بحث روائي)

في الكافي عن علي بن ابراهيم عن بعض أصحابه ذكره قال: لما سمّ المتوكل نذر إن عوفي ان يتصدّق بمال كثير فلما عوفي سأل الفقهاء عن حدّ المال الكثير فاختلفوا عليه فقال بعضهم: مائة الف، وقال بعضهم: عشرة آلاف فقالوا فيه أقاويل مختلفة فاشتبه عليه الأمر.

فقال رجل من ندمائه يقال له صفوان: ألا تبعث الى هذا الأسود فاسأله عنه؟

فقال له المتوكل : من تعني ويحك ؟ فقال : ابن الرضا . فقال له : وهو يحسن من هذا شيئاً ؟ فقال: إن أخرجك من هذا فلي عليك كذا وكذا وإلا فاضربني مائة مقرعة فقال المتوكل : رضيت ، يا جعفر بن محمود إذهب الى ابي الحسن علي بن محمد فاسأله عن حدّ المال الكثير ، فسأله فقال له : الكثير ثمانون .

فقال له جعفر بن محمود: يا سيدي إنه يسألني عن العلة فيه فقال له ابو الحسن عليه السلام: إن الله عز وجل يقول: «لقد نصركم الله في مواطن كثيرة» فعددنا تلك المواطن فكان ثمانين.

أقول : ورواه القمّي ايضاً في تفسيره وبعض أصحابه الذي ذكر في الرواية أنه سمّاه هو محمد بن عمرو على مـا ذكره في التفسير . ومعنى الرواية أن الثمانين من مصاديق الكثير بدلالة من الكتاب لا أن الكثير معناه الثمانون وهو ظاهر .

وفي المجمع ذكر اهل التفسير وأصحاب السير أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما فتح مكة خرج منها متوجهاً الى حنين لقتال هوازن وثقيف في آخر شهر رمضان او في شوال في سنة ثمان من الهجرة ، وقد اجتمع رؤساء هوازن الى مالك بن عوف النصري ، وساقوا معهم أموالهم ونساءهم وذراريهم ونزلوا بأوطاس .

قال : وكان دريد بن الصمة في القوم، وكان رئيس جشم، وكان شيخاً كبيراً قد ذهب بصره من الكبر فقال: بأي واد انتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس ، ما لي أسمع رغاء البعير ونهيق الحمير وخوار البقر وثغاء الشاة وبكاء الصبيان؟ فقالوا: إن مالك بن عوف ساق مع الناس أبناءهم وأموالهم ونساءهم ليقاتل كل منهم عن أهله وماله فقال دريد : راعي ضأن ورب الكعبة .

ثم قال: ائتوني بمالك فلما جاءه قال: يا مالك إنك أصبحت رئيس قومك، وهذا يوم له ما بعده، ردّ قومك الى عليا بلادهم، والقِ الرجال على متون الخيل فإنه لا ينفعك إلا رجل بسيفه وفرسه فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك لا تكون قد فضحت في أهلك وعيالك؛ فقال له مالك: إنك قد كبرت وذهب علمك وعقلك.

وعقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لواءه الأكبر ودفعه الى علي بن ابي طالب عليه السلام، وكل من دخل مكة براية أمره ان يحملها، وخرج بعد ان أقام بمكة خمسة عشر يوماً، وبعث الى صفوان بن أمية فاستعار منه مائة درع فقال صفوان: عارية أم غصب؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

عارية مضمونة مؤدّاة، فأعاره صفوان مائة درع وخرج معه، وخرج من مسلمة الفتح ألفا رجل، وكان ﷺ دخل مكة في عشرة آلاف رجل وخرج منها في اثني عشر ألفاً .

وبعث رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه فانتهى الى مالك بن عوف وهو يقول لقومه : ليصيّر كل رجل منكم أهله وماله خلف ظهره ، واكسروا جفون سيوفكم، واكمنوا في شعاب هذا الوادي وفي السحر فإذا كان في غبش الصبح فاحملوا حملة رجل واحد فهدّوا القوم فإن محمداً لم يلقَ احداً يحسن الحرب .

ولما صلى رسول الله ﷺ بأصحابه الغداة انحدر في وادي حنين فخرجت عليهم كتائب هوازن من كل ناحية، وانهزمت بنو سليم وكانوا على المقدمة وانهزم ما وراءهم، وخلّى الله تعالى بينهم وبين عدوّهم لإعجابهم بكثرتهم وبقي علي عليه السلام ومعه الراية يقاتلهم في نفر قليل ومرّ المنهزمون برسول الله ﷺ لا يلوون على شيء .

وكان العباس بن عبد المطلب أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ، والفضل عن يمينه، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب عن يساره، ونوفل بن الحارث وربيعة بن الحارث في تسعة من بني هاشم ، وعاشرهم أيمن بن ام أيمن ، وفي ذلك يقول العباس :

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة ... وقد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعوا
وقولي اذا ما الفضل كرّ بسيفه ... على القوم اخرى يا بنيّ ليرجعوا
وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه ... لما ناله في الله لا يتوجّع

ولما رأى رسول الله ﷺ هزيمة القوم عنه قال للعباس ـ وكان جهورياً صيّتاً ـ اصعد هذا الظرب فناد: يا معشر المهاجرين والأنصار يا اصحاب سورة البقرة يا اهل بيعة الشجرة الى أين تفرون ؟ هذا رسول الله .

فلما سمع المسلمون صوت العباس تراجعوا وقالوا : لبّيك لبّيك ، وتبادر الأنصار خاصة وقاتلوا المشركين حتى قال رسول الله ﷺ : الآن حميَ الوطيس . أنا النبي لا كذب [1] أنا ابن عبد المطلب، ونزل النصر من عند الله، وانهزمت هوازن هزيمة قبيحة ففروا في كل وجه ، ولم يزل المسلمون في آثارهم .

---

(١) غير كذب خ .

وفرّ مالك بن عوف فدخل حصن الطائف ، وقتل منهم زهاء مائة رجل ، وأغنم الله المسلمين اموالهم ونساءهم ، وأمر رسول الله بالذراري والأموال ان تحدر الى الجعرانة ، وولى على الغنائم بديل بن ورقاء الخزاعي .

ومضى ﷺ في أثر القوم فوافى الطائف في طلب مالك بن عوف فحاصر اهل الطائف بقية الشهر فلما دخل ذو القعدة انصرف وأتى الجعرانة ، وقسم بهـا غنائم حنين وأوطاس .

قال سعيد بن المسيب: حدثني رجل كان في المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ لم يقفوا لناحلب شاة فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم حتى إذ انتهينا الى صاحب البغلة الشهباء يعني رسول الله ﷺ فتلقانا رجال بيض الوجوه فقالوا لنا: شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا فركبوا اكتافنا فكانوا إياها يعني الملائكة.

قال الزهري : وبلغني ان شيبة بن عثمان قـال : استدبرت رسول الله ﷺ وأنا اريد ان اقتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن طلحة وكانا قـد قتلا يوم أُحد فأطلع الله رسوله على ما في نفسي فالتفت اليّ وضرب في صدري ، وقال : أُعيذك بالله يا شيبة فأرعدت فرائصي فنظرت اليه وهو احب اليّ من سمعي وبصري فقلت: اشهد انك رسول الله ، وأن الله اطلعك على ما في نفسي .

وقسم رسول الله ﷺ الغنائم بالجعرانة، وكان معه من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء ، ومن الإبل والشاء ما لا يدرى عدته .

قال ابو سعيد الخدري : قسم رسول الله ﷺ للمتألفين من قريش ومن سائر العرب ما قسم، ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير فمشى سعد بن عبادة الى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار وجدوا عليك في قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء فقال ﷺ: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ فقال: ما أنا إلا امرؤ من قومي فقال رسول الله ﷺ: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة فجمعهم فخرج رسول الله ﷺ فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا معشر الأنصار أولم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف

بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله .

ثم قال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ فقالوا : وما نقول ؟ وبماذا نجيبك ؟ المنّ لله ولرسوله. فقال رسول الله ﷺ : أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم : جئتنا طريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك ، وخائفاً فآمنّاك ، ومخذولاً فنصرناك . فقالوا: المنّ لله ولرسوله .

فقال رسول الله ﷺ :وجدتم في أنفسكم يامعشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم الى ما قسم الله لكم من الإسلام. أفلا ترضون يا معشر الأنصار ان تذهب الناس الى رحالهم بالشاء والبعير ، وتذهبون برسول الله الى رحالكم؟ فوالذي نفسي بيده لو ان الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء ابناء الأنصار فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم ، وقالوا: رضينا بالله ورسوله قسماً ثم تفرقوا.

وقال انس بن مالك : وكان رسول الله ﷺ امر منادياً فنادى يوم اوطاس: ألا لا توطأ الحبالى حتى يضعن ، ولا غير الحبالى حتى يستبرأن بحيضة .

ثم اقبلت وفود هوازن وقدمت على رسول الله ﷺ بالجعرانة مسلمين فقام خطيبهم وقال : يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك فلو أنا ملحنا ابن ابي شمر او النعمان بن المنذر ثم أصابنا منهما مثل الذي اصابنا منك رجونا عائدتها وعطفها وأنت خير المكفولين ثم أنشد أبياتاً .

فقال ﷺ :أي الأمرين أحب إليكم: السبي او الأموال ؟ قالوا: يا رسول الله خيّرتنا بين الحسب وبين الأموال ، والحسب أحب إلينا ولا نتكلم في شاة ولا بعير فقال رسول الله ﷺ :أما الذي لبني هاشم فهو لكم وسأكلم لكم المسلمين وأشفع لكم فكلموهم وأظهروا إسلامكم .

فلما صلى رسول الله ﷺ الهاجرة قاموا فتكلموا فقال النبي ﷺ :قد رددت الذي لبني هاشم والذي بيدي عليهم فمن أحب منكم أن يعطي غير مكره فليفعل ومن كره أن يعطي فليأخذ الفداء وعليّ فداؤهم فأعطى الناس ما كان بأيديهم منهم إلا قليلا من الناس سألوا الفداء .

وأرسل رسول الله ﷺ الى مالك بن عوف وقال : ان جئتني مسلماً رددت اليك أهلك ومالك ولك عندي مائة ناقة فخرج اليه من الطائف فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل واستعمله على من أسلم من قومه .

أقول: وروى القمي في تفسيره مثله ولم يرو ما نسب من الرجز اليه ﷺ وكذا ما أسنده الى راو معين كالمسيب والزهري وأنس وأبي سعيد ، وروي هذه المعاني بطرق كثيرة من طرق أهل السنة .

وفي رواية علي بن إبراهيم القمي زيادة يسيرة هي ما يأتي :

قال علي بن ابراهيم: فلما رأى رسول الله ﷺ الهزيمة ركض يحوم على بغلته قد شهر سيفه(١) فقال: يا عباس اصعد هذا الظرب وناد: يا أصحاب [سورة] البقرة يا أصحاب الشجرة الى اين تفرون ؟ هذا رسول الله .

ثم رفع رسول الله ﷺ يده وقال: اللهم لك الحمد ولك الشكر واليك المشتكى وأنت المستعان فنزل اليه جبرئيل فقال: يا رسول الله دعوت بما دعا به موسى بن عمران حين فلق الله له البحر ونجّاه من فرعون .

ثم قال رسول الله ﷺ لأبي سفيان بن الحارث: ناولني كفاً من حصى فناوله فرماه في وجوه المشركين ثم قال : شاهت الوجوه . ثم رفع رأسه الى السماء وقال: اللهم ان تهلك هذه العصابة لم تعبد وإن شئت ان لا تعبد لا تعبد .

فلما سمعت الأنصار نداء العباس عطفوا وكسروا جفون سيوفهم وهم ينادون: لبيك ومروا برسول الله ﷺ واستحيوا ان يرجعوا اليه ولحقوا بالراية فقال رسول الله ﷺ للعباس : من هؤلاء يا أبا الفضل ؟ فقال : يا رسول الله هؤلاء الأنصار فقال رسول الله ﷺ: الآن حميَ الوطيس فنزل النصر من السماء وانهزمت هوازن.

وفي الدر المنثور أخرج ابو الشيخ عن محمد بن عبيد الله بن عمير الليثي قال : كان مع النبي ﷺ أربعة آلاف من الأنصار وألف من جهينة، وألف من مزينة وألف من أسلم وألف من غفار وألف من أشجع وألف من المهاجرين وغيرهم فكان معه عشرة

(١) وفي نسخة البحار : وركض نحو علي بغلته فرآه قد شهر سيفه .

آلاف وخرج باثني عشر ألفا وفيها قال الله تعالى في كتابه: «ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً» .

وفي سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق قال: فلما انهزم الناس، ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن:

فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر. وإن الأزلام لمعه في كنانته وصرخ جبلة بن الحنبل قال ابن هشام: كلدة بن الحنبل –وهو مع أخيه صفوان بن أمية مشرك في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ–: ألا بطل السحر اليوم، فقال له صفوان اسكت فض الله فاك فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من ان يربني رجل من هوازن.

قال ابن إسحاق: وقال شيبة بن عثمان بن ابي طلحة أخو بني عبد الدار: قلت: اليوم أدرك ثأري –وكان ابوه قتل يوم أحد– اليوم أقتل محمداً قال: فأدرت برسول الله ﷺ لأقتله فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي فلم أطق ذاك فعلمت انه ممنوع مني.

(فهرس أسماء شهداء حنين)

في سيرة ابن هشام قال ابن اسحاق: وهذه تسمية من استشهد يوم حنين من المسلمين:

من قريش ثم من بني هاشم أيمن بن عبيد ومن بني اسد بن عبد العزي يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن اسد جمح به فرس يقال له الجناح فقتل.

ومن الأنصار سراقة بن الحارث بن عدي من بني العجلان ومن الأشعريين ابو عامر الأشعري .

أقول: وأما الثباة مع رسول الله ﷺ فقد عدّوا في بعض الروايات ثلاثة وفي بعضها اربعة وفي بعضها تسعة عاشرهم أيمن بن عبيد – وهو ابن ام أيمن – وفي بعضها ثمانين وفي بعضها: دون المائة .

والمعتمد من بينها ما روي عن العباس أنهم كانوا تسعة عاشرهم أيمن وله في ذلك شعر تقدم نقله وذلك انه كان ممن ثبت مع النبي ﷺ طول الوقعة وشاهد ما كان من الامر وهو الذي كان ينادي المنهزمين ويستلحقهم بأمر النبي ﷺ وقد باهى بما قاله من الشعر .

ومن الممكن ان يثبت جمع بعد انهزام الناس هنيئة ثم يلحقوا بالمنهزمين او يرجع جمع قبل رجوع غيرهم فيلحقوا بالراية فيعدّوا ممن ثبت وقاتل فالحرب العوان لا يجري على ما يجري عليه السلم من النظم .

ومن هنا يعلم مـا في قول بعضهم : أن الأرجح رواية الثمانين كما عن عبد الله ابن مسعود واليها يرجع ما رواه ابن عمر انهم كانوا دون المائة فان الحجة لمن حفظ على من لم يحفظ ، انتهى ملخصاً .

وذلك ان كون الحجة لمن حفظ على من لم يحفظ حق لكن الحفظ في حـال الحرب على ما فيه من التحول السريع في الأوضاع الحاضرة غير الحفظ في غيره فلا يعتمد إلا على ما شهدت القرائن لصحته وأيد الاعتبار وثاقة حفظه وقد كان العباس مأموراً بما من شأنه حفظ هذا الشأن وما يرتبط به .

* * *

قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ــ ٢٩ . وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللهِ وَقَـالَتِ النَّصَارَىٰ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ ٱللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ــ٣٠. ٱتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ ٱللهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهاً وَاحِداً لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ــ٣١. يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ ــ ٣٢ . هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ

لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ــ ٣٣ . يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ــ ٣٤ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ــ ٣٥ .

(بيان)

الآيات تأمر بقتال اهل الكتاب ممن يمكن تبقيته بالجزية وتذكر اموراً من وجوه انحرافهم عن الحق في الاعتقاد والعمل .

قوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب » أهل الكتاب هم اليهود والنصارى على ما يستفاد من آيات كثيرة من القرآن الكريم وكذا المجوس على ما يشعر أو يدل عليه قوله تعالى: «ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامه ان الله على كل شيء شهيد» الحج: ١٧ حيث عدّوا في الآية مع سائر ارباب النحل السماوية في قبال الذين اشركوا، والصابئون كما تقدّم طائفة من المجوس صبوا الى دين اليهود فاتخذوا طريقاً بين الطريقين.

والسياق يدل على ان لفظة « من » في قوله: «من الذين اوتوا الكتاب» بيانية لا تبعيضية فان كلاً من اليهود والنصارى والمجوس امة واحدة كالمسلمين في اسلامهم وان تشعبوا شعباً مختلفة وتفرقوا فرقاً متشتتة اختلط بعضهم ببعض ولو كان المراد قتال البعض واثبات الجزية على الجميع او على ذلك البعض بعينه لاحتاج المقام في افادة ذلك الى بيان غير هذا البيان يحصل به الغرض .

وحيث كان قوله : « من الذين اوتوا الكتاب » بياناً لما قبله من قوله: « الذين

لا يؤمنون » الآية فالأوصاف المذكورة اوصاف عامة لجميعهم وهي ثلاثة اوصاف وصفهم الله سبحانه بها : عدم الايمان بالله واليوم الآخر ، وعدم تحريم ما حرّم الله ورسوله ، وعدم التديّن بدين الحق .

فأول ما وصفهم به قوله : « الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » وهو تعالى ينسب اليهم في كلامه أنهم يثبتون إلهاً وكيف لا ؟ وهو يعدّهم اهل الكتاب، وما هو إلا الكتاب السماوي النازل من عند الله على رسول من رسله ويحكي عنهم القول او لازم القول بالالوهية في مئات من آيات كتابه .

وكذا ينسب اليهم القول باليوم الآخر في أمثال قوله : « وقالوا لن تمسناالنار إلا اياماً معدودة » البقرة : ٨٠ ، وقوله: « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كانهوداً او نصارى » البقرة : ١١١ .

غير أنه تعالى لم يفرق في كلامه بين الايمان به والايمان باليوم الآخر فالكفر بأحد الأمرين كفر بالله والكفر بالله كفر بالأمرين جميعاً ، وحكم فيمن فرّق بين الله ورسله فآمن ببعض دون بعض أنه كافر كما قال : « ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون انيفرّقوا بينالله ورسله ويقولوننؤمنببعضونكفرببعضويريدون انيتخذوا بين ذلك سبيلاً اولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً» النساء:١٥١

فعدّ اهل الكتاب ممن لم يؤمن بنبوة محمد ﷺ كفاراً حقاً وان كان عندهم ايمان بالله واليوم الآخر ، لا بلسان أنهم كفروا بآية من آيات الله وهي آية النبوة بل بلسان أنهم كفروا بالايمان بالله فلم يؤمنوا بالله واليوم الآخر كما ان المشركين ارباب الاصنام كافرون بالله اذ لم يوحدوه وان اثبتوا إلهاً فوق الآلهة .

على أنهم يقررون أمر المبدء والمعاد تقريراً لا يوافق الحق بوجه كقولهم بأن المسيحَ ابن الله وعزيراً ابن الله يضاهؤون في ذلك قول الذين كفروا من ارباب الاصنام والأوثان ان من الآلهة من هو إله اب إله ومن هو إله ابن إله ، وقول اليهود في المعاد بالكرامة وقول النصارى بالتفدية .

فالظاهر أن نفي الايمان بالله واليوم الآخر عن اهل الكتاب انما هو لكونهم لا يرون ما هو الحق من امر التوحيد والمعاد وان اثبتوا اصل القول بالألوهية لا لأن

منهم من ينكر القول بالوهية الله سبحانه او ينكر المعاد فانهم قائلون بذلك على ما يحكيه عنهم القرآن وان كانت التوراة الحاضرة اليوم لاخبر فيها عن المعاد اصلاً .

ثم وصفهم ثانياً بقوله : « ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله » وذلك كقول اليهود بإباحة اشياء عدّها وذكرها لهم القرآن في سورتي البقرة والنساء وغيرهما وقول النصارى بإباحة الخمر ولحم الخنزير ، وقد ثبت تحريمها في شرائـع موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام وأكلهم اموال الناس بالباطل كما سينسبـه اليهم في الآية الآتية : « إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل » .

والمراد بالرسول في قوله : « ما حرّم الله ورسوله » اما رسول انفسهم الذي قالوا بنبوته كموسى عليه السلام بالنسبه الى اليهود ، وعيسى عليه السلام بالنسبة الى النصارى فالمعنى لا يحرم كل امة منهم ما حرمه عليهم رسولهم الذي قالوا بنبوته ، واعترفوا بحقانيته وفي ذلك نهاية التجري على الله ورسوله واللعب بالحق والحقيقة.

وإمـــا النبي محمد ﷺ الـذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

ويكون حينئذ توصيفهم بعدم تحريمهم مـا حرّم الله ورسوله بغرض تأنيبهم والطعن فيهم ولبعث المؤمنين وتهييجهم على قتالهم لعدم اعتنائهم بما حرّمه الله ورسوله في شرعهم واسترسالهم في الوقوع في محارم الله وهتك حرماته .

وربما أيّد هذا الاحتمال أن لو كان المراد بقوله: «ورسوله» رسول كل أمة بالنسبة اليها كموسى بالنسبة الى اليهود وعيسى بالنسبة الى النصارى كان من حق الكلام ان يقال: «ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسله» على ما هو دأب القرآن في نظائره للدلالة على كثرة الرسل كقوله: «ويريدون ان يفرّقوا بين الله ورسله» النساء: ١٥٠ ، وقوله: «قالت رسلهم أفي الله شك » ابراهيم : ١٠ ، وقوله: « وجاءتهم رسلهم بالبيّنات » يونس : ١٣ .

على أن النصارى رفضوا محرّمات التوراة والإنجيل فلم يحرّموا ما حرّم موسى وعيسى (ع) ، وليس من حق الكلام في مورد هذا شأنه: أنهم لا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله.

على أن المتدبر في المقاصد العامة الاسلامية لا يشك في أن قتال اهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ليس لغرض تمتع أولياء الاسلام ولا المسلمين من متاع الحياة الدنيا واسترسالهم

وانهماكهم في الشهوات على حد المترفين من الملوك والرؤساء المسرفين من أقوياء الامم.

وإنما غرض الدين في ذلك ان يظهر دين الحق وسنّة العدل وكلمة التقوى على الباطل والظلم والفسق فلا يعترضها في مسيرها اللعب والهوى فتسلم التربية الصالحة المصلحة من مزاحمة التربية الفاسدة المفسدة حتى لا ينجرّ الى أن تجذب هذه الى جانب، وتلك الى جانب، فيتشوّش أمر النظام الانساني إلا ان لا يرتضي واحد او جماعة التربية الاسلامية لنفسه او لأنفسهم فيكونون أحراراً فيما يرتضونه لأنفسهم من تربية دينهم الخاصة على شرط ان يكونوا على شيء من دين التوحيد، وهو اليهودية او النصرانية او المجوسية، وأن لا يتظاهروا بالمزاحمة، وهذا غاية العدل والنصفة من دين الحق الظاهر على غيره .

وأما الجزية فهي عطيّة مالية مأخوذة منهم مصروفة في حفظ ذمتهم وحسن إدارتهم ولا غنى عن مثلها لحكومة قائمة على ساقها حقّة او باطلة .

ومن هذا البيان يظهر أن المراد بهذه المحرّمات : المحرّمات الاسلامية التي عزم الله أن لا تشيع في المجتمع الاسلامي العالمي كما أن المراد بدين الحق هو الذي يعزم ان يكون هو المتّبع في المجتمع .

ولازم ذلك ان يكون المراد بالمحرّمات: المحرّمات التي حرّمها الله ورسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم الصادع بالدعوة الاسلامية، وأن يكون الأوصاف الثلاثة: «الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » الآية في معنى التعليل تفيد حكمة الأمر بقتال اهل الكتاب .

وبذلك كله يظهر فساد ما أورد على هذا الوجه أنه لا يعقل ان يحرّم اهل الكتاب على أنفسهم ما حرّم الله ورسوله علينا إلا اذا أسلموا ، وإنما الكلام في اهل الكتاب لا في المسلمين العاصين .

وجه الفساد أنه ليس من الواجب ان يكون الغرض من قتالهم ان يحرّموا ما حرّم الاسلام وهم أهل الكتاب بل أن لا يظهر في الناس التبرّز بالمحرّمات من غير مانع يمنع شيوعها والاسترسال فيها كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير وأكل المال بالباطل على سبيل العلن بل يقاتلون ليدخلوا في الذمة فلا يتظاهروا بالفساد، ويحتبس الشر فيما بينهم أنفسهم.

ولعله الى ذلك الاشارة بقوله : « وهم صاغرون » على ما سيجيء في الكلام على ذيل الآية .

ثم وصفهم ثالثاً بقوله: « ولا يدينون دين الحق » أي لا يأخذونه ديناً وسنة حيوية لأنفسهم .

وإضافة الدين الى الحق ليست من إضافة الموصوف الى صفته على ان يكون المراد الدين الذي هو حق بل من الإضافة الحقيقية، والمراد به الدين الذي هو منسوب الى الحق لكون الحق هو الذي يقتضيه للانسان ويبعثه اليه ، وكون هذا الدين يهدي الى الحق ويصل متبعيه اليه فهو من قبيل قولنا طريق الحق وطريق الضلال بمعنى الطريق الذي هو للحق والطريق الذي هو للضلال اي إن غايته الحق او غايته الضلال.

وذلك أن المستفاد من مثل قوله تعالى: « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم» الروم : ٣٠ ، وقوله : « إن الدين عند الله الاسلام » آل عمران: ١٩ ، وسائر ما يجري هذا المجرى من الآيات أن لهذا الدين أصلاً في الكون والخلقة والواقع الحق؛ يدعو اليه النبي ﷺ ، ويندب الناس الى الإسلام والخضوع له ويسمى اتخاذه سنّة في الحياة إسلاماً لله تعالى فهو يدعو الى ما لا مناص للإنسان عن استجابته والتسليم له وهو الخضوع للسنّة العملية الاعتبارية التي يهدي اليها السنّة الكونية الحقيقية ، وبعبارة اخرى التسليم لإرادة الله التشريعية المنبعثة عن إرادته التكوينية .

وبالجملة للحق الذي هو الواقع الثابت دين وسنّة ينبعث منه كما ان للضلال والغيّ ديناً يدعو اليه، والأول اتّباع للحق كما ان الثاني اتّباع للهوى، قال تعالى: « ولو اتّبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض » .

والإسلام دين الحق بمعنى انه سنّة التكوين والطريقة التي تنطبق عليها الخلقة وتدعو اليها الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم.

فتلخص مما تقدم أولاً : أن المراد بعدم إيمان اهل الكتاب بالله واليوم الآخر عدم تلبّسهم بالإيمان المقبول عند الله ، وبعدم تحريمهم ما حرّم الله ورسوله عدم مبالاتهم في التظاهر باقتراف المناهي التي يُفسد التظاهرُ بها المجتمع البشري ويخيب بها سعي الحكومة الحقة الجارية فيه، وبعدم تدينهم بدين الحق عدم استنانهم بسنّة الحق المنطبقة على الخلقة والمنطبقة عليها الخلقة والكون .

وثانياً : أن قوله: « الذين لا يؤمنون بالله» الى آخر الأوصاف الثلاثة مسوق لبيان الحكمة في الأمر بقتالهم ويترتب عليه فائدة التحريض والتحضيض عليه .

وثالثاً : أن المراد قتال اهل الكتاب جميعاً لا بعضهم بجعل « من » في قوله: « من الذين أُوتوا الكتاب » للتبعيض .

قوله تعالى: «حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» قال الراغب في المفردات: الجزية ما يؤخذ من أهل الذمّة، وتسميتها بذلك للإجتزاء بها في حقن دمهم. انتهى.

وفي المجمع : الجزية فعلة من جزى يجزي مثل العقدة والجلسة وهي عطية مخصوصة جزاء لهم على تمسكهم بالكفر عقوبة لهم . عن علي بن عيسى . انتهى.

والاعتماد على ما ذكره الراغب فانه المتأيد بما ذكرناه آنفاً أن هذه عطية مالية مصروفة في جهة حفظ ذمتهم وحقن دمائهم وحسن إدارتهم .

وقال الراغب ايضاً: الصغر والكبر من الأسماء المتضادة التي تقال عند اعتبار بعضها ببعض فالشيء قد يكون صغيراً في جنب الشيء وكبيراً في جنب آخر – الى ان قال – يقال : صغر صغراً – بالكسر فالفتح – في ضدّ الكبير وصغر صغراً وصغاراً – بالفتحتين فيها – في الذلّة . والصاغر الراضي بالمنزلة الدنية : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » انتهى .

والاعتبار بما ذكر في صدر الآية من اوصافهم المقتضية لقتالهم ثم إعطاؤهم الجزية لحفظ ذمتهم يفيد أن يكون المراد بصغارهم خضوعهم للسنّة الاسلامية والحكومة الدينية العادلة في المجتمع الاسلامي فلا يكافؤوا المسلمين ولا يبارزوهم بشخصية مستقلة حرة في بثّ ما تهواه انفسهم وإشاعة ما اختلقته هوساتهم من العقائد والأعمال المفسدة للمجتمع الإنساني مع ما في إعطاء المال بأيديهم من الهوان .

فظاهر الآية أن هذا هو المراد من صغارهم لا إهانتهم والسخرية بهم من جانب المسلمين او اولياء الحكومة الدينية فان هذا مما لا يحتمله السكينة والوقار الإسلامي وإن ذكر بعض المفسرين .

واليد : الجارحة من الانسان وتطلق على القدرة والنعمة فان كان المراد به في

قوله : « حتى يعطوا الجزية عن يــــد » هو المعنى الاول فالمعنى حتى يعطوا الجزية متجاوزة عن يدهم الى يدكم، وإن كان المراد هو المعنى الثاني فالمعنى: حتى يعطوا الجزية عن قدرة وسلطة لكم عليهم وهم صاغرون غير مستعلين عليكم ولا مستكبرين .

فمعنى الآية ــ والله اعلم ــ قاتلوا اهل الكتاب لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً مقبولاً غير منحرف عن الصواب ولا يحرمون ما حرمه الإسلام مما يفسد اقترافه المجتمع الإنساني ولا يدينون ديناً منطبقاً على الخلقة الإلهية قاتلوهم ودوموا على قتالهم حتى يصغروا عندكم ويخضعوا لحكومتكم، ويعطوا في ذلك عطية مالية مضروبة عليهم يمثل صغارهم ، ويصرف في حفظ ذمتهم وحقن دمائهم وحاجة إدارة امورهم .

قوله تعالى : « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله » الى آخر الآية المضاهاة المشاكلة. والإفك على ما ذكره الراغب كل مصروف عن وجهه الذي يحق ان يكون عليه فمعنى «يؤفكون» يصرفون في اعتقادهم عن الحق الى الباطل.

وقوله : « وقالت اليهود عزير ابن الله » عزير هــذا هو الذي يسميه اليهود عزرا غيرت اللفظة عند التعريب كما غير لفظ « يسوع » فصار بالتعريب « عيسى » ولفظ « يوحنا » فصار كما قيل « يحيى » .

وعزرا هذا هو الذي جدد دين اليهود وجمع أسفار التوراة وكتبها بعد مــا افتقدت في غائلة بخت نصر ملك بابل الذي فتح بلادهم وخرب هيكلهم وأحرق كتبهم وقتل رجالهم وسبى نساءهم وذراريهم والباقين من ضعفائهم وسيرهم معه الى بابل فبقوا هنالك ما يقرب من قرن ثم لما فتح « كورش» ملك ايران بابل شفع لهم عنده عزرا وكان ذا وجه عنده فأجاز له ان يعيد اليهود الى بلادهم وأن يكتب لهم التوراة ثانياً بعد ما افتقدوا نسخها وكان ذلك في حدود سنة ٤٥٧ قبل المسيح على مــا ذكروا فراجت بينهم ثانياً ما جمعه عزرا من التوراة وإن كانوا افتقدوا ايضاً في زمن أنتيوكس صاحب سورية الذي فتح بلادهم حدود سنة ١٦١ ق‌م وتتبع مساكنهم فأحرق مــا وجده من نسخ التوراة وقتل من وجدت عنده او اخذت عليه على ما في كتب التاريخ.

ولمــا نالهم من خدمته عظموا قدره واحترموا امره وسموه ابن الله ولا ندري أكان دعاؤه بالبنوّة بالمعنى الذي يسمي به النصارى المسيح ابن الله ــ والمراد ان فيه شيئاً من جوهر الربوبية او هو مشتق منه او هو هو ــ او انهــا تسمية تشريفية كما

قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه؟ وإن كان ظاهر سياق الآية التالية: «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله والمسيح بن مريم» الآية يؤيد الثاني على ما سيأتي.

وقد ذكر بعض المفسرين: ان هذا القول منهم: «عزير ابن الله» كلمة تكلم بها بعض اليهود ممن في عصره ﷺ لا جميع اليهود فنسب الى الجميع كما ان قولهم: «إن الله فقير ونحن اغنياء» وكذا قولهم: «يد الله مغلولة» مما قاله بعض يهود المدينة ممن عاصر النبي ﷺ فنسب في كلامه تعالى الى جميعهم لأن البعض منهم راضون بما عمله البعض الآخر، والجميع ذو رأي متوافق الأجزاء وروية متشابهة التأثير.

وقوله: «وقالت النصارى المسيح ابن الله» كلمة قالتها النصارى، وقد تقدم الكلام فيها وفي ما يتعلق بها في قصة المسيح عليه السلام من سورة آل عمران في الجزء الثالث من الكتاب.

وقوله: «يضاهؤون قول الذين كفروا من قبل» تنبىء الآية عن ان القول بالبنوّة منهم مضاهاة ومشاكلة لقول من تقدمهم من الأمم الكافرة وهم الوثنيون عبدة الأصنام فإن من آلهتهم من هو إله أب إله ومن هو إله ابن إله، ومن هي إلهة ام إله او زوجة إله، وكذا القول بالثالوث مما كان دائراً بين الوثنيين من الهند والصين ومصر القديم وغيرهم وقد مرّ نبذة من ذلك فيما تقدم من الكلام في قصة المسيح في ثالث اجزاء هذا الكتاب.

وتقدم هناك ان تسرب العقائد الوثنية في دين النصارى ومثلهم اليهود من الحقائق التي كشف عنها القرآن الكريم في هذه الآية: «يضاهؤون قول الذين كفروا من قبل».

وقد اعتنى جمع[١] من محققي هذا العصر بتطبيق ما تضمنته كتب القوم اعني العهدين: العتيق والجديد على مــا حصل من مذاهب البوذيين والبرهمائيين فوجدوا معارف العهدين منطبقة على ذلك حذو النعل بالنعل حتى كثيراً من القصص والحكايات الموجودة في الأناجيل فلم يبقَ ذلك ريباً لأي باحث في أصالة قوله تعالى: «يضاهؤون» الآية في هذا الباب.

ثم دعا عليهم بقوله: «قاتلهم الله أنى يؤفكون» وختم به الآية.

---

(١) Budhist and Christian Gospels Edmuds A.J. 2V. Philadelphia 1908.

قوله تعالى: «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم» الأحبار جمع حبر بفتح الحاء وكسرها وهو العالم وغلب استعماله في علماء اليهود والرهبان جمع راهب وهو المتلبس بلباس الخشية وغلب على المتنسكين من النصارى .

واتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله هو إصغاؤهم لهم وإطاعتهم من غير قيد وشرط ولا يطاع كذلك إلا الله سبحانه .

وأما اتخاذهم المسيح بن مريم رباً من دون الله فهو القول بالوهيته بنحو كما هو المعروف من مذاهب النصارى ، وفي إضافة المسيح الى مريم إشارة الى عدم كونهم محقين في هذا الاتخاذ لكونه إنساناً ابن مرأة .

ولكون الإتخاذين مختلفين من حيث المعنى فصل بينهما فذكر اتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله أولاً ، ثم عطف عليه قوله : « والمسيح بن مريم».

والكلام كما يدل على اختلاف الربوبيتين كذلك لا يخلو عن دلالة على أن قولهم ببنوّة عزير وبنوة المسيح على معنيين مختلفين، وهو البنوة التشريفية في عزير والبنوة بنوع من الحقيقة في المسيح عليه السلام فإن الآية أهملت ذكر اتخاذهم عزيراً رباً من دون الله ، ولم يذكر مكانه إلا اتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله .

فهو رب عندهم بهذا المعنى إما لاستلزام التشريف بالبنوة ذلك أو لأنه من أحبارهم وقد أحسن إليهم في تجديد مذهبهم ما لا يقاس به إحسان غيره، وأما المسيح فبنوّته غير هذه البنوة .

وقوله: « وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو » جملة حالية أي اتخذوا لهم أرباباً والحال هذه .

وفي الكلام دلالة أولاً : على أن الاتخاذ بالربوبية بواسطة الطاعة كالاتخاذ بها بواسطة العبادة فالطاعة اذا كانت بالاستقلال كانت عبادة، ولازم ذلك ان الرب الذي هو المطاع من غير قيد وشرط وعلى نحو الاستقلال إله ، فإن الإله هو المعبود الذي من حقه أن يعبد، يدل على ذلك كله قوله تعالى: «وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً» حيث بدل الرب بالإله ، وكان مقتضى الظاهر ان يقال وما أمروا إلا ليتخذوا رباً واحداً فالاتخاذ للربوبية بواسطة الطاعة المطلقة عبادة ، واتخاذ الرب معبوداً اتخاذ

له إلهاً فافهم ذلك .

وثانياً : على ان الدعوة الى عبادة الله وحده فيما وقع من كلامه تعالى كقوله تعالى: « لا إله إلا أنا فاعبدون » الأنبياء : ٢٥ وقوله:«فلا تدع مع الله إلهاً آخر» الشعراء:٢١٣وأمثال ذلك كما أريد بها قصر العبادة بمعناها المتعارف فيه تعالى كذلك أُريد قصر الطاعة فيه تعالى،وذلك انه تعالى لم يؤاخذهم في طاعتهم لأحبارهم ورهبانهم إلا بقوله عزّ من قائل: «وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو » .

وعلى هذا المعنى يدل قوله تعالى:«ألم أعهد اليكم يابني آدم ان لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم »يس٦١،وهذا باب ينفتح منه ألف باب.

وفي قوله:«لا إله إلا هو» تتميم لكلمة التوحيد التي يتضمنها قوله:«وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » فإن كثيراً من عبدة الاصنام كانوا يعتقدون بوجود آلهة كثيرة ، وهم مع ذلك لا يخصون بالعبادة إلا واحداً منها فعبادة إله واحد لا يتم به التوحيد الا مع القول بأنه لا إله إلا هو .

وقد جمع تعالى بين العبادتين مع الإشارة الى مغايرة ما بينهما وان قصر العبادة بكلا معنييها عليه تعالى هو معنى الإسلام له سبحانه الذي لا مفر منه للانسان؛ فيما أمر به نبيه ﷺ من دعوة اهل الكتاب بقوله:«قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لانعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » آل عمران: ٦٤ .

وقوله تعالى في ذيل الآية: «سبحانه عما يشركون» تنزيه له تعالى عما يتضمنه قولهم بربوبية الأحبار والرهبان، وقولهم بربوبية المسيح عليه السلام من الشرك .

والآية بمنزلة البيان التعليلي لقوله تعالى في أول الآيات:«الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » فان اتخاذ إله او آلهة دون الله سبحانه لا يجامع الإيمان بالله ، ولا الإيمان بيوم لا ملك فيه إلا لله .

قوله تعالى : « يريدون ان يطفؤوا نور الله بأفواههم» الى آخر الاية، الإطفاء اخماد النار او النور ، والباء في قوله : « بأفواههم » للآلة او السببية .

وإنما ذكر الأفواه لأن النفخ الذي يتوسل به الى اخماد الانوار والسرج يكون

بالأفواه، قال في المجمع: وهذا من عجيب البيان مع ما فيه من تصغير شأنهم وتضعيف كيدهم لأن الفم يؤثر في الأنوار الضعيفة دون الاقباس العظيمة . انتهى .

وقال في الكشاف: مثل حالهم في طلبهم ان يبطلوا نبوة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يريد ان ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق يريد الله ان يزيده ، ويبلغه الغاية القصوى في الاشراق والاضاءة ليطفئه بنفخه ويطمسه. انتهى ، والآية اشارة الى حال الدعوة الإسلامية ، وما يريده منه الكافرون ، وفيها وعد جميل بأن الله سيتم نوره.

قوله تعالى: هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » الهدى الهداية الإلهية التي قارنها برسوله ليهدي بأمره ، ودين الحق هو الاسلام بما يشتمل عليه من العقائد والأحكام المنطبقة على الواقع الحق .

والمعنى أن الله هو الذي ارسل رسوله وهو محمد ﷺ مع الهداية – او الآيات والبينات – ودين فطري ليظهر وينصر دينه الذي هو دين الحق على كل الأديان ولو كره المشركون ذلك .

وبذلك ظهر أن الضمير في قوله : « ليظهره » راجع الى دين الحق كما هو المتبادر من السياق ، وربما قيل : ان الضمير راجع الى الرسول ، والمعنى ليظهر رسوله ويعلمه معالم الدين كلها وهو بعيد .

وفي الآيتين من تحريض المؤمنين على قتال اهل الكتاب والاشارة الى وجوب ذلك عليهم ما لا يخفى فانهما تدلان على أن الله أراد انتشار هذا الدين في العالم البشري فلا بد من السعي والمجاهدة في ذلك ، وأن اهل الكتاب يريدون أن يطفؤوا هذا النور بأفواههم فلا بد من قتالهم حتى يفنوا او يستبقو بالجزية والصغار ، وأن الله سبحانه يأبى إلا ان يتم نوره ، ويريد ان يظهر هذا الدين على غيره فالدائرة بمشية الله لهم على اعدائهم فلا ينبغي لهم ان يهنوا ويحزنوا وهم الأعلون ان كانوا مؤمنين .

قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » الظاهر أن الآية اشارة الى بعض التوضيح لقوله في أول الآيات : ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق » كان الآية السابقة كالتوضيح لقوله فيها: « فالذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ».

أما ايضاح قوله تعالى : « ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله » بقوله : « ان كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل » فهو إيضاح بأوضح المصاديق وأهمها تأثيراً في افساد المجتمع الانساني الصالح ، وابطال غرض الدين .

فالقرآن الكريم يعد لأهل الكتاب وخاصة لليهود جرائم وآثاماً كثيرة مفصلة في سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها لكن الجرائم والتعديات المالية شأنها غير شأن غيرها ، وخاصة في هذا المقام الذي تعلق الغرض بإفساد أهل الكتاب المجتمع الإنساني الصالح لو كانوا مبسوطي اليد واستقلالهم الحيوي قائماً على ساق، ولامفسد للمجتمع مثل التعدي المالي .

فإن أهم ما يقوم به المجتمع الانساني على أساسه هو الجهة المالية التي جعل الله لهم قياماً فجلّ المآثم والمساوي والجنايات والتعديات والمظالم تنتهي بالتحليل إما الى فقر مفرط يدعو الى اختلاس اموال الناس بالسرقة وقطع الطرق وقتل النفوس والبخس في الكيل والوزن والغصب وسائر التعديات المالية ، وإما الى غنى مفرط يدعو الى الإتراف والإسراف في المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمسكن، والاسترسال في الشهوات وهتك الحرمات، وبسط التسلط على أموال الناس وأعراضهم ونفوسهم.

وتنتهي جميع المفاسد الناشئة من الطريقين كليهما بالتحليل الى ما يعرض من الاختلال على النظام الحاكم في حيازة الأموال واقتناء الثروة، والأحكام المشرعة لتعديل الجهات المملّكة المميزة لأكل المال بالحق من أكله بالباطل، فاذا اختل ذلك وأذعنت النفوس بإمكان القبض على ما تحتها من المال، وتتوّق اليه من الثروة بأي طريق امكن لقّن ذلك اياها أن يظفر بالمال ويقبض على الثروة بأي طريق ممكن حق أو باطل، وأن يسعى الى كل مشتهى من مشتهيات النفس مشروع أو غير مشروع أدّى الى ما أدى، وعند ذلك يقوم البلوى بفشوّ الفساد وشيوع الانحطاط الأخلاقي في المجتمع، وانقلاب المحيط الانساني الى محيط حيواني ردي لا همّ فيه إلا البطن ومـا دونه ولا يملك فيه إرادة احد بسياسة او تربية ولا تفقّه فيه لحكمة ولا إصغاء الى موعظة .

ولعلّ هذا هو السبب الموجب لاختصاص أكل المال بالباطل بالذكر، وخاصة من الأحبار والرهبان الذين اليهم تربية الامة وإصلاح المجتمع .

وقد عدّ بعضهم من أكلهم اموال الناس بالباطل ما يقدمه الناس اليهم من المال

حباً لهم لتظاهرهم بالزهد والتنسك ، وأكل الربا والسحت، وضبطهم اموال مخالفيهم وأخذهم الرشا على الحكم ، وإعطاء اوراق المغفرة وبيعها ، ونحو ذلك .

والظاهر أن المراد بها أمثال أخذ الرشوة على الحكم كما تقدم من قصتهم في تفسير قوله تعالى : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر » الآية المائدة : ٤١ ، في الجزء الخامس من الكتاب .

ولو لم يكن من ذلك إلا ما كانت تأتي به الكنيسة من بيع اوراق المغفرة لكفى به مقتاً ولوماً .

وأما ما ذكره من تقديم الأموال اليهم لتزهدهم ، وكذا تخصيصهم بأوقاف ووصايا ومبرات عامة فليس بمعدود من أكل المال بالباطل، وكذا ما ذكره من أكل الربا والسحت فقد نسبه تعالى في كلامه الى عامة قومهم كقوله تعالى: « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه » النساء : ١٦١ ، وقوله : « سمّاعون للكذب أكّالون للسحت » المائدة : ٤٢ ، وإنما كلامه تعالى في الآية التي نحن فيها فيما يخص أحبارهم ورهبانهم من أكل المال بالباطل لا ما يعمّهم وعامتهم .

إلا أن الحوان زعماء الامة الدينية ومربّيهم في سلوك طريق العبودية المعتنين بإصلاح قلوبهم وأعمالهم اذا انحرفوا عن طريق الحق الى سبيل الباطل كان جميع ما أكلوه لهذا الشأن واستدرّوه من منافعه سحتاً محرماً لا يبيحه لهم شرع ولا عقل .

وأما إيضاح قوله تعالى : « ولا يدينون دين الحق » بقوله : « ويصدون عن سبيل الله» فهو ايضاً مبني على ما قدمناه من النكتة في توصيفهم بالأوصاف الثلاثة التي ثالثها قوله: «ولا يدينون دين الحق» وهو بيان ما يفسد من صفاتهم وأعمالهم المجتمع الانساني ويسدّ طريق الحكومة الدينية العادلة دون البلوغ الى غرضها من إصلاح الناس وتكوين مجتمع حي فعال بما يليق بالإنسان الفطري المتوجّه الى سعادته الفطرية .

ولذا خصّ بالذكر من مفاسد عدم تدينهم بدين الحق ما هو العمدة في إفساد المجتمع الصالح ، وهو صدهم عن سبيل الله ومنعهم الناس عن ان يسلكوه بما قدروا عليه من طرقه الظاهرة والخفية ، ولا يزالون مصرّين على هذه السليقة منذ عهد النبي ﷺ حتى اليوم .

قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » قال الراغب : الكنز جعل المال بعضه على بعض وحفظه ، وأصله من كنزت التمر في الوعاء، وزمن الكناز وقت ما يكنز فيه التمر، وناقة كناز مكتنزة اللحم، وقوله: « والذين يكنزون الذهب والفضة» أي يدّخرونها، انتهى.

ففي مفهوم الكنز حفظ المال المكنوز وادّخاره ومنعه من ان يجري بين الناس في وجوه المعاملات فينمو نماءً حسناً ، ويعمّ الانتفاع به في المجتمع فينتفع به هذا بالأخذ، وذاك بالرد، وذلك بالعمل عليه وقد كان دأبهم قبل ظهور البنوك والمخازن العامة أن يدفنوا الكنوز في الأرض ستراً عليها من أن تقصد بسوء .

والآية وإن اتصلت في النظم اللفظي بما قبلها من الآيات الذامّة لأهل الكتاب والموبخة لأحبارهم ورهبانهم في أكلهم اموال الناس بالباطل والصدّ عن سبيل الله إلا أنه لا دليل من جهة اللفظ على نزولها فيهم واختصاصها بهم البتة .

فلا سبيل الى القول بأن الآية إنما نزلت في اهل الكتاب وحرّمت الكنز عليهم، وأما المسلمون فهم وما يقتنون من ذهب وفضة يصنعون بأموالهم ما يشاؤون من غير بأس عليهم .

والآية توعد الكانزين إيعاداً شديداً ، ويهددهم بعذاب شديد غير أنها تفسر الكنز المدلول عليه بقوله: « الذين يكنزون الذهب والفضة » بقوله: « ولا ينفقونها في سبيل الله » فتدل بذلك على أن الذي يبغضه الله من الكنز ما يلازم الكف عن إنفاقه في سبيل الله اذا كان هناك سبيل.

وسبيل الله على ما يستفاد من كلامه تعالى هو ما توقّف عليه قيام دين الله على ساقه وأن يسلم من انهدام بنيانه كالجهاد وجميع مصالح الدين الواجب حفظها ، وشؤون مجتمع المسلمين التي ينفسخ عقد المجتمع لو انفسخت، والحقوق المالية الواجبة التي أقام الدين بها صلب المجتمع الديني، فمن كنز ذهباً أو فضة والحاجة قائمة والضرورة عاكفة فقد كنز الذهب والفضة ولم ينفقها في سبيل الله فليبشر بعذاب أليم فإنه آثر نفسه على ربه وقدّم حاجة نفسه أو ولده الاحتمالية على حاجة المجتمع الديني القطعية .

ويستفاد هذا مما في الآية التالية من قوله : « هذا ما كنزتم لأنفسكم» فانه يدل

على أن توجه العتاب عليهم لكونهم خصّوه بأنفسهم وآثروها فيما خافوا حاجتهاالیه على سبيل الله الذي به حياة المجتمع الانساني في الدنياوالآخرة،وقد خانوا اللهورسوله في ذلك من جهة اخرى وهي الستر والتغييب اذ لو كان ظاهراً جارياً على الايدي كان من الممكن ان يأمره ولي الامر بإنفاقه في حاجة دينية قائمة لكن اذا كنز كنزاً وأخفى عن الانظار لم يلتفت اليه ، وبقيت الحاجة الضرورية قائمة في جانب والمال المكنوز الذي هو الوسيلة الوحيدة لرفع الحاجة في جانب مع عدم حاجة من كنزه اليه .

فالآية انما تنهى عن الكنز لهذه الخصيصة التي هي إيثار الكانز نفسه بالمال من غير حاجة اليه على سبيل الله مع قيام الحاجة اليه، وناهيك أن الاسلام لا يحد اصل الملك من جهة الكمية بحد فلو كان لهذا الكانز أضعاف ما كنزه من الذهب والفضة ولم يدخرها كنزاً بل وضعها في معرض الجريان يستفيد به لنفسه الوفاً والوفاً ، ويفيد غيره ببيع أو شراء أو عمل وغير ذلك لم يتوجه اليه نهي ديني لأنه حيث نصبها على أعين الناس وأجراها في مجرى النماء الصالح النافع لم يخفها ولم يمنعها من ان يصرف في سبيل الله فهو وان لم ينفقها في سبيل الله إلا أنه بحيث لو أراد ولي أمر المسلمين لأمره بالانفاق فيما يرى لزوم الانفاق فيه فليس هو اذا لم ينفق وهو بمرأى ومسمع من ولي الأمر بخائن ظلوم.

فالآية ناظرة الى الكنز الذي يصاحبه الامتناع عن الانفاق في الحقوق المالية الواجبة لا بمعنى الزكاة الواجبة فقط بل بمعنى يعمها وغيرها من كل ما يقوم عليه ضرورة المجتمع الديني من الجهاد وحفظ النفوس من الهلكة ونحو ذلك .

وأما الإنفاق المستحب كالتوسعة على العيال ، واعطاء المال وبذله على الفقراء في الزائد على ضرورة حياتهم فهو وإن أمكن أن يطلق عليه فيما عندنا الإنفاق في سبيل الله إلا أن نفس أدلته المبينة لاستحبابه تكشف عن أنه ليس من هذا الإنفاق في سبيل الله المذكور في هذه الآية فكنز المال وعدم إنفاقه انفاقاً مندوباً مع عدم سبيل ضروري ينفق فيه ليس من الكنز المنهي عنه في هذه الآية فهذا ما تدل عليه الآية الكريمة ، وقد طال فيها ـ لما يتعلق بها من بعض الأبحاث الكلامية ـ المشاجرة بين المفسرين، وسنورد فيه كلاماً بعد الفراغ عن البحث الروائي المتعلق بالآيات ان شاء الله تعالى.

وقوله في ذيل الآية: «فبشرهم بعذاب أليم» إيعاد بالعذاب يدل على تحريمه الشديد.

قوله تعالى : « يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بهـــا جباههم وجنوبهم وظهورهم » الى آخر الآية. إحماء الشيء جعله حاراً في الاحساس، والإحماءعليه الايقاد ليتسخن والإحماء فوق التسخين ، والكيّ إلصاق الشيء الحار بالبدن .

والمعنى : أن ذلك العذاب المبشّر به في يوم يوقد على تلك الكنوز في نار جهنم فتكون محماة بالنار فتلصق بجباههم وجنوبهم وظهورهم ،ويقال لهم عند ذلك:«هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » : فقد عاد عذاباً عليكم تعذّبون به .

ولعل تخصيص الجباه والجنوب والظهور لأنهم خضعوا لهـا وهو السجدة التي تكون بالجباه ولاذوا اليها واللواذ بالجنوب،واتكؤوا عليها والاتكاء بالظهور، وقيل غير ذلك والله أعلم .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبدالله عليه السلام — في حـديث الأسياف الذي ذكره عن أبيه قال:وأما السيوف الثلاثة المشهورة فسيف على مشركي العرب ، قال الله عز وجل : « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » .

قال : والسيف الثاني على أهـــل الذمة قال الله عز وجل : « وقولوا للناس حسناً » نزلت هذه الآية في اهل الذمة ثم نسخها قوله عز وجل : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون» فمن كان منهم في دار الإسلام فلن يقبل منـه إلا الجزية او القتل وماهم فيء وذراريهم سبي، وإذا قبلوا الجزية على انفسهم حرم علينا سبيهم ، وحرمت أموالهم ، وحلت لنا مناكحتهم .

ومن كان منهم في دار الحرب حل لنا سبيهم وأموالهم ولم يحل مناكحتهم ، ولم يقبل إلا الدخول في دار الإسلام او الجزية او القتل .

وفيه بإسناده عن طلحة بن زيد عن ابي عبدالله عليه السلام قال : جرت السنة ان لا تؤخذ الجزية من المعتوه ولا من المغلوب على عقله .

وفيه بإسناده عن ابي يحيى الواسطي عن بعض اصحابنا قال: سئل ابو عبدالله

عليه‌السلام عن المجوس أكان لهم شيء ؟ فقال : نعم أما بلغك كتاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الى اهل مكة : ان اسلموا وإلا نابذتكم بحرب فكتبوا الى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : ان خذمنا الجزية ودعنا على عبادة الأوثان . فكتب إليهم النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : إني لست آخذ الجزية إلا من اهل الكتاب .

فكتبوا إليه ـ يريدون بذلك تكذيبه ـ : زعمت انك لا تأخذ الجزية إلا من اهل الكتاب ثم اخذت الجزية من مجوس هجر. فكتب إليهم النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إن المجوس كان لهم نبي فقتلوه وكتاب احرقوه. أتاهم نبيهم بكتابهم في اثني عشر الف جلد ثور.

أقول : وفي هـذه المعاني روايات اخرى مودعة في جوامع الحديث واستيفاء الكلام في مسائل الجزية والخراج وغيرهما في الفقه .

وفي الدر المنثور اخرج ابن عساكر عن ابي امامة عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : القتال قتالان : قتال المشركين حتى يؤمنوا او يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون ، وقتال الفئة الباغية حتى تفيء الى امر الله فإذا فاءت أعطيت العدل .

وفيـه اخرج ابن ابي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في سننه عن مجاهد في قوله : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله » الآية قال : نزلت هذه حين أمر محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وأصحابه بغزوة تبوك .

أقول : وقد تقدمت الروايات في ذيل آية المباهلة ان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم اقر الجزية على نصارى نجران، وكان ذلك على ما دل عليه امثل الروايات سنة ست من الهجرة قبل غزوة تبوك بسنين ، وكذا دعوتـه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ملوك الروم ومصر والعجم وهم من اهل الكتاب كانت سنة ست .

وفيه اخرج ابن ابي شيبة عن الزهري قال : اخذ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الجزية من مجوس اهل هجر ومن يهود اليمن ونصاراهم من كل حالم دينار .

وفيه اخرج مالك والشافعي وأبو عبيد في كتاب الأموال وابن ابي شيبة عن جعفر عن ابيه ان عمر بن الخطاب استشار الناس في المجوس في الجزية فقال عبدالرحمن ابن عوف سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول : سنوا بهم سنة اهل الكتاب .

وفيه اخرج عبد الرزاق في المصنف عن علي بن ابي طالب انه سئل عن اخذ

الجزية من المجوس فقال: والله ما على الأرض اليوم احد اعلم بذلك مني ان المجوس كانوا اهل كتاب يعرفونه، وعلم يدرسونه فشرب اميرهم الخمر فسكر فوقع على اخته فرآه نفر من المسلمين فلما اصبح قالت اخته: إنك قد صنعت بها كذا و كذا، وقد رآك نفر لا يسترون عليك فدعا اهل الطمع ثم قال لهم قد علمتم ان آدم عليه السلام قد أنكح بنيه بناته.

فجاء اولئك الذين رأوه فقالوا: ويل للأبعد إن في ظهرك حد الله فقتلهم اولئك الذين كانوا عنده ثم جاءت امرأة فقالت له: بلى قد رأيتك فقال لها: ويحاً لبغي بني فلان قالت: اجل والله قد كانت بغية ثم تابت فقتلها، ثم أسرى على ما في قلوبهم وعلى كتبهم فلم يصبح عندهم شيء.

وفي تفسير العياشي في قوله تعالى: «وقالت اليهود عزير ابن الله» الآية عن عطية العوفي عن ابي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اشتد غضب الله على اليهود حين قالوا: عزير ابن الله، واشتد غضب الله على النصارى حين قالوا: المسيح ابن الله، واشتد غضب الله على من أراق دمي وآذاني في عترتي.

وفي الدر المنثور اخرج البخاري في تاريخه عن ابي سعيد الخدري قال: لما كان يوم أُحد شجّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وجهه وكسرت رباعيته فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ رافعاً يديه يقول: إن الله عز وجل اشتدّ غضبه على اليهود أن قالوا: عزير ابن الله، واشتدّ غضبه على النصارى أن قالوا المسيح ابن الله وإن الله اشتدّ غضبه على من أراق دمي وآذاني في عترتي.

أقول: وقد روي في الدر المنثور وغيره عن ابن عباس وكعب الأحبار والسدي وغيرهم روايات في قصة عزير هي أشبه بالإسرائيليات، والظاهر أن الجميع تنتهي الى كعب.

وفي الاحتجاج للطبرسي عن علي عليه السلام قال: «قاتلهم الله أنى يؤفكون» أي لعنهم الله أنى يؤفكون فسمّى اللعنة قتالاً، وكذلك: «قُتل الانسان ما أكفره» أي لُعن الانسان.

أقول: وروي ذلك من طرق اهل السنة عن ابن عباس وهو على أي حال تفسير بلازم المعنى لا بالمراد اللفظي.

وفي الكافي بإسناده عن ابي بصير، عن ابي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» فقال: أما والله ما دعوهم الى عبادة أنفسهم، ولو دعوهم الى عبادة أنفسهم ما أجابوهم، ولكن أحلّوا لهم حراماً

وحرّموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون .

أقول : وروى هذا المعنى البرقي في المحاسن ورواه العياشي في تفسيره عن ابي بصير وعن جابر جميعاً عن ابي عبدالله عليه السلام وعن حذيفة ، ورواه في الدر المنثور عن عدة من اصحاب الطرق عن حذيفة .

وفي تفسير القمى قال : وفي رواية ابي الجارود عن ابي جعفر عليه السلام في قوله: « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » قال: اما المسيح فبعض عظّموه في أنفسهم حتى زعموا انه إله وأنه ابن الله ، وطائفة منهم قالوا : ثالث ثلاثة، وطائفة منهم قالوا : هو الله .

وأما قوله: «أحبارهم ورهبانهم» فإنهم أطاعوا وأخذوا بقولهم، واتبعوا ما أمروهم به، ودانوا بما دعوهم اليه فاتخذوهم أرباباً بطاعتهم لهم وتركهم أمر الله وكتبه ورسله فنبذوه وراء ظهورهم، وما أمرهم به الأحبار والرهبان اتبعوهم وأطاعوهم وعصوا الله. الحديث.

وفي تفسير البرهان عن المجمع قال: وروى الثعلبي بإسناده عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي: يا عدي اطرح هذا الربق.

وفي تفسير البرهان عن الصدوق بإسناده عن ابي بصير قال : قال ابو عبدالله عليه السلام في قوله عز وجل : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » الآية والله ما نزل تأويلها بعد ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم فإذا خرج القائم لم يبق كافر بالله ولا مشرك بالإمام إلا كره خروجه حتى لو كان الكافر في بطن صخرة قالت : يا مؤمن في بطني كافر فاكسرني واقتله .

أقول : وروى ما في معناه العياشي عن ابي المقدام عن ابي جعفر عليه السلام وعن سماعة عن ابي عبدالله عليه السلام، وكذا الطبرسي مثله عن ابي جعفر عليه السلام، وفي تفسير القمي أنها نزلت في القائم من آل محمد (ع)، ومعنى نزولها فيه كونه تأويلها كما يدلّ عليه رواية الصدوق.

وفي الدر المنثور اخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في سننه عن جابر في قوله : « ليظهره على الدين كله » قال : لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني صاحب ملّة إلا الاسلام حتى تأمن الشاة الذئب، والبقرة الأسد، والانسان الحيّة ، وحتى لا تقرض فأرة جراباً ، وحتى يوضع الجزية ويكسر الصليب ويقتل

الخنزير ، وذلك اذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام .

أقول : والمراد بوضع الجزية ان تصير متروكة لا حاجة اليها لعدم الموضوع بقرينة صدر الحديث ، وما دلّت عليه هذه الروايات من عدم بقاء كفر ولا شرك يومئذ يؤيدها روايات اخرى ، وهناك روايات اخرى تدل على وضع المهدي عليه السلام الجزية على اهل الكتاب بعد ظهوره .

وربما أيّده قوله تعالى في أهل الكتاب : « وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة » المائدة : ٦٤ ، « فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة» المائدة : ١٤ ، وما في معناه من الآيات فانها لا تخلو من ظهور ما في بقائهم الى يوم القيامة إن لم تكن كناية عن ارتفاع المودة بينهم ارتفاعاً ابدياً، وقد تقدم في ذيل الآيات بعض الكلام في هذا المعنى .

وفي الدر المنثور ايضاً أخرج ابن الضريس عن علباء بن احمر أن عثمان بن عفان لما اراد ان يكتب المصاحف ارادوا ان يلقوا الواو التي في براءة: «والذين يكنزون الذهب والفضة » قال أُبيّ : لتلحقنّها او لأضعنَّ سيفي على عاتقي فألحقوها .

وفي أمالي الشيخ قال: اخبرنا جماعة عن أبي المفضّل وساق إسناده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما نزلت هذه الآية: « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » كل ما يؤدي زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع ارضين ، وكل مال لا يؤدى زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض .

أقول : وروى ما في معناه في الدر المنثور عن ابن عديّ والخطيب عن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكذا بطرق اخرى عن ابن عباس وغيره .

وفيه ايضاً بإسناده عن ابي عبدالله عليه السلام عن ابيه أبي جعفر عليه السلام أنه سئل عن الدنانير والدراهم وما على الناس . فقال أبو جعفر عليه السلام : هي خواتيم الله في ارضه جعلها الله مصلحة لخلقه ، وبها يستقيم شؤنهم ومطالبهم فمن اكثر له منها فقام بحق الله تعالى فيها ادى زكاتها فذاك الذي طلبه ، وخلص له ، ومن اكثر له منها فبخل بها ولم يؤد حق الله فيها واتخذ منها الأبنية فذاك الذي حق عليه وعيدالله عز وجل في كتابه يقول الله تعالى « يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم

وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

أقول : والرواية تؤيد ما استفدناه سابقاً من الآية .

وفي تفسير القمي قال: كان أبو ذر الغفاري يغدو كل يوم وهو في الشام فينادي بأعلى صوته : بشّر اهل الكنوز بكيّ في الجباه ، وكيّ في الجنوب ، وكيّ في الظهور حتى يتردد الحرّ في أجوافهم .

أقول : وقد استفاد الطبرسي في المجمع من الرواية الوجه في تخصيص الجباه والجنوب والظهور من بين اعضاء الانسان بالذكر في الآية ، وأن الغرض من تعذيبهم بهذا الوجه إيراد حرّ النار في اجوافهم وهي داخل الرؤوس فتكوى جباههم وداخل الصدور والبطون فتكوى جنوبهم وظهورهم .

ويمكن تتميم ما ذكره بأنهم يكبّون على وجوههم ورؤوسهم منكوسة على ما يشعر به الأخبار وبعض الآيات ثم تكوى أعضاؤهم من فوق فينتج ذلك كيّ الجباه والجنوب والظهور .

وفي الدر المنثور اخرج عبدالرزاق في المصنّف عن ابي ذرّ قال: بشّر اصحاب الكنوز بكيّ في الجباه وفي الجنوب وفي الظهور .

وفيه اخرج ابن سعد وابن ابي شيبة والبخاري وابن ابي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن وهب قال : مررت على ابي ذر بالربذة فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض ؟ قال : كنا بالشام فقرأت : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم » فقال معاوية : ما هذه فينا هذه في اهل الكتاب . قلت انا : انها لفينا وفيهم .

وفيه أخرج مسلم وابن مردويه عن الأحنف بن قيس قال: جاء ابو ذر فقال: بشّر الكانزين بكيّ من قبل ظهورهم يخرج من جنوبهم ، وكيّ من جباههم يخرج من أقفائهم ، فقلت : ماذا ؟ قال : ما قلت إلا ما سمعت من نبيهم صلى الله عليه وآله .

وفيه اخرج احمد في الزهد عن ابي بكر المنكدر قال: بعث حبيب بن سلمة الى ابي ذرّ وهو امير الشام بثلاثمائة دينار ، وقال : استعن بها على حاجتك ؛ فقال

ابو ذر : ارجع بها اليه أما وجد احداً أغرّ بالله منا ما لنا إلا الظل نتوارى به ، وثلاثة من غنم تروح علينا، ومولاة لنا تصدّق علينا بخدمتها ثم اني لأنا أتخوف الفضل.

وفيه أخرج البخاري ومسلم عن الأحنف بن قيس قال: جلست الى ملإ من قريش فجاء رجل خشن الشعر والثياب والهيئة حتى قام عليهم فسلم ثم قال : بشّر الكانزين برضف يحمى عليه في نار جهنم ثم يوضع على حلمة ثدي احدهم حتى يخرج من نغض كتفه ، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه فيتدلدل .

ثم ولّى وجلس الى سارية فتبعته وجلست اليه وأنا لا ادري من هو؟ فقلت: لا أرى القوم إلا قد كرهوا ما قلت ، قال : انهم لا يعقلون شيئاً قال لي خليلي . قلت: من خليلك ؟ قال: النبيّ ﷺ ، أتبصر أحداً ؟ قلت: نعم. قال: ما أحب ان يكون لي مثل أحد ذهباً انفقه كله إلا ثلاثة دنانير وإن هؤلاء لا يعقلون إنما يجمعون للدنيا والله لا أسألهم دنيا ، ولا أستفتيهم عن دين حتى ألقى الله عز وجل .

وفي تاريخ الطبري عن شعيب عن سيف عن محمد بن عوف عن عكرمة عن ابن عباس أن أبا ذر دخل على عثمان وعنده كعب الأحبار فقال لعثمان: لا ترضوا من الناس بكفّ الأذى حتى يبذلوا المعروف ، وقد ينبغي لمؤدي الزكاة أن لا يقتصر عليها حتى يحسن الى الجيران والإخوان ويصل القرابات .

فقال: كعب من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه، فرفع ابو ذر محجنه فضربه فشجه فاستوهبه عثمان فوهبه له ، وقال : يا ابا ذر اتق الله واكفف يدك ولسانك، وقد كان قال له : يابن اليهودية ما انت وما ههنا ؟

أقول : وقصص ابي ذر واختلافه مع عثمان ومعاوية معروفة مضبوطة في كتب التاريخ والتدبر فيما مر من احاديثه وما قاله لمعاوية إن الآية لا تختص بأهل الكتاب وما خاطب به عثمان وواجه به كعباً يدل على أنه إنما فهم من الآية ما قدمناه انها توعد على الكف عن الانفاق في السبيل الواجب .

ويؤيده تحليل الحال الحاضر يومئذ فقد كان الناس يومئذ انقسموا قسمين وتبعضوا شطرين عامة لا يقدرون على قوت اليوم، ولا يجدون ما يستر عوراتهم وما لهم الى اوجب حوائجهم سبيل، وخاصة أسكرتهم الدنيا بجماع ما فيها من مال ومنال

يكنزون مئات الالوف والوف الالوف من عطايا الخلافة وغنائم الحروب ومال الخراج. ويكفيك في التبصر فيه ان تراجع ما ضبطته التواريخ من اموال الصحابة من نقد ورقيق وضيعة وشاهقات القصور وتاجات الدور، وما احدثه معاوية وسائر بني امية بالشام وغيره من أزياء قيصرانية وكسروانية .

والإسلام لا يرتضي شيئاً من ذلك ولا ينفذ هذا الاختلاف الفاحش دون ان تتقارب الطبقات بالإنفاق ، وتصلح عامة الاوضاع بانعطاف الأغنياء على الفقراء ، والأقوياء على الضعفاء .

وربما قيل : ان ابا ذر كان يرى باجتهاد منه أن الزائد على القدر الواجب من المال الذي ينفق لسد الجوع وستر العورة كنز يجب إنفاقه في سبيل الله او انه كان يدعو الى الزهد في الدنيا .

لكن الذي يوجد من بعض كلامه في الروايات يكذبه فانه لا يستند في شيء مما قاله الى اجتهاده ورأي نفسه بل بقوله : ما قلت لهم إلا ما سمعت من نبيهم ، وقال خليلي كذا وكذا ، وقد صحت الرواية واستفاضت من طرق الفريقين عن النبي ﷺ أنه قال : « ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء ذا لهجة اصدق من ابي ذر » .

وبذلك يظهر فساد ما ذكره شداد بن أوس فيما روى عنه احمد والطبراني قال: «كان ابو ذر يسمع عن رسول الله ﷺ ثم يخرج الى باديته ثم يرخّص فيه رسول الله ﷺ بعد ذلك فيحفظ من رسول الله ﷺ الرخصة فلا يسمعها ابو ذر فيأخذ ابو ذر بالأمر الأول الذي سمع قبل ذلك » .

وذلك أن الذي ذكر من ابي ذر إنما هو قوله : إن آية الكنز لا تختص بأهل الكتاب بل يعمّهم والمسلمين ، وليس هذا مصداقاً لما ذكره في الرواية من العزيمة والرخصة ، وكذا قوله : إن تأدية الزكاة فحسب لا يكفي في جواز الكنز وعدم إنفاقه في الواجب من سبيل الله ، وكيف يتصور في حقه ان لا يكون يسمع ان الانفاق منه مستحب كما ان منه واجباً وأن لا يعلم أن أدلة الإنفاق المندوب احسن مبيّن لآية الكنز .

وأوهن من ذلك ما تعلق به الطبري في تاريخه فقد روى عن شعيب عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسي قال : لما ورد ابن السوداء الشام لقي أباذر فقال : يا

أباذر ألا تعجب الى معاوية يقول : المال مال الله ألا إن كل شيء لله؟ كأنه يريد ان يحتجبه دون المسلمين ، ويمحو اسم المسلمين .

فأتاه ابو ذر فقال : مـا يدعوك الى ان تسمي مال المسلمين مال الله ؟ قال : يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله والمال مـاله والخلق خلقه والأمر امره ؟ قال : فلا تقله ، قال : فإني لا اقول : إنه ليس لله ، ولكن سأقول : مال المسلمين .

قال: وأتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له: من انت؟ اظنك والله يهودياً ؟فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به فأتى به معاوية فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر.

وقام ابو ذر بالشام وجعل يقول : يا معشر الأغنياء وأسوأ الفقراء بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكان من نار تكوى بهـا جباههم وجنوبهم وظهورهم . الحديث .

ومحصله ان أبا ذر إنما بادر الى ما بادر وألحّ عليه بتسويل من ابن السوداء وهذان اللذان روى عنهما الحديث وعنهما يروي جل قصص عثمان اعني شعيباً وسيفاً هما من الكذابين الوضاعين المشهورين ذكرهما علماء الرجال وقد حوافيهما .

والذي اختلقاه من حديث ابن السوداء وهو الذي سموه عبدالله بن سبأ ، وإليهما ينتهي حديثه ، من الأحاديث الموضوعة ، وقـد قطع المحققون من اصحاب البحث اخيراً ان ابن السوداء هذا من الموضوعات الخرافية التي لا اصل لها .

وفي الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ: ما من ذي كنز لا يؤدي حقه إلا جيء به يوم القيامة تكوى به جبينه وجبهته ، وقيل له : هذا كنزك الذي بخلت به .

وفيـه اخرج الطبراني في الأوسط وأبو بكر الشافعي في الغيلانيات عن علي قال : قال رسول الله ﷺ: إن الله فرض على اغنياء المسلمين في اموالهم القدر الذي يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء اذا جاعوا اوعروا إلا بما يمنع اغنياؤهم. ألا وإن الله يحاسبهم حساباً شديداً او يعذبهم عذاباً أليماً .

وفيـه اخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي عن ابي سعيد الخدري عن بلال

قال : قال رسول الله ﷺ : يا بلال الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً . قلت : وكيف لي بذلك ؟ قال : اذا رزقت فلا تخبأ ، وإذا سئلت فلا تمنع ، قلت : وكيف لي بذلك ؟ قال : هو ذاك وإلا فالنار .

(كلام في معنى الكنز)

لا ريب أن المجتمع الذي اوجده الإنسان بحسب طبعه الأولي إنما يقوم بمبادلة المال والعمل، ولولا ذلك لم يعش المجتمع الإنساني ولا طرفة عين فإنما يتزود الإنسان من مجتمعه بأن يحرز اموراً من اوليات المادة الأرضية ويعمل عليها ما يسعه من العمل ثم يقتني من ذلك لنفسه ما يحتاج اليه، ويعوض ما يزيد على حاجته من سائر ما يحتاج اليه مما عند غيره من افراد المجتمع كالخباز يأخذ لنفسه من الخبز ما يقتات به ويعوّض الزائد عليه من الثوب الذي نسجه النسّاج وهكذا فإنما اعمال المجتمعين في ظرف اجتماعهم بيع وشرى ومبادلة ومعاوضة .

والذي يتحصل من الأبحاث الاقتصادية أن الإنسان الأولي كان يعوض في معاملاته العين بالعين من غير ان يكونوا متنبهين لأزيد من ذلك غير ان النسب بين الأعيان كانت تختلف عندهم باشتداد الحاجة وعدمه ، وبوفور الأعيان المحتاج اليها وإعوازها فكلما كانت العين أمسّ بحاجة الإنسان او قل وجودها توفّرت الرغبات الى تحصيلها، وارتفعت نسبتها الى غيرها، وكلما بعدت عن مسيس الحاجة او ابتذلت بالكثرة والوفور انصرفت النفوس عنها وانخفضت نسبتها الى غيرها، وهذا هو اصل القيمة.

ثم إنهم عمدوا الى بعض الأعيان العزيزة الوجود عندهم فجعلوها اصلاً في القيمة تقاس إليه سائر الأعيان المالية بما لها من مختلف النسب كالحنطة والبيضة والملح فصارت مداراً تدور عليها المبادلات السوقية، وهذه السليقة دائرة بينهم في بعض المجتمعات الصغيرة في القرى وبين القبائل البدوية حتى اليوم .

ولم يزالوا على ذلك حتى ظفروا ببعض الفلزات كالذهب والفضة والنحاس ونحوها فجعلوها أصلاً اليه يعود نسب سائر الأعيان من جهة قيمها ، ومقياساً واحداً يقاس إليها غيرها فهي النقود القائمة بنفسها وغيرها يقوم بها .

ثم آل الأمر الى أن يحوز الذهب المقام الأول والفضة تتلوه، ويتلوها غيرهما، وسكت الجميع بالسكك الملوكية أو الدولية فصارت ديناراً ودرهماً وفلساً وغير ذلك بما يطول شرحه على خروجه من غرض البحث .

فلم يلبث النقدان حتى عادا أصلاً في القيمة بهما يقوّم كل شيء، وإليهما يقاس ما عند الإنسان من مال أو عمل ، وفيهما يرتكز ارتفاع كل حاجة حيوية ، وهما ملاك الثروة والوجد كالمتعلق بهما روح المجتمع في حياته يختل أمره باختلال أمرهما ، اذا جريا في سوق المعاملات جرت المعاملات بجريانهما ، واذا وقفا وقفت .

وقد أوضحت ما عليهما من الوظيفة المحولة إليهما في المجتمعات الإنسانية من حفظ قيم الأمتعة والأعمال ، وتشخيص نسب بعضها الى بعض ، الأوراق الرسمية الدائرة اليوم فيما بين الناس كالبوند والدولار وغيرهما والصكوك البنجية المنتشرة فإنها تمثل قيم الأشياء من غير ان تتضمن عينية لها قيمة في نفسها فهي قيم خالصة مجردة تقريباً.

فالتأمل في مكانة الذهب والفضة الإجتماعية بما هما نقدان حافظان للقيم ومقياسان يقاس إليهما الأمتعة والأموال بما لها من النسب الدائرة بينها تنور أنهما ممثلان لنسب الأشياء بعضها الى بعض، وإذ كانت بحسب الاعتبار ممثلات للنسب — وإن شئت فقل: نفس النسب — تبطل النسب ببطلان اعتبارها، وتحبس بحبسها ومنع جريانها، وتقف بوقوفها.

وقد شاهدنا في الحربين العالميين الأخيرين ماذا اوجده بطلان اعتبار نقود بعض الدول؟ كالمنات في الدولة التزارية والمارك في الجرمن من البلوى وسقوط الثروة واختلال أمر الناس في حياتهم ، والحال في كنزهما ومنع جريانهما بين الناس هذا الحال .

والى ذلك يشير قول أبي جعفر عليه‌السلام في رواية الأمالي المتقدمة : « جعلها الله مصلحة لخلقه وبها يستقيم شئونهم ومطالبهم » .

ومن هنا يظهر أن كنزهما إبطال لقيم الأشياء وإماتة لما في وسع المكنوز منهما من إحياء المعاملات الدائرة وقيام السوق في المجتمع على ساقه، وببطلان المعاملات وتعطل الأسواق تبطل حياة المجتمع ، وبنسبة ما لها من الركود والوقوف تقف وتضعف .

لست أريد خزنهما في مخازن تختص بها فإن حفظ نفائس الأموال و كرائم الأمتعة

من الضيعة من الواجبات التي تهدي اليه الغريزة الإنسانية ويستحسنه العقل السليم فكلما جرت وجوه النقد في سبيل المعاملات كيفما كان فهو واذا رجعت فمن الواجب أن تختزن وتحفظ من الضيعة وما يهددها من أيادي الغصب والسرقة والغيلة والخيانة .

وإنما أعني به كنزهما وجعلهما في معزل عن الجريان في المعاملات السوقية والدوران لإصلاح أي شأن من شؤون الحياة ورفع الحوائج العاكفة على المجتمع كإشباع جائع وإرواء عطشان وكسوة عريان وربح كاسب وانتفاع عامل ونماء مال وعلاج مريض وفك أسير وإنجاء غريم والكشف عن مكروب والتفريج عن مهموم وإجابة مضطر والدفع عن بيضة المجتمع الصالح وإصلاح ما فسد من الجو الإجتماعي .

وهي موارد لا تحصى واجبة أو مندوبة أو مباحة لايتعدى فيها حد الاعتدال الى جانبي الإفراط والتفريط والبخل والتبذير ، والمندوب من الإنفاق وإن لم يكن في تركه مأثم ولا إجرام شرعاً ولا عقلاً غير أن التسبب الى إبطال المندوبات من رأس والاحتيال لرفع موضوعها من أشد الجرم والمعصية .

اعتبر ذلك فيما بين يديك من الحياة اليومية بما يتعلق به من شؤون المسكن والمنكح والمأكل والمشرب والملبس تجد ان ترك النفل المستحب من شؤون الحياة والمعاش والاقتصار دقيقاً على الضروري منها - الذي هو بمنزلة الواجب الشرعي - يوجب اختلال أمر الحياة اختلالاً لا يجبره جابر ولا يسد طريق الفساد فيه سادّ .

وبهذا البيان يظهر أن قوله تعالى: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ليس من البعيد أن يكون مطلقاً يشمل الإنفاق المندوب بالعناية التي مرّت فإن في كنز الأموال رفعاً لموضوع الانفاق المندوب كالانفاق الواجب لا بمجرّد عدم الانفاق مع صلاحية الموضوع لذلك .

وبذلك يتبين ايضاً معنى ما خاطب به ابو ذر عثمان بن عفان لما دخل عليه على ما تقدّم في رواية الطبري حيث قال له : « لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف ، وقد ينبغي لمؤدي الزكاة أن لا يقتصر عليها حتى يحسن الى الجيران والاخوان ويصل القرابات » .

فإن لفظه كالصريح أو هو صريح في أنه لا يرى كل إنفاق فيما يفضل من المؤنة

بعد الزكاة واجباً ، وأنه يقسّم الانفاق في سبيل الله الى ما يجب وما ينبغي غير أنه يعترض بانقطاع سبيل الانفاق من غير جهة الزكاة وانسداد باب الخيرات بالكلية وفي ذلك إبطال غرض التشريع وإفساد المصلحة العامة المشرّعة .

يقول : ليست هي حكومة استبدادية قيصرانية او كسروانية ، لا وظيفة لها إلا بسط الأمن وكف الأذى بالمنع عن إيذاء بعض الناس بعضاً ثم الناس أحرار فيما فعلوا غير ممنوعين عن ما اشتهوا من عمل أفرطوا أو فرّطوا ، اصلحوا او أفسدوا ، اهتدوا أو ضلوا وتاهوا ، والمتقلد لحكومتهم حرّ فيما عمل ولا يسأل عمّا يفعل .

وإنما هي حكومة اجتماعية دينية لا ترضى عن الناس بمجرد كف الأذى بل تسوق الناس في جميع شؤون معيشتهم الى ما يصلح لهم ويهيىء لكل من طبقات المجتمع من أميرهم ومأمورهم ورئيسهم ومرؤوسهم ومخدومهم وخادمهم وغنيّهم وفقيرهم وقويهم وضعيفهم ما يسع له من سعادة حياتهم فترفع حاجة الغني بإمداد الفقير وحاجة الفقير بمال الغني وتحفظ مكانة القوي باحترام الضعيف وحياة الضعيف برأفة القوي ومراقبته ، ومصدرية العالي بطاعة الداني وطاعة الداني بنصفة العالي وعدله ، ولا يتم هذا كله إلا بنشر المبرّات وفتح باب الخيرات ، والعمل بالواجبات على ما يليق بها والمندوبات على ما يليق بها وأما القصر على القدر الواجب ، وترك الانفاق المندوب من رأس فإن فيه هدماً لأساس الحياة الدينية ، وإبطالاً لغرض الشارع ، وسيراً حثيثاً الى نظام مختل وهرج ومرج وفساد عريق لا يصلحه شيء كل ذلك عن المسامحة في إحياء غرض الدين ، والمداهنة مع الظالمين إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير .

وكذلك قول أبي ذرّ لمعاوية فيما تقدم من رواية الطبري : « ما يدعوك الى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ قال : يرحمك الله يا أباذر ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره قال : فلا تقله » .

فإن الكلمة التي كان يقولها معاوية وعمّاله ومن بعده من خلفاء بني امية وإن كانت كلمة حق وقد رويت عن النبي ﷺ ويدل عليها كتاب الله لكنهم كانوا يستنتجون منه خلاف ما يريده الله سبحانه فان المراد به أن المال لا يختص به أحد بعزة أو قوة أو سيطرة وإنما هو لله ينفق في سبيله على حسب ما عيّنه من موارد

إنفاقه فإن كان مما اقتناه الفرد بكسب أو ارث أو نحوهما فله حكمه ، وإن كان مما حصّلته الحكومة الإسلامية من غنيمة أو جزية او خراج أو صدقات أو نحو ذلك فله ايضاً موارد إنفاق معيّنة في الدين، وليس في شيءمن ذلك لوالي الأمر أن يخص نفسه أو واحداً من أهل بيته بشيء يزيد على لازم مؤنته فضلاً أن يكنز الكنوز ويرفع به القصور ويتخذ الحجاب ويعيش عيشة قيصر وكسرى .

وأما هؤلاء فإنما كانوا يقولونه دفعاً لاعتراض الناس عليهمفي صرف مال المسلمين في سبيل شهواتهم وبذله فيما لا يرضى الله ، ومنعه اهليه ومستحقيه أن المال للمسلمين تصرفونه في غير سبيلهم ! فيقولون : إن المال مال الله ونحن امناؤه نعمل فيه بما نراه فيستبيحون بذلك اللعب بمال الله كيف شاؤوا ويستنتجون به صحة عملهم فيه بما أرادوا وهو لا ينتج إلا خلافه ، ومال الله ومال المسلمين بمعنى واحد،وقد أخذوهما لمعنيين اثنين يدفع أحدهما الآخر .

ولو كان مراد معاوية بقوله : « المال مال الله » هو الصحيح من معناه لم يكن معنى لخروج أبي ذر من عنده وندائه في الملأ من الناس : بشر الكانزين بكي في الجباه وكي في الجنوب وكي في الظهور .

على أن معاوية قد قال لأبي ذر إنه يرى ان آية الكنز خاصة بأهل الكتاب وربما كان من أسباب سوء ظنه بهم إصرارهم عند كتابة مصحف عثمان ان يحذفوا الواو من قوله: « والذين يكنزون الذهب » الخ حتى هددهم ابي بالقتال إن لم يلحقوا الواو فألحقوها وقد مرت الرواية .

فالقصة في حديث الطبري عن سيف عن شعيب وإن سيقت بحيث تقضي على ابي ذر بأنه كان مخطئاً في ما اجتهد به كما اعترف به الطبري في اول كلامه غير ان اطراف القصة تقضي بإصابته .

وبالجملة فالآية تدل على حرمة كنز الذهب والفضة فيما كان هناك سبيل لله يجب إنفاقه فيه وضرورة داعية اليه لمستحقي الزكاة مع الامتناع من تأديتها ، والدفاع الواجب مع عدم النفقة وانقطاع سبيل البر والإحسان بين الناس .

ولا فرق في تعلق وجوب الإنفاق بين المال الظاهر الجاري في الأسواق وبين

الكنز المدفون في الأرض غير ان الكنز يختص بشيء زائد وهو خيانة ولي الأمر في ستر المال وغروره كما تقدم ذكره في البيان المتقدم .

* * *

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذٰلِكَ الدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ـــ ٣٦ . إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِؤُا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ ـــ ٣٧.

(بيان)

في الآيتين بيان حرمة الأشهر الحرم ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب الفرد وتثبيت حرمتها وإلغاء نسيء الجاهلية ، وفيها الأمر بقتال المشركين كافة .

قوله تعالى: «إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض » الشهر كالسنة والاسبوع مما يعرفه عامة الناس منذ اقدم اعصار الإنسانية ، وكأن لبعضها تأثيراً في تنبههم للبعض فقد كان الانسان يشاهد تحول السنين ومرورها بمضي الصيف والشتاء والربيع والخريف وتكررها بالعود ثم العود ثم تنبهوا لانقسامها الى اقسام هي اقصر منها مدة حسب ما ساقهم اليه مشاهدة اختلاف اشكال القمر من الهلال الى الهلال ، وينطبق على ما يقرب بن ثلاثين يوماً وتنقسم بذلك السنة الى اثني عشر شهراً .

والسنة التي ينالها الحس شمسية تتألف من ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وبعض

يوم لا تنطبق على اثني عشر شهراً قمرياً هي ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً تقريباً إلا برعاية حساب الكبيسة غير ان ذلك هو الذي يناله الحس وينتفع به عامة الناس من الحاضر والبادي والصغير والكبير والعالم والجاهل .

ثم قسموا الشهر الى الأسابيع وإن كان هو ايضاً لا ينطبق عليها تمام الانطباق لكن الحس غلب هناك ايضاً الحساب الدقيق ، وهو الذي أثبت اعتبار الاسبوع وأبقاه على حاله من غير تغيير مع ما طرء على حساب السنة من الدقه من جهة الارصاد ، وعلى حساب الشهور من التغيير فبدلت الشهور القمرية شمسية تنطبق عليها السنة الشمسية تمام الانطباق .

وهذا بالنسبة الى النقاط الاستوائية وما يليها من النقاط المعتدلة او ما يتصل بها من الارض الى عرض سبع وستين الشمالي والجنوبي تقريباً ، وفيها معظم المعمورة وأما ما وراء ذلك الى القطبين الشمالي والجنوبي فيختل فيها حساب السنة والشهر والاسبوع ، والسنة في القطبين يوم وليلة ، وقد اضطر ارتباط بعض اجزاء المجتمع الانساني ببعض سكان هذه النقاط ـ وهم شرذمة قليلون ـ أن يراعوا في حساب السنة والشهر والاسبوع واليوم ما يعتبره عامة سكان المعمورة فحساب الزمان الدائر بيننا إنما هو بالنسبة الى جل سكان المعمورة من الارض .

على ان هذا إنما هو بالنسبة الى ارضنا التي نحن عليها ، وأما سائر الكواكب فالسنة ـ وهي زمان الحركة الانتقالية من الكوكب حول الشمس دورة واحدة كاملة ـ فيها تختلف وتتخلف عن سنتنا نحن ، وكذلك الشهر القمري فيما كان له قمر او اقمار منها على ما فصلوه في فن الهيئة .

فقوله تعالى: « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً » الخ ناظر الى الشهور القمرية التي تتألف منها السنون وهي التي لها اصل ثابت في الحس وهو التشكلات القمرية بالنسبة الى اهل الارض .

والدليل على كون المراد بها الشهور القمرية ـ اولاً ـ قوله بعد : « منها اربعة حرم » لقيام الضرورة على ان الاسلام لم يحرم إلا اربعة من الشهور القمرية التي هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، والاربعة من القمرية دون الشمسية .

وثانياً : قوله : « عنــد الله » وقوله : « في كتاب الله يوم خلق السموات والارض » فإن هذه القيود تدل على ان هذه العدة لا سبيل للتغير والاختلاف إليها لكونهـا عند الله كذلك ولا يتغير علمه ، وكونها في كتاب الله كذلك يوم خلق السماوات والارض فجعل الشمس تجري لمستقر لها ، والقمر قدره منازل حتى عـاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون فهو الحكم المكتوب في كتاب التكوين ، ولا معقب لحكمه تعالى .

ومن المعلوم ان الشهور الشمسية وضعية اصطلاحية وإن كانت الفصول الأربعة والسنة الشمسية على غير هذا النعت فالشهور الاثنا عشر التي هي ثابتة ذات اصل ثابت هي الشهور القمرية .

فمعنى الآية ان عدة الشهور اثنا عشر شهراً تتألف منها السنون ، وهذه العدة هي التي في علم الله سبحانه ، وهي التي أثبتها في كتاب التكوين يوم خلق السماوات والارض وأجرى الحركات العامة التي منها حركة الشمس وحركة القمر حول الارض وهي الاصل الثابت في الكون لهذه العدة .

ومن هنا يظهر فساد مـا ذكره بعض المفسرين ان المراد بكتاب الله في الآية القرآن او كتاب مكتوب فيه عدة الشهور على حد الكتب والدفاتر التي عندنا المؤلفة من قراطيس وأوراق يضبط فيها الالفاظ بخطوط خاصة وضعية .

قوله تعالى : « منها اربعة حرم ذلك الدين القيّم فـلا تظلموا فيهن انفسكم » الحرم جمع حرام وهو الممنوع منه ، والقيم هو القائم بمصلحة الناس المهيمن على إدارة امور حياتهم وحفظ شؤونها .

وقوله: «منها اربعة حرم» هي الاشهر الاربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب بالنقل القطعي ، والكلمة كلمة تشريع بدليل قوله : «ذلك الدين القيم» الخ.
وإنما جعل الله هذه الاشهر الاربعة حرماً ليكف الناس فيها عن القتال وينبسط عليهم بسـاط الأمن ، ويأخذوا فيها الأهبـة للسعادة ، ويرجعوا الى ربهم بالطاعات والقربات .

وكانت حرمتها من شريعة إبراهيم ، وكانت العرب تحترمها حتى في الجاهلية

حينما كانوا يعبدون الأوثان غير أنهم ربما كانوا يحولون الحرمة من شهر الى شهر سنة أو أزيد منها بالنسيء الذي تتعرض له الآية التالية .

وقوله: «ذلك الدين القيم» ، الإشارة الى حرمة الاربعة المذكورة ، والدين كما تطلق على مجموع ما أنزله الله على أنبيائه تطلق على بعضها فالمعنى ان تحريم الأربعة من الشهور القمرية هو الدين الذي يقوم بمصالح العباد . كما يشير اليه في قوله: «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام » الآية المائدة : ٩٧ وقد تقدم الكلام فيه في الجزء السادس من الكتاب .

وقوله : « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » الضمير الى الأربعة إذ لو كان راجعاً إلى «اثنا عشر» المذكور سابقاً لكان الظاهر أن يقال« فيها » كما نقل عن الفراء، وأيضاً لو كان راجعاً الى «اثنا عشر» وهي تمام السنة لكان قوله:«فلا تظلموا فيهن أنفسكم» كما قيل في معنى قولنا : فلا تظلموا أبداً أنفسكم، وكان الكلام متفرعاً على كون عدة الشهور عند الله اثني عشر شهراً ، ولا تفرع له عليه ظاهراً فالمعنى لما كانت هذه الأربعة حرماً تفرع على حرمتها عندالله أن تكفوا فيها عن ظلم أنفسكم رعايةلحرمتها وعظم منزلتها عند الله سبحانه .

فالنهي عن الظلم فيها يدل على عظم الحرمةوتأكدها لتفرعها على حرمتها أولاً ولأنها نهي خاص بعد النهي العام كما يفيده قولنا: لا تظلم أبداً ولا تظلم فيزمان كذا.

والجملة أعني قوله: « فلا تظلموا فيهن أنفسكم» وإن كانت بحسب إطلاق لفظها نهياً عن كل ظلم ومعصية لكن السياق يدل على كون المقصود الأهم منها النهي عن القتال في الأشهر الحرم .

قوله تعالى:«وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافةواعلموا أن الله مع المتقين» قال الراغب في المفردات:الكف كف الإنسان وهي ما بها يقبض ويبسط، وكففته أصبت كفه ، وكففته أصبته بالكف ودفعته بها ، وتعورف الكف بالدفع على أي وجه كان ، بالكف كان أو غيرها حتى قيل : رجل مكفوف لمن قبض بصره .

وقوله : وما أرسلناك إلا كافة للناس أي كافاً لهم عن المعاصي ، والهاء فيه للمبالغة كقولهم:راوية وعلامة ونسابة، وقوله:« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم

كافة » قيل : معناه كافين لهم كما يقاتلونكم كافين ، وقيل: معناه جماعة كما يقاتلونكم جماعة ، وذلك أن الجماعة يقال لهم: الكافة كما يقال لهم : الوازعة لقوتهم باجتماعهم، وعلى هذا قوله : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة » . انتهى .

وقال في المجمع : كافة بمعنى الإحاطة مأخوذ من كافة الشيء وهي حرفه واذا انتهى الشيء إلى ذلك كف عن الزيادة ، وأصل الكف المنع . انتهى .

وقوله: « كافة » في الموضعين حال عن الضمير الراجع الى المسلمين او المشركين أو في الأول عن الأول وفي الثاني عن الثاني او بالعكس فهناك وجوه أربعة، والمتبادر الى الذهن هو الوجه الرابع للقرب اللفظي الذي بين الحال وذي الحال حينئذ، ومعنى الآية على هذا : وقاتلوا المشركين جميعهم كما يقاتلونكم جميعكم .

فالآية توجب قتال جميع المشركين فتصير نظيرة قوله تعالى: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » الآية ينسخ هذه ما ينسخ تلك وتتخصص أو تتقيد بما تخصص او تقيد به هي .

والآية مع ذلك إنما تتعرض لحال القتال مع المشركين وهم عبدة الأوثان غير أهل الكتاب فإن القرآن وإن كان ربما نسب الشرك تصريحاً او تلويحاً الى أهل الكتاب لكنه لم يطلق المشركين على طريق التوصيف إلا على عبدة الأوثان، وأما الكفر فعلاً او وصفاً فقد نسب الى اهل الكتاب وأطلق عليهم كما نسب وأطلق الى عبدة الأوثان.

فالآية أعني قوله: «وقاتلوا المشركين كافة » الآية لا هي ناسخة لآية أخذ الجزية من اهل الكتاب، ولا هي مخصصة او مقيدة بها. وقد قيل في الآية بعض وجوه أخر تركناه لعدم جدوى في التعرض له .

وقوله: « واعلموا أن الله مع المتقين » تعليم وتذكير وفيه حث على الاتصاف بصفة التقوى يترتب عليه من الفائدة : أولاً : الوعد الجميل بالنصر الإلهي والغلبة والظفر فإن حزب الله هم الغالبون .

وثانياً: منعهم ان يتعدّوا حدود الله في الحروب والمغازي بقتل النساء والصبيان ومن ألقى اليهم السلام كما قتل خالد في غزوة حنين مرأة فأرسل اليه النبي ﷺ ينهاه عن ذلك وقتل رجالاً من بني جذيمة وقد اسلموا فوداهم النبي ﷺ وتبرأ الى

الله من فعله ثلاثاً [١] ، وقتل اسامة يهودياً اظهر له الاسلام فنزل قوله تعالى: «ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة » النساء : ٩٤ وقد تقدم .

قوله تعالى : إنما النسيء زيادة في الكفر » الى آخر الآية يقال : نسأ الشيء ينسؤه نسأ ومنسأة ونسيئاً إذا اخره تأخيراً ، وقد يطلق النسيء على الشهر الذي اخر تحريمه على ما كانت العرب تفعله في الجاهلية فإنهم ربما كانوا يؤخرون حرمة بعض الأشهر الحرم الى غيره وأما انه كيف كان ذلك فقد اختلف فيه كلام المفسرين كأهل التاريخ.

والذي يظهر من خلال الكلام المسرود في الآية أنه كانت لهم فيما بينهم سنة جاهلية في امر الأشهر الحرم وهي المسماة بالنسيء ، وهو يدل بلفظه على تأخير الحرمة من شهر حرام الى بعض الشهور غير المحرمة الذي بعده ، وانهم انما كانوا يؤخرون الحرمة ولا يبطلونها برفعها من اصلها لإرادتهم بذلك ان يتحفظوا على سنة قومية ورثوها عن اسلافهم عن ابراهيم عليه السلام .

فكانوا لا يتركون أصل التحريم لغى وإنما يؤخرونه الى غير الشهر سنة اوأزيد ليواطئوا عدة ما حرم الله ، وهي الأربعة ثم يعودون ويعيدون الحرمة الى مكانها الأول.

وهذا نوع تصرف في الحكم الإلهي بعد كفرهم بالله باتخاذ الأوثان شركاء له تعالى وتقدس ، ولذا عده الله سبحانه في كلامه زيادة في الكفر .

وقد ذكر الله سبحانه من الحكم الخاص بحرمة الأشهر الحرم النهي عن ظلم الأنفس حيث قال : «فلا تظلموا فيهن انفسكم» واظهر مصاديقه القتال كما انه المصداق الوحيد الذي استفتوا فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فحكاه الله سبحانه بقوله : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » الآية البقرة : ٢١٧ وكذا ما في معناه من قوله : «لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام» المائدة : ٢ وقوله : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد » المائدة : ٩٧ .

وكذلك الأثر الظاهر من حرمة البيت او الحرم هو جعل الامن فيه كما قال: «ومن دخله كان آمناً» آل عمران: ٩٧ وقال: «اولم نمكن لهم حرماً آمناً» القصص: ٥٧.

فالظاهر ان النسيء الذي تذكره الآية عنهم إنما هو تأخير حرمة الشهر الحرام.

---

(١) القصتان الاوليان مذكورتان في كتب السير والمغازي والثالثة تقدمت في تفسير الآية سابقاً .

للتوسّل بذلك الى قتال فيه لا لتأخير الحج الذي هو عبادة دينية مختصة ببعضها .

وهـــذا كله يؤيد ما ذكروه : أن العرب كانت تحرّم هذه الأشهر الحرم ، وكان ذلك مما تمسّكت به من ملة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام،وهم كانوا أصحاب غارات وحروب فربما كان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة اشهر متوالية لا يغزون فيها فكانوا يؤخرون تحريم المحرّم الى صفر فيحرّمونه ويستحلون المحرم فيمكثون بذلك زماناً ثم يعود التحريم الى المحرَّم ، ولا يفعلون ذلك اي إنساء حرمة المحرم الى صفر إلا في ذي الحجة .

وأما ما ذكره بعضهم أن النسيء هو ما كانوا يؤخرون الحج من شهر الى شهر فمما لا ينطبق على لفظ الآية البتّة ، وسيجيء تفصيل الكلام فيه في البحث الروائي الاتي ان شاء الله . ولنرجع الى ما كنّا فيه .

فقوله تعالى: « إنما النسيء زيادة في الكفر» أي تأخير الحرمة التي شرعها الله لهذه الأشهر الحرم من شهر منها الى شهر غير حرام زيادة في الكفر لأنه تصرف في حكم الله المشروع و كفر بآياته بعد الكفر بالله من جهة الشرك فهو زيادة في الكفر .

وقوله : « يضل به الذين كفروا » أي ضلوا فيه بإضلال غيرهم إياهم بذلك ، وفي الكلام إشعار أو دلالة على أن هناك من يحكم بالنسيء، وقد ذكروا أن المتصدي لذلك كان بعض بني كنانة ، وسيجيء تفصيله في البحث الروائي إن شاء الله .

وقوله: «يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرّم الله فيحلوا ما حرَّم الله» في موضع التفسير للإنساء ، والضمير للشهر الحرام المعلوم من سياق الكلام اي وهو انهم يحلّون الشهر الحرام الذي نسؤوه بتأخير حرمته عاماً ويحرّمونه عاماً ، اي يحلّونه عاماً بتأخير حرمته الى غيره ، ويحرمونه عاماً بإعادة حرمته اليه .

وإنما يعملون على هذه الشاكلة بالتأخير سنة والإثبات اخرى ليواطئوا ويوافقوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله في حال حفظهم اصل العدد اي انهم يريدون التحفظ على حرمة الاشهر الاربعة بعددها مع التغيير في محل الحرمة ليتمكنوا مما يريدونه من الحروب والغارات مع الاستنان بالحرمة .

وقوله : « زيّن لهم سوء اعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين » المزيّن هو الشيطان كما وقع في آيات من الكتاب، وربما نسب الى الله سبحانه كما في آيات أُخر،

ولا ينسب الشر اليه سبحانه إلا ما قصد به الجزاء على الشر كما قال تعالى: « يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين » البقرة : ٢٦ .

وذلك بأن يفسق العبد فيمنعه الله الهداية فيكون ذلك إذناً لداعي الضلال وهو الشيطان ان يزين له سوء عمله فيغويه ويضله، ولذلك قال تعالى: « زين لهم سوء أعمالهم » ثم عقبه بقوله: « إن الله لا يهدي القوم الكافرين » كأنه لما قيل: زين لهم سوء أعمالهم قيل: كيف أذن الله فيه ولم يمنع ذلك قيل: إن هؤلاء كافرون والله لا يهدي القوم الكافرين.

(بحث روائي)

في تفسير العياشي عن ابي خالد الواسطي في حديث ثم قال –يعني أبا جعفر عليه السلام– حدثني ابي عن علي بن الحسين عن امير المؤمنين عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما ثقل في مرضه قال : ايها الناس إن السنة اثنا عشر شهراً منها اربعة حرم ثم قال بيده: رجب مفرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثلاث متواليات .

أقول : وقد ورد في عدة روايات تأويل الشهور الاثني عشر بالأئمة الاثني عشر، وتأويل الاربعة الحرم بعلي امير المؤمنين وعلي بن الحسين وعلي بن موسى وعلي بن محمد عليهم السلام، وتأويل السنة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وانطباقها على الآية بما لها من السياق لا يخلو عن خفاء.

وفي الدر المنثور اخرج احمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن المنذر وابن ابي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابي بكرة : ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطب في حجته فقال : ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها اربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مفرد الذي بين جمادي وشعبان .

أقول : وهي من خطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم المشهورة، وقد رويت بطرق اخرى عن ابي هريرة وابن عمر وابن عباس وعن ابي حمزة الرقاشي عن عمه وكانت له صحبة وغيرهم.

والمراد باستدارة الزمان كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض استقرار الأحكام الدينية على ما تقتضيه الفطرة والخلقة وتمكن **الدين** القيم من الرقابة في اعمال الناس، ومن

ذلك حرمة الأشهر الأربعة الحرم وإلغاء النسيء الذي هو زيادة في الكفر .

وفيه اخرج ابن ابي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فقال: إن النسيء من الشيطان زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً فكانوا يحرمون المحرم عاماً ويحرمون صفر عاماً ويستحلّون وهو النسيء .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان جنادة بن عوف الكناني يوفي الموسم كل عام وكان يكنى أبا ثمادة فينادي: ألا إن ابا ثمادة لا يخاف ولا يعاب ألا إن صفر الأول حلال .

وكان طوائف من العرب اذا ارادوا ان يغيروا على بعض عدوّهم أتوه فقالوا: أحلّ لنا هذا الشهر يعنون صفر، وكانت العرب لا تقاتل في الأشهر الحرم فيحله لهم عاماً، ويحرمه عليهم في العام الآخر، ويحرم المحرم في قابل ليواطؤوا عدة ما حرم الله يقول: ليجعلوا الحرم اربعة غير أنهم جعلوا صفر عاماً حلالاً وعاماً حراماً .

وفيه اخرج ابن المنذر عن قتادة في قوله: «إنما النسيء زيادة في الكفر» الآية قال: عمد أناس من اهل الضلالة فزادوا صفر في الأشهر الحرم، وكان يقوم قائمهم في الموسم فيقول: إن آلهتكم قد حرّمت صفر فيحرّمونه ذلك العام، وكان يقال لهما الصفران.

وكان أول من نسأ النسيء بنو مالك من كنانة ، وكانوا ثلاثة ابو ثمامة صفوان ابن أمية وأحد بني فقيم بن الحارث ، ثم أحد بني كنانة .

وفيه اخرج ابن ابي حاتم عن السدي في الآية قال : كان رجل من بني كنانة يقال له جنادة بن عوف يكنى أبا أمامة ينسىء الشهور، وكانت العرب يشتد عليهم ان يمكثوا ثلاثة أشهر لا يغير بعضهم على بعض فإذا أراد ان يغير على أحد قام يوماً بمنى فخطب فقال: إني قد احللت المحرّم وحرّمت صفر مكانه فيقاتل الناس في المحرم فإذا كان صفر عمدوا ووضعوا الأسنة ثم يقوم في قابل فيقول : إني قد احللت صفر وحرمت المحرم فيواطؤوا اربعة أشهر فيحلّوا المحرم .

وفيه اخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : « يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً » قال : هو صفر كانت هوازن وغطفان يحلّونه سنة ويحرّمونه سنة .

أقول: محصّل الروايات — كما ترى — أن العرب كانت تدين بحرمة الأشهر الحرم الاربعة رجب وذي القعدة وذي الحجة والمحرم ثم إنهم ربما كانوا يتحرجون من القعود عن الحروب والغارات ثلاثة أشهر متواليات فسألوا بعض بني كنانة ان يحلّ لهم ثالث الشهور الثلاثة فقام فيهم بعض ايام الحج بمنى وأحلّ لهم المحرم ونسأ حرمته الى صفر فذهبوا لوجههم عامهم ذلك يقاتلون العدو ثم ردّ الحرمة الى مكانه في قابل وهذا هو النسيء.

وكان يسمى المحرم صفر الأول وصفر الثاني وهما صفران كالربيعين والجماديين والنسيء إنما ينال صفر الاول ولا يتعدى صفر الثاني فلما أقرّ الاسلام الحرمة لصفر الاول عبّروا عنه بشهر الله المحرم ثم لما كثر الاستعمال خفف وقيل: المحرم، واختص اسم صفر بصفر الثاني فالمحرم من الألفاظ الاسلامية كما ذكره السيوطي في المزهر.

وفيه اخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن ابي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: « إنما النسيء زيادة في الكفر » قال: فرض الله الحج في ذي الحجة، وكان المشركون يسمون الأشهر ذا الحجة والمحرم. صفر وربيع وربيع وجمادى وجمادى ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة ثم يحجّون فيه.

ثم يسكتون عن المحرم فلا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفر صفر ثم يسمون رجب جمادى الآخرة ثم يسمون شعبان رمضان ورمضان شوّال، ويسمون ذا القعدة شوال ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة ثم يسمون المحرم ذا الحجة ثم يحجون فيه واسمه عندهم ذو الحجة.

ثم عادوا الى مثل هذه القصة فكانوا يحجون في كل شهر عاماً حتى وافق حجة ابي بكر الآخرة من العام في ذي القعدة ثم حج النبي صلى الله عليه وآله حجته التي حجّ فيها فوافق ذو الحجة فذلك حين يقول صلى الله عليه وآله في خطبته: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض.

أقول: ومحصّله على ما فيه من التشويش والاضطراب أن العرب كانت قبل الاسلام يحج البيت في ذي الحجة غير أنهم أرادوا ان يحجوا كل عام في شهر فكانوا يدورون بالحج الشهور شهراً بعد شهر وكل شهر وصلت اليه النوبة عامهم ذلك سموه ذا الحجة وسكتوا عن اسمه الأصلي.

ولازم ذلك ان يتألف كل سنة فيها حجة من ثلاثة عشر شهراً، وأن يتكرر اسم بعض الشهور مرتين او أزيد كما يشعر به الرواية، ولذا ذكر الطبري أن العرب كانت تجعل السنة ثلاثة عشر شهراً ، وفي رواية اثني عشر شهراً وخمسة وعشرين يوماً .

ولازم ذلك ايضاً ان تتغير أسماء الشهور كلها، وأن لا يواطىء اسم الشهر نفس الشهر إلا في كل اثنتي عشرة سنة مرة إن كان التأخير على نظام محفوظ، وذلك على نحو الدوران.

ومثل هذا لا يقال له الإنساء والتأخير فإن أخذ السنة ثلاثة عشر شهراً وتسمية آخرها ذا الحجة تغيير لأصل التركيب لا تأخير لبعض الشهور بحسب الحقيقة .

على أنه مخالف لسائر الأخبار والآثار المنقولة، ولا مأخذ لذلك إلا هذه الرواية وما ضاهاها كرواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كانت العرب يحلّون عاماً شهراً وعاماً شهرين، ولا يصيبون الحج إلا في كل ستة وعشرين سنة مرة وهو النسيء الذي ذكر الله تعالى في كتابه فلما كان عام الحج الأكبر ثم حج رسول الله ﷺ من العام المقبل فاستقبل الناس الأهلة فقال رسول الله ﷺ : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض . وهو في الاضطراب كخبر مجاهد .

على أن الذي ذكره من حجة ابي بكر في ذي القعدة هو الذي ورد من طرق اهل السنّة أن النبي ﷺ جعل ابا بكر اميراً للحج عام تسع فحجّ بالناس ، وقد ورد في بعض روايات أُخر ايضاً أن الحجة عامئذ كانت في ذي القعدة .

وهذه الحجة على أي نعت فرضت كانت بأمر من النبي ﷺ وإمضائه ، ولا يأمر بشيء ولا يمضي أمراً إلا ما أمر به ربه تعالى ، وحاشا ان يأمر الله سبحانه بحجة في شهر نسيء ثم يسميها زيادة في الكفر .

فالحق أن النسيء هو ما تقدم أنهم كانوا يتحرجون من توالي شهور ثلاثة محرّمة فينسؤون حرمة المحرم الى صفر ثم يعيدونها مكانها في العام المقبل .

وأما حجهم في كل شهر سنة او في كل شهر سنتين او في شهر سنة وفي شهر سنتين فلم يثبت عن مأخذ واضح يوثق به، وليس من البعيد ان تكون عرب الجاهلية مختلفين في ذلك لكونهم قبائل شتى وعشائر متفرقة كلٌّ متّبع لهوى نفسه غير أن الحج كان عبادة ذات موسم لا يتخلفون عنه لحاجتها الى أمن لنفوسهم وحرمة لدمائهم،

وما كانوا يتمكنون من ذلك لو كان أحلّ الشهر بعضهم وحرّمه آخرون على اختلاف في شاكلة التحريم ، وهو ظاهر .

* * *

يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله
اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة
الدنيا في الآخرة إلا قليل – ٣٨ . إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً
ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير – ٣٩.
إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما
في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته
عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة
الله هي العليا والله عزيز حكيم – ٤٠ . انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا
بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون – ٤١ .
لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم
الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم
والله يعلم إنهم لكاذبون – ٤٢ . عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين
لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين – ٤٣ . لا يستأذنك الذين يؤمنون
بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين – ٤٤.
إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم

فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ــ ٤٥ . وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً
وَلَـٰكِنْ كَرِهَ ٱللهُ ٱنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ ــ ٤٦.
لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ
ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ــ ٤٧ . لَقَدِ ٱبْتَغَوُا
ٱلْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللهِ وَهُمْ
كَارِهُونَ ــ ٤٨ .

(بيان)

تعرّض للمنافقين وفيه بيان لجمل أوصافهم وعلائمهم ، وشرح ما لقي الاسلام والمسلمون من كيدهم ومكرهم وما قاسوه من المصائب من جهة نفاقهم ، وفي مقدّمها عتاب المؤمنين في تثاقلهم عن الجهاد، وحديث خروج النبي ﷺ من مكة وذكر الغار.

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض» الآية اثاقلتم أصله تثاقلتم على وزان ادّاركوا وغيره، وكأنه أشرب معنى الميل ونحوه فعدّي بإلى وقيل: اثاقلتم الى الأرض أي ملتم الى الأرض متثاقلين او تثاقلتم مائلين الى الأرض والمراد بالنفر في سبيل الله الخروج الى الجهاد .

وقوله: «أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة» كأن الرضا أشرب معنى القناعة فعدّي بمن كما يقال: رضيت من المال بطيّبه، ورضيت من القوم بخلّة فلان، وعلى هذا ففي الكلام نوع من العناية المجازية كأن الحياة الدنيا نوع حقير من الحياة الآخرة قنعوا بها منها ، ويشعر بذلك قوله بعده : « فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » .

فمعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قال لكم النبي ﷺ ـ لم يصرّح باسمه صوناً وتعظيماً ـ اخرجوا الى الجهاد أبطأتم كأنكم لا تريدون الخروج أقنعتم بالحياة الدنيا راضين بها من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا بالنسبة الى الحياة الآخرة إلا قليل.

وفي الآية وما يتلوها عتاب شديد للمؤمنين وتهديد عنيف وهي تقبل الانطباق على غزوة تبوك كما ورد ذلك في اسباب النزول .

قوله تعالى : « إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم » الى آخر الآية العذاب الذي أنذروا به مطلق غير مقيّد فلا وجه لتخصيصه بعذاب الآخرة بل هو على إبهامه ، وربما أيّد السياق كون المراد به عذاب الدنيا او عذاب الدنيا والآخرة جميعاً.

وقوله: «يستبدل قوماً غيركم» أي يستبدل بكم قوماً غيركم لا يتثاقلون في امتثال أوامر الله والنفر في سبيل الله اذا قيل لهم: انفروا ، والدليل على هذا المعنى قرينة المقام.

وقوله: «ولا تضرّوه شيئاً» إشارة الى هوان أمرهم على الله سبحانه لو أراد ان يذهب بهم ويأتي بآخرين فإن الله لا ينتفع بهم بل نفعهم لأنفسهم فضررهم على أنفسهم ، وقوله: «والله على كل شيء قدير» تعليل لقوله: « يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ».

قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار » ثاني اثنين اي أحدهما ، والغار الثقبة العظيمة في الجبل ، والمراد به غار جبل ثور قرب منى وهو غير غار حراء الذي ربما كان النبي ﷺ يأوي اليه قبل البعثة للأخبار المستفيضة ، والمراد بصاحبه هو ابو بكر للنقل القطعي .

وقوله: «إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا» أي لا تحزن خوفاً مما تشاهده من الوحدة والغربة وفقد الناصر وتظاهر الأعداء وتعقيبهم إياي فإن الله سبحانه معنا ينصرني عليهم .

وقوله : « فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها » أي أنزل الله سكينته على رسوله وأيّد رسوله بجنود لم تروها يصرفون القوم عنهم بوجوه من الصرف بجميع العوامل التي عملت في انصراف القوم عن دخول الغار والظفر به ﷺ ، وقد روي في ذلك أشياء ستأتي في البحث الروائي إن شاء الله تعالى .

والدليل على رجوع الضمير في قوله: «فأنزل الله سكينته عليه» الى النبي ﷺ اولاً : رجوع الضمائر التي قبله وبعده اليه ﷺ كقوله : «إلا تنصروه» و «نصره» و «أخرجه» و «يقول» و «لصاحبه» و «أيّده » فلا سبيل الى رجوع ضمير «عليه» من بينها وحده الى غيره من غير قرينة قاطعة تدلّ عليه .

وثانياً: أن الكلام في الآية مسوق لبيان نصر الله تعالى نبيه ﷺ حيث لم يكن معه أحد ممن يتمكن من نصرته إذ يقول تعالى: « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ » الآية وإنزال السكينة والتقوية بالجنود من النصر فذاك له ﷺ خاصة .

ويدلُّ على ذلك تكرار «إذ» وذكرها في الآية ثلاث مرات كل منها بيان لما قبله بوجه فقوله « اذ أخرجه الذين كفروا » بيان لوقت قوله : «فقد نصره الله» وقوله: « إذ هما في الغار » بيان لتشخيص الحال الذي هو قوله : « ثاني اثنين » وقوله : « اذ يقول لصاحبه» بيان لتشخيص الوقت الذي يدل عليه قوله: «إذ هما في الغار».

وثالثاً : أن الآية تجري في سياق واحد حتى يقول: «وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا » ولا ريب أنه بيان لما قبله ، وأن المراد بكلمة الذين كفروا هي ما قضوا به في دار الندوة وعزموا عليه من قتله ﷺ وإطفاء نور الله، وبكلمة الله هي ما وعده من نصره وإتمام نوره ، وكيف يجوز أن يفرّق بين البيان والمبيَّن وجعل البيان راجعاً الى نصره تعالى إياه ﷺ ،والمبيّن راجعاً الى نصره غيره.

فمعنى الآية : ان لم تنصروه أنتم ايها المؤمنون فقد اظهر الله نصره إياه في وقت لم يكن له احد ينصره ويدفع عنه وقد تظاهرت عليه الأعداء وأحاطوا به من كل جهة وذلك اذ هم المشركون به وعزموا على قتله فاضطر الى الخروج من مكة في حال لم يكن إلا احد رجلين اثنين ، وذلك اذ هما في الغار اذ يقول النبي ﷺ لصاحبه وهو ابو بكر : لا تحزن مما تشاهده من الحال ان الله معنا بيده النصر فنصره الله .

حيث أنزل سكينته عليه وأيده بجنود غائبة عن ابصاركم ، وجعل كلمة الذين كفروا — وهي قضاؤهم بوجوب قتله وعزيمتهم عليه — كلمة مغلوبة غير نافذة ولا مؤثرة ، وكلمة الله — وهي الوعد بالنصر وإظهار الدين واتمام النور — هي العليا العالية القاهرة والله عزيز لا يغلب حكيم لا يجهل ولا يغلط في ما شاءه وفعله .

وقد تبيّن مما تقدم أولاً : ان قوله : « فأنزل الله سكينته عليه » متفرّع على قوله : « فقد نصره الله » في عين انه متفرع على قوله: «اذ يقول لصاحبه لا تحزن» فان الظرف ظرف للنصرة على ما تقدّم ، والكلام مسوق لبيان نصره تعالى إياه ﷺ لا غيره فالتفريع تفريع على الظرف بمظروفه الذي هو قوله : « فقد نصره

الله » لا على قوله : « يقول لصاحبه لا تحزن » .

وربما استدل لذلك بأن النبي ﷺ لم يزل على سكينة من ربه فانزال السكينة في هذا الظرف خاصة يكشف عن نزوله على صاحبه .

ويدفعه أولاً قوله تعالى : « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » في قصة حنين ، والقول بأن نفسه الشريفة اضطربت بعض الاضطراب في وقعة حنين فناسب نزول السكينة بخلاف الحال في الغار. يدفعه أنه من الافتعال بغير علم فالآية لا تذكر منه ﷺ حزناً ولا اضطراباً ولا غير ذلك إلا ما تذكر من فرار المؤمنين. على أنه يبطل أصل الاستدلال ان النبي ﷺ لم يزل على سكينة من ربه لا يتجدد له شيء منها فكيف جاز له أن يضطرب في حنين فتنزل عليه سكينة جديدة اللهم إلا أن يريدوا به أنه لم يزل في الغار كذلك .

ونظيرتها الآية الناطقة بنزول السكينة عليه ﷺ وعلى المؤمنين في سورة الفتح: « اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » الفتح : ٢٦ .

ويدفعه ثانياً : لزوم تفرّع قوله : « وأيّده بجنود لم تروها » على اثر تفرّع قوله : « فأنزل الله سكينته عليه » لأنهما في سياق واحد ، ولازمه عدم رجوع التأييد بالجنود اليه ﷺ أو التفكيك في السياق الواحد من غير مجوّز يجوّزه .

وربما التزم بعضهم ـ فراراً من شناعة لزوم التفكيك ـ أن الضمير في قوله تعالى : « وأيّده » أيضاً راجع الى صاحبه ، ولازمه كون إنزال السكينة والتأييد بالجنود عائدين الى أبي بكر دون النبي ﷺ .

وربما أيّده بعض آخر بأن الوقائع التي تذكر الآيات فيها نزول جنود لم يروها كوقعة حنين والأحزاب وكذا نزول الملائكة لوقعة بدر وان لم تذكر نزولهم على المؤمنين ولم تصرح بتأييدهم بهم لكنهم حيث كانوا انما نزلوا للنصر وفيه نصر المؤمنين وإمدادهم فلا مانع من القول بأن الجنود التي لم يروها إنما أيدت أبا بكر ، وتأييدهم المؤمنين جميعاً او ابا بكر خاصّة تأييد منهم في الحقيقة للنبي ﷺ .

والأولى على هذا البيان أن يجعل الفرع الثالث الذي هو قوله : « وجعل كلمة

الذين كفروا السفلى» الآية مترتباً على ما تقدّمه من الفرعين لئلا يلزم التفكيك في السياق.

ولا يخفى عليك أن هذا الذي التزموا به يخرج الآية عن مستقر معناها الوحداني الى معنى متهافت الأطراف يدفع آخره أوله ، وينقض ذيله صدره فقد بدأت الآية بأن النبي ﷺ أكرم على الله وأعز من أن يستذله ويحوجه إلى نصرة هؤلاء بل هو تعالى وليّه القائم بنصره حيث لم يكن أحد من هؤلاء الحافين حوله المتبعين أثره ثم اذا شرعت في بيان نصره تعالى إياه بيّن نصره غيره بإنزال السكينة عليه وتأييده بجنود لم يروها الى آخر الآية .

هب أن نصره تعالى بعض المؤمنين به ﷺ أو جميعهم نصر منه له بالحقيقة لكن الآية في مساق يدفعه البتة فإن الآية السابقة يجمع المؤمنين في خطاب واحد ـ يا أيها الذين آمنوا ـ ويعاتبهم ويهددهم على التثاقل عن إجابة النبي ﷺ الى ما أمرهم به من النفر في سبيل الله والخروج الى الجهاد ثم الآية الثانية تهددهم بالعذاب والاستبدال إن لم ينفروا وتبين لهم أن الله ورسوله في غنىً عنهم ولا يضرونه شيئاً ، ثم الآية الثالثة توضح ان النبي ﷺ في غنى عن نصرهم لأن ربه هو وليّه الناصر له ، وقد نصره حيث لم يكن لأحد منهم صنع فيه وهو نصره إياه إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا.

ومن البيّن الذي لا مرية فيه ان مقتضى هذا المقام بيان نصره ﷺ الخاص به المتعلق بشخصه من الله سبحانه خاصة من دون صنع لأحد من المؤمنين في ذلك لا بيان نصره إياه بالمؤمنين أو ببعضهم وقد جمعهم في خطاب المعاتبة ، ولا بيان نصره بعض المؤمنين به ممن كان معه .

ولا أن المقام مقام يصلح لأن يشار بقوله: « إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين» إشارة إجمالية الى نصره العزيز لنبيه ﷺ ثم يؤخذ في تفصيل ما خص به صاحبه من الخصيصة بإنزال السكينة والتأييد بالجنود فإن المقام على ما تبين لك يأبى ذلك.

ويدفعه ثالثاً: أن فيه غفلة عن حقيقة معنى السكينة وقد تقدم الكلام فيها في ذيل قوله تعالى: «ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » الآية : ٢٦ من السورة.

والأمر الثاني: أن المراد بتأييده ﷺ بجنود لم يروها تأييده بذلك يومئذ على

ما يفيده السياق، وأما قول بعضهم: إن المراد به ما أيده بالجنود يوم الأحزاب ويوم حنين على ما نطقت به الآيات فمما لا دليل عليه من اللفظ البتة .

والأمر الثالث: أن المراد بالكلمة في قوله: «وجعل كلمة الذين كفروا السفلى» هو ما قضوا به في دار الندوة وعزموا عليه من قتله ﷺ وإبطال دعوته الحقة بذلك، وبقوله: «وكلمة الله هي العليا» هو ما وعد الله نبيه ﷺ من النصر وإظهار دينه على الدين كله.

وذلك أن هذه الآية بما تتضمنه من قوله: «فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا» تشير الى ما يقصه قوله تعالى: « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» الأنفال: ٣٠، والذي في ذيل الآية من إبطال كلمتهم وإحقاق الكلمة الإلهية مرتبط بما في صدر الآية من حديث الإخراج أي الاضطرار الى الخروج لا محالة، والذي اضطره ﷺ الى الخروج هو عزمهم على قتله حسب ما اتفقوا عليه من القضاء بقتله فهذه هي الكلمة التي أبطلها الله سبحانه وجعلها السفلى وتقابلها كلمة الله وليست إلا النصر والإظهار .

ومن هنا يظهر ان قول بعضهم إن المراد بكلمة الذين كفروا الشرك والكفر، وبكلمة الله تعالى التوحيد والإيمان غير سديد فإن الشرك وإن كان كلمة لهم، والتوحيد كلمة لله لكنه لا يستلزم كونهما المرادين كلما ذكرت الكلمتان حتى مع وجود القرينة على الخلاف .

قوله تعالى: «انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون» الخفاف والثقال جمعا خفيف وثقيل، والثقل بقرينة المقام كناية عن وجود الموانع الشاغلة الصارفة للإنسان عن الخروج الى الجهاد نظير كثرة المشاغل المالية وحب الأهل والولد والأقرباء والأصدقاء الذي يوجب كراهة مفارقتهم، وفقد الزاد والراحلة والسلاح ونحو ذلك ، والخفة كناية عن خلاف ذلك .

فالأمر بالنفر خفافاً وثقالاً وهما حالان متقابلان في معنى الأمر بالخروج على أي حال ، وعدم اتخاذ شيء من ذلك عذراً يعتذر به لترك الخروج كما أن الجمع بين الأموال والأنفس في الذكر في معنى الأمر بالجهاد بأي وسيلة أمكنت .

وقد ظهر بذلك ان الأمر في الآية مطلق لا يأبى التقييد بالأعذار التي يسقط

معها وجوب الجهاد كالمرض والعمى والعرج ونحو ذلك فإن المراد بالخفة والثقل امر وراء ذلك .

قوله تعالى : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك » الى آخر الآية . العرض ما يسرع اليه الزوال ويطلق على المال الدنيوي وهو المراد في الآية بقرينة السياق ، والمراد بقربه كونه قريباً من التناول ، والقاصد من القصد وهو التوسط في الأمر ، والمراد بكون السفر قاصداً كونه غير بعيد المقصد سهلاً على المسافر ، والشقة : المسافة لما في قطعها من المشقة .

والآية كما يلوح من سياقها تعيير وذم للمنافقين المتخلفين عن الخروج مع النبي ﷺ الى الجهاد في غزوة تبوك إذ الغزوة التي خرج فيها النبي ﷺ وتخلف عنه المنافقون وهي على بعد من المسافة هي غزوة تبوك لا غيرها .

ومعنى الآية : لو كان ما امرتهم به ودعوتهم اليه عرضاً قريب التناول وغنيمة حاضرة وسفراً قاصداً قريباً هيناً لاتبعوك يا محمد وخرجوا معك طمعاً في الغنيمة ولكن بعدت عليهم الشقة والمسافة فاستصعبوا السير وتثاقلوا فيه .

وسيحلفون بالله اذا رجعتم اليهم ولمتموهم على تخلفهم : لو استطعنا الخروج لخرجنا معكم يهلكون انفسهم بما اخذوه من الطريقة : من الخروج الى القتال طمعاً في عرض الدنيا اذا استيسروا القبض عليه ، والتخلف عنه اذا شق عليهم ثم الاعتذار بالعذر الكاذب على نبيهم والحلف في ذلك بالله كاذبين ، او يهلكون انفسهم بهذا الحلف الكاذب ، والله يعلم انهم لكاذبون .

قوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » الجملة الاولى دعاء للنبي ﷺ بالعفو نظير الدعاء على الانسان بالقتل في قوله : « قتل الإنسان ما اكفره » عبس : ١٧ ، وقوله : « فقتل كيف قدّر » المدثر : ١٩ وقوله : « قاتلهم الله أنى يؤفكون » التوبة : ٣٠ .

والجملة متعلقة بقوله : « لم أذنت لهم » أي في التخلف والقعود ، ولما كان الاستفهام للإنكار او التوبيخ كان معناه : كان ينبغي ان لا تأذن لهم في التخلف والقعود ، ويستقيم به تعلق الغاية التي يشتمل عليها قوله : « حتى يتبين لك الذين

صدقوا» الآية. بقوله: « لم أذنت لهم » فالتعلق إنما هو بالمستفهم عنه دون الاستفهام وإلا افاد خلاف المقصود ، والكلام مسوق لبيان ظهور كذبهم وأن ادنى الامتحان كالكف عن إذنهم في القعود يكشف عن فصاحتهم .

ومعنى الآية : عفا الله عنك لم أذنت لهم في التخلف والقعود ؟ ولو شئت لم تأذن لهم –وكانوا أحق به– حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين فيتميز عندك كذبهم ونفاقهم .

والآية –كما ترى وتقدمت الإشارة اليه– في مقام دعوى ظهور كذبهم ونفاقهم وأنهم مفتضحون بأدنى امتحان يمتحنون به ، ومن مناسبات هذا المقام إلقاء العتاب الى المخاطب وتوبيخه والإنكار عليه كأنه هو الذي ستر عليهم فضائح اعمالهم وسوء سريرتهم، وهو نوع من العناية الكلامية يتبين به ظهور الأمر ووضوحه لا يراد أزيد من ذلك فهو من اقسام البيان على طريق : « إياك اعني واسمعي يا جارة » .

فالمراد بالكلام إظهار هذه الدعوى لا الكشف عن تقصير النبي ﷺ وسوء تدبيره في احياء امر الله ، وارتكابه بذلك ذنباً – حاشاه – وأولوية عدم الإذن لهم معناها كون عدم الإذن انسب لظهور فضيحتهم وأنهم احق بذلك لما بهم من سوء السريرة وفساد النية لا لأنه كان اولى وأحرى في نفسه وأقرب وأمس بمصلحة الدين.

والدليل على هذا الذي ذكرنا قوله تعالى بعد ثلاث آيات : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم » الى آخر الآيتين، فقد كان الأصلح ان يؤذن لهم في التخلف ليصان الجمع من الخبال وفساد الرأي وتفرق الكلمة ، والمتعين ان يقعدوا فلا يفتنوا المؤمنين بإلقاء الخلاف بينهم والتفتين فيهم وفيهم ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب وهم سماعون لهم يسرعون الى المطاوعة لهم ولو لم يؤذن لهم فأظهروا الخلاف كانت الفتنة اشد والتفرّق في كلمة الجماعة اوضح وأبين.

ويؤكد ذلك قوله تعالى بعد آيتين: «ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين» فقد كان تخلفهم ونفاقهم ظاهراً لائحاً من عدم إعدادهم العدة يتوسمه في وجوههم كل ذي لب ، ولا يخفى مثل ذلك على مثل النبي ﷺ وقد نبأه الله بأخبارهم قبل نزول هذه السورة كراراً فكيف

يصح ان يعاتب ههنا عتاباً جدياً بأنه لِمَ لم يكف عن الإذن ولم يستعلم حالهم حتى يتبين له نفاقهم ويميز المنافقين من المؤمنين ؟ فليس المراد بالعتاب إلا ما ذكرناه .

ومما تقدم يظهر فساد قول من قال: إن الآية تدل على صدور الذنب عنه ﷺ لأن العفو لا يتحقق من غير ذنب ، وان الإذن كان قبيحاً منه ﷺ ومن صغائر الذنوب لأنه لا يقال في المباح لم فعلته ؟ انتهى .

وهذا من لعبهم بكلام الله سبحانه، ولو اعترض معترض على ما يهجون به في مثل المقام الذي سيقت الآية فيه لم يرضوا بذلك ، وقد اوضحنا ان الآية مسوقة لغرض غير غرض الجد في العتاب .

على ان قولهم : إن المباح لا يقال فيه : لم فعلت ؟ فاسد فإن من الجائز اذا شوهد من رجح غير الأولى على الأولى ان يقال له : لم فعلت ذلك ورجحته على ما هو اولى منه ؟ على انك قد عرفت ان الآية غير مسوقة لعتاب جدي .

ونظيره ما ذكره بعض آخر حيث قال: إن بعض المفسرين ولا سيما الزمخشري قد أساؤوا الأدب في التعبير عن عفو الله تعالى عن رسوله ﷺ في هذه الآية، وكان يجب ان يتعلموا أعلى الأدب معه ﷺ إذ اخبره ربه ومؤدبه بالعفو قبل الذنب ، وهو منتهى التكريم واللطف .

وبالغ آخرون كالرازي في الطرف الآخر فأرادوا ان يثبتوا ان العفو لا يدل على الذنب ، وغايته ان الإذن الذي عاتبه الله عليه هو خلاف الاولى .

وهو جمود مع الاصطلاحات المحدثة والعرف الخاص في معنى الذنب وهو المعصية ، وما كان ينبغي لهم ان يهربوا من إثبات ما اثبته الله في كتابه تمسكاً باصطلاحاتهم وعرفهم المخالف له والمدلول اللغة ايضاً .

فالذنب في اللغة كل عمل يستتبع ضرراً او فوت منفعة او مصلحة، مأخوذ من ذنب الدابة، وليس مرادفاً للمعصية بل اعم منها. والإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحة المنصوصة في الآية وهي تبين الذين صدقوا والعلم بالكاذبين، وقد قال تعالى: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» الآية: الفتح:٢.

ثم ذكر في كلام له طويل ان ذلك كان اجتهاداً منه ﷺ فيما لا وحي فيه من

الله وهو جائز وواقع من الأنبياء عليهم السلام وليسوا بمعصومين من الخطاء فيه وإنما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحي ببيانه والعمل بـه فيستحيل على الرسول ان يكذب او يخطىء فيما يبلغه عن ربه او يخالفه بالعمل .

ومنه ما تقدم في سورة الأنفال من عتابه تعالى لرسوله ﷺ في اخذ الفدية من اسارى بدر حيث قال : « ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » الأنفال: ٦٧ ثم بين انه كان مقتضياً لنزول عذاب أليم لولا كتاب من الله سبق فكان مانعاً انتهى كلامه بنوع من التلخيص .

وليت شعري مـا الذي زاد في كلامه على ما تفصّى به الرازي وغيره حيث ذكروا ان ذلك من ترك الاولى ، ولا يسمونه ذنبـاً في عرف المتشرعين وهو الذي يستتبع عقاباً ، وذكر هو انه من ترك الأصلح وسماه ذنباً لغة .

على انك قد عرفت فيما تقدم انه لم يكن ذنباً لا عرفاً ولا لغة بدلالة تامة من الآيات على ان عدم خروجهم كان هو الأصلح لحال جيش المسلمين لتخلصهم بذلك عن غائلة وقوع الفتنة واختلاف الكلمة، وكانت هذه العلة بعينها موجودة لو لم يأذن لهم النبي ﷺ وظهر منهم مـا كانوا ابطنوه من الكفر والخلاف وأن الذي ذكره الله بقوله : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة » ان عدم إعدادهم العدة كان يدل على عدم إرادتهم الخروج، كان رسول الله ﷺ اجل من ان يخفى عليه ذلك وهو بمرئى منه ومسمع .

مضافاً الى انه ﷺ كان يعرفهم في لحن القول كما قال تعالى: « ولتعرفنهم في لحن القول» سورة محمد: ٣٠ وكيف يخفى على من سمع من احدهم مثل قوله: « ائذن لي ولا تفتنـّي» او يقول للنبي ﷺ : «هو أذن» او يلمزه في الصدقات ولا ينصح له ﷺ أن ذلك من طلائع النفاق يطلع منهم وما وراءه إلا كفر وخلاف .

فقد كان النبي ﷺ يتوسم منهم النفاق والخلاف ويعلم بما في نفوسهم ، ومع ذلك فعتابه ﷺ بأنه لمَ لم يكف عن الإذن ولم يستعلم حالهم ولم يميزهم من غيرهم؟ ليس إلا عتاباً غير جديّ للغرض الذي ذكرناه .

وأما قوله : « إن الإذن المعفوّ عنه قـد استتبع فوت المصلحة المنصوصة في

الآية وهي تبين الذين صدقوا والعلم بالكاذبين ، ففيه أن الذي تشتمل عليه الآية من المصلحة هو تبين الذين صدقوا للنبي ﷺ وعلمه هو بالكاذبين لا مطلق تبينهم ولا مطلق العلم بالكاذبين، وقد ظهر مما تقدم انه ﷺ لم يكن يخفى عليه ذلك ، وأن حقيقة المصلحة إنما كانت في الإذن وهي سدّ باب الفتنة واختلاف الكلمة فانه ﷺ كان يعلم من حالهم انهم غير خارجين البتّة سواء أذن لهم في القعود أم لم يأذن فبادر الى الإذن حفظاً على ظاهر الطاعة ووحدة الكلمة .

وليس لك ان تتصور انه لو بان نفاقهم يومئذ وظهر خلافهم بعدم إذن النبي لهم بالقعود لتخلص الناس من تفتينهم وإلقائهم الخلاف لما في الاسلام يومئذ – وهو يوم خروج النبي ﷺ الى غزوة تبوك – من الشوكة والقوة، وله ﷺ من نفوذ الكلمة.

فان الإسلام يومئذ إنما كان يملك القوة والمهابة في أعين الناس من غير المسلمين كانوا يرتاعون شوكته ويعظمون سواد أهله ويخافون حد سيوفهم ، وأما المسلمون في داخل مجتمعهم وبين انفسهم فلم يخلصوا بعد من النفاق ومرض القلوب ، ولم يستول عليهم بعد وحدة الكلمة وجدّ الهمة والعزيمة ، والدليل على ذلك نفس هذه الآيات وما يتلوها الى آخر السورة تقريباً .

وقد كانوا تظاهروا بمثل ذلك يوم أحد وقد هجم عليهم العدو في عقر دارهم فرجع ثلث الجيش الاسلامي من المعركة ولم يؤثر فيهم عظة ولا إلحاح حتى قالوا : لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم ، فكان ذلك احد الأسباب العاملة في انهزام المسلمين .

وأما قوله : ومن عتابه تعالى لرسوله ﷺ في خطائه في اجتهاده ما تقدم في سورة الأنفال من عتابه في اخذ الفدية من أسارى بدر حيث قال : « ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يثخن في الارض » الآية .

ففيه أولاً: انه من سوء الفهم فمن البيّن الذي لا يرتاب فيه أن الآية بلفظها لا تعاتب على اخذ الفدية من الأسرى وإنما تعاتب على نفس اخذ الأسرى – ما كان لنبي ان يكون له اسرى – ولم تنزل آية ولا وردت رواية في ان النبي ﷺ كان امرهم بالأسر بل روايات القصة تدل على ان النبي ﷺ لما أمر بقتل بعض الأسرى خاف الناس ان يقتلهم عن آخرهم فكلموه وألحوا عليه في أخذ الفدية منهم ليتقووا بذلك على

أعداء الدين وقد ردّ الله عليهم ذلك بقوله: «تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة».

وهذا من أحسن الشواهد على أن العتاب في الآية متوجه الى المؤمنين خاصة من غير ان يختص به النبي ﷺ او يشاركهم فيه وأن اكثر ما ورد من الأخبار في هذا المعنى موضوعة او مدسوسة .

وثانياً: ان العتاب في الآية لو اختص بالنبي ﷺ او شمله وغيره لم يكن من العتاب على ما ذكره على الذنب بمعناه اللغوي وهو تفويت المصلحة بوجه فان هذا العتاب مذيّل بقوله تعالى في الآية التالية: «لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم» الأنفال: ٦٨ فلا يرتاب ذو لب في أن التهديد بالعذاب العظيم لا يتأتى إلا مع كون المهدد عليه من المعصية المصطلحة بل ومن كبائر المعاصي، وهذا ايضاً من الشواهد على ان العتاب في الآية متوجه الى غير النبي ﷺ .

قوله تعالى : «لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر» الى آخر الآيتين تذكر الآيتان أحد ما يعرف به المنافق ويتميز به من المؤمن وهو الاستيذان في التخلف عن الجهاد في سبيل الله .

وقد بيّن الله سبحانه ذلك بأن الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس من لوازم الايمان بالله واليوم الآخر بحقيقة الايمان لما يورثه هذا الايمان من صفة التقوى، والمؤمن لما كان على تقوى من قبل الإيمان بالله واليوم الآخر كان على بصيرة من وجوب الجهاد في سبيل الله بماله ونفسه . ولا يدعه ذلك ان يتثاقل عنه فيستأذن في القعود لكن المنافق لعدم الإيمان بالله واليوم الآخر فَقَدَ صفة التقوى فارتاب قلبه ولا يزال يتردد في ريبه فيحب التطرف ، ويستأذن في التخلف والقعود عن الجهاد .

قوله تعالى : « ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة » الى آخر الآية ، العدّة الأهبة ، والانبعاث – على ما في المجمع – الانطلاق بسرعة في الأمر ، والتثبيط التوقيف عن الأمر بالتزهيد فيه .

والآية معطوفة على ما تقدّم من قوله : « والله يعلم إنهم لكاذبون » بحسب المعنى أي هم كاذبون في دعواهم عدم استطاعتهم الخروج بل ما كانوا يريدونه ولو

أرادوه لأعدّوا له عدّة لأن من آثار من يريد أمراً من الامور أن يتأهب له بما يناسبه من العدّة والأهبة ولم يظهر منهم شيء من ذلك .

وقوله : «ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم» أي جزاء بنفاقهم وامتناناً عليك وعلى المؤمنين لئلا يفسدوا جمعكم ، ويفرّقوا كلمتكم بالتفتين وإلقاء الخلاف .

وقوله: «وقيل اقعدوا مع القاعدين» أمر غير تشريعي لا ينافي الأمر التشريعي بالنفر والخروج ، فقد أمرهم الله بلسان نبيّه ﷺ بالنفر والخروج – وهو أمر تشريعي – وأمرهم من ناحية سريرتهم الفاسدة والريب المتردد في قلوبهم وسجاياهم الباطنية الخبيثة بالقعود – وهو أمر غير تشريعي – ولا تنافي بينهما .

ولم ينسب قول : « اقعدوا مع القاعدين » الى نفسه تنزيهاً لنفسه عن الأمر بما لا يرتضيه وهناك اسباب متخللة آمرة بذلك كالشيطان والنفس ، وإنما ينسب اليه تعالى بالواسطة لانطباق معنى الجزاء والامتنان على المؤمنين عليه .

وليتوافق الأمران المتخالفان صورة في السياق أعني قوله: « قيل لكم انفروا في سبيل الله » وقوله : « قيل اقعدوا مع القاعدين » .

قوله تعالى : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم» الآية الخبال هو الفساد واضطراب الرأي ، والإيضاح : الإسراع في الشر ،والخلال:البين، والبغي هو الطلب فمعنى يبغونكم الفتنة أي يطلبون لكم أو فيكم الفتنة على ما قيل ، والفتنة هي المحنة كالفرقة واختلاف الكلمة على ما يناسب الآية من معانيها،والسمّاع السريع الإجابة والقبول .

والآية في مقام التعليل لقوله :«ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم » امتناناً ، ولذا جيء بالفصل من غير عطف ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الامور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » أي أقسم لقد طلبوا المحنة واختلاف الكلمة وتفرّق الجماعة من قبل هذه الغزوة – وهي غزوة تبوك – كما في غزوة أحد حين رجع عبد الله بن أبي بن سلول بثلث القوم وخذل النبي ﷺ ، وقلّبوا لك الأمور بدعوة الناس الى الخلاف وتحريضهم على المعصية وخذلانهم عن الجهاد وبعث اليهود والمشركين

على قتال المؤمنين والتجسس وغير ذلك حتى جاء الحق ــ وهو الحق الذي يجب أن يتّبع ــ وظهر أمر الله ــ وهو الذي يريده من الدين ــ وهم كارهون لجميع ذلك .

والآية تستشهد على الآية السابقة بذكر الأمثال كما يستدل على الأمر بمثله ، وتوجيه الخطاب الى النبي ﷺ خاصة بعد عمومه في الآية السابقة لاختصاص الأمر فيه بالنبي ﷺ أعني تقليب الامور عليه بخلاف ما في الآية السابقة من خروجهم في الناس.

(بحث روائي)

في الدر المنثور في قوله تعالى : «إن لا تنصروه فقد نصره الله» الآية أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عبّاس قال : لمّا خرج رسول الله ﷺ من الليل لحق بغارثوا . قال : وتبعه أبو بكر فلمّا سمع رسول الله ﷺ حسّه خلفه خاف أن يكون الطلب فلمّا رأى ذلك أبو بكر تنحنح فلمّا سمع ذلك رسول الله ﷺ عرفه فقام له حتى تبعه فأتيا الغار .

فأصبحت قريش في طلبه فبعثوا الى رجل من قافة بني مدلج فتبع الأثر حتى انتهى الى الغار وعلى بابه شجرة فبال في اصلها القائف ثم قال : ما جاز صاحبكم الذي تطلبون هذا المكان قال : فعند ذلك حزن ابو بكر فقال له رسول الله ﷺ : لا تحزن إن الله معنا .

قال : فمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة ايام يختلف اليهم بالطعام عامر بن فهيرة وعلي يجهزهم فاشتروا ثلاثة أباعر من إبل البحرين واستأجر لهم دليلاً فلمّا كان بعض الليل من الليلة الثالثة أتاهم علي بالإبل والدليل فركب رسول الله ﷺ زاحلته وركب ابو بكر اخرى فتوجهوا نحو المدينة ، وقد بعثت قريش في طلبه .

وفيه اخرج ابن سعد عن ابن عباس وعلي وعائشة بنت ابي بكر وعائشة بنت قدامة وسراقة بن جعشم ــ دخل حديث بعضهم في بعض ــ قالوا : خرج رسول الله ﷺ والقوم جلوس على بابه فأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذرّها على رؤوسهم ويتلو : « يس والقرآن الحكيم » الآيات ومضى .

فقال لهم قائل ما تنتظرون ؟ قالوا : محمداً . قال : قد والله مرّ بكم قالوا :

والله ما ابصرناه وقاموا ينفضون التراب من رؤوسهم، وخرج رسول الله (ص) وأبو بكر الى غار ثور فدخلاه وضربت العنكبوت على بابه بعشاش بعضها على بعض .

وطلبته قريش اشد الطلب حتى انتهوا الى باب الغار فقال بعضهم : إن عليه لعنكبوتاً قبل ميلاد محمد .

وفي اعلام الورى - في حديث سراقة بن جعشم مع النبي ﷺ - قال: الذي اشتهر في العرب يتقاولون فيه الأشعار ويتفاوضونه في الديار أنه تبعه وهو متوجه الى المدينة طالباً لغرته ﷺ ليحظى بذلك عند قريش، حتى اذا امكنته الفرصة في نفسه وأيقن ان قد ظفر ببغيته ساخت قوائم فرسه حتى تغيبت بأجمعها في الأرض وهو بموضع جدب وقاع صفصف فعلم ان الذي اصابه امر سماوي فنادى يا محمد : ادع ربك يطلق لي فرسي وذمة الله ان لا أدل عليك احداً، فدعا له فوثب جواده كأنه أفلت من أنشوطة وكان رجلاً داهية، وعلم بما رأى انه سيكون له نبأ فقال: اكتب لي أماناً فكتب له وانصرف .

قال محمد بن إسحاق: إن ابا جهل قال في امر سراقة أبياتاً فأجابه سراقة نظماً:

أباحكم واللات[1] لو كنت شاهداً لأمر جوادي إذ تسيخ قوائمه
عجبت ولم تشكك بأن محمداً نبي ببرهان فمن ذا يكاتمه ؟
عليك بكف الناس عنه فإنني أرى امره يوماً ستبدو معالمه

أقول : ورواه في الكافي بإسناده عن معاوية بن عمار عن ابي عبدالله عليه السلام ، وفي الدر المنثور بعدة طرق ، وأورده الزمخشري في ربيع الأبرار .

وفي الدر المنثور اخرج ابن سعد وابن مردويه عن ابن مصعب قال : أدركت انس بن مالك وزيد بن ارقم والمغيرة بن شعبة فسمعتهم يتحدثون : ان النبي ﷺ ليلة الغار امر الله شجرة فنبتت في وجه النبي ﷺ فسترته ، وأمر الله العنكبوت فنسجت في وجه النبي ﷺ فسترته وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار .

وأقبل فتيان قريش من كل بطن رجل بعصيّهم وأسيافهم وهراويهم حتى اذا

---

(١) والله .

كانوا من النبي صلى الله عليه وآله قدر اربعين ذراعاً فعجّل بعضهم فنظر في الغار فرجع الى اصحابه فقالوا : مالك لم تنظر في الغار ؟ فقال : رأيت حمامتين بفم الغار فعرفت ان ليس فيه احد . الحديث .

وفي الدر المنثور اخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهري في قوله : « إذ هما في الغار » قال : الغار الذي في الجبل الذي يسمى ثوراً .

أقول : وقد استفاضت الروايات بكون الغار المذكور في القرآن الكريم هو غار جبل ثور ، وهو على اربعة فراسخ من مكة تقريباً.

وفي اعلام الورى وقصص الأنبياء ، وبقي رسول الله صلى الله عليه وآله في الغار ثلاثة ايام ثم أذن الله تعالى له بالهجرة ، وقال : اخرج من مكة يا محمد فليس لك بها ناصر بعد ابي طالب فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله .

وأقبل راع لبعض قريش يقال له: ابن أريقط فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له : يا بن أريقط أءتمنك على دمي ؟ فقال : إذن والله احرسك وأحفظك ولا أدل عليك، فأين تريد يا محمد ؟ قال : يثرب . قال : لأسلكن بك مسلكاً لا يهتدي فيها احد فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: ائت علياً وبشّره بأن الله قد أذن لي في الهجرة فهيىء لي زاداً وراحلة .

وقال له ابو بكر : ائت أسماء ابنتي وقل لها : تهيئي لي زاداً وراحلتين ، وأعلم عامر بن فهيرة أمرنا ، وكان من موالي ابي بكر وكان قد أسلم ، وقل له : ائتنا بالزاد والراحلتين .

فجاء ابن أريقط الى علي عليه السلام فأخبره بذلك فبعث علي بن ابي طالب الى رسول الله صلى الله عليه وآله بزاد وراحلة . وبعث ابن فهيرة بزاد وراحلتين ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله من الغار وأخذ به ابن أريقط على طريق نخلة بين الجبال فلم يرجعوا الى الطريق إلا بقُدَيد فنزلوا على ام معبد هناك .

قال: وقد كانت الانصار بلغهم خروج رسول الله صلى الله عليه وآله اليهم وكانوا يتوقعون قدومه الى ان وافى مسجد قبا ونزل فخرج الرجال والنساء يستبشرون بقدومه .

أقول : والأخبار في تفاصيل قصص الهجرة بالغة في الكثرة رواها اصحاب

النقل وأرباب السيَر من الشيعة وأهل السنّة ، وهي على كثرتها متدافعة مضطربة لا يسع نقدها واستخراج الصافي منها مجال هذا الكتاب ، وللدلالة على إجمال القصة فيما اوردناه كفاية وهو كالمتفق عليه بين اخبار الفريقين .

وفي الدر المنثور أخرج خيثمة بن سليمان الطرابلسي في فضائل الصحابة وابن عساكر عن علي بن ابي طالب قال : إن الله ذم الناس كلهم ومدح أبا بكر فقال : إلا تنصروه فقد نصره الله إذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا .

أقول : نقد البحث في مضامين الآيات الحافّة بالقصة وما ينضم اليها من النقل الصحيح يوجب سوء الظن بهذه الرواية فـان الآيات التي تذمّ المؤمنين ـ او الناس كلهم كما في الرواية ـ وإليها تشير آية الغار بما فيها من قوله : « إلا تنصروه » هي قوله تعالى : « يا ايهـا الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم الى الأرض » الآية ، والنقل القطعي يدل على أن التثاقل المذكور لم يكن من عـامة المؤمنين وجميعهم ، وأن كثيراً منهم سارع الى إجـابة الرسول ﷺ فيما أمر به من النفر ، وإنما تثاقل جماعة من الناس من مؤمن ومنافق .

فخطاب « يا أيها الذين آمنوا » الشامل لجميع المؤمنين ، والذمّ المتعقب له انما هو من خطاب الجماعة بشأن بعضهم كخطاب اليهود بقوله : « فلم تقتلون أنبياء الله » البقرة: ٩١ وغيره ، وهو كثير في القرآن غير أن ديدن القرآن في مثل هذه الموارد ان لا يضيع حق الصالحين ولا أجر المحسنين أعني الأقلين الذين تعمّهم امثال هذه الخطابات العامة بالذمّ والتوبيخ فيتدارك امرهم ويستثنيهم ويذكرهم بالجميل كما فعل ذلك فيما سيأتي في هذه السورة من الآيات المادحة للمؤمنين الشاكرة لجميل مساعيهم بقوله : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض » الآية ، وغيره .

واذا كانت الآيات ـ وقد نزلت في غزوة تبوك ـ تعمّ المؤمنين جميعاً المسارعين في الخروج والمتثاقلين فيه من غير استثناء فهي تشمل عامة الصحابة والمؤمنين وفيهم ابو بكر نفسه غير انه تعالى تدارك ما لحق بالمسارعين في الطاعة والإجابة منهم في آيات تالية وشكر سعيهم .

فلو كان قوله في الآية : « إلا تنصروه » وهو يشير الى ما تقدم من حديث

التثاقل ويؤمي اليه ذماً للناس كلهم كان ذمّاً لأبي بكر كما هو ذمّ لغيره بعدم نصرتهم للنبي(ص) او تثاقلهم في نصره، ومع ذلك لا تسمح الآية بالدلالة على نصر ابي بكر له (ص) بما فيها من قوله: «فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا» بل لو دلّ لدلّ على نصر النبي(ص) لأبي بكر حيث طيّب قلبه وسلاه بقوله: «لا تحزن إن الله معنا».

على انك قد عرفت في البيان السابق أن الآية بمقتضى المقام لا تتعرض إلا لنصر الله سبحانه وحده نبيه (ص) بعينه وشخصه، قبال ما يفرض من عدم نصر كافة المؤمنين له وخذلانهم إياه فدلالة الآية على أن النبي (ص) يوم الغار لم ينصره إلا الله سبحانه وحده دلالة قطعية.

وهذا المعنى في نفسه أدلّ شاهد على ان الضمائر في تتمة جمل الآية: «فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا» للنبي(ص)»، والجمل مسوقة لبيان قيامه تعالى وحده بنصره نصراً عزيزاً غيبياً لا صنع فيه لأحد من الناس، وهو إنزال السكينة عليه وتأييده بجنود غائبة عن الأبصار، وجعلُ كلمة الذين كفروا السفلى وإعلاء كلمة الحق والله عزيز حكيم.

وأما غير نصره النبي ﷺ من المناقب التي يمدح الإنسان عليها فلو كان هناك شيء من ذلك لكان هو ما في قوله: «ثاني اثنين» وما في قوله: «لصاحبه» فلنسلم أن كون الإنسان ثانياً لاثنين أحدهما النبي ﷺ، وكونه صاحباً للنبي ﷺ مذكوراً في القرآن بالصحبة من المفاخر التي يتنفس لها لكنها من المناقب الإجتماعية التي تقدر لها في المجتمعات قيمة ونفاسة، وأما القرآن الكريم فللقيمة فيه ملاك آخر، وللفضل والشرف في منطقه معنى آخر متكىء على حقيقة هي أعلى من المقاصد الوضعية الاجتماعية، وهي كرامة العبودية ودرجات القرب والزلفى.

ومجرد الصحابة الجسمانية والدخول في العدد لا يدل على شيء من ذلك، وقد تكرر في كلامه تعالى أن التسمي بمختلف الأسماء والتلبس بما يتنفس فيه عامة الناس ويستعظمه النظر الإجتماعي لاقيمة له عند الله سبحانه، وأن الحساب على ما في القلوب دون ما يتراءى من ظواهر الأعمال وتقدمة الأحساب والأنساب.

وقد أفصح عنه في مورد أصحاب النبي ﷺ وملازميه خاصة بأبلغ الإفصاح

قوله تعالى: « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجّداً – إلى أن قال – وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً » الفتح:٢٩ فانظر الى ما في صدر الآية من المدح وما في ذيله من القيد وتدبر.

هذه نبذة مما يتعلق بالآية والرواية من البحث، والزائد على هذا المقدار يخرجنا من البحث التفسيري الى البحث الكلامي الذي هو خارج عن غرضنا .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس في قوله: « فأنزل الله سكينته عليه » قال : على أبي بكر لأن النبي (ص) لم يزل السكينة معه .

وفيه أخرج الخطيب في تاريخه عن حبيب بن أبي ثابت :« فأنزل الله سكينته عليه » قال : على أبي بكر فأما النبي (ص) فقد كانت عليه السكينة .

أقول : قد حقق فيما تقدم أن الضمير راجع الى النبي ﷺ على ما يهدي اليه السياق، والروايتان على ما بهما من الوقف ضعيفتان، ولا حجية لقول ابن عباس ولا حبيب لغيرهما .

وأما الحجة التي أوردها فيها وهي أن النبي(ص)لم تزل السكينة معه فمدخولة يدفعها قوله تعالى في قصة حنين : « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين» الآية : التوبة: ٢٦ ونظيرته آية سورة الفتح المشيرة إلى قصة الحديبية وهما تصرحان بنزول السكينة عليه(ص)في خصوص المورد فليكن الأمر على تلك الوتيرة في الغار.

وكأن بعضهم [١] أحس بالإشكال فحمل قولها في الروايتين : أن السكينة لم تزل مع النبي (ص) على معنى آخر وهو كون السكينة ملازمة للنبي (ص) في الغار فيكون قرينة على كون التي نزلت فيه إنما نزلت على صاحبه دونه، ولعل رواية حبيب أقرب دلالة على ما ذكره .

قال بعد إيراد رواية ابن عباس ثم رواية حبيب: وقد أخذ بهذه الرواية بعض مفسري اللغة والمعقول ووضحوا ما فيها من التعليل بأنه ﷺ لم يحدث له وقتئذ

---

(١) صاحب المنار في تفسيره .

اضطراب ولا خوف ولا حزن ، وقوّاها بعضهم بأن الأصل في الضمير أن يعود الى أقرب مذكور . وليس هذا بشيء .

وذهب آخرون الى أن الضمير يعود الى النبي (ص) وان إنزال السكينة عليه لا يقتضي أن يكون خائفاً او مضطرباً أو منزعجاً . وهـذا ضعيف لعطف إنزال السكينة على ما قبلهـا الدال على وقوعه بعده وترتبه عليه ، وأن نزولهـا وقع بعد قوله لصاحبه : لا تحزن . انتهى .

أما ماذكروه من عدم طروّ خوف واضطراب عليه (ص) وقتئذ فإن كانوا استفادوه من عدم ذكر شيء من ذلك في الآية او في رواية معتمد عليها فكلامه تعالى في قصة حنين والحديبية أيضاً خال عن ذكر النبي (ص) بخوف أو حزن او اضطراب ، ولم ترد رواية معتمد عليها تدّل على ذلك فكيف استقام ذكر نزول السكينة عليه ﷺ فيهما ؟

وإن قالوا باستلزام إنزال السكينة الاضطراب والخوف والحزن فهو ممنوع كما تقدّم كيف؟ ونزول نعمة من النعم الإلهيّة لا يتوقف على سبق الاتصاف بحالة مضادّة لها ونقمة مقابلة لها كنزول الرحمة بعد الرحمة والنعمة بعد النعمة والإيمان والهداية بعد الإيمان والهداية وغير ذلك ، وقد نصّ القرآن الكريم بامور كثيرة من هذا القبيل.

وأما قوله : إن رجوع الضمير الى النبي (ص) ضعيف لعطف إنزال السكينة على ما قبلها الدالّ على وقوعه بعده وترتبه عليه وأن نزولها وقع بعد قوله لصاحبه: لا تحزن . انتهى .

ففيه: أنه لا ريب أن فاء التفريع تدل على ترتّب ما بعدها على ما قبلها ووقوعه بعده لكن بعديّة رتبيّة لا بعديّة زمانيّة ولم يقل أحد بوجوب كونها زمانيّة دائماً.

فمن الواجب فيما نحن فيه ان يترتب قوله: «فأنزل الله سكينته عليه وأيّده » على ما تقدّم عليه من الكلام لا على ما هو اقرب اليه من غيره إلا على القول بـأن الأصل في الضمير ان يعود الى اقرب مذكور ، وقد ضعّفه في سابق كلامه .

والذي يصلح من سابق ليتعلق به التفريع المذكور هو قوله: فقد نصره الله في كذا وكذا وقتاً وتفرّع هذه الفروع عليه من قبيل تفرّع التفصيل على الإجمال والسياق على استقامته : « فقد نصره الله في وقت كذا فأنزل سكينته عليه وأيّده

بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى .

فظهر أن ما اجاب به اخيراً هو عين ما ضعّفه أولاً من حديث اصـل قرب المرجع من الضمير ـ ذاك الأصل الذي لا أصل له ـ كرّره ثانياً بتغيير ما في اللفظ.

ومن هنا يظهر جهة المناقشة في رواية أخرى رواها في الدر المنثور عن ابن مردويه عن أنس بن مالك « قال : دخل النبي (ص) وأبو بكر غار حراء فقال ابو بكر للنبي (ص) لو ان أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرني وإياك فقال : ما ظنّك باثنين الله ثالثهما ان الله أنزل سكينته عليك وأيّدني بجنود لم تروها » .

على أن الرواية تذكر غار حراء وقد ثبت بالمستفيض المتكاثر من الأخبار أن الغار كان غار ثور لا غار حراء .

على ان الرواية مشتملة على تفكيك السياق صريحاً بما فيهـا من قوله : أنزل سكينته عليك وأيّدني بجنود ، الخ .

وقد أورد الآلوسي في روح المعاني الرواية هكذا : « إن الله أنزل سكينته عليك وأيّدك بجنود لم تروها » فأرجع الضميرين الى أبي بكر دون النبي (ص).

ولا ندري أي اللفظين هو الأصل وأيّهما المحرّف غير أنه يضاف على رواية « وأيّدك بجنود لم تروها » الى ما ذكر من الإشكال آنفاً إشكالات أخرى تقدمت في البيان السابق مضافاً الى إشكال آخر جديد من جهة قوله : «لم تروها» بخطاب الجمع ولا مخاطب يومئذ جمعاً .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً » في رواية أبي الجـارود عن ابي جعفر عليه‌السلام في قوله : « لو كان عرضاً قريبـاً وسفراً قاصداً » يقول : غنيمة قريبة « لاتـبعوك » .

وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم، عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام في قول الله : «لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتـبعوك » الآية إنهم يستطيعون وقد كان في علم الله أنه لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لفعلوا .

أقول : ورواه الصدوق في المعاني بإسناده عن عبـد الأعلى بن أعين عن أبي عبد الله عليه‌السلام مثله .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « ولكن بعـدت عليهم الشقـة » يعني إلى

تبوك وسبب ذلك ان رسول الله ﷺ لم يسافر سفراً أبعد منه ولا أشد منه .

وكان سبب ذلك أن الصيّافة كانوا يقدمون المدينة من الشام ومعهم الدرموك والطعام، وهم الأنباط فأشاعوا بالمدينة أن الروم قد اجتمعوا يريدون غزو رسول الله ﷺ في عسكر عظيم ، وأن هرقل قد سار في جمع جنوده، وجلب معهم غسّان وجذام وبهراء وعاملة ، وقد قدّم عساكره البلقاء ونزل هو حمص .

فأرسل رسول الله ﷺ أصحابه الى تبوك وهي من بلاد البلقاء، وبعث الى القبائل حوله ، وإلى مكة ، وإلى من أسلم من خزاعة ومزينة وجهينة فحثهم على الجهاد .

وأمر رسول الله ﷺ بعسكره فضرب في ثنية الوداع، وأمر اهل الجدة ان يعينوا من لا قوة به، ومن كان عنده شيء اخرجه، وحملوا وقووا وحثوا على ذلك.

وخطب رسول الله ﷺ وقال بعد حمد الله والثناء عليه : أيها الناس ان اصدق الحديث كتاب الله ، وأولى القول كلمة التقوى ، وخير الملل ملة ابراهيم ، وخير السنن سنّة محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الامور عزائمها وشر الامور محدثاتها، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف القتلى الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير الاعمال ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة محضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا نزراً، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجراً، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله ، وخير ما ألقى في القلب اليقين ، والإرتياب من الكفر ، والتباعد من عمل الجاهلية ، والغلول من قيح جهنم ، والسكر جمر النار ، والشعر من إبليس ، والخمر جماع الإثم، والنساء حبائل إبليس ، والشباب شعبة من الجنون، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر الأكل أكل مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقي من شقي في بطن امه ، وإنما يصير احدكم الى موضع اربعة أذرع ، والأمر الى آخره وملاك الأمر خواتيمه، وأربى الربا الكذب، وكلما هو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق، وقتال المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن توكل على الله كفاه، ومن صبر ظفر، ومن يعف يعف الله عنه، ومن كظم الغيظ

آجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوّضه الله ، ومن تبع السمعة يسمع الله به، ومن يصم يضاعف الله له ، ومن يعص الله يعذّبه ، اللهم اغفر لي ولأمتي . اللهم اغفر لي ولأمتي استغفر الله لي ولكم .

قال : فرغب الناس في الجهاد لما سمعوا هذا من رسول الله ، وقدمت القبائل من العرب ممن استنفرهم ، وقعد عنه قوم من المنافقين وغيرهم ، ولقي رسول الله ﷺ الجد بن قيس فقال له : يا أبا وهب ألا تنفر معنا في هذه الغزاة ؟ لعلك ان تحتفد من بنات الأصفر فقال يا رسول الله:والله إن قومي ليعلمون ان ليس فيهم اشد عجباً بالنساء مني وأخاف إن خرجت معك ان لا اصبر اذا رأيت بنات الأصفر فلا تفتني وائذن لي ان أقيم . وقال للجماعة من قومه : لا تخرجوا في الحر .

فقال ابنه: ترد على رسول الله وتقول له ما تقول ثم تقول لقومك : لا تنفروا في الحر والله لينزلن الله في هذا قرآناً يقرؤه الناس الى يوم القيامة فأنزل الله على رسوله ﷺ في ذلك : « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » .

ثم قال الجد بن قيس : أيطمع محمد ان حرب الروم مثل حرب غيرهم . لا يرجع من هؤلاء احد ابداً .

أقول: وقدروي هذه المعاني في روايات اخرى كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة.

وفي العيون بإسناده عن علي بن محمد بن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى عليه السلام فقال له : يا ابن رسول الله أليس من قولك : إن الأنبياء معصومون؟ قال : بلى، فقال له المأمون — فيما سأله — يا أبا الحسن فأخبرني عن قول الله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » .

قال الرضا عليه السلام : هذا مما نزل : إياك اعني واسمعي يا جارة ، خاطب الله تعالى بذلك نبيه وأراد به امته، وكذلك قوله عز وجل: « لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » ، وقوله تعالى : « ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً » . قال : صدقت يا ابن رسول الله .

أقول : ومضمون الرواية ينطبق على ما قدمناه في بيان الآية، دون ما ذكروه

من كون إذنه ﷺ لهم في القعود من قبيل ترك الاولى فإنه لا يستقيم معه كون الآية من قبيل « إياك أعني واسمعي يا جارة » .

وفي الدر المنثور أخرج عبدالرزاق في المصنف، وابن جرير، عن عمرو بن ميمون الاودي قال : اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء : إذنه للمنافقين، وأخذه من الاسارى فأنزل الله : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » الآية .

أقول : وقد تقدم الكلام على مضمون الرواية .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة » الآية وما بعدها قال: وتخلف عن رسول الله ﷺ اهل نيات وبصائر لم يكن يلحقهم شك ولا ارتياب ولكنهم قالوا : نلحق برسول الله ﷺ.

منهم ابو خيثمة وكان قوياً وكان له زوجتان وعريشان ، وكانتا زوجتاه قد رشتا عريشتيه، وبردتا له الماء، وهيأتا له طعاماً فأشرف على عريشتيه فلما نظر إليهما قال : لا والله ما هذا بإنصاف ، رسول الله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قد خرج في الفيح والريح ، وقد حمل السلاح يجاهد في سبيل الله، وابو خيثمة قوي قاعد في عريشة وامرأتين حسناوين لا والله ما هذا بإنصاف .

ثم أخذ ناقته فشد عليها رحله ولحق برسول الله ﷺ فنظر الناس الى راكب على الطريق فأخبروا رسول الله ﷺ بذلك فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة فأقبل ، وأخبر النبي بما كان منه فجزاه خيراً ودعا له .

وكان ابو ذر تخلف عن رسول الله ثلاثة ايام وذلك ان جمله كان أعجف، فلحق بعد ثلاثة ايام به ووقف عليه جمله في بعض الطريق فتركه وحمل ثيابه على ظهره فلما ارتفع النهار نظر المسلمون الى شخص مقبل فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذر فقالوا: هو ابو ذر فقال رسول الله ﷺ : أدركوه فانه عطشان فأدركوه بالماء .

ووافى ابو ذر رسول الله ﷺ ومعه إداوة فيها ماء فقال رسول الله ﷺ : يا ابا ذر معك ماء وعطشت ؟ قال : نعم يا رسول الله بأبي انت وامي انتهيت الى صخرة عليها ماء السماء فذقته فاذا هو عذب بارد فقلت: لا أشربه حتى يشرب رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ : يا ابا ذر رحمك الله، تعيش وحدك، وتموت وحدك،

وتبعث وحدك، وتدخل الجنة وحدك، يسعد بك قوم من اهل العراق يتولون غسلك وتجهيزك والصلاة عليك ودفنك .

ثم قال: وقد كان تخلف عن رسول الله ﷺ قوم من المنافقين وقوم من المؤمنين مستبصرين لم يعثر عليهم في نفاق : منهم كعب بن مالك الشاعر ومرارة بن الربيع وهلال بن امية الرافعي فلما تاب الله عليهم قال كعب : ما كنت قط اقوى مني في ذلك الوقت الذي خرج رسول الله ﷺ الى تبوك، وما اجتمعت لي راحلتان قط إلا في ذلك اليوم، وكنت اقول: اخرج غداً بعد غد فاني مقوّى، وتوانيت وثقلت بعد خروج النبي ﷺ اياماً ادخل السوق ولا اقضي حاجة فلقيت هلال بن امية ومرارة بن الربيع وقد كانا تخلفا ايضاً فتوافقنا ان نبكر الى السوق؛ فلم نقض حاجة فما زلنا نقول: نخرج غداً وبعد غد حتى بلغنا إقبال رسول الله (ص) فندمنا .

فلما وافى رسول الله ﷺ استقبلناه نهنئه السلامة فسلمنا عليه فلم يردّ علينا السلام وأعرض عنا ، وسلمنا على إخواننا فلم يردّوا علينا السلام فبلغ ذلك اهلونا فقطعوا كلامنا ؛ وكنا نحضر المسجد فلا يسلم علينا احد ولا يكلمنا فجاءت نساؤنا الى رسول الله (ص) فقلن: قد بلغنا سخطك على ازواجنا أفنعتزلهم ؟ فقال رسول الله (ص) : لا تعتزلنّهم ولكن لا يقربوكن .

فلما رأى كعب بن مالك وصاحباه ما قد حلّ بهم قالوا : ما يقعدنا بالمدينة ولا يكلمنا رسول الله (ص) ولا إخواننا ولا أهلونا ؟ فهلموا نخرج الى هذا الجبل فلا نزال فيه حتى يتوب الله علينا او نموت .

فخرجوا الى ذباب ـ جبل بالمدينة ـ فكانوا يصومون وكان أهلوهم يأتونهم بالطعام فيضعونه ناحية ثم يولون عنهم ولا يكلمونهم .

فبقوا على هذا اياماً كثيرة يبكون بالليل والنهار ويدعون الله ان يغفر لهم فلما طال عليهم الامر قال لهم كعب: ياقوم قد سخط الله علينا ورسوله، وقد سخط علينا أهلونا، وإخواننا قد سخطوا علينا فلا يكلمنا أحد فلم لا يسخط بعضنا على بعض؟ فتفرقوا في الجبل وحلفوا أن لا يكلم أحد منهم صاحبه حتى يموت أو يتوب الله عليه فبقوا على ذلك ثلاثة أيام، وكل واحد منهم في ناحية من الجبل لا يرى أحد منهم صاحبه ولا يكلمه .

فلمّا كان في الليلة الثالثة ، ورسول الله ﷺ في بيت أم سلمة نزلت توبتهم على رسول الله ﷺ قوله : « لقد تاب الله بالنبي على المهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه في ساعة العسرة » قال الصادق عليه السلام : هكذا نزلت وهو أبو ذرّ وأبو خيثمة وعمير بن وهب الذين تخلّفوا ثم لحقوا برسول الله ﷺ .

ثم قال في هؤلاء الثلاثة : « وعلى الثلاثة الذين خلّفوا » فقال العالم عليه السلام : إنما أنزل : على الثلاثة الذين خالفوا ولو خلّفوا لم يكن عليهم عيب « حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت » حيث لا يكلمهم رسول الله ﷺ ولا إخوانهم ولا اهلوهم فضاقت عليهم المدينة حتى خرجوا منها « وضاقت عليهم أنفسهم » حيث حلفوا أن لا يكلم بعضهم بعضاً فتفرّقوا وتاب الله عليهم لما عرف من صدق نياتهم .

أقول : وسيأتي الكلام في الآيتين وما ورد فيهما من الروايات .

وفي تفسير العيّاشي عن المغيرة قال : سمعته يقول في قول الله عز وجل : « ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة » قال : يعني بالعدّة النية ، يقول : لو كان لهم نية لخرجوا .

أقول : الرواية على ضعفها وإرسالها وإضمارها لا تنطبق على لفظ الآية والله أعلم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن إسحاق وابن المنذر عن الحسن البصري قال : كان عبد الله بن أبي وعبد الله بن نبتل ورفاعة بن زيد بن تابوت من عظماء المنافقين ، وكانوا ممن يكيد الإسلام وأهله ، وفيهم أنزل الله : « لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الامور » الى آخر الاية .

* * *

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ـ ٤٩ . إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ـ ٥٠ . قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ـ ٥١ .

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ
يُصِيبَكُمُ ٱللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ
مُتَرَبِّصُونَ ــ ٥٢ . قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ
كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ ــ ٥٣ . وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ
كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ
إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ــ ٥٤ . فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ
ٱللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ــ ٥٥ .
وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ــ ٥٦ .
لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ــ ٥٧ .
وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا
مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ــ ٥٨ . وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ
وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ ــ ٥٩ .
إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ
وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَٱللهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ــ ٦٠ . وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ
أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ
وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ــ ٦١ . يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ

لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ – ٦٢. أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ – ٦٣.

(بيان)

الآيات تعقّب القول في المنافقين وبيان حالهم وفيها ذكر أشياء من أقوالهم وأفعالهم، والبحث عمّا يكشف عنه من خبائث اوصافهم الباطنة واعتقاداتهم المبنية على الضلال.

قوله تعالى: «ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنّي ألا في الفتنة سقطوا» الآية الفتنة هنا – على ما يهدي اليه السياق – إما الإلقاء الى ما يفتتن ويغر به، وإما الإلقاء في الفتنة والبلية الشاملة.

والمراد على الأول: ائذن لي في القعود وعدم الخروج الى الجهاد، ولا تلقني في الفتنة بتوصيف ما في هذه الغزوة من نفائس الغنائم ومشتهيات الأنفس فافتتن بها وأضطر إلى الخروج، وعلى الثاني ائذن لي ولا تلقني الى ما في هذه الغزوة من المحنة والمصيبة والبليّة.

فأجاب الله عن قولهم بقولهم: «ألا في الفتنة سقطوا» ومعناه أنهم يحترزون بحسب زعمهم عن فتنة مترقبة من قبل الخروج، وقد اخطأوا فإن الذي هم عليه من الكفر والنفاق وسوء السريرة، ومن آثاره هذا القول الذي تفوهوا به هو بعينه فتنة سقطوا فيها فقد فتنهم الشيطان بالغرور، ووقعوا في مهلكة الكفر والضلال وفتنته.

هذا حالهم في هذه النشأة الدنيوية وأما في الآخرة فإن جهنم لمحيطة بالكافرين على حذو إحاطة الفتنة بهم في الدنيا وسقوطهم فيها فقوله: «ألا في الفتنة سقطوا» وقوله: «وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» كأنهما معاً يفيدان معنى واحداً وهو ان هؤلاء واقعون في الفتنة والتهلكة ابداً في الدنيا والآخرة.

ويمكن ان يفهم من قوله: «وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» الإحاطة بالفعل دون الإحاطة الاستقبالية كما تهدي اليه الآيات الدالة على تجسم الأعمال .

قوله تعالى: «إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك سيئة يقولوا قد أخذنا امرنا من قبل » المراد بالحسنة والسيئة بقرينة السياق ما تتعقبه الحروب والمغازي لأهلها من حسنة الفتح والظفر والغنيمة والسبي ، ومن سيئة القتل والجرح والهزيمة .

وقوله : « يقولوا قد أخذنا امرنا من قبل » كناية عن الاحتراز عن الشر قبل وقوعه كأن أمرهم كان خارجاً من ايديهم فأخذوه وقبضوا وتسلطوا عليه فلم يدعوه يفسد ويضيع .

فمعنى الآية أن هؤلاء المنافقين هواهم عليك: إن غنمت وظفرت في وجهك هذا ساءهم ذلك ، وإن قتلت او جرحت او اصبت بأي مصيبة اخرى قالوا قد احترزنا عن الشر من قبل وتولوا وهم فرحون .

وقد أجاب الله سبحانه عن ذلك بجوابين اثنين في آيتين : قوله : « قل لن يصيبنا » الخ وقوله : « قل هل تربّصون » الخ .

قوله تعالى : «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » محصّله أن ولاية امرنا إنما هي لله سبحانه فحسب – على ما يدل عليه قوله : « هو مولانا » من الحصر – لا الى انفسنا ولا الى شيء من هذه الاسباب الظاهرة ، بل حقيقة الامر لله وحده وقد كتب كتابة حتم ما سيصيبنا من خير او شر او حسنة او سيئة ، واذا كان كذلك فعلينا امتثال امره والسعي لإحياء امره والجهاد في سبيله ولله المشيّة فيما يصيبنا في ذلك من حسنة او سيئة فما على العبيد إلا ترك التدبير وامتثال الامر وهو التوكل .

وبذلك يظهر : ان المراد بقوله : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ليس كلاماً مستأنفاً بل معطوف على ما قبله متمم له ، والمعنى ان ولاية امرنا لله ونحن مؤمنون به، ولازمه ان نتوكل عليه ونرجع الأمر اليه من غير ان نختار لأنفسنا شيئاً من الحسنة والسيئة فلو اصابتنا حسنة كان المن له وإن اصابتنا سيئة كانت المشية والخيرة له ، ولا لوم علينا ولا شماتة تتعلق بنا ، ولا حزن ولا مساءة يطرء على قلوبنا .

وقد قال تعالى: «ما اصاب من مصيبة في الأرض ولا في انفسكم إلا في كتاب من قبل ان نبرأها إن ذلك على الله يسير. لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم» الحديد : ٢٣، وقال : «ما اصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه» التغابن : ١١ وقال: «ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا» سورة محمد: ١١، وقال: «والله وليّ المؤمنين» آل عمران: ٦٨، وقال: «فالله هو الولي» الشورى: ٩.

والآيات ـ كما ترى ـ تتضمن اصول هذه الحقيقة التي تنبىء عنه الآية التي نتكلم فيها جواباً عن وهم المنافقين، وهي ان حقيقة الولاية لله سبحانه ليس الى احد من دونه من الأمر شيء فإذا آمن الإنسان به وعرف مقام ربه علم ذلك وكان عليه ان يتوكل على ربه ويرجع اليه حقيقة المشية والخيرة فلا يفرح بحسنة اصابته، ولا يحزن لسيئة اصابته.

ومن الجهل ان يسوء الإنسان ما اصابت عدوّه من حسنة او يسرّه ما اصابته من سيئة فليس له من الأمر شيء، وهذا هو الجواب الأول عن مساءتهم بما اصاب المؤمنين من الحسنة وفرحهم بما اصابتهم من السيئة.

وظاهر كلام بعض المفسرين ان المولى في الآية بمعنى الناصر، وكذا ظاهر كلام بعضهم : ان قوله : «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» جملة مستأنفة امر الله فيها المؤمنين بالتوكل عليه، والسياق المشهود من الآيتين لا يساعد عليه.

قوله تعالى : «قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم» الآية الحسنيان هما الحسنة والسيئة على ما يدل عليه الآية الاولى الحاكية انهم يسوءهم ما اصاب النبي ﷺ من حسنة، وتسرهم ما اصابه من سيئة فيقولون قد اخذنا امرنا من قبل فهم على حال تربص ينتظرون ما يقع به وبالمؤمنين من الحسنة أو السيئة.

والحسنة والسيئة كلتاهما حسنيان بحسب النظر الديني فإن في الحسنة حسنة الدنيا وعظيم الأجر عند الله، وفي السيئة التي هي الشهادة او أي تعب وعناء اصابهم مرضاة الله وثواب خالد دائم.

ومعنى الآية أنا نحن وأنتم كل يتربص بصاحبه غير انكم تتربصون بنا إحدى خصلتين كل واحدة منها خصلة حسنى وهما : الغلبة على العدو مع الغنيمة، والشهادة

في سبيل الله ، ونحن نتربص بكم ان يعذبكم الله بعذاب من عنده كالعذاب السماوي او بعذاب يجري بأيدينا كأن يأمرنا بقتالكم وتطهير الأرض منقذارة وجودكم فنحن فائزون على أي حال ، إن وقع شيء مما تربصتم سعدنا ، وإن وقع ما تربصنا سعدنا فتربصوا إنا معكم متربصون ، وهذا جواب ثان عن المنافقين .

وقد ذكر في الآية الاولى إصابة الحسنة والسيئة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي مقام الجواب في الآيتين الثانية والثالثة إصابتها النبي والمؤمنين جميعاً لملازمتهم إياه ومشاركتهم إياه فيما أصابه من حسنة او سيئة .

قوله تعالى: «قل أنفقوا طوعاً او كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين» لفظ امر في معنى الشرط. والترديد للتعميم ولفظ الأمر في هذه الموارد كناية عن عدم النهي وسد السبيل إيماء الى ان الفعل لغو لا يترتب عليه أثر ، وقوله: «لن يتقبل منكم» تعليل للأمر كما ان قوله تعالى : « إنكم كنتم قوماً فاسقين » تعليل لعدم القبول .

ومعنى الآية : لا نمنعكم عن الإنفاق في حال من طوع او كره فإنه لغو غير مقبول لأنكم فاسقون ، ولا يقبل عمل الفاسقين ، قال تعالى : « إنما يتقبل الله من المتقين » المائدة : ٢٧ والتقبل أبلغ من القبول .

قوله تعالى: «وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم إلا انهم كفروا بالله وبرسوله» الخ الآية تعليل تفصيلي لعدم تقبل نفقاتهم ، وبعبارة اخرى بمنزلة الشرح لفسقهم ، وقد عدت الكفر بالله تعالى ورسوله والكسل في إقامة الصلاة والكره في الإنفاق أركاناً لنفاقهم.

قوله تعالى: « فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها » الى آخر الآية ، الإعجاب بالشيء السرور بما يشاهد فيه من جمال او كمال او نحوهما ، والزهوق خروج الشيء بصعوبة وأصله الهلاك على ما قيل .

وقد نهى الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم عن الإعجاب بأموال المنافقين وأولادهم أي بكثرتها على ما يعطيه السياق ، وعلل ذلك بأن هذه الأموال والأولاد – وهي شاغلة للإنسان لا محالة – ليست من النعمة التي تهتف لهم بالسعادة بل من النقمة التي تجرهم الى الشقاء فإن الله وهو الذي خوّلهم إياها إنما أراد بها تعذيبهم في الحياة الدنيا ، وتوفيهم وهم كافرون .

فإن الحياة التي يعدها الموجود الحي سعادة لنفسه وراحة لذاته إنما تكون سعادة فيها الراحة والبهجة اذا جرت على حقيقة مجراها وهو ان يتلبس الإنسان بواقع آثارها من العلم النافع والعمل الصالح من غير ان يشتغل بغير ما فيه خيره ونفعه ، فهـذه هي الحياة التي لا موت فيها ، والراحة التي لا تعب معها ، واللذة التي لا ألم دونها ، وهي الحياة في ولاية الله ، قال تعالى : « ألا إن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » يونس : ٦٢ .

وأما من اشتغل بالدنيا وجذبته زيناتها من مال وبنين الى نفسها وغرته الآمال والأماني الكاذبة التي تتراءى له منها واستهوته الشياطين فقد وقع في تناقضات القوى البدنية وتزاحمات اللذائذ المادية ، وعذّب اشد العذاب بنفس ما يرى فيه سعادته ولذته فمن المشاهد المعاين ان الدنيا كلما زادت إقبالاً على الإنسان ، ومتعته بكثرة الأموال والأولاد أبعدته عن موقف العبودية وقربته الى الهلاك وعذاب الروح فلا يزال يتقلب بين هذه الأسباب الموافقة والمخالفة ، والأوضاع والأحوال الملائمة والمزاحمة ، فالذي يسميه هؤلاء المغفلون سعة العيش هو بالحقيقة ضنك كما قال تعالى: « ومن اعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى» طه: ١٢٦.

فغاية إعراض الإنسان عن ذكر ربه ، وانكبابه على الدنيا يبتغي بـه سعادة الحياة وراحة النفس ولذة الروح ان يعذّب بـين اطباق هذه الفتن التي يراها نعماً ، ويكفر بربـه بالخروج عن زي العبودية كما قال : « إنما يريد الله ليعذبهم بها وتزهق أنفسهم وهم كافرون» وهو الإملاء والاستدراج الذين يذكرهما في قوله: «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين » : الأعراف : ١٨٣ .

قوله تعالى : « ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم » الى آخر الآيتين ، الفرق انزعاج النفس من ضرر متوقع ، والملجأ الموضع الذي يلتجأ اليه ويتحصن فيـه ، والمغار المحـل الذي يغور فيه الإنسان فيستره عن الأنظار ، ويطلق على الغار وهو الثقب الذي يكون في الجبال ، والمدخل من الافتعال الطريق الذي يتدسس بالدخول فيه ، والجماح مضي المار مسرعاً على وجهه لا يصرفه عنه شيء ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن اعطوا منها رضوا وإن لم

يعطوا منها اذا هم يسخطون» اللمز العيب ، وإنما كانوا يعيبونه فيها اذا لم يعطهم منها لعدم استحقاقهم ذلك او لأسباب أخر كما يدل عليه ذيل الآية .

قوله تعالى : « ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله » الى آخر الآية ، « لو » للتمني وقوله: «رضوا ما آتاهم الله» كأن الرضى ضمن معنى الأخذ ولذا عدي بنفسه أي اخذوا ذلك راضين به او رضوا آخذين ذلك ، والإيتاء الإعطاء ، وحسبنا الله أي كفانا فيما نرغب اليه ونأمله .

وقوله : « سيؤتينا الله من فضله ورسوله » بيان لما يرغب اليه ويطمع فيه وليس اخباراً عما سيكون ، وقوله : « إنا الى الله راغبون » كالتعليل لقوله : « سيؤتينا الله » الى آخر الآية .

والمعنى وكان مما يتمنى لهم ان يكونوا اخذوا ما اعطاهم الله ورسوله بأمر منه من مال الصدقات او غيره ، وقالوا كفانا الله سبحانه من سائر الأسباب ونحن راغبون في فضله ونطمع ان يؤتينا من فضله ويؤتينا رسوله .

وفي الآية ما لا يخفى من لطيف البيان حيث نسب الايتاء الى الله وإلى رسوله وخص الكفاية والفضل والرغبة بالله على ما هو لازم دين التوحيد .

قوله تعالى : إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل» الآية ، بيان لموارد تصرف اليها الصدقات الواجبة وهي الزكوات بدليل قوله في آخر الآية: «فريضة من الله» وهي ثمانية . وارد على ظاهر ما يعطيه سياق الآية ولازمه أن يكون الفقير والمسكين موردين أحدهما غير الآخر .

وقد اختلفوا في الفقير والمسكين أنهما صنف واحد أو صنفان ، ثم على الثاني في معناهما على اقوال كثيرة لا ينتهي اكثرها الى حجة بيّنة ، والذي يعطيه ظاهر لفظيهما ان الفقير هو الذي اتصف بالعدم وفقدان ما يرفع حوائجه الحيوية من المال قبال الغني الذي اتصف بالغنى وهو الجدة واليسار .

وأما المسكين فهو الذي حلت به المسكنة والذلة مضافة الىفقدان المالوذلك انما يكون بأن يصل فقره الى حد يستذله بذلك كمن لا يجد بداً من ان يبذل ماء

وجهه ويسأل كل كريم ولئيم من شدة الفقر و كالأعمى والأعرج فالمسكين أسوء حالاً من الفقير .

والفقير والمسكين وإن كانا بحسب النسبة أعمّ وأخص فكل مسكين من جهة الحاجة المالية فقير ولا عكس غير ان العرف يراهما صنفين متقابلين لمكان مغايرة الوصفين في نفسها فلا يرد أن ذكر الفقير على هذا المعنى مغن عن ذكر المسكين لمكان أعميّته وذلك أن المسكنة هي وصف الذلة كالزمانة والعرج والعمى وان كان بعض مصاديقه نهاية الذلة من جهة فقد المال .

وأما العاملون عليها اي على الصدقات فهم الساعون لجمع الزكوات وجباتها .

وأما المؤلفة قلوبهم فهم الذين يؤلف قلوبهم بإعطاء سهم من الزكاة ليسلموا أو يدفع بهم العدو او يستعان بهم على حوائج الدين .

وأما قوله : « وفي الرقاب » فهو متعلق بمقدّر والتقدير: والمصرف في الرقاب أي في فكها كما في المكاتب الذي لا يقدر على تأدية ما شرطه لمولاه على نفسه لعتقه أو الرق الذي كان في شدّة .

وقوله : « والغارمين » اي وللصرف في الغارمين الذين ركبتهم الديون فيقضى ديونهم بسهم من الزكاة .

وقوله: « وفي سبيل الله» اي وللصرف في سبيل الله، وهو كل عمل عام يعود عائدته الى الإسلام والمسلمين وتحفظ به مصلحة الدين ومن أظهر مصاديقه الجهاد في سبيل الله ، ويلحق بـه سائر الأعمال التي تعم نفعه وتشمل فائدته كاصلاح الطرق وبناء القناطر ونظائر ذلك .

وقوله : « وابن السبيل » اي وللصرف في ابن السبيل وهو المنقطع عن وطنه الفاقد لما يعيش به وإن كان غنياً ذا يسار في بلده فيرفع حاجته بسهم من الزكاة .

وقد اختلف سياق العد فيما ذكر في الآية من الأصناف الثمانية فذكرت الأربعة الأول باللام : « للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم » ثم غيّر السياق في الأربعة الباقية فقيل: « وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل» فان ظاهر السياق الخاص بهذه الاربعة أن التقدير: وفي الرقاب وفي الغارمين وفي سبيل الله وفي ابن السبيل .

اما الأربعة الاول: «للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم» فاللام

فيها للملك بمعنى الاختصاص في التصرف فان الآية بحسب السياق كالجواب عن المنافقين الذين كانوا يطمعون في الصدقات وهم غير مستحقين لها وكانوا يلمزون النبي ﷺ في حرمانهم منها فاجيبوا بالآية أن للصدقات مواضع خاصة تصرف فيها ولا تتعداها ، والآية ليست بظاهرة في أزيد من هذا المقدار من الاختصاص .

وأما كون ملكهم للصدقات هو الملك بمعناه المعروف فقهاً ؟ وكذا حقيقة هذا الملك مع كون المالكين أصنافاً بعناوينهم الصنفية لاذوات شخصية ؟ ونسبة سهم كل صنف الى بقية السهام ؟ فإنما هي مسائل فقهية خارجة عن غرضنا ، وقد اختلفت اقوال الفقهاء فيها اختلافاً شديداً فليرجع الى الفقه .

وأما الأربعة الباقية : « وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » فقد قيل في تغيير السياق فيها وفي تأخيرها عن الأربعة الاول وجوه :

منها : ان الترتيب لبيان الأحق فالأحق من الأصناف ، فأحق الأصناف بها الفقراء ثم المساكين وهكذا على الترتيب ، ولكون الاربعة الاخيرة بحسب ترتيب الأحقية واقعة في المراتب الاربع الاخيرة وضع كل في موضعه الخاص ، ولولا هذا الترتيب لكان الأنسب ان يذكر الأصناف ثم تذكر موارد المصالح فيقال : للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وابن السبيل ثم يقال : وفي الرقاب وسبيل الله .

والحق أن دلالة الترتيب بما فيه من التقديم والتأخير على أهمية الملاك وقوة المصلحة في اجزاء الترتيب لا ريب فيه فان كان مراده بالأحق فالأحق الأهم ملاكاً فالأهم فهو ، ولو كان المراد التقدم والتأخر من حيث الإعطاء والصرف وما يشبه ذلك فلا دلالة من جهة اللفظ عليه البتة كما لا يخفى والذي أيده به من الوجه لا جدوى فيه .

ومنها : ان العدول عن اللام في الأربعة الأخيرة الى « في » للإيذان بأنهم ارسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره لأن « في » للوعاء فنبّه على انهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصباً ، وذلك لما في فكّ الرقاب من الكتابة او الرق والأسر ، وفي فكّ الغارمين من الغرم والتخليص والانقاذ ، ولجمع الغازي الفقير او المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال .

وتكرير « في » في قوله : « وفي سبيل الله وابن السبيل » فيه فضل ترجيح

لهذين على الرقاب والغارمين . كذا ذكره في الكشاف .

وفيه: أنه معارض بكون الأربعة الاول مدخولة للام الملك فان المملوك اشد لزوماً واتصالاً بالنسبة الى مالكه من المظروف بالنسبة الى ظرفه ، وهو ظاهر .

ومنها: أن الأصناف الأربعة الاوائل ملاك لما عساه يدفع اليهم ، وإنما يأخذونه ملكاً فكان دخول اللام لائقاً بهم ، وأما الاربعة الاواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم بل ولا يصرف اليهم ولكن في مصالح تتعلق بهم .

فالمال الذي يصرف في الرقاب انما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون فليس نصيبهم مصروفاً الى ايديهم حتى يعبّر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم ، وإنما هم محال لهذا الصرف والمصلحة المتعلقة به ، وكذلك الغارمون انما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لذممهم لا لهم ، وأما سبيل الله فواضح ذلك فيه ، وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجاً في سبيل[1] الله ، وإنما أفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته مع انه مجرَّد من الحرفين جميعاً وعطفه على المجرور باللام ممكن ولكنه على القريب منه أقرب .

وهذا الوجه لا يخلو عن وجه غير أن اجراءه في ابن السبيل لا يخلو عن تكلف ، وما ذكر من دخوله في سبيل الله هو وجه مشترك بينه وبين غيره .

ولو قال قائل بكون الغارمين وابن السبيل معطوفين على المجرور باللام ثم ذكر الوجه الاول بالمعنى الذي ذكرناه وجهاً للترتيب والوجه الاخير وجهاً لإختصاص الرقاب وسبيل الله بدخول « في » لم يكن بعيداً عن الصواب .

وقوله في ذيل الآية: «فريضة من الله والله عليم حكيم» إشارة الى كون الزكاة فريضة واجبة مشرّعة على العلم والحكمة لا تقبل تغيير المغيّر ، ولا يبعد ان يتعلق الفرض بتقسمها الى الاصناف الثمانية كما ربما يؤيده السياق فان الغرض في الآية إنما تعلّق ببيان مصارف الصدقات لا بفرض اصلها فالأنسب ان يكون قوله: «فريضة من الله » اشارة الى ان تقسّمها الى الاصناف الثمانية امر مفروض من الله لا يتعدى عنه على خلاف ما كان يطمع فيه المنافقون في لمزهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) بل هو ايضاً كالغارمين والرقاب لا يدفع اليه نصيبه وانما يصرف في المصلحة المتعلقة به من الزاد واكتراء الراحلة حتى يصل الى وطنه (ب) .

ومن هنا يظهر ان الآية لا تخلو عن إشعار بكون الاصناف الثمانية على سهمها من غير اختصاص بزمان دون زمان خلافاً لما ذكره بعضهم: أن المؤلفة قلوبهم كانوا جماعة من الاشراف في زمن النبي ﷺ ألّف قلوبهم بإعطاء سهم من الصدقات إيام، وأما بعده ﷺ فقد ظهر الاسلام على غيره ، وارتفعت الحاجة الى هذا النوع من التأليفات ، وهو وجه فاسد وارتفاع الحاجة ممنوع .

قوله تعالى : « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم» الاذن جارحة السمع المعروفة، وقد أطلقوا عليه ﷺ الاذن وسمّوه بهـــا إشارة الى أنه يصغي لكل ما قيل له ويستمع الى كل ما يذكر له فهو أذن .

وقوله: «قل أذن خير لكم» من الإضافة الحقيقية اي سمّاع يسمع ما فيه خيركم حيث يسمع من الله سبحانه الوحي وفيه خـير لكم ، ويسمع من المؤمنين النصيحة وفيها خير لكم ويمكن ان يكون من إضافة الموصوف الى الصفة اي أذن هي خير لكم لأنه لا يسمع إلا ما ينفعكم ولا يضركم .

والفرق بين الوجهين أن اللازم على الاول ان يكون مسموعه خيراً لهم كالوحي من الله والنصيحة من المؤمنين، واللازم على الثاني ان يكون استماعه استماع خير وإن لم يكن مسموعه خيراً كأن يستمع الى بعض ما ليس خيراً لهم لكنه يستمع اليه فيحترم بذلك قائله ثم يحمل ذلك القول منه على الصحة فلا يهتك حرمته ولا يسيء الظن به ثم لا يرتب أثر الخبر الصادق المطابق للواقع عليه فلا يؤاخذ من قيل فيه بما قيل فيه فيكون قد احترم إيمانه كما احترم إيمان القائل الذي جاءه بالخبر .

ومن هنا يظهر أن الأنسب بسياق الآية هو الوجه الثاني لما عقبه بقوله: « يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين » الآية .

وذلك أن الإيمان هو التصديق، وقد ذكر متعلق الإيمان في قوله: «يؤمن بالله» وأما قوله : «ويؤمن للمؤمنين» فلم يذكر متعلقه وإنما ذكر أن هذا التصديق لنفع المؤمنين لمكان اللام ، والتصديق الذي يكون فيه نفع المؤمنين حتى في الخبر الذي يتضمن ما يضرهم إنما هو التصديق بمعنى إعطاء الصدق المخبري دون الخبري اي فرض أن المخبر

صادق بمعنى أنه معتقد بصدق خبره وإن كان كاذباً لا يطابق الواقع .

وهذا كما في قوله تعالى: «اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون» المنافقون: ١ فالله سبحانه يكذّب المنافقين لا من حيث خبرهم برسالة النبي ﷺ بل من حيث إخبارهم بخلاف ما يعتقدونه وهـذا بخلاف قول المؤمنين فيما حكى الله سبحانه : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله » الأحزاب :٢٢ فهم يصدّقون الله ورسوله في الخبر لا في الاعتقاد .

وبالجملة ظاهر قوله: «يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين» أنه يصدّق الله فيما أخبره به من الوحي، ويصدّق لنفع المؤمنين كل من ألقى اليه منهم خبراً بحمل فعله على الصحة وعدم رميه بالكذب وسوء النية من غير ان يرتب أثراً على كل ما يسمعه ويستمع اليه وإلا لم يكن تصديقه لنفع المؤمنين واختلّ الامر، وهذا المعنى كما ترى يؤيد الوجه الثاني المذكور.

وكأن المراد بالمؤمنين المجتمع المنسوب اليهم وإن اشتمل على أفراد من غيرهم كالمنافقين وعلى هذا كان المراد بالذين آمنوا منهم المؤمنون من قومهم حقاً فمعنى الكلام أنه يصدق ربه ويصدق كل فرد من أفراد مجتمعكم احتراماً لظاهر حاله من الانتساب الى المؤمنين وهو رحمة للذين آمنوا منكم حقاً لأنه يهديهم الى مستقيم الصراط .

وإن كان المراد من الذين آمنوا هم الذين آمنوا في اول البعثة قبل الفتح - كما تقدم سابقاً أن «الذين آمنوا» اسم تشريفي في القرآن للمؤمنين الأولين في الاسلام - كان المراد بالمؤمنين في قوله: «ويؤمن للمؤمنين» المؤمنون منهم حقاً كما أُطلق بهذا المعنى في قوله: « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله » الأحزاب : ٢٢ .

وربما قيل: إن اللام في قوله: «ويؤمن للمؤمنين» للتعدية كما في قوله: «يؤمن بالله» فالإيمان يتعدّى بالحرفين جميعاً كما في قوله: «فآمن له لوط» العنكبوت: ٢٦ وقوله: « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه » يونس : ٨٣ وقوله : «أنؤمن لك واتبعك الأرذلون» الشعراء : ١١١ .

وربما قيل : إن اللفظ جارٍ على طريقة التضمين بتضمين الإيمان معنى الجنوح المتعدي باللام والمعنى يجنح للمؤمنين مؤمناً بهم او يؤمن جانحاً لهم .

والوجهان وإن كانا لا بأس بهما في نفسهما لكن يبعّد ذلك لزوم التفكيك في قوله: « يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين » بين «يؤمن» الاول والثاني من غير نكتة ظاهرة إلا ان يحمل على التفنن في التعبير ومع ذلك فالنتيجة هي النتيجة السابقة فإن إيمانه بالمؤمنين لا يختص بالمخبرين خاصة حتى يصدق خبرهم ويؤاخذ آخرين اذا أخبر بما يضرهم بل إيمان يعم جميع المؤمنين فيصدق المخبر في خبره بمعنى إعطاء الصدق المخبري ويصدق المخبر عنه بحمل فعله على الصحة فافهم ذلك .

وعدّه تعالى نبيه في قوله : « ورحمة للذين آمنوا منكم » رحمة لقوم خاص في هذه الآية مع عدّه رحمة للناس كلهم في قوله عز وجل : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» الأنبياء:١٠٧ إنما هو لاختلاف المراد بالرحمة في الآيتين فالمراد بها ههنا الرحمة الفعلية وهناك الرحمة الشأنية .

وبعبارة أخرى هو ﷺ رحمة لمن آمن به حقاً بمعنى أن الله سبحانه أنقذه به من الضلالة وختم له بالسعادة والكرامة، ورحمة للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم، من معاصريه وممن يأتي بعده بمعنى أن الله بعثه(ص) بملة بيضاء وسنّة طيبة فحول المجتمع البشري وصرفه عن مسيره المنحرف عن الاستقامة الى طريق الشقاوة والهلاك، وأنار بشعلته صراط الفطرة الإلهية فمن راكب على السبيل فائز بالغاية المطلوبة، ومن خارج عن مسير الردى والهلكة ولما يركب متن الصراط الفطري ، ومن قاصد للخروج والورود ولما يخرج وهذا حال المجتمع العام البشري بعد طلوع الإسلام وبسطه معارفه بين الناس وإيصاله الى سمع كل سامع وتأثيره في كل من السنن الاجتماعية بما في وسعه أن يتأثر به ، وهذا مما لا يرتاب فيه باحث عن طبيعة المجتمع الإنساني، وهذا الوجه قريب المأخذ من الوجه السابق أو راجع اليه بالحقيقة .

قوله تعالى: «يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين » قال في المجمع : « الفرق بين الأحق والأصلح أن الأحق قد يكون من غير صفات الفعل كقولك : زيد أحق بالمال، والأصلح لا يقع هذا الموقع لأنه من صفات الفعل وتقول : الله أحق بأن يطاع ولا تقول أصلح » . انتهى .

والسبب الأصلي فيه أن الصلاحية والصلوح يحمل معنى الاستعداد والتهيؤ ، والحق يحمل معنى الثبوت واللزوم، والله سبحانه لا يتصف بشيء من معنى الاستعداد

والقبول المستلزم لتأثير الغير فيه وتأثره عنه .

وقد حول الله الخطاب في الآية عن نبيه(ص) الى المؤمنين التفاتاً وكأن الوجه فيه التلويح لهم بما يشتمل عليه قوله: «والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين» من الحكم وهو ان من الواجب على كل مؤمن ان يرضي الله ورسوله ، ولا يحاد الله ورسوله فإن فيه خزياً عظيماً نار جهنم خالداً فيها .

ومن أدب التوحيد في الآية ما في قوله: «أحق أن يرضوه» من إفراد الضمير ولم يقل: أحق ان يرضوهما صوناً لمقامه تعالى من ان يعدل به أحد فإن أمثال هذه الحقوق وكذا الاوصاف التي يشاركه تعالى غيره من حيث الإطلاق والإجراء، له تعالى بالذات ولنفسه ولغيره بالتبع أو بالعرض ومن جهته كوجوب الإرضاء والتعظيم والطاعة وغيرها ، وكالاتصاف بالعلم والحياة والإحياء والإماتة وغيرها .

وقد روعي نظير هذا الأدب في القرآن في موارد كثيرة فيما يشارك النبي(ص) غيره من الامة من الشؤون فأخرج النبي (ص) من بينهم وأفرد بالذكر كما في قوله : « يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا » التحريم:٨ وقوله: «فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين» الفتح: ٢٦ وقوله: «آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون» البقرة : ٢٨٥ وغير ذلك .

قوله تعالى: « ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم » إلى آخر الآية قال في المجمع : المحادة مجاوزة الحد بالمشاقة ، وهي والمخالفة والمجانبة والمعاداة نظائر، وأصله المنع والمحادة ما يلحق الإنسان من النزق لأنه يمنعه من الواجب وقال: والخزي الهوان وما يستحيى منه . انتهى .

والاستفهام في الآية للتعجيب، والكلام مسوق لبيان كونه تعالى و كون رسوله أحق بالإرضاء ومحصله أنهم يعلمون أن محادة الله ورسوله والمشاقة والمعاداة مع الله ورسوله والإسخاط يوجب خلود النار، وإذا حرم إسخاط الله ورسوله وجب إرضاؤه وإرضاء رسوله على من كان مؤمناً بالله ورسوله .

(بحث روائي)

في تفسير القمي عن ابي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله تعالى : « وإن تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة » الآية أما الحسنة فهي الغنيمة والعافية ، واما المصيبة فالبلاء والشدة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن جابربن عبدالله قال:جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أخبار السوء ، ويقولون : ان محمداً واصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبي (ص) وأصحابه فساءهم ذلك فأنزل الله تعالى : « ان تصبك حسنة تسؤهم » الآية .

وفي الكافي بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : قلت له : قول الله عز وجل « هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين » قال : إما موت في طاعة الإمام أو إدراك ظهور إمام « ونحن نتربص بكم » مع ما نحن فيه من المشقة « أن يصيبكم الله بعذاب من عنده » قال : هو المسخ « أو بأيدينا » وهو القتل، قال الله عز وجل لنبيه : « فتربصوا إنا معكم متربصون » .

أقول : وهو من الجري دون التفسير .

في المحاسن بإسناده عن يوسف بن ثابت عن ابي عبدالله عليه‌السلام قال : لا يضر مع الإيمان عمل ، ولا ينفع مع الكفر عمل .

ثم قال : ألا ترى أن الله تبارك وتعالى قال : « وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله ورسوله » .

أقول : ورواه العياشي والقمي عنه وكذا الكليني في الكافي عنه في حديث مفصل والرواية تبينها آيات وروايات أُخرى فالإيمان ما دام باقياً لا يضرّه معصية بإيجاب خلود النار ، والكفر ما دام كفراً لا ينفع معه حسنة .

وفي الجمع في قوله تعالى : « مدخلا » الآية قال:سرباً عن ابي جعفرعليه‌السلام.

وفي الكافي بإسناده عن إسحاق بن غالب قال : قال ابو عبد الله عليه‌السلام يا إسحاق كم ترى أهل هذه الآية : فإن اعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم

يسخطون » قال : هم اكثر من ثلثي الناس .

أقول : ورواه العياشي في تفسيره والحسين بن سعيد في كتاب الزهد عن إسحاق عنه عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج البخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابو الشيخ وابن مردويه عن ابي سعيد الخدري قال : بينما النبي صلى الله عليه وآله يقسم قسماً إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي فقال : اعدل .يا رسول الله فقال : ويلك ومن يعدل اذا لم أعدل .

فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله دعه فان له اصحاباً يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر في نضيه فلا يرى فيه شيء ، ثم ينظر في رصافه فلا يرى فيه شيء ، ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء ، قد سبق الفرث والدم آيتهم رجل اسود احدى ثديه– او قال : ثدييه – مثل ثدي المرأة او مثل البضعة تدر در يخرجون على حين فرقة من الناس قال : فنزلت فيهم : « ومنهم من يلمزك في الصدقات » الآية .

قال ابو سعيد : اشهد اني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأشهد ان علياً حين قتلهم وانا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله صلى الله عليه وآله .

وفي تفسير القمي في الآية: أنها نزلت لمـّا جاءت الصدقات وجاء الأغنياء وظنوا أن الرسول يقسمها بينهم فلمّا وضعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الفقراء تغامزوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولمزوه ، وقالوا : نحن الذين نقوم في الحرب ونغزو معه ونقوي امره ثم يدفع الصدقات الى هؤلاء الذين لا يعينونه ولا يغنون عنه شيئاً فأنزل الله: «ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنـّا الى الله راغبون » .

ثم فسر الله عزّ وجل الصدقات لمن هي وعلى من يجب ؟ فقال : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » فأخرج الله من

الصدقات جميع الناس إلا هذه الثمانية الأصناف الذين سمّاهم .

وبيّن الصادق عليه السلام من هم ؟ فقال: الفقراء هم الذين لا يسألون وعليهم مؤنات من عيالهم ، والدليل على انهم لا يسألون قول الله تعالى في سورة البقرة : « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً » .

والمساكين هم اهل الزمانة من العميان والعرجان والمجذومين وجميع اصناف الزمنى من الرجال والنساء والصبيان .

والعاملين عليها هم السعاة والجباة في اخذها وجمعها وحفظها حتى يؤديها الى من يقسمها .

والمؤلفة قلوبهم قوم وحدوا الله ولم يدخل المعرفة قلوبهم ان محمداً رسول الله فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتألفهم ويعلمهم كيما يعرفوا فجعل الله لهم نصيباً في الصدقات كي يعرفوا ويرغبوا .

أقول: وقد وردت في تأييد هذا الذي ارسله من الرواية روايات كثيرة مسندة من طرق اهل البيت عليهم السلام . وفي بعض الروايات تعارض ما ، وليرجع في تفصيل الروايات على كثرتها وتنقيح المطلب الى جوامع الحديث وكتب الفقه .

وفي الدر المنثور اخرج البخاري وابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابي سعيد الخدري قال : بعث علي بن ابي طالب من اليمن الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذهبية فيها تربتها فقسمها بين اربعة من المؤلفة : الأقرع بن حابس الحنظلي وعلقمة بن علاثة العامري وعيينة بن بدر الفزاري وزيد الخيل الطائي ، فقالت قريش والأنصار : أتقسم بين صناديد اهل نجد وتدعنا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إنما أتألفهم .

وفي الدر المنثور اخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن مردويه عن يحيى بن ابي كثير قال : المؤلفة قلوبهم من بني هاشم ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ومن بني امية ابو سفيان بن حرب، ومن بني مخزوم الحارث بن هشام وعبد الرحمن بن يربوع ومن بني اسد حكيم بن حزام، ومن بني عامر سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ، ومن بني جمح صفوان بن امية ، ومن بني سهم عدي بن

قيس ، ومن ثقيف العلاء بن جارية او حارثة ، ومن بني فزارة عيينة بن حصن ، ومن بني تميم الأقرع بن حابس، ومن بني نصر مالك بن عوف، ومن بني سليم العباس ابن مرداس .

اعطى النبي ﷺ كل رجل منهم مائة ناقة إلا عبدالرحمن بن يربوع وحويطب ابن عبد العزى فإنه أعطى كل واحد منهما خمسين .

وفي تفسير القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر عليه السلام قال: المؤلفة قلوبهم: ابو سفيان بن حرب بن امية، وسهيل بن عمرو وهو من بني عامر بن لؤي، وهشام ابن عمرو اخوه : ـ اخو بني عامر بن لؤي ـ وصفوان بن امية بن خلف القرشي ثم الجمحي ، والأقرع بن حابس التميمي احد بني حازم وعيينة بن حصن الفزاري ومالك بن عوف وعلقمة بن علاثة .

بلغني أن رسول الله ﷺ كان يعطي الرجل منهم مائة من الإبل ورعاتها وأكثر من ذلك وأقل .

أقول : وهؤلاء هم المؤلفة قلوبهم الذين اعطاهم النبي ﷺ تأليفاً لقلوبهم ، وليس المراد حصر المؤلفة قلوبهم وهم صنف من الأصناف الثمانية المذكور في الآية في هؤلاء الأشخاص بأعيانهم .

وفي تفسير العياشي عن ابن اسحاق عن بعض اصحابنا عن الصادق عليه السلام قال: سئل عن مكاتب عجز عن مكاتبته وقد أدى بعضها ، قال: يؤدى من مال الصدقة إن الله يقول في كتابه : « وفي الرقاب » .

وفيه عن زرارة قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام : عبد زنى ؟ قال: يجلد نصف الحد ، قال : قلت : فان هو عاد ؟ قال : يضرب مثل ذلك، قال: قلت: فان هو عاد ؟ قال : لا يزاد على نصف الحد . قال : قلت : فهل يجب عليه الرجم في شيء من فعله ؟ قال : نعم يقتل في الثامنة إن فعل ذلك ثمان مرات .

قال : قلت : فما الفرق بينه وبين الحر وإنما فعلها واحد ؟ فقال له : ان الله

رحمه ان يجمع عليه ربق الرقّ وحد الحر . قال : ثم قال : وعلى إمام المسلمين ان يدفع ثمنه الى مولاه من سهم الرقاب .

وفيه عن الصباح بن سيابة قال : أيما مسلم مات وترك ديناً لم يكن في فساد وعلى إسراف فعلى الإمام أن يقضيه فان لم يقض فعليه إثم ذلك إن الله يقول: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين» فهو من الغارمين وله سهم عند الإمام فان حبسه فإثمه عليه .

وفيه عن محمد بن القسريّ عن ابي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن الصدقة فقال : اقسمها فيمن قال الله ، ولا يعطى من سهم الغارمين الذين يغرمون في مهور النساء ولا الذين ينادون نداء الجاهلية قال : قلت : وما نداء الجاهلية ؟ قال : الرجل يقول : يا آل بني فلان فيقع بينهم القتل ولا يؤدى ذلك من سهم الغارمين، ولا الذين لا يبالون ما صنعوا بأموال الناس .

وفيه عن الحسن بن محمد قال: قلت : لأبي عبد الله عليه السلام إن رجلاً أوصى لي في السبيل قال : فقال لي : اصرف في الحج قال : قلت : إنه اوصى في السبيل ! قال : اصرفه في الحج فاني لا اعلم سبيلاً من سبله افضل من الحج .

أقول : والروايات في الباب اكثر من ان تحصى ، وإنما اوردنا منها ما يجري مجرى الانموذج .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « ومنهم الذين يؤذون النبي » الآية ، اخرج ابن اسحاق وابن المنذر وابن ابي حاتم عن ابن عباس قال: كان نبتل بن الحارث يأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيجلس اليه فيسمع ثم ينقل حديثه الى المنافقين ، وهو الذي قال لهم : إنما محمد أذن من حدّثه شيئاً صدّقه ، فأنزل الله فيه : « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن » الآية .

وفي تفسير القمي في الآية قال : سبب نزولها ان عبد الله بن نبتل كان منافقاً وكان يقعد الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيسمع كلامه وينقله الى المنافقين فنمّ عليه فنزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمد إن رجلاً من المنافقين ينمّ وينقل حديثك الى المنافقين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من هو؟ قال : الرجل الاسود الوجه الكثير

شعر الرأس ينظر بعينين كأنهما قدران ، وينطق بلسان شيطان .

فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره فحلف انه لم يفعل فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : قد قبلت منك فلا تفعل فرجع الى اصحابه فقال: إن محمداً أذن. أخبره الله اني أنمّ عليه وأنقل اخباره فقبله ، وأخبرته اني لم اقل ولم افعل فقبله !

فأنزل الله على نبيه : « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين » اي يصدّق الله فيما يقول له ، ويصدّقكم فيما تعتذرون اليه ولا يصدّقكم في الباطن ، ويؤمن للمؤمنين يعني المقرّين بالإيمان من غير اعتقاد .

أقول : وروي ما يقرب منه في نهج البيان عن الصادق عليه السلام .

وفي الدر المنثور اخرج ابن ابي حاتم عن السدّيّ قال : اجتمع ناس من المنافقين فيهم جُلاس بن سويد بن صامت وجحش بن حمير ووديعة بن ثابت فأرادوا أن يقعوا في النبي صلى الله عليه وآله فنهى بعضهم بعضاً، وقالوا : إنا نخاف أن يبلغ محمداً فيقع بكم ، وقال بعضهم: إن محمداً أذن نحلف له فيصدّقنا فنزل: « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن » الآية .

وفي تفسير العياشي عن حماد بن سنان عن ابي عبدالله عليه السلام قال: اني أردت أن أستبضع فلاناً بضاعة الى اليمن فأتيت الى ابي جعفر عليه السلام فقلت : اني اريد ان أستبضع فلاناً فقال لي : أما علمت انه يشرب الخمر؟ فقلت : قد بلغني من المؤمنين أنهم يقولون ذلك ، فقال : صدّقهم إن الله عز وجل يقول : « يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين» فقال: يعني يصدّق الله ويصدّق للمؤمنين لأنه كان رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين.

* * *

يَحْذَرُ ٱلْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِؤُوا إِنَّ ٱللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ـ ٦٤ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ـ ٦٥ .

لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ
طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ — ٦٦ . الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ
بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا
اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ — ٦٧ . وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ — ٦٨ . كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ
أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ — ٦٩ . أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ
وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ — ٧٠ . وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ — ٧١ . وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ
أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ — ٧٢ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ

وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ـ ٧٣ . يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ ٱللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ـ ٧٤ .

(بيان)

تذكر الآيات شأناً آخر من شؤون المنافقين ، وتكشف عن سوأة اخرى من سوءاتهم ستروا عليها بالنفاق، وكانوا يحذرون انتظهر عليهم وتنزل فيها سورة تقص ما هموا به منها .

والآيات تنبىء عن أنهم كانوا جماعة ذوي عدد كما يدل عليه قوله: « إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة » وأنه كان لهم بعض الاتصال والتوافق مع جماعة آخرين من المنافقين كما في قوله: « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض » الآية وأنهم كانوا علىظاهر الإسلام والإيمان حتىاليوم وإنما نافقوا يومئذ أي تفوهوا بكلمة الكفر فيما بينهم وأسروا بها يومئذ كما في قوله : « قد كفرتم بعد إيمانكم » .

وأنهم تواطئوا على امر دبروه فيما بينهم فأظهروا عند ذلك كلمة الكفر وهموا علىامر عظيم فحال الله بينهم وبينه فخاب سعيهم ولم يؤثر كيدهم كما في قوله: «ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا » .

وأنه ظهر مما هموا به بعض ما يستدل عليه منالآثار والقرائن فسألوا عن ذلك فاعتذروا بما هو مثله قبحاً وشناعة كمافي قوله: «ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب» والآيات التالية لهذه الآيات فيسياق متصل منسجم تدل على ان هذه الوقعة أياً ما كانت وقعت بعد خروج النبي ﷺ الى غزوة تبوك ولما يرجع الى المدينة كما يدل عليه قوله: «فإن رجعك الله الى طائفة منهم» الآية آية ٨٣ من السورة: وقوله:

« سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم » آية ٩٥ من السورة .

فيتلخص من الآيات ان جماعة ممن خرج مع النبي ﷺ تواطئوا على ان يمكروا بالنبي ﷺ ، وأسروا عند ذلك فيما بينهم بكلمات كفروا بها بعد إسلامهم ثم هموا ان يفعلوا ما اتفقوا عليه بفتك او نحوه فأبطل الله كيدهم وفضحهم وكشف عنهم فلما سئلوا عن ذلك قالوا : إنما كنا نخوض ونلعب فعاتبهم الله بلسان رسوله ﷺ بأنه استهزاء بالله وآياته ورسوله ، وهددهم بالعذاب إن لم يتوبوا ، وأمر نبيه ﷺ ان يجاهدهم ويجاهد الكافرين .

فالآيات – كما ترى – اوضح انطباقاً على حديث العقبة منها على غيره من القصص التي تتضمنها الروايات الأخر الواردة في بيان سبب نزول الآيات ، وسنورد جلها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى: « يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبؤهم بما في قلوبهم » الى آخر الآية . كان المنافقون يشاهدون ان جل ما يستسرون بـه من شؤون النفاق ؛ ويناجي بـه بعضهم بعضاً من كلمة الكفر ووجوه الهمز واللمز والاستهزاء او جميع ذلك لا يخفى على الرسول ، ويتلى على الناس في آيات من القرآن يذكر النبي ﷺ انه من وحي الله ، ولا محالة كانوا لا يؤمنون بأنه وحي نزل بـه الروح الأمين على رسول الله ﷺ ، ويقدرون ان ذلك مما يتجسسه المؤمنون فيخبرون به النبي ﷺ فيخرجه لهم في صورة كتاب سماوي نازل عليهم وهم مع ذلك كانوا يخافون ظهور نفاقهم وخروج ما خبوه في سرائرهم الخبيثة لأن السلطنة والظهور كانت للنبي ﷺ عليهم يجري فيهم ما يأمر به ويحكم عليه .

فهم كانوا يحذرون نزول سورة يظهر بها ما اضمروه من الكفر وهموا بـه من تقليب الأمور على النبي ﷺ وقصده بما يبطل به نجاح دعوته وتمام كلمته فأمر الله نبيه ﷺ ان يبلغهم ان الله عالم بما في صدورهم مخرج ما يحذرون خروجه وظهوره بنزول سورة من عنده أي يخبرهم بأن الله منزل سورة هذا نعتها .

وبهذا يستنير معنى الآية فقوله : « يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة » الخطاب للنبي ﷺ ووجه الكلام اليه ، وهو يعلم بتعليم الله ان هذا الكلام الذي

يتلوه على الناس كلام إلهي وقرآن منزل من عنده فيصف سبحانه الكلام الذي يخاف منه المنافقون بما له من الوصف عند النبي ﷺ وهو انه سورة منزلة من الله على الناس ومنهم المنافقون لا على ما يراه المنافقون انه كلام بشري يدعى كونه كلام الله .

فهم كانوا يحذرون ان يتلو النبي ﷺ عليهم وعلى الناس كلاماً هذا نعته الواقعي وهو انه سورة منزلة عليهم بما انها متوجهة بمضمونها اليهم قاصدة نحوهم ينبؤهم هذه السورة النازلة بما في قلوبهم فيظهر على الناس ويفشو بينهم ما كانوا يسرونه من كفرهم وسوء نياتهم ، وهذا الظهور في الحقيقة هو الذي كانوا يحذرونه من نزول السورة .

وقوله : « قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون » كأن المراد بالاستهزاء هو نفاقهم وما يلحق به من الآثار فإن الله سمى نفاقهم استهزاء حاكياً في ذلك قولهم حيث قال: «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون » البقرة : ١٤ فالمراد بالاستهزاء هو ستر ما يحذرون ظهوره ، والأمر تعجيزي أي دوموا على نفاقكم وستركم مـــا تحذرون خروجه من عندكم الى مرئى الناس ومسمعهم فإن الله مخرج ذلك وكاشف عن وجهه الغطاء ، ومظهر مـــا اخفيتموه في صدوركم .

فصدر الآية وإن كان يذكر انهم يحذرون تنزيل سورة كذا وكذا لكنهم إنما كانوا يحذرونها لمـــا فيها من الأنباء التي يحذرون ان يطلع عليها النبي ﷺ وتنجلي للناس ، وهذا هو الذي يذكر ذيلها انهم يحذرونه فالكلام بمنزلة ان يقـــال : يحذر المنافقون تنزيل سورة قل إن الله منزّلها، او يقال : يحذر المنافقون انكشاف باطن امرهم وما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله سيكشف ذلك وينبىء عما في قلوبكم .

وبما تقدم يظهر سقوط ما أشكل على الآية اولاً: بأن المنافقين لكفرهم في الحقيقة لم يكونوا يرون أن القرآن كلام منزّل من عندالله فكيف يصح القول إنهم يحذرون أن تنزّل عليهم سورة ؟

وثانياً: أنهم لمـّا لم يكونوا مؤمنين في الواقع فكيف يصح أن يطلق أن سورة قرآنية نزّلت عليهم ولا تنزّل السورة إلا على النبي ﷺ أو على المؤمنين ؟

وثالثاً: أن حذرهم نزول السورة وهو حال داخلي جدي فيهم لا يجامع كونه استهزاء.

ورابعاً : أن صدر الآية يذكر أنهم يحذرون أن تنزل سورة وذيلها يقول: إن الله مخرج ما تحذرون فهو في معنى أن يقال: إن الله مخرج سورة أو مخرج تنزيل سورة.

وقد يجاب عن الإشكال الأول بأن قوله: يحذر المنافقون «الخ» إنشاء في صورة خبر أي ليحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة «الخ» .

وهو ضعيف إذ لا دليل عليه أصلاً على أن ذيل الآية لا يلائم ذلك إذ لا معنى لقولنا : ليحذر المنافقون كذا قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون أي ما يجب عليكم حذره . وهو ظاهر .

وقد يجاب عنه بأنهم إنما كانوا يظهرون الحذر استهزاءً لا جداً وحقيقة. وفيه أن لازمه أنهم كانوا على ثقة بأن ما في قلوبهم من الأنباء وما أبطنوه من الكفر والفسوق لا سبيل للظهور والإنجلاء اليه ، ولا طريق لأحد الى الاطلاع عليه ، ويكذّبه آيات كثيرة في القرآن الكريم تقص ما عقدوا عليه القلوب من الكفر والفسوق وهمّوا به من الخدعة والمكيدة كالآيات من سورة البقرة وسورة المنافقين وغيرهما ، واذ كانوا شاهدوا ظهور أنبائهم ومطويّات قلوبهم عياناً مرة بعد مرة فلا معنى لثقتهم بأنها لا تنكشف أصلا وإظهارهم الحذر استهزاءً لا جداً ، وقد قال تعالى : « يحسبون كل صيحة عليهم » المنافقون : ٤ .

وقد يجاب عنه بأن أكثر المنافقين كانوا على شك من صدق الدعوة النبوية من غير أن يستيقنوا كذبه ، وهؤلاء كانوا يجوزون تنزيل سورة تنبؤهم بما في قلوبهم احتمالاً عقلياً ، وهذا الحذر والإشفاق كما ذكروه أثر طبيعي للشك والارتياب فلو كانوا موقنين بكذب الرسول ﷺ لما خطر لهم هذا الخوف على بال ، ولو كانوا موقنين بصدقه لما كان هناك محل لهذا الخوف والحذر لأن قلوبهم مطمئنة بالإيمان .

وهذا الجواب — وهو الذي اعتمد عليه جمهور المفسرين — وإن كان بظاهره لا يخلو عن وجه غير أن فيه أنه إنما يحسم مادة الإشكال لو كان الواقع من التعبير في الآية نحواً من قولنا : يخاف المنافقون أن تنزل عليهم سورة، ولذا قرّروا الجواب بأن الخوف يناسب الشك دون اليقين .

لكن الآية تعبّر عن شأنهم بالحذر ، ويخبر أنهم يحذرون أن تنزل عليهم سورة

«الخ» والحذر فيه شيء من معنى الاحتراز والاتقاء ، ولا يتم ذلك إلا بالتوسل الى اسباب ووسائل تحفظ الحاذر مما يحذره ويحترز منه، وتصونه من شر مقبل اليه من ناحية ما يخافه .

ولو كان بمجرّد شك من غير مشاهدة اثر من الآثار وإصابة شيء مما يتـّقونه إيام لما صح الاحتراز والاتقاء ، فحذرهم يشهد أنهم كانوا يخافون ان يقع بهم هـذه المرّة نظير ما وقع بهم قبل ذلك من جهة آيات البقرة وغيرها ، فهذا هو الوجـه لحذرهم دون الشك والارتياب فالمعتمد في الجواب ما قدّمناه .

وقد يجاب عن الإشكال الثاني بـأن « على » في قوله : « أن تنزّل عليهم » بمعنى : في كما في قوله : « واتـّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملـك سليمان » البقرة : ١٠٢ ، والمعنى : يحذر المنافقون ان تنزّل فيهم اي في شأنهم وبيان حـالهم سورة تكشف عمّا في ضمائرهم .

وفيه أنه لا بأس به لولا قوله بعده: «تنبؤهم بما في قلوبهم» على ما سنوضحه.

وقد يجاب عنه بأن الضمير في قوله: «عليهم» راجع الى المؤمنين دون المنافقين والمعنى: يحذر المنافقون ان تنزّل على المؤمنين سورة تنبّؤ المنافقين بما في قلوب المنافقين أو تنبّؤ المؤمنين بما في قلوب المنافقين .

ورد عليه بأنه يستلزم تفكيك الضمائر . ودفع بأن تفكيك الضمائر غير ممنوع ولا أنه مناف للبلاغة إلا اذا كان المعنى معه غير مفهوم، وربما أيد بعضهم هذا الجواب بأنه ليس ههنا تفكيك للضمائر فإنه قد سبق ان المنافقين يحلفون للمؤمنين ليرضوهم ثم وبّخهم الله بأن الله ورسوله أحق ان يرضوه ان كانوا مؤمنين فقد بيّن ههنا بطريقة الاستئناف أنهم يحذرون ان تنزّل على المؤمنين سورة تنبؤهم بـما في قلوبهم فتبطـل ثقتهم بهم فاعيد الضمير الى المؤمنين لأن سياق الكلام فيهم فلا اثر من التفكيك .

وفيه أن من الواضح الذي لا يرتاب فيـه أن موضوع الكلام في هذه الآيات وآيات كثيرة مما يتصل بها من قبل ومن بعد ، هم المنافقون، والسياق سياق الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لا غيره ، وإنما كان خطاب المؤمنين في قوله: «يحلفون بالله لكم ليرضوكم خطاباً التفاتياً للتنبيه على غرض خاص اومأنا اليه ثم عاد الكلام الى سياقها الأصلي

من خطاب النبي ﷺ بتبدّل خطابهم الى خطابه فلا معنى لقوله : إن سياق الكلام في المؤمنين .

ولو كان للسياق هو الذي ذكره لكان من حق الكلام أن يقال : أن تنزّل عليكم سورة تنبّؤكم بما في قلوبهم ، فما معنى العدول الى ضمير الغيبة ، ولم يتقدم في سابق الكلام ذكر لهم على هذا النعت ؟

على أن قوله : إن الآية – يحذر المنافقون – بيان من طريق الاستئناف لسبب حلفهم للمؤمنين ليرضوهم ، إخراج لهذه الطائفة من الآيات من استقلال غرضها الأصلي الذي بحثنا عنه في اوّل الكلام ، ويختل بذلك ما يتراءى من فقرات الآيات من الاتصال والارتباط .

فالآية – يحذر المنافقون الخ – ليست بياناً لسبب حلفهم المذكور سابقاً بل استئناف مسوق لغرض آخر يهدي اليه مجموع الآيات الإحدى عشرة .

وبالجملة الآيات السابقة على هذه الآية خالية عن ذكر المؤمنين ذكراً يوجب انعطاف الذهن اليه حينما يلقي ضميراً يمكن عوده اليهم وهذا هو التفكيك المذكور ، وهو مع ذلك تفكيك ممنوع لايجابه ابهاماً في البيان ينافي بلاغته .

والحق أن الضمير في قوله : « أن تنزّل عليهم » للمنافقين – كما تقدمت الإشارة إليه – ولا بأس بأن يسمّى تنزيل سورة لبيان حالهم وذكر مثالبهم وتوبيخهم على نفاقهم تنزيلاً للسورة عليهم وهم في جماعة المؤمنين غير متميّزين منهم كما عبّر بنظير التعبير في مورد المؤمنين حيث قال : « واذكروا نعمة الله عليكم وما أُنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به » البقرة : ٢٣١ .

وقد أتى سبحانه بنظير هذا التعبير في أهل الكتاب حيث قال : « يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء » النساء : ١٥٣ ، وفي المشركين حيث حكى عنهم قولهم : « ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه » أسرى : ٩٣ ، وليست نسبة المنافقين وهم في المؤمنين الى نزول القرآن عليهم بأبعد من نسبة المشركين وأهل الكتاب الى نزوله عليهم ، والنزول والإنزال والتنزيل يقبل التعدي بإلى بعناية الإنتهاء وبعلى بعناية الاستعلاء والإتيان من العلو ، والتعدية بكل واحد منهما كثير

في تعبيرات القرآن ، والمراد بنزول الكتاب الى قوم وعلى قوم تعرّضه لشؤونهم وبيانه لما ينفعهم في دنياهم وأُخراهم .

وقد يجاب عن الإشكال الثالث بأن قوله تعالى : « قل استهزءوا » دليل على أنهم كانوا يستهزءون بالحذر ولم يكن من جد الحذر في شيء .

وفيه أن الآيات الكثيرة النازلة في سورة البقرة والنساء وغيرها– وكل ذلك قبل هذه الآيات نزولاً – المخرجة لكثير من خبايا قلوبهم الكاشفة عن أسرارهم تدل على أن هذا الحذر كان منهم على حقيقته من غير استهزاء وسخرية .

على أنه تعالى وصفهم في سورة المنافقون بمثل قوله : « يحسبون كل صيحة عليهم » المنافقون : ٤ ، وقال في مثل ضربه لهم وفيهم : « يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت » البقرة : ١٩ وقد ذكر في الآية التالية .

والحق أن استهزاءهم إنما هو نفاقهم وقولهم في الظاهر خلاف ما في باطنهم كما يؤيده قوله تعالى : «واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون » البقرة : ١٤ .

والجواب عن الإشكال الرابع أن الشيء الذي كانوا يحذرونه في الحقيقة هو ظهور نفاقهم وانكشاف ما في قلوبهم،وإنما كانوا يحذرون نزول السورة لأجل ذلك فالمحذور الذي ذكر في صدر الآية والذي في ذيل الآية أمر واحد،ومعنى قوله«إن الله مخرج ما تحذرون » أنه مظهر لما اخفيتموه من النفاق ومنبىء لما في قلوبكم .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم ليقولنّ إنما كنّا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون » الخوض – على ما في المجمع – دخول القدم فيما كان مائعاً من الماء والطين ثم كثر حتى استعمل في غيره .

وقال الراغب في المفردات:الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه، ويستعار في الامور ، وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه . انتهى .

ولم يذكر الله سبحانه متعلق السؤال وأن المسؤول عنه الذي إن سأل النبي ﷺ سأل عنه ما هو ؟ غير أن قوله: « ليقولنّ إنما كنا نخوض ونلعب » بما له من السياق

المصدر بإنما يدل على أنه كان فعلاً صادراً منهم له نوع تعلق بالنبي ﷺ، وكان أمراً مرئياً يسيء الظن بهم، ولم يكن في وسعهم أن يعتذروا منه بعد ما تبين وانكشف للنبي ﷺ إلا بأنه إنما كان منهم خوضاً ولعباً لم يريدوا به غير ذلك .

والخوض واللعب الذين اعتذروا بهما من الأعمال السيئة التي لا يعترف بها الناس في حالهم العادي وخاصة المؤمنون وسائر المتظاهرين بالإيمان وخاصة اذا كان ذلك في أمر يرجع الى الله ورسوله غير أنهم لم يجدوا وصفاً يصفون به فعلهم لإخراجه عن ظاهر ما يدل عليه ، دون أن يعنونوه بأنه كان خوضاً ولعباً .

ولذا أمر نبيه ﷺ أن يوبخهم على ما اعتذروا به فقال : « قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون » ثم فسّر عملهم في آخر الآيات بقوله : « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهمّوا بما لم ينالوا » الآية .

ويتحصل من مجموع هذه القرائن أن المنافقين كانوا أرادوا النبي ﷺ بسوء كالفتك به ومفاجأته بما يهلكه وأقدموا على ما قصدوه وتكلموا عند ذلك بشيء من الكلام الردي لكنهم أخطأوا في ما أوقعوه عليه واندفع الشر عنه ، ولم يصب السهم هدفه فلما خاب سعيهم وبان أمرهم سألهم النبي ﷺ عن ذلك وما قصدوه به اعتذروا بأنهم كانوا يخوضون ويلعبون فوبخهم النبي ﷺ بقوله : « أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون » ورد الله سبحانه إليهم عذرهم الذي اعتذروا به وبين حقيقة ما قصدوا بذلك .

وبالجملة معنى الآية : وأقسم لئن سألتهم عن فعلهم الذي شوهد منهم : ما الذي أرادوا به؟ وكان ظاهره أنهم همّوا بأمر فيك ليقولنّ : لم يكن قصد سوء ولا بالذي ظننت فأسأت الظن بنا ، وإنما كنا نخوض ونلعب خوض الركب في الطريق لا على سبيل الجد ولكن لعباً .

وهذا اعتذار منهم بالاستهزاء بالله وآياته ورسوله فإنهم يعترفون بأنهم فعلوا فيك ما فعلوه خوضاً ولعباً فقد استهزءوا بالله ورسوله فقل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون أي أتعتذرون عن سيّء فعلكم بسيئة أخرى هي الاستهزاء بالله وآياته ورسوله ، وهو كفر ؟

وليس من البعيد أن يكون الغرض الأصيل بيان كونه استهزاء بالرسول ، وإنما

ذكر الله وآياته للدلالة على معنى الاستهزاء بالرسول ، وأنه لما كان من آيات الله كان الاستهزاء به استهزاء بآيات الله،والاستهزاء بآيات الله استهزاء بالله العظيم فالاستهزاء برسول الله استهزاء بالله وآياته ورسوله .

قوله تعالى،«لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة» الآية ، قال الراغب في المفردات : الطوف المشي حول الشيء ومنه الطائف لمن يدور حول البيوت حافظاً – إلى أن قال– والطائفة من الناس جماعة منهم ومن الشيء القطعة منه .

وقوله تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين » قال بعضهم : قد يقع ذلك على الواحد فصاعداً ، وعلى ذلك قوله : « وإن طائفتان من المؤمنين . إذ همّت طائفتان منكم » .

والطائفة إذا أُريد بها الجمع فجمع طائف ، « واذا اريد بها الواحد فيصح أن يكون جمعاً ويكنّى به عن الواحد،ويصح أن يجعل كراوية وعلامة ونحو ذلك. انتهى.

وقد خطّأ بعضهم القول بجواز صدق الطائفة على الواحد والاثنين من الناس كما تصدق على الثلاثة فصاعداً ، وبالغ في ذلك حتى عده غلطاً ولا دليل له على ما ذكره ، ومادة اللفظ لا يستوجب شيئاً معيناً من العدد ، وإطلاقها على القطعة من الشيء يؤيد استعمالها في الواحد .

وقوله:«لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم» نهي عن الاعتذار بدعوى أنه لغو كما يدل عليه قوله : « قد كفرتم بعد إيمانكم » فإن الاعتذار لا فائدة تترتب عليه بعد الحكم بكفرهم بعد إيمانهم .

والمراد بإيمانهم هو ظاهر الإيمان الذي كانوا يتظاهرون به لا حقيقة الإيمان الذي هو من الهداية الإلهية التي لا يعقبها ضلال ، ويؤيده قوله تعالى في آخر هذه الآيات: « ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم » فبدل الإيمان إسلاماً وهو ظاهر الشهادتين .

ويمكن ان يقال: إن من مراتب الإيمان ما هو اعتقاد واذعان ضعيف غير آب عن الزوال كإيمان الذين في قلوبهم مرض وقد عدهم الله من المؤمنين وذكرهم مع

المنافقين لأمنهم ، ولا مانع من ان ينسلخوا هذا الإيمان .

وكيف لا ؟ وقد سلخ الله الايمان ممن هو ارسخ إيماناً منهم كالذي يقصه في قوله : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه» الأعراف: ١٧٦.

وقال أيضاً: «إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً» النساء : ١٣٧ وقد اكثر القرآن الكريم من ذكر الكفر بعد الايمان فلا مانع من زوال الاعتقاد القلبي قبل رسوخه وهو اعتقاد .

نعم الايمان المستقر والاعتقاد الراسخ لا سبيل الىعروض الزوال له قال تعالى: « من يهدي الله فهو المهتدي » الأعراف : ١٧٨ وقال : « فإن الله لا يهدي من يضل » النحل : ٣٧ .

وقوله: « إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة » يدل على ان هؤلاء المنافقين المذكورين في الآيات كانوا ذوي عدد وكثرة ، وان كلمة العذاب وقعت عليهم لا بد لهم من العذاب فلو شمل بعضهم عفو إلهي لمصلحة في ذلك وقع العذاب على الباقين فهذا معنى الجملة : « إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة » بحسب ما يفهم من نظمه وسياقه .

وبعبارة اخرى رابطة اللزوم بين الشرط والجزاء بترتب الجزاء وتفرعه على الشرط إنما هي بالتبع وأصله ترتب الجزاء ههنا على امر يتعلق به الشرط وهو ان العذاب وجب على جماعتهم فإن عفي عن بعضهم تعين الباقون من غير تخلف .

وقد ظهر بما قدمناه اولاً : وجه ترتب قوله : « نعذب طائفة » على قوله : «إن نعف عن طائفة» واندفع ما استشكله بعضهم على الآية انه لا ملازمة بين العفو عن البعض وعذاب البعض فما معنى الاشتراط ؟

والجواب: ان اللزوم بحسب الأصل بين وجوب نزول العذاب على الجماعة وبين نزوله علىبعضهم ثم انتقل الىما بين العفو عن البعض وبين نزوله علىبعضهم كما قررناه.

وثانياً : ان المراد بالعفو هو ترك العذاب لمصلحة من مصالح الدين دون العفو

بمعنى المغفرة المستندة الى التوبة إذ لا وجه ظاهراً لمثل قولنا: إن غفرنا لطائفة منكم لتوبتهم نعذب طائفة لجرمهم مع انهم لو تابوا جميعاً لم يعذبوا قطعاً .

وقد ندب الله اليهم جميعاً ان يتوبوا حيث قال في آخر الآيات : « فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة » .

وثالثاً : ان العفو في الآية بـــل والعذاب المذكور فيها هو العفو عن العذاب الدنيوي وتركها وكذا القول في العذاب فإن العفو من العذاب الاخروي على ما تنص عليه الآيات القرآنية إنما يكون لتوبة او شفاعة، ولا تحقق لواحد منها فيما نحن فيه أما التوبة فلما تبين انها غير مرادة في الآية ، وأما الشفاعة فلما ثبت بآيات الشفاعة إن الشفاعة لا ينالها في الآخرة إلا مؤمن مرضي الإيمان ، وقد استوفينا البحث عنها في الجزء الأول من الكتاب .

ورابعاً : أنه لا مانع من كون الآية اعني قوله : « لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة» الآية من تتمة كلام النبي ﷺ فإن المراد بالعفو والعذاب هو العذاب الدنيوي بالسياسة وتركه ، ولا مانع من نسبتها الى النبي ﷺ .

لكن ظاهر الآيات التالية هو كونه من قول الله سبحانه خطاباً للمنافقين فيكون التفاتاً من خطاب النبي ﷺ الى خطابهم والنكتة فيه إظهار كمال الغضب واشتداد السخط من صنعهم حتى كأنـــه لا يفي بإيذانه وإعلامه الرسالة فواجههم بنفسه وخاطبهم بشخصه فهددهم بعذاب واقع لا مردّ له ولا مفر منه .

قوله تعالى: «المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض » الى آخر الآيتين، ذكروا أنه استئناف يتعرض لحال عامة المنافقين بذكر أوصافهم العامة الجامعة وتعريفهم بها وما يجازيهم الله في عاقبة أمرهم ثم يتعرض لحال عامة المؤمنين ويعرفهم بصفاتهم الجامعة ويذكر ما ينبئهم الله به على سبيل المقابلة استتماماً للقسمة، ومن الدليل على هذا الاستيفاء ذكر جزاء الكفار مع المنافقين في قوله: «وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار» الآية.

والظاهر أن الآية في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة: «إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة » وسياق مخاطبة المنافقين جار لم ينقطع بعد .

فالآية السابقة لـمـا دلت على أنه تعالى لا يترك المنافقين حتى يعذبهم بإجرامهم

فإن ترك بعضاً منهم لحكمة ومصلحة أخذ آخرين منهم بالعذاب كان هناك مظنة أن يسأل فيقال : ما وجه أخذ البعض اذا ترك غيره ؟ وهل هو إلا كأخذ الجار بجرم الجار فاجيب ببيان السبب وهو أن المنافقين جميعاً بعضهم من بعض لاشتراكهم في خبائث الصفات والأعمال ، واشتراكهم في جزاء أعمالهم وعاقبة حالهم .

ولعله ذكر المنافقات مع المنافقين مع عدم سبق لذكرهن للدلالة على كمال الاتحاد والاتفاق بينهم في نفسيتهم ، وليكون تلويحاً على أن من النساء أيضاً أجزاء مؤثرة في هذا المجتمع النفاقي الفاسد المفسد .

فمعنى الآية لا ينبغي أن يستغرب أخذ بعض المنافقين اذا ترك البعض الآخر لأن المنافقين والمنافقات يحكم عليهم نوع من الوحدة النفسية يوحد كثرتهم فيرجع بعضهم الى بعض ، فيشركهم في الأوصاف والأعمال وما يجازون به بوعد من الله تعالى.

فهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويمسكون عن الإنفاق في سبيل الله وبعبارة اخرى نسوا الله تعالى بالإعراض عن ذكره لأنهم فاسقون خارجون عن زي العبودية فنسيهم الله فلم يثبهم بما أثاب عباده الذاكرين مقام ربهم .

ثم ذكر ما وعدهم على ذلك فقال: «وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار ــ وعطف عليهم الكفار لأنهم جميعاً سواء ــ نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم» من الجزاء لا يتعدى فيهم الى غيرها «ولعنهم الله» وأبعدهم «ولهم عذاب مقيم» ثابت لا يزول عنهم البتة.

وقد ظهر بذلك أن قوله تعالى: «نسوا الله فنسيهم» (الخ) بيان لما تقدمه من قوله: « يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم » .

ويتفرع على ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإنفاق في سبيل الله من الذكر .

قوله تعالى : « كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم» الخ، قال الراغب: الخلاق ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه قال تعالى: «وما له في الآخرة من خلاق» انتهى وفسره غيره بمطلق النصيب.

والآية من تتمة مخاطبة المنافقين التي في قوله: «لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم»

الآية في سياق واحد متصل وفي الآية تشبيه حال المنافقين بحال من كان قبلهم من الكفار والمنافقين وقياسهم إليهم ليستشهد بذلك على ما قيل: ان المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض وأنهم جميعاً والكفار ذووا طبيعة واحدة في الإعراض عن ذكر الله والإقبال على الاستمتاع بما أوتوا من أعراض الدنيا من أموال وأولاد والخوض في آيات الله ثم في حبط أعمالهم في الدنيا والآخرة والخسران .

ومعنى الآية –والله أعلم– أنتم كالذين من قبلكم كانت لهم قوة وأموال وأولاد بل أشدوا أكثر في ذلك منكم ،فاستمتعوا بنصيبهم وقد تفرع على هذه المماثلة أنكم استمتعتم كما استمتعوا وخضتم كما خاضوا اولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة واولئك هم الخاسرون وأنتم أيضاً أمثالهم في الحبط والخسران ولذا وعدكم النار الخالدة ولعنكم .

وذكر كون قوة من قبلهم أشد وأموالهم وأولادهم أكثر للإيماء الى أنهم لم يعجزوا الله بذلك ، ولم يدفع ذلك عنهم غائلة الحبط والخسران فكيف بكم وأنتم أضعف قوة وأقل أموالاً وأولاداً ؟

قوله تعالى : « ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات» الآية رجوع الى السياق الأول وهو سياق مخاطبة النبي ﷺ مع افتراض الغيبة في المنافقين ، وتذكير لهم بما قص عليهم القرآن من قصص الامم الماضين .

فذاك قوم نوح عمهم الله سبحانه بالغرق ، وعاد وهم قوم هود أهلكهم بريح صرصر عاتية ، وثمود وهم قوم صالح عذبهم بالرجفة ، وقوم ابراهيم اهلك ملكهم نمرود وسلب عنهم النعمة ، والمؤتفكات وهي القرى المنقلبات على وجهها – من ائتفكت الأرض اذا انقلبت – قرى قوم لوط جعل عاليها سافلها .

وقوله: « أتتهم رسلهم بالبينات» أي بالواضحات من الآيات والحجج والبراهين وهو بيان إجمالي لنبأهم أي كان نبأهم ان أتتهم رسلهم بالآيات البينة فكذبوها فانتهى أمرهم الى الهلاك ، ولم يكن من شأن السنة الإلهية ان يظلمهم لأنه بيّن لهم الحق والباطل ، وميّز الرشد من الغي ، والهدى من الضلال ، ولكن كان اولئك الأقوام

والامم أنفسهم يظلمون بالاستمتاع من نصيب الدنيا والخوض في آيات الله وتكذيب رسله.

قوله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض » الى آخر الآية. ثم وصف الله سبحانه حال المؤمنين عامة محاذاة لما وصف به المنافقين فقال: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض » ليدل بذلك على انهم مع كثرتهم وتفرقهم من حيث العدد ومن الذكورة والانوثة ذوو كينونة واحدة متفقة لا تشعب فيها ولذلك يتولى بعضهم امر بعض ويدبره .

ولذلك كان يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف وينهى بعضهم بعضاً عن المنكر فلولاية بعض المجتمع على بعض ولاية سارية في جميع الأبعاض دخل في تصديهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينهم أنفسهم .

ثم وصفهم بقوله: «ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة» وهما الركنان الوثيقان في الشريعة فالصلاة ركن العبادات التي هي الرابطة بين الله وبين خلقه ، والزكاة في المعاملات التي هي رابطة بين الناس أنفسهم .

ثم وصفهم بقوله : «ويطيعون الله ورسوله» فجمع في إطاعة الله جميع الأحكام الشرعية الإلهية وجمع في إطاعة رسوله جميع الأحكام الولائية التي يصدرها رسوله في إدارة امور الامة وإصلاح شؤونهم كفرامينه في الغزوات ، وأحكامه في القضايا وإجراء الحدود وغير ذلك .

على أن إطاعة شرائع الله النازلة من السماء من جهة اخرى منطوية في إطاعة الرسول فان الرسول هو الصادع بالحق القائم بالدعوة الى اصول الدين وفروعه .

وقوله: « اولئك سيرحمهم الله » إخبار عما في القضاء الإلهي من شمول الرحمة الإلهية لهؤلاء القوم الموصوفين بما ذكر ، وكأن في هذه الجملة محاذاة لما سرد في المنافقين من قوله تعالى: « نسوا الله فنسيهم » والظاهر ايضاً أن قوله: «إن الله عزيز حكيم» تعليل لما ذكر من الرحمة فلا مانع من رحمته لعزته ، ولا اختلال او وهناً وجزافاً في حكمته.

قوله تعالى : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار » الى آخر الآية ، العدن مصدر بمعنى الإقامة والاستقرار يقال : عدن بالمكان اي اقام فيه واستقر ومنه المعدن للأرض التي تستقر فيه الجواهر والفلزات المعدنية ، وعلى هذا فمعنى جنات عدن جنات إقامة واستقرار وخلود .

وقوله : « ورضوان من الله اكبر » اي رضى الله سبحانه عنهم اكبر من ذلك كله – على ما يفيده السياق – وقد نكّر «رضوان» إيماء الى انه لا يقدّر بقدر ولا يحيط بـه وهم بشر او لأن رضواناً ما منه ولو كان يسيراً اكبر من ذلك كله لا لأن ذلك كله مما يتفرع على رضاه تعالى ويترشح منه وإن كان كذلك في نفسه – بل لأن حقيقة العبودية التي يندب اليها كتاب الله هي عبوديته تعالى حباً له : لا طمعاً في جنة ، او خوفاً من نار، وأعظم السعادة والفوز عند المحب ان يستجلب رضى محبوبه دون ان يسعى لإرضاء نفسه .

وكأنه للإشارة الى ذلك ختم الآية بقوله: « ذلك هو الفوز العظيم » وتكون في الجملة دلالة على معنى الحصر أي أن هذا الرضوان هو حقيقة كل فوز عظيم حتى الفوز العظيم بالجنة الخالدة اذ لولا شيء من حقيقة الرضى الإلهي في نعيم الجنة كان نقمة لا نعمة .

قوله تعالى: « يا أيّها النبي جاهد الكفّار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » جهاد القوم ومجاهدتهم بذل غاية الجهد في مقاومتهم وهو يكون باللسان وباليد حتى ينتهي الى القتال ، وشاع استعماله في الكتاب في القتال وإن كان ربما استعمل في غيره كما في قوله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا » الآية .

واستعماله في قتال الكفّار على رسله لكونهم متجاهرين بالخلاف والشقاق، وأما المنافقون فهم الذين لا يتظاهرون بكفر ولا يتجاهرون بخلاف، وإنما يبطنون الكفر ويقلبون الامور كيداً ومكراً ولا معنى للجهاد معهم بمعنى قتالهم ومحاربتهم؟ ولذلك ربما يسبق الى الذهن أن المراد بجهادهم مطلق ما تقتضيه المصلحة من بذل غاية الجهد في مقاومتهم فإن اقتضت المصلحة هجروا ولم يخالطوا ولم يعاشروا ، وان اقتضت وعظوا باللسان ، وان اقتضت أخرجوا وشردوا الى غير الأرض أو قتلوا اذا اخذ عليهم الردة ، او غير ذلك .

وربما شهد لهذا المعنى اعني كون المراد بالجهاد في الآية مطلق بذل الجهد تعقيب قوله: «جاهد الكفّار والمنافقين» بقوله: « واغلظ عليهم » أي شدّد عليهم وعاملهم بالخشونة .

وأما قوله : « ومأواهم جهنم وبئس المصير » فهو عطف على ما قبله من الأمر، ولعل الذي هوّن الأمر في عطف الإخبار على الإنشاء هو كون الجملة السابقة في معنى قولنا : «ان هؤلاء الكفار والمنافقين مستوجبون للجهاد » . والله أعلم .

قوله تعالى: «يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم

وهمّوا بما لم ينالوا » الآية . سياق الآية يشعر بأنهم أتوا بعمل سيىء وشفّعوه بقول تفوّهوا به عند ذلك ، وأن النبي ﷺ عاتبهم على قولهم مؤاخذاً لهم فحلفوا بالله ما قالوا كما تقدّم في قوله : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنّا نخوض ونلعب »الى آخر الآية أنهم كانوا يعتذرون بذلك عن عملهم أنه كان خوضاً ولعباً لا غير ذلك .

والله سبحانه يكذّبهم في الأمرين جميعاً: أما في إنكارهم القول فبقوله:«ولقد قالوا كلمة الكفر » وفسره ثانياً بقوله : « وكفروا بعد اسلامهم » للدلالة على جد القول فيتفرع عليه الكفر بعد الاسلام .

ولعلّه قال ههنا : « وكفروا بعد إسلامهم » وقد قيل سابقاً : « قد كفرتم بعد ايمانكم » لأن القول السابق للنبي ﷺ الجاري على ظاهر حالهم وهو الإيمان الذي كانوا يدّعونه ويتظاهرون به ، والقول الثاني لله العالم بالغيب والشهادة فيشهد بأنهم لم يكونوا مؤمنين ولم يتعدوا الشهادتين بلسانهم فهم كانوا مسلمين لا مؤمنين ، وقد كفروا بقولهم وخرجوا عن الاسلام الى الكفر ، وفي هذا إيماء الى ان قولهم كان كلمة فيه الرد على الشهادتين او إحداهما ،

او لأن القول الأول في قبال عملهم الذي أرادوا ايقاع الشر بالنبي ﷺ ، والعمل الخالي من القول وهو لم يصب الغرض لا يضر بالاسلام الذي هو نصيب اللفظ والشهادة ،وانما يضر بالايمان الذي هو نصيب الاعتقاد ، والقول الثاني في قبال قولهم الذي تفوّهوا به ، وهو ينافي الاسلام الذي يكتسب باللفظ دون الايمان الذي هو نوع من الاعتقاد القلبي .

واما في إنكارهم العمل السيىء الذي اتوا به وتأويلهم إياه الى الخوض واللعب فبقوله : « وهمّوا بما لم ينالوا » .

ثم قال في مقام ذمّهم وتعييرهم:«وما نقموا إلا أن اغناهم الله ورسوله من فضله» أي بسبب أن اغناهم الله ورسوله ،اي كان سبب نقمتهم هذه ان الله اغناهم من فضله بما رزقهم من الغنائم وبسط عليهم الأمن والرفاهية فمكّنهم من توليد الثروة وانماء المال من كل جهة ، وكذا رسوله حيث هداهم الى عيشة صالحة تفتح عليهم أبواب بركات السماء والأرض ، وقسّم بينهم الغنائم وبسط عليهم العدل .

فهو من قبيل وضع الشيء موضع ضده: وضع فيه الاغناء وهو بحسب الطبع

سبب للرضى والشكر موضع سبب النقمة والسخطة كالظلم والغضب وان شئت قلت: وضع فيه الإحسان موضع الإساءة ، ففيه نوع من التهكم المشوب بالذم نظير ما في قوله تعالى: « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » الواقعة: ٨٢ أي تجعلون رزقكم سبباً للتكذيب بآيات الله وهو سبب بحسب الطبع لشكر النعمة والرضا بالموهبة على ما قيل : إن المعنى : وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون .

والضمير في قوله : « من فضله » راجع إلى الله سبحانه ، قال في المجمع: وإنما لم يقل: من فضلهما لأنه لا يجمع بين اسم الله واسم غيره في الكناية تعظيماً لله، ولذلك قال النبي ﷺ لمن سمعه يقول: « من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ومن عصاهما فقد غوى » : بئس خطيب القوم أنت فقال: كيف أقول يا رسول الله؟ قال: قل: ومن يعص الله ورسوله، وهكذا القول في قوله سبحانه: « والله ورسوله أحق أن يرضوه» وقيل: إنما لم يقل من فضلهما لأن فضل الله منه وفضل رسوله من فضله، انتهى كلامه.

وهناك وراء التعظيم أمر آخر قدَّمنا القول فيه في تفسير قوله تعالى: «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » المائدة : ٧٣ في الجزء السادس من الكتاب ، وهو أن وحدته تعالى ليست من سنخ الوحدة العددية حتى يصحّ بذلك تأليفها مع وحدة غيره واستنتاج عدد من الأعداد منه .

ثم بيّن الله سبحانه لهؤلاء المنافقين أن لهم مع هذه الذنوب المهلكة وصريح كفرهم بالله وهمّهم بما لم ينالوا أن يرجعوا الى ربهم ، وبيّن عاقبة أمر هذه التوبة وعاقبة التولي والإعراض عنها فقال : «فان يتوبوا يك خيراً لهم» لادّائه الى المغفرة والجنة « وإن يتولوا » ويعرضوا عن التوبة « يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا » بالسياسة والنكال او بإغراء النبي ﷺ عليهم او بالمكر والاستدراج ، ولو لم يكن من عذابهم إلا أنهم مخالفون بنفاقهم نظام الأسباب المبني على الصدق والإيمان فتقادمهم سلسلة الاسباب وتحطمهم وتفضحهم لكان فيه كفاية ، وقد قال الله: «والله لا يهدي القوم الفاسقين » التوبة : ٢٤ « والآخرة » بعذاب النار .

وقوله تعالى: «وما لهم في الارض من ولي ولا نصير» معناه أن هؤلاء لا ولي لهم في الأرض يتولى امرهم ويصرف العذاب عنهم، ولا نصير ينصرهم ويمدّهم بما يدفعون به العذاب الموعود عن انفسهم لأن سائر المنافقين ايضاً منهم وكلمة الفساد يجمعهم

وأصلهم الفاسد منقطع عن سائر الأسباب الكونية فلا ولي لهم يتولى امرهم ولا ناصر لهم ينصرهم ولعل هذه الجملة من الآية إشارة الى ما أومأنا اليه في معنى عذاب الدنيا.

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى: «يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة» الآية ، قيل: نزلت في اثني‌عشر رجلاً وقفوا على‌العقبة ليفتكوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند رجوعه من تبوك فأخبر جبرئيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، وأمره أن يرسل اليهم ويضرب وجوه رواحلهم .

وعمّار كان يقود دابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم ، فضربها حتى نحّاهم فلما نزل قال لحذيفة : مَن عرفت من القوم ؟ قال: لم أعرف منهم احداً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنه فلان وفلان حتى عدّهم كلهم فقال حذيفة : ألا تبعث اليهم فتقتلهم ؟ فقال : أكره أن تقول العرب : لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم . عن ابن كيسان .

وروي عن ابي جعفر الباقر عليه السلام مثله إلا أنه قال : ائتمروا بينهم ليقتلوه وقال بعضهم لبعض: إن فطن نقول: إنما كنا نخوض ونلعب ، وإن لم يفطن نقتله .

وقيل: إن جماعة من المنافقين قالوا في غزوة تبوك: يظن هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات‌هيهات، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك فقال: احبسوا عليّ الركب ،فدعاهم فقال لهم: قلتم كذا وكذا. فقالوا: يا نبي‌الله إنما كنا نخوض‌ونلعب وحلفوا على ذلك فنزلت الآية: « ولئن سألتهم ليقولنّ » الخ ، عن الحسن وقتادة .

وقيل: كان ذلك عند منصرفه من غزوة تبوك الى‌المدينة وكان بين يديه‌اربعة نفر او ثلاثة يستهزءون ويضحكون،وأحدهم يضحك‌ولا يتكلم فنزل‌جبرئيل وأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك فدعا عمار بن ياسر وقال: إن هؤلاء يستهزءون بي وبالقرآن أخبرني جبرئيل بذلك، ولئن سألتهم ليقولُنّ: كنا نتحدث بحديث الركب فأتبعهم عمار وقال: ممّ تضحكون ؟ قالوا : نتحدث بحديث الركب فقال عمار: صدق الله ورسوله احترقتم أحرقكم الله ، فأقبلوا الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعتذرون فأنزل الله تعالى الآيات . عن الكلبيّ وعلي بن ابراهيم وأبي حمزة .

وقيل: إن رجلاً قال في غزوة تبوك : ما رأيت أكذب لساناً ولا أجبن عند اللقاء من هؤلاء يعني رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق، وأراد ان يخبر رسول الله بذلك فجاء وقد سبقه الوحي فجاء الرجل معتذراً، وقال: إنما كنا نخوض ونلعب ففيه نزلت الآية، عن ابن عمر وزيد بن اسلم ومحمد بن كعب .

وقيل: إن رجلاً من المنافقين قال: يحدثنا محمد ان ناقة فلان بوادي كذا وكذا وما يدريه ما الغيب ؟ فنزلت الآية ، عن مجاهد .

وقيل : نزلت في عبد الله بن أبيّ ورهطه ، عن الضحّاك .

وفي المجمع ايضاً في قوله تعالى: « يحلفون بالله ما قالوا » الآية، اختلف في مَن نزلت فيه هذه الآية فقيل : إن رسول الله ﷺ كان جالساً في ظلّ شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان فينظر اليكم بعيني الشيطان، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقـــال : علامَ تشتمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله : ما قالوا فأنزل الله هذه الآية ، عن ابن عباس .

وقيل: خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ الى تبوك فكانوا اذا خلا بعضهم ببعض سبّوا رسول الله ﷺ وأصحابه وطعنوا في الدين فنقل ذلك حذيفة الى رسول الله ﷺ فقال لهم: ما هذا الذي بلغني عنكم فحلفوا بالله: ما قالوا شيئاً من ذلك. عن الضحّاك .

وقيل : نزلت في جلاس بن سويد بن الصامت، وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك وذكر المنافقين فسمّاهم رجساً وعابهم ، فقال الجلاس : والله لئن كان محمد صادقاً فيما يقول فنحن شر من الحمير فسمعه عامر بن قيس فقال: أجل والله إن محمداً لصادق وأنتم شر من الحمير ، فلما انصرف رسول الله ﷺ الى المدينة اتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس ، فقال الجلاس : كذب يا رسول الله .

فأمرهما رسول الله ﷺ ان يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر فحلف بالله ما قال ثم قام عامر فحلف بالله: لقد قال، ثم قال: اللهم أنزل على نبيّك الصادق منا الصدق ، فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون : آمين ، فنزل جبرئيل عليه السلام قبل ان يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ : « فان يتوبوا يك خيراً لهم » .

فقام الجلاس فقال : يا رسول الله أسمع الله قد عرض عليَّ التوبة صدق عامر ابن قيس فيما قال لك لقد قلته وأنا استغفر الله وأتوب اليه، فقبل رسول الله ﷺ ذلك منه . عن الكلبيّ ومحمد بن اسحاق ومجاهد .

وقيل: نزلت في عبدالله بن أبي بن سلول حين قال: « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل » . عن قتادة .

وقيل : نزلت في اهل العقبة فانهم ائتمروا في ان يغتالوا رسول الله ﷺ في عقبة عند مرجعهم من تبوك، وأرادوا ان يقطعوا أنساع راحلته ثم ينخسوا به فأطلعه الله على ذلك، وكان من جملة معجزاته لأنه لا يمكن معرفة مثل ذلك إلا بوحي من الله تعالى.

فسار رسول الله ﷺ في العقبة ، وعمار وحذيفة معه ، احدهما يقود ناقته والآخر يسوقها وأمر الناس كلهم بسلوك بطن الوادي، وكان الذين همّوا بقتله اثني عشر رجلاً او خمسة عشر رجلاً على الخلاف فيه عرفهم رسول الله ﷺ وسمّاهم واحداً واحداً ، عن الزجّاج والواقدي والكلبي ، والقصة مشروحة في كتاب الواقدي .

وقال الباقر عليه السلام : كانت ثمانية منهم من قريش وأربعة من العرب .

أقول : والذي ذكره رحمه الله مما جمعه واختاره من الروايات مروية في كتب التفسير بالمأثور وجوامع الحديث من كتب الفريقين وهنـــاك روايات اخرى تركها وأحرى بها ان تترك فتركنا اكثرها كما ترك .

وأما الذي أورده من الروايات فشيء منها لا ينطبق على الآيات غير حديث العقبة الذي أورده تارة في تفسير الآية الاولى: «يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة الآية ، وتارة في تفسير الآية : « يحلفون بالله ما قالوا » الاية .

وأما سائر الروايات الواردة فإنمـا هي روايات تتضمن من متفرقات القصص والوقائع ما لو صحت وثبتت كانت من قصص المنافقين من غير ان ترتبط بهذه الآيات وهي كما عرفت في البيان السابق إحدى عشرة آية متصل بعضها ببعض مسرودة لغرض واحد، وهو الإشارة الى قصة من قصص المنافقين هموا فيها باغتيال رسول الله ﷺ ، وتكلموا عند ذلك بكلمة الكفر فحال الله سبحانه بينهم وبين ان ينالوا ما هموا به فسألهم رسول الله ﷺ عن امرهم وما تفوهوا به فأولوا فعلهم وأنكروا قولهم وحلفوا على ذلك فكذّبهم الله تعالى فيه .

فهذا إجمال مـا يلوح من خلال الآيات ، ولا ينطبق من بين الروايات إلا على الروايات المشتملة على قصة العقبة في الجملة دون سائرها .

ولا مسوغ للاستناد اليها في تفسير الآيات إلا على مسلك القوم من تحكيم الروايات بحسب مضمونها على الآيات سواء ساعدت على ذلك ألفاظ الآيات او لم تساعد على ما فيها ـ اعني الروايات ـ من الاختلاف الفاحش الذي يوجب سوء الظن بها كما يظهر لمن راجعها .

على ان في الروايات مغمزاً آخر وهو ظهورها في تقطع الآيات وتشتت بعضها وانفصاله عن بعض بنزول كل لسبب آخر وتعقيبه غرضاً آخر ، وقد عرفت ان الآيات ذات سياق واحد متصل ليس من شأنه إلا ان يعقب غرضاً واحداً .

وفي الدر المنثور اخرج عبدالرزاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الكلبي ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما اقبل من غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة رهط استهزءوا بالله ورسوله وبالقرآن قال: كان رجل منهم لم يمالئهم في الحديث يسير مجانباً لهم يقال له : يزيد بن وديعة فنزلت : « إن نعف عن طائفة منكم نعذّب طائفة » فسمي طائفة وهو واحد .

أقول : وهذا هو منشأ قول بعضهم : إن الطائفة تطلق على الواحد كما تطلق على الكثير مع ان الآية جارية مجرى الكناية دون التسمية ونظير ذلك كثير في الآيات القرآنية كما تقدمت الإشارة اليه .

وفيه اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في رهط من المنافقين من بني عمرو بن عوف فيهم وديعة بن ثابت ، ورجل من أشجع حليف لهم يقال له: مخشي بن حمير(*) كانوا يسيرون مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو منطلق الى تبوك فقال بعضهم لبعض: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم والله لكأنا بكم غداً تقادون في الحبال.

قال مخشي بن حمير لوددت اني أقاضى على ان يضرب كل رجل منكم مائة على ان ينجو من ان ينزل فينا قرآن فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعمار بن ياسر: أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا فإن هم أنكروا وكتموا فقل : بلى قد قلتم كذا وكذا فأدركهم فقال لهم فجاءوا يعتذرون فأنزل الله : « لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم

(*) وقد مر في ص ٣٢٣ نقلاً عن المصدر نفسه جحش بن حمير وهو مصحف (ب) .

إن نعف عن طائفة منكم » الآية فكان الذي عفا الله عنه مخشي بن حمير فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله ان يقتل شهيداً لا يعلم بمقتله فقتل باليمامة لا يعلم مقتله ولا من قتله ولا يرى له أثر ولا عين .

أقول: وقصة مخشي بن حمير وردت في عدة روايات غير انها على تقدير صحتها لا تستلزم نزول الآيات فيها على ما بينها وبين مضامين الآيات من البون البعيد .

وليس من الواجب علينا اذا عثرنا على شيء من القصص الواقعة في زمن النبي ﷺ أي قصة كانت ان نلجم بها آية من آيات القرآن الكريم ثم نعود فنفسر الآية بالقصة ونحكمها عليها .

وفي الدر المنثور اخرج ابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : ما اشبه الليلة بالبارحة : « كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة – الى قوله – وخضتم كالذي خاضوا » هؤلاء بنو إسرائيل أشبهناهم ، والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه .

اقول : ورواه في المجمع أيضاً عنه .

وفي المجمع عن تفسير الثعلبي عن ابي هريرة عن ابي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: لتأخذن كما اخذت الامم من قبلكم ذراعاً بذراع وشبراً بشبر وباعاً بباع حتى لو ان احداً من اولئك دخل جحر ضب لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله كما صنعت فارس والروم وأهل الكتاب ؟ قال : فهل الناس إلا هم ؟

وفيه أيضاً عن تفسير الثعلبي عن حذيفة قال : المنافقون الذين فيكم اليوم شر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ . قلنا : وكيف ؟ قال : اولئك كانوا يخفون نفاقهم وهؤلاء أعلنوه .

وفي العيون بإسناده عن القاسم بن مسلم عن أخيه عبد العزيز بن مسلم قال : سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل : « نسوا الله فنسيهم » فقال : إن الله تبارك وتعالى لا ينسى ولا يسهو ، وإنما ينسى ويسهو المخلوق المحدث ألا تسمعه عز وجل يقول : « وما كان ربّك نسياً » ، وإنما يجازي من نسيه ونسي لقاء يومه ان ينسيهم أنفسهم كما قال عز وجل : «ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم

اولئك هم الفاسقون » [و] قوله عز وجل «فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا» أي نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا .

وفي تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام « نسوا الله» قال : تركوا طاعة الله « فنسيهم » قال : فتركهم .

وفيه عن ابي معمر السعداني قال: قال علي عليه السلام في قوله: «نسوا الله فنسيهم» فإنما يعني أنهم نسوا الله في دار الدنيا فلم يعملوا له بالطاعة ولم يؤمنوا به وبرسوله فنسيهم في الآخرة اي لم يجعل لهم في ثوابه نصيباً فصاروا منسيين من الخير .

أقول : ورواه الصدوق في المعاني بإسناده عن ابي معمر عنه عليه السلام .

وفي الكافي بإسناده عن ابي بصير عن ابي عبد الله عليه السلام ـ في حديث ـ قلت : « والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبيّنات » قال : اولئك قوم لوط ائتفكت عليهم اي انقلبت وصارت عاليها سافلها .

وفي التهذيب بإسناده عن صفوان بن مهران قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام تأتيني المرأة المسلمة قد عرفتني بعملي وأعرفها بإسلامها ليس لها محرم فأحملها؟ قال: فاحملها فإن المؤمن محرم للمؤمنة . ثم تلا هذه الآية: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض».

أقول : ورواه العياشي في تفسيره عن صفوان الجمال عنه عليه السلام .

وفي تفسير العيّاشي عن ثوير عن علي بن الحسين عليهما السلام قال : اذا صار اهل الجنة في الجنة ودخل ولي الله الى جنّاته ومساكنه ، واتكىء كلّ مؤمن على اريكته حفتّه خدّامه ، وتهدّلت عليه الأثمار ، وتفجّرت حوله العيون ، وجرت من تحته الأنهار، وبسطت له الزرابي، ووضعت له النمارق، وأتته الخدّام بما شاءت هواه من قبل أن يسألهم ذلك قال: وتخرج عليه الحور العين من الجنان فيمكثون بذلك ما شاء الله.

ثم ان الجبّار يشرف عليهم فيقول لهم : اوليائي واهل طاعتي وسكان جنتي في جواري الأهل انبؤكم بخير مما أنتم فيه ؟ فيقولون : ربنا وأي شيء خير مما نحن فيه : فيما اشتهت انفسنا ولذّت أعيننا من النعم في جوار الكريم ؟

قال: فيعود عليهم القول فيقولون ربنا نعم فأتنا بخير مما نحن فيه فيقول تبارك وتعالى لهم : رضاي عنكم ومحبتي لكم خير وأعظم مما انتم فيه قال: فيقولون : نعم يا ربنا رضاك عنا ومحبتك لنا خير وأطيب لأنفسنا .

ثم قرء علي بن الحسين عليه السلام هذه الآية: « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم » .

وفي الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اذا دخل اهل الجنة الجنة قال الله : هل تشتهون شيئاً فأزيدكم ؟ قالوا : يا ربنا وهل بقي شيء ؟ إلا قد انلتناه ؟ فيقول : نعم رضائي فلا اسخط عليكم ابداً .

اقول : وهذا المعنى وارد في روايات كثيرة من طرق الفريقين .

وفي جامع الجوامع عن ابي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة : النبيون والصديقون والشهداء يقول الله : طوبى لمن دخلك .

أقول: ولا ينافي خصوص سكنة الجنة في الرواية عمومهم في الآية لدلالة قوله تعالى : « والذين آمنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم» الحديد: ١٩ على ان الله سبحانه سيلحق عامة المؤمنين بالصديقين والشهداء .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين»الآية قال حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : جاهد الكفار والمنافقين بإلزام الفرائض .

وفي الدر المنثور أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال: لما نزلت: « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين» أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجاهد بيده فإن لم يستطع فبقلبه فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فليلقه بوجه مكفهرّ .

أقول: وفي الرواية تشويش من حيث ترتب أجزائها فالجهاد بالقلب بعد الجميع وقد تخلل بينها .

* * *

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ـــ ٧٥ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ

مُعْرِضُونَ ـ ٧٦ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ـ ٧٧ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ـ ٧٨ . الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ـ ٧٩ . اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ـ ٨٠ .

(بيان)

تذكر الآيات طائفة أخرى من المنافقين تخلفوا عن حكم الصدقات فامتنعوا عن إيتاء الزكاة، وقد كانوا فقراء فعاهدوا الله إن أغناهم وآتاهم من فضله ليصدقن وليكونن من الصالحين فلما آتاهم مالاً بخلوا به وامتنعوا .

وتذكر آخرين من المنافقين يعيبون أهل السعة من المؤمنين بإيتاء الصدقات وكذلك يلمزون أهل العسرة منهم ويسخرون منهم والله سبحانه يسمي هؤلاء جميعاً منافقين ، ويقضي فيهم بعدم المغفرة البتة .

قوله تعالى: « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين » الى آخر الآيتين. الإيتاء الإعطاء، وقد كثر إطلاق الإيتاء من الفضل على إعطاء المال ، ومن القرائن عليه في الآية قوله « لنصدقن » أي لنتصدقن مما آتانا من المال وكذلك ما في الآية التالية من ذكر البخل به .

والسياق يفيد ان الكلام متعرض لأمر واقع ، والروايات تدل على ان الآيات نزلت في ثعلبة في قصة سيأتي نقلها في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى، ومعنى الآيتين ظاهر .

قوله تعالى: «فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم الى يوم يلقونه» الآية. الإعقاب الإيراث قال في المجمع : وأعقبه وأورثه وأداه نظائر وقد يكون أعقبه بمعنى جازاه. انتهى وهو مأخوذ من العقب ، ومعناه الإتيان بشيء عقيب شيء .

والضمير في قوله: «فأعقبهم» راجع الى البخل او الى فعلهم الذي منه البخل، وعلى هذا فالمراد بقوله: «يوم يلقونه» يوم لقاء البخل أي جزاء البخل بنحو من العناية.

ويمكن ان يرجع الضمير اليه تعالى والمراد بيوم يلقونه يوم يلقون الله وهو يوم القيامة على ما هو المعروف من كلامه تعالى من تسمية يوم القيامة بيوم لقاء الله او يوم الموت كما هو الظاهر من قوله تعالى : « من كان يرجو لقاء الله فإن اجل الله لآت » العنكبوت : ٥ .

وهذا الثاني هو الظاهر على الثاني لأن الأنسب عند الذهن ان يقال : فهم على نفاقهم الى ان يموتوا . دون ان يقال: فهم على نفاقهم الى ان يبعثوا إذ لا تغير لحالهم فيما بعد الموت على أي حال .

وقوله: « بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » الباء في الموضعين منه للسببية أي إن هذا البخل اورثهم نفاقاً بما كان فيه من الخلف في الوعد والاستمرار على الكذب الموجبين لمخالفة باطنهم لظاهرهم وهو النفاق .

ومعنى الآية : فأورثهم البخل والامتناع عن إيتاء الصدقات نفاقاً في قلوبهم يدوم لهم ذلك ولا يفارقهم الى يوم موتهم وإنما صار هذا البخل والامتناع سبباً لذلك لما فيه من خلف الوعد لله والملازمة والاستمرار على الكذب .

او المعنى : جازاهم الله نفاقاً في قلوبهم الى يوم لقائه وهو يوم الموت لأنهم أخلفوه ما وعدوه وكانوا يكذبون .

وفي الآية دلالة اولاً : على ان خلف الوعد و كذب الحديث من أسباب النفاق وأماراته .

وثانياً : ان من النفاق ما يعرض الانسان بعد الإيمان كما ان من الكفر ما هو كذلك وهو الردة، وقد قال الله سبحانه: « ثم كان عاقبة الذين اساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون » الروم : ١٠ فذكر ان الإساءة ربما أدى بالإنسان الى تكذيب آيات الله، والتكذيب ربما كان ظاهراً وباطناً معاً وهو الكفر، او باطناً فحسب وهو النفاق .

قوله تعالى : « ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم » الآيــة النجوى الكلام الخفي والاستفهام للتوبيخ والتأنيب .

قوله تعالى: «الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم» الآية التطوع الإتيان بما لا تكرهه النفس ولا تحسبه شاقاً ولذلك يستعمل غالباً في المندوبات لما في الواجبات من شائبة التحميل على النفس بعدم الرضى بالترك.

ومقابلة المطوعين من المؤمنين في الصدقات بالذين لا يجدون إلا جهدهم قرينة على أن المراد بالمطوعين فيها الذين يؤتون الزكاة على السعة والجــدة كأنهم لسعتهم وكثرة مالهم يؤتونها على طوع ورغبة من غــير ان يشق ذلك عليهم بخلاف الذين لا يجدون إلا جهدهم أي مبلغ جهدهم وطاقتهم او ما يشق عليهم القنوع بذلك .

وقوله: «الذين يلمزون» الآية كلام مستأنف او هو وصف للذين ذكروا بقوله: « ومنهم من عاهد الله » الآية كما قــالوا . والمعنى : الذين يعيبون الذين يتطوعون بالصدقات من المؤمنين الموسرين والذين لا يجدون من المال إلا جهد انفسهم من الفقراء المعسرين فيعيبون المتصدقين موسرهم ومعسرهم وغنيهم وفقيرهم ويسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ، وفيه جواب لاستهزائهم وإيعاد بعذاب شديد .

قوله تعالى: «استغفر لهم او لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» الترديد بين الأمر والنهي كناية عن تساوي الفعل والترك أي لغوية الفعل كما مر نظيره في قوله : « أنفقوا طوعاً او كرهاً لن يتقبل منكم » التوبة : ٥٣ .

فالمعنى ان هؤلاء المنافقين لا تنالهم مغفرة من الله ويستوي فيهم طلب المغفرة وعدمها لأن طلبها لهم لغو لا اثر له .

وقوله : « ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» تأكيداً لما ذكر قبله من لغوية الاستغفار لهم، وبيان ان طبيعة المغفرة لا تنالهم البتة سواء سئلت المغفرة في حقهم او لم تسأل ، وسواء كان الاستغفار مرة او مرات قليلاً او كثيراً .

فذكر السبعين كناية عن الكثرة من غير ان يكون هناك خصوصية للعدد حتى يكون الواحد والاثنان من الاستغفار حتى يبلغ السبعين غير مؤثر في حقهم فاذا جاوز السبعين أثر اثره ، ولذلك علله بقوله : « ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله » اي ان

المانع من شمول المغفرة هو كفرهم بالله ورسوله ، ولا يختلف هذا المانع بعدم الاستغفار. ولا وجوده واحداً او كثيراً فهم على كفرهم .

ومن هنا يظهر أن قوله: «والله لا يهدي القوم الفاسقين» متمم لسابقه والكلام مسوق سوق الاستدلال القياسي والتقدير : انهم كافرون بالله ورسوله فهم فاسقون خارجون عن عبودية الله ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ، لكن المغفرة هداية الى سعادة القرب والجنة فلا تشملهم المغفرة ولا تنالهم البتة .

واستعمال السبعين في الكثرة المجرّدة عن الخصوصية كاستعمال المائة والألف فيها كثير في اللغة .

(بحث روائي)

في المجمع قيل : نزلت في ثعلبة بن حاطب ، وكان من الأنصار فقال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : ادع الله ان يرزقني مالاً فقال : يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه أمالك في رسول الله اسوة حسنة ؟ والذي نفسي بيده لو اردت ان تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت .

ثم اتاه بعد ذلك فقال : يا رسول الله ادع الله ان يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق ، لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم ارزق ثعلبة مالاً فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من اوديتها ثم كثرت نمواً حتى تباعد من المدينة فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اليه المصدق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل وقال : ما هذه إلا اخت الجزية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة ، وأنزل الله الآيات . عن أبي امامة الباهلي وروي ذلك مرفوعاً .

وقيل : إن ثعلبة أتى مجلساً من الأنصار فأشهدهم فقال: لئن آتاني الله من فضله تصدقت منه وآتيت كل ذي حق حقه ووصلت منه القرابة فابتلاه الله فمات ابن عم له فورّثه مالاً فلم يف بما قال فنزلت . عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير وقتادة .

وقيل: نزلت في ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وهما من بني عمرو بن عوف

قالا : لئن رزقنا الله مالاً لنصدّقن فلما رزقهما الله المال بخلابه.عن الحسن ومجاهد.

أقول : ما ذكره من الروايات لا يدفع بعضها البعض فمن الجائز ان يكون ثعلبة عاهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك ثم أشهد عليه جماعة من الأنصار ، وان يكون معه في ذلك غيره فتتأيد الروايات بعضها ببعض .

وتتأيد ايضاً بما روي عن الضحّاك ان الآيات نزلت في رجال من المنافقين : نبتل بن الحارث، وجد بن قيس، وثعلبة بن حاطب، ومعتّب بن قشير .

واما ما رواه في المجمع عن الكلبي انها نزلت في حاطب بن ابي بلتعة كان له مال بالشام فأبطأ عنه وجهد لذلك جهداً شديداً فحلف لئن آتاه الله ذلك المال ليصدّقن فآتاه الله تعالى ذلك فلم يفعل ؛ فهو بعيد الإنطباق على الآيات لأن إيصال المال الى صاحبه لا يسمى إيتاء من الفضل ، وانما هو الإعطاء والرزق .

وفي تفسير القمي قال : وفي رواية ابي الجارود عن ابي جعفر عليه السلام – في الآية – قال:هو ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عوف كان محتاجاًفعاهد الله فلما آتاه بخل به.

وفي الدر المنثور أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابي هريرةعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:آية المنافق ثلاث:إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف واذا ائتمن خان.

أقول:وهو مروي بغير واحد من الطرق عن أئمة أهل البيت عليهم السلام،وقد تقدم بعضها .

وفيه في قوله تعالى : « الذين يلمزون المطوّعين » الآية أخرج البخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبوالشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن ابن مسعود قال لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا: مراء،وجاء أبو عقيل بنصف صاع فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا فنزلت: « الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم»الآية.

أقول : والروايات في سبب نزول الآية كثيرة وأمثلها ما أوردناه، وفي قريب من معناه روايات أخرى ، وظاهرها أن الآية مستقلة عما قبلها مستأنفة في نفسها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن ابي حاتم عن عروة ان عبدالله بن أبي قال لأصحابه : لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضّوا من حوله، وهو القائل: ليخرجن الأعز منها الأذل فأنزل الله عز وجل: « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لأزيدن على السبعين فأنزل الله : سواء عليهم أستغفرت لهم او لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم .

وفيه أخرج ابن ابي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : لما نزلت: « إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: سأزيد على سبعين فأنزل الله في السورة التي يذكر فيها المنافقون « لن يغفر الله لهم » .

وفيه أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: — لما نزلت هذه الآية — أسمع ربي قد رخص لي فيهم فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم فقال الله من شدة غضبه عليهم : « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين » .

أقول : مما لا ريب فيه ان هذه الآيات مما نزلت في أواخر عهد النبي عليه السلام وقد سبقتها في النزول السور المكية عامة وأكثر السور والآيات المدنية قطعاً ، ومما لا ريب فيه لمن يتدبر كتاب الله أنه لا رجاء في نجاة الكفار والمنافقين وهم أشد منهم اذا ماتوا على كفرهم ونفاقهم ، ولا مطمع في شمول المغفرة الإلهية لهم فهناك آيات كثيرة مكية ومدنية صريحة قاطعة في ذلك .

والنبي صلى الله عليه وآله وسلم أجل من أن يخفى عليه ما أنزله الله اليه او أن لا يثق بما وعدهم الله من العذاب المخلد وعداً حتمياً فيطمع في نقض القضاء المحتوم بالإصرار عليه تعالى والإلحاح في طلب الغفران لهم .

او أن يخفى عليه أن الترديد في الآية لبيان اللغوية وأن لا خصوصية لعدد السبعين حتى يطمع في مغفرتهم لو زاد على السبعين .

وليت شعري ماذا يزيد قوله تعالى في سورة المنافقون: «سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين» على قوله تعالى في هذه الآية « استغفر لهم او لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر

الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين » وقد علل الله سبحانه نفي المغفرة نفياً مؤبداً فيها بأنهم فاسقون والله لا يهدي القوم الفاسقين.

فقد تلخص ان هذه الروايات وما في معناها موضوعة يجب طرحها .

وفي الدر المنثور أخرج احمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن ابي حاتم والنحاس وابن حبان وابن مردويه وابو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : لما توفي عبد الله بن أبي دعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام عليه فلما وقف قلت: أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا والقائل كذا وكذا ؟ أعدد أيامه ورسول الله ﷺ يتبسم حتى اذا أكثرت قال : يا عمر أخر عني إني قد خيّرت قد قيل لي : « استغفر لهم او لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة » فلو أعلم اني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها .

ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه فعجبت لي ولجرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : « ولا تصل على احد منهم مات ابداً ولا تقم على قبره » فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل .

أقول : قوله ﷺ في الرواية : « فلو اعلم اني إن زدت على السبعين » الخ صريح في انه كان آنساً من شمول المغفرة له ، وهو يشهد بأن المراد من قوله : « اني قد خيرت قد قيل لي استغفر لهم او لا تستغفر لهم » ان الله قد ردد الأمر ولم ينهه عن الاستغفار لا انه خيره بين الاستغفار وعدمه تخييراً حقيقياً حتى ينتج تأثير الاستغفار في حصول المغفرة او رجاء ذلك .

ومن ذلك يعلم ان استغفاره ﷺ لعبدالله وصلاته عليه وقيامه على قبره إن ثبت شيء من ذلك لم يكن شيء من ذلك لطلب المغفرة والدعاء له جداً كما سيأتي في رواية القمي ، وفي الروايات كلام سيأتي .

وفيه عن ابن ابي حاتم عن الشعبي ان عمر بن الخطاب قال : لقد أصبت في الاسلام هفوة ما اصبت مثلها قط أراد رسول الله ﷺ ان يصلي على عبدالله بن أبي فأخذت بثوبه فقلت : والله ما امرك الله بهذا لقد قال الله : « استغفر لهم او لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » فقال رسول الله ﷺ :

قد خيّرني ربي فقال: استغفر لهم او لا تستغفر لهم فقعد رسول الله على شفير القبر فجعل الناس يقولون لابنه: يا حباب افعل كذا يا حباب افعل كذا فقال رسول الله ﷺ : الحباب اسم شيطان انت عبد الله .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « استغفر لهم او لا تستغفر لهم » الآية انها نزلت لما رجع رسول الله ﷺ المدينة ومرض عبدالله بن أبي وكان ابنه عبدالله بن عبدالله مؤمناً فجاء الى رسول الله ﷺ وأبوه يجود بنفسه فقال : يا رسول الله بأبي انت وامي انك ان لم تأت ابي كان ذلك عاراً علينا فدخل اليه رسول الله ﷺ والمنافقون عنده فقال ابنه عبدالله بن عبدالله استغفر له فاستغفر له .

فقال عمر: ألم ينهك الله يا رسول الله ان تصلي على احد او تستغفر له؟ فأعرض عنه رسول الله ﷺ فأعاد عليه فقال له : ويلك اني قد خيرت فاخترت إن الله يقول: «استغفر لهم او لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم».

فلما مات عبد الله جاء ابنه الى رسول الله ﷺ فقال : بأبي انت وامي يا رسول الله إن رأيت ان تحضر جنازته فحضر رسول الله ﷺ فقام على قبره فقال له عمر: يا رسول الله ألم ينهك الله ان تصلي على احد منهم مات ابداً وأن تقيم على قبره؟ فقال رسول الله ﷺ: ويلك وهل تدري ما قلت ؟ إنما قلت: اللهم احش قبره ناراً وجوفه ناراً وأصله النار فبدا من رسول الله ﷺ ما لم يكن يحب .

أقول : وفي الروايات تتمة كلام سيوافيك في ذيل الآيات التالية .

* * *

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ـ ٨١ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ـ ٨٢ . فَإِنْ رَجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ

فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ
عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَالِفِينَ ـ ٨٣ .
وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ـ ٨٤. وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ
وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ
كَافِرُونَ ـ ٨٥ . وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ
ٱسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ ـ ٨٦ .
رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ـ ٨٧.
لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ
لَهُمُ ٱلْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ـ ٨٨ . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ـ ٨٩ . وَجَاءَ
ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ـ ٩٠ . لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا
عَلَى ٱلْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ
وَرَسُولِهِ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ـ ٩١ . وَلَا
عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا
وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ـ ٩٢ . إِنَّمَا

السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ـ ٩٣ . يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ـ ٩٤ . سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ـ ٩٥ . يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ـ ٩٦ .

(بيان)

الآيات تقبل الاتصال بالآيات التي قبلها وهي تعقب غرضاً يعقبه ما تقدمها .

قوله تعالى: « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله » الآية الفرح والسرور خلاف الغم وهما حالتان نفسيّتان وجدانيّتان ملذة ومؤلمة ، والمخلّفون اسم مفعول من قولهم خلفه إذا تركه بعده والمقعد كالقعود مصدر قعد يقعد وهو كناية عن عدم الخروج الى الجهاد .

والخلاف كالمخالفة مصدر خالف يخالف ، وربما جاء بمعنى بعد كما قيل ولعل منه قوله : « وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا » وكان قياس الكلام أن يقال: « خلافك » لأن الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وإنما قيل : « خلاف رسول الله » للدلالة على أنهم إنما يفرحون على مخالفة الله العظيم فما على الرسول إلا البلاغ .

والمعنى فرح المنافقون الذين تركتهم بعدك بعدم خروجهم معك خلافاً لك

– أو بعدك – وكرهوا ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله .

وقوله تعالى : «وقالوا لا تنفروا في الحر » خاطبوا بذلك غيرهم ليخذلوا النبي ﷺ ويبطلوا مسعاه في تنفير الناس الى الغزوة ، ولذلك أمره الله تعالى ان يجيب عن قولهم ذلك بقوله : « قل نار جهنم اشد حراً » اي ان الفرار عن الحر بالقعود ان انجاكم منه لم ينجكم مما هو اشد منه وهو نار جهنم التي هي اشد حراً فان الفرار عن هذا الهين يوقعكم في ذاك الشديد . ثم أفاد بقوله : « لو كانوا يفقهون » المصدر بلو التمني اليأس من فقههم وفهمهم .

قوله تعالى : « فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون » تفريع على تخلفهم عن الجهاد بالأموال والأنفس وفرحهم بالقعود عن هذه الفريضة الإلهية الفطرية التي لا سعادة للإنسان في حياته دونها .

وقوله : « جزاء بما كانوا يكسبون » والباء للمقابلة او السببية دليل على ان المراد بالضحك القليل هو الذي في الدنيا فرحاً بالتخلف والقعود ونحو ذلك ، وبالبكاء الكثير ما كان في الآخرة في نار جهنم التي هي اشد حراً فان الذي فرع عليه الضحك والبكاء هو ما في الآية السابقة ، وهو فرحهم بالتخلف وخروجهم من حر الهواء الى حر نار جهنم .

فالمعنى : فمن الواجب بالنظر الى ما عملوه واكتسبوه ان يضحكوا ويفرحوا قليلاً في الدنيا وان يبكوا ويحزنوا كثيراً في الآخرة فالأمر بالضحك والبكاء للدلالة على ايجاب السبب وهو ما كسبوه من الأعمال لذلك .

واما حمل الأمر في قوله : « فليضحكوا » وقوله : « وليبكوا » على الأمر المولوي لينتج تكليفاً من التكاليف الشرعية فلا يناسبه قوله : « جزاء بما كانوا يكسبون » .

ويمكن ان يكون المراد الأمر بالضحك القليل والبكاء الكثير معاً مما هو في الدنيا جزاء لسابق اعمالهم فانها هدتهم الى راحة وهمية في ايام قلائل وهي ايام قعودهم خلاف رسول الله ﷺ ثم الى هوان وذلة عند الله ورسوله والمؤمنين ما داموا احياء في الدنيا ثم الى شديد حر النار في الآخرة بعد موتهم .

قوله تعالى : « فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج » الى آخر

الآية المراد بالقعود اول مرة التخلف عن الخروج في اول مرة كان عليهم ان يخرجوا فيها فلم يخرجوا ، ولعلها غزوة تبوك كما يهدي اليه السياق .

والمراد بالخالفين المتخلفون بحسب الطبع كالنساء والصبيان والمرضى والزمنى وقيل : المتخلفون من غير عذر ، وقيل : الخالفون هم اهل الفساد ، والباقي واضح.

وفي قوله : « فإن رجعك الله الى طائفة منهم » الآية دلالة على ان هذه الآية وما في سياقها المتصل من الآيات السابقة واللاحقة نزلت ورسول الله ﷺ في سفره ولما يرجع الى المدينة ، وهو سفره الى تبوك .

قوله تعالى: «ولا تصل على احد منهم مات ابداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » نهي عن الصلاة لمن مات من المنافقين والقيام على قبره وقد علل النهي بأنهم كفروا وفسقوا وماتوا على فسقهم ، وقد علل لغوية الاستغفار لهم في قوله تعالى : السابق : « استغفر لهم او لا تستغفر لهم » آية ٨٠ من السورة ، وكذا في قوله « سواء عليهم أستغفرت لهم ام لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين » المنافقون : ٦ بالكفر والفسق أيضاً .

ويتحصل من الجميع ان من فقد الإيمان بالله باستيلاء الكفر على قلبه وإحاطته به فلا سبيل له الى النجاة يهتدي بـه ، وأن الآيات الثلاث جميعاً تكشف عن لغوية الإستغفار للمنافقين والصلاة على موتاهم والقيام على قبورهم للدعاء لهم .

وفي الآية إشارة الى ان النبي ﷺ كان يصلي على موتى المسلمين ويقوم على قبورهم للدعاء .

قوله تعالى: «ولا تعجبك اموالهم وأولادهم » الآية تقدم بعض ما يتعلق بالآية من الكلام في الآية ٥٥ من السورة .

قوله تعالى : « وإذا أنزلت سورة ان آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله » الى آخر الآيتين . الطول القدرة والنعمة ، والخوالف هم الخالفون والكلام فيه كالكلام فيه ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم » لما ذم المنافقين في الآيتين السابقتين بالرضا بالقعود مع الخوالف والطبع على قلوبهم

استدرك بالنبي ﷺ والذين آمنوا معه – والمراد بهم المؤمنون حقاً الذين خلصت قلوبهم من رين النفاق بدليل المقابلة مع المنافقين– ليمدحهم بالجهاد بأموالهم وأنفسهم أي انهم لم يرضوا بالقعود ولم يطبع على قلوبهم بل نالوا سعادة الحياة والنور الإلهي الذي يهتدون به في مشيهم كما قال تعالى: « او من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس » الأنعام : ١٢٢ .

ولذلك عقب الكلام بقوله : « وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون » فلهم جميع الخيرات –على ما يقتضيه الجمع المحلى باللام– من الحياة الطيبة ونور الهدى والشهادة وسائر ما يتقرب به الى الله سبحانه ، وهم المفلحون الفائزون بالسعادة .

قوله تعالى : « أعدّ الله لهم جنات تجري » الآية الإعداد هو التهيئة وقد عبر بالإعداد دون الوعد لأن الامور بخواتيمها وعواقبها فلو كان وعداً وهو وعد لجميع من آمن معه لكان قضاء حتمياً واجب الوفاء سواء بقي الموعودون على صفاء إيمانهم وصلاح اعمالهم او غيروا والله لا يخلف الميعاد .

والاصول القرآنية لا تساعد على ذلك ، ولا الفطرة السليمة ترضى ان ينسب الى الله سبحانه ان يطبع بطابع المغفرة والجنة الحتمية على احد لعمل عمله من الصالحات ثم يخلي بينه وبين ما شاء وأراد .

ولذلك نجده سبحانه اذا وعد وعداً علقه على عنوان من العناوين العامة كالإيمان والعمل الصالح يدور معه الوعد الجميل من غير ان يخص به اشخاصاً بأعيانهم فيفيد التناقض بالجمع بين التكليف والتأمين كما قال تعالى : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات » الآية ٧٢ من السورة، وقال تعالى: « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم – الى ان قال – وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً » الفتح : ٢٩ .

قوله تعالى : « وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم » الآية . الظاهر أن المراد بالمعذرين هم اهل العذر كالذي لا يجد نفقة ولا سلاحاً بدليل قوله : « وقعد الذين كذبوا » الآية ، والسياق يدل على ان في الكلام قياساً لإحدى الطائفتين الى الاخرى ليظهر به لؤم المنافقين وخستهم وفساد قلوبهم وشقاء نفوسهم ، حيث ان فريضة الجهاد الدينية والنصرة لله ورسوله هيج لذلك المعذرين من الأعراب وجاءوا

الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستأذنونه ، ولم يؤثر في هؤلاء الكاذبين شيئاً .

قوله تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج» المراد بالضعفاء بدلالة سياق الآية : الذين لا قوة لهم على الجهاد بحسب الطبع كالزمنى كما ان المرضى لا قوة لهم عليه بحسب عارض مزاجي ، والذين لايجدون ما ينفقون لا قوة لهم عليه من جهة فقد المال ونحوه .

فهؤلاء مرفوع عنهم الحرج والمشقة أي الحكم بالوجوب الذي لو وضع كان حكماً حرجياً ، وكذا ما يستتبعه الحكم من الذم والعقاب على تقرير المخالفة .

وقد قيد الله تعالى رفع الحرج عنهم بقوله : « اذا نصحوا لله ورسوله » وهو ناظر الى الذم والعقاب على المخالفة والقعود فإنما يرفع الذم والعقاب عن هؤلاء المعذورين اذا نصحوا لله ورسوله ، وأخلصوا من الغش والخيانة ولم يجروا في قعودهم على ما يجري عليه المنافقون المتخلفون من تقليب الامور وإفساد القلوب في مجتمع المؤمنين ، وإلا فيجري عليهم ما يجري على المنافقين من الذم والعقاب .

وقوله: «ما على المحسنين من سبيل» في مقام التعليل لنفي الحرج عن الطوائف المذكورين بشرط ان ينصحوا لله ورسوله أي لأنهم يكونون حينئذ محسنين وما على المحسنين من سبيل فلا سبيل يتسلط عليهم يؤتون منه فيصابون بما يكرهونه .

ففي السبيل كناية عن كونهم في مأمن مما يصيبهم من مكروه كأنهم في حصن حصين لا طريق الى داخله يسلكه الشر اليهم فيصيبهم ، والجملة عامة بحسب المعنى وإن كان مورد التطبيق خاصاً

قوله تعالى: « ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت » الآية قال في المجمع: الحمل إعطاء المركوب من فرس او بعير او غير ذلك تقول: حمله يحمله حملاً اذا أعطاه ما يحمل عليه قال :

ألا فتى عنده خفّان يحملني ... عليهما إنني شيخ على سفر

قال : والفيض الجري عن امتلاء من قولهم : فاض الإناء بما فيه ، والحزن ألم في القلب لفوت امر مأخوذ من حزن الأرض وهي الأرض الغليظة المسلك . انتهى.

وقوله : « ولا على الذين » الآية . موصول صلته قوله: «تولوا» الآية ، وقوله: « اذا ما اتوك لتحملهم » كالشرك والجزاء والمجموع ظرف لقوله : تولوا » وحزناً

مفعول له ، « وان لا يجدوا » منصوب بنزع الخافض .

والمعنى: ولا حرج على الفقراء الذين اذا ما اتوك لتعطيهم مركوباً يركبونه وتصلح سائر ما يحتاجون اليه من السلاح وغيره قلت لا أجد ما احملكم عليه تولوا والحال ان اعينهم تمتلىء وتسكب دموعاً للحزن من ان لا يجدوا - او لأن لا يجدوا - ما ينفقونه في سبيل الله للجهاد مع اعدائه .

وعطف هذا الصنف على ما تقدّمه من عطف الخاص على العام عناية بهم لأنهم في أعلى درجة من النصح واحسانهم ظاهر .

قوله تعالى : « إنما السبيل على الذين يستأذنوك وهم اغنياء » الآية ، القصر للإفراد والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « يعتذرون إليكم اذا رجعتم اليهم » الى آخر الآية . خطاب الجمع للنبي ﷺ والمؤمنين جميعاً ، وقوله : « لن نؤمن لكم » اي لن نصدقكم على ما تعتذرون به بناء على تعدية الإيمان باللام كالباء - او لن نصدّق تصديقاً ينفعكم - بناء على كون اللام للنفع - والجملة تعليل لقوله : « لا تعتذروا » كما أن قوله : «قد نبأنا الله من اخباركم » تعليل لهذه الجملة .

والمعنى يعتذر المنافقون اليكم عند رجوعكم من الغزوة اليهم قل يا محمد لهم :لا تعتذروا الينا لأنا لن نصدّقكم فيما تعتذرون به لأن الله قد اخبرنا ببعض اخباركم مما يظهر به نفاقكم وكذبكم فيما تعتذرون به ، وسيظهر عملكم ظهور شهود لله ورسوله ثم تردّون الى الله الذي يعلم الغيب والشهادة يوم القيامة فيخبركم بحقائق اعمالكم .

وفي قوله: «وسيرى الله عملكم ورسوله» الخ في إيضاحه كلام سيمرّ بك عن قريب.

قوله تعالى : « سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم » الآية اي لتعرضوا عنهم فلا تتعرضوا لهم بالعتاب والتقريع وما يتعقب ذلك فأعرضوا عنهم لا تصديقاً لهم فيما يحلفون له من الأعذار بل لأنهم رجس ينبغي أن لا يقترب منهم ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون .

قوله تعالى : « يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » اي هذا الحلف منهم كما كان للتوسل الى صرفكم عنهم ليأمنوا

الذم والتقريع كذلك هو للتوسّل الى رضاكم عنهم أما الإعراض فافعلوه لأنهم رجس لا ينبغي لنزاهة الإيمان وطهارته ان تتعرض لرجس النفاق والكذب وقذارة الكفر والفسق ، وأما الرضى فاعلموا انكم ان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عنهم لفسقهم والله لا يرضى عن القوم الفاسقين .

فالمراد أنكم إن رضيتم عنهم فقد رضيتم عمن لم يرض الله عنه اي رضيتم بخلاف رضي الله ، ولا ينبغي لمؤمن ان يرضى عمّا يسخط ربّه فهو ابلغ كناية عن النهي عن الرضا عن المنافقين .

(بحث روائي)

في الدر المنثور في قوله تعالى : « فرح المخلفون » الآية أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه ـ عليهما السلام ـ قال : كانت غزوة تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهي غزوة الحرّ « قالوا لا تنفروا في الحرّ » وهي غزوة العسرة.

وفيه أخرج ابن جرير وابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابن عبّاس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر الناس ان ينبعثوا معه وذلك في الصيف فقال رجال : يا رسول الله ان الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفروا في الحر فقال الله « قل نار جهنم اشد حراً لو كانوا يفقهون » فأمره بالخروج .

أقول: ظاهر الآية أنهم إنما قالوه ليخذلوا الناس عن الخروج ، وظاهر الحديث أنهم إنما قالوه إشارة فلا يتطابقان .

وفيه أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حرّ شديد الى تبوك فقال رجل من بني سلمة : لا تنفروا في الحر فأنزل الله : « قل نار جهنم أشدّ حراً » الآية .

أقول : تقدمت أخبار في قوله تعالى: « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني » الآية أن القائل لقوله : « لا تنفروا في الحر » هو جدّ بن قيس .

وفي الدر المنثور ايضاً في قوله تعالى : « ولا تصل على احد منهم » الآية أخرج البخاري ومسلم وابن أبي حاتم وابن المنذر وابو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل

عن ابن عمر قال : لما توفي عبدالله بن أبي بن سلول أتى ابنه عبد الله رسول الله ﷺ يسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه ثم سأله ان يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ.

فقام عمر بن الخطاب فأخذ ثوبه فقال : يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي على المنافقين ؟ فقال : إن ربي خيرني وقال: استغفر لهم او لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، وسأزيد على السبعين فقال: إنه منافق فصلى عليه فأنزل الله تعالى: «ولا تصلّ على احد منهم مات ابداً ولا تقم على قبره» فترك الصلاة عليهم .

أقول: وفي هذا المعنى روايات أخرى رواها اصحاب الجوامع ورواة الحديث عن عمر بن الخطاب وجابر وقتادة، وفي بعضها انه كفنه في قميصه ونفث في جلده ونزل في قبره.

وفيه اخرج احمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن ابي حاتم والنحاس وابن حبّان وابن مردويه وابو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال: سمعت عمر يقول: لما توفي عبدالله بن أبي دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام عليه فلما وقف قلت : أتصلي على عدو الله عبدالله بن أبي القائل كذا وكذا والقائل كذا وكذا – أعدد أيامه – ورسول الله يتبسم حتى اذا اكثرت قال: يا عمر أخّر عني إني قد خيّرت قد قيل لي: استغفر لهم او لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة، فلو أعلم إني ان زدت على السبعين غفر له لزدت عليها ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه .

فعجبت لي ولجرأتي على رسول الله ﷺ ، والله ورسوله أعلم فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : « ولا تصل على احد منهم مات ابداً ولا تقم على قبره » فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل .

وفيه أخرج ابن ابي حاتم عن الشعبي ان عمر بن الخطاب قال: لقد أصبت في الإسلام هفوة ما أُصبت مثلها قط أراد رسول الله ﷺ ان يصلي على عبدالله بن أبي فأخذت بثوبه فقلت: والله ما امرك الله بهذا. لقد قال الله: «استغفر لهم او لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» فقال رسول الله ﷺ: قد خيرني ربي فقال « استغفر لهم او لا تستغفر لهم » .

فقعد رسول الله ﷺ على شفير القبر فجعل الناس يقولون لابنه، ياحباب افعل

كذا يا حباب افعل كذا فقال رسول الله ﷺ : الحباب اسم شيطان انت عبدالله.

وفيه اخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ان ابن عبدالله بن أبي قال له ابوه : اطلب لي ثوباً من ثياب النبي ﷺ فكفنّي فيه ومره ان يصلي علي قال : فأتاه فقال : يا رسول الله قد عرفت شرف عبدالله وهو يطلب إليك ثوباً من ثيابك نكفنّه فيه وتصلي عليه .

فقال عمر: يا رسول الله قد عرفت عبدالله ونفاقه أتصلي عليه وقد نهاك الله ان تصلي عليه؟ فقال: وأين؟ فقال: «استغفر لهم او لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» قال: فإني سأزيد على سبعين فأنزل الله: «ولا تصل على احد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره» الآية قال: فأرسل الى عمر فأخبره بذلك، وأنزل الله: «سواء عليهم استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم» .

أقول : وقد ورد استغفار النبي ﷺ لعبد الله بن أبي وصلاته عليه في بعض المراسيل من روايات الشيعة ايضاً اوردهـــا العيّاشي والقمي في تفسيريها ، وقد تقدم خبر القمي .

وهذه الروايات على ما فيها من بعض التناقض والتدافع واشتمالها على التعارض فيما بينها يدفعها الآيات الكريمة دفعاً بيناً لامرية فيه :

اما اولاً فلظهور قوله تعالى : « استغفر لهم اولاً تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » ظهوراً بيّناً في ان المراد بالآية بيان لغوية الاستغفار للمنافقين دون التخيير ، وان العدد جيىء به لمبالغة الكثرة لا لخصوصية في السبعين بحيث ترجى المغفرة مع الزائد على السبعين .

والنبي ﷺ اجل من ان يجهل هذه الدلالة فيحمل الآية على التخيير ثم يقول سأزيد على سبعين ثم يذكره غيره بمعنى الآية فيصر على جهله حتى ينهاه الله عن الصلاة وغيرها بآية اخرى ينزّلها عليه .

على ان جميع هذه الآيات المتعرضة للاستغفار للمنافقين والصلاة عليهم كقوله: « استغفر لهم او لا تستغفر لهم » وقوله: « سواء عليهم استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم » وقوله : « ولا تصل على احد منهم مات ابداً » تعلل النهي واللغوية بكفرهم وفسقهم، حتى قوله تعالى في النهي عن الاستغفار للمشركين : « ما كان للنبي والذين

آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم » آية : ١١٣ من السورة ينهى عن الاستغفار معللاً ذلك بالكفر وخلود النار، وكيف يتصور مع ذلك جواز الاستغفار لهم والصلاة عليهم ؟

وثانياً : ان سياق الآيات التي منها قوله : « ولا تصل على احد منهم مات ابداً » الآية صريح في ان هذه الآية إنما نزلت والنبي ﷺ في سفره الى تبوك ولما يرجع الى المدينة ، وذاك في سنة ثمان ، وقد وقع موت عبد الله بن أبيّ بالمدينة سنة تسع من الهجرة كل ذلك مسلم من طريق النقل .

فما معنى قوله في هذه الروايات : ان النبي ﷺ صلى على عبد الله وقام على قبره ثم انزل الله عليه : « ولا تصل على احد منهم مات ابداً » الآية ؟

واعجب منه ما وقع في بعض الروايات السابقة ان عمر قال للنبي ﷺ : اتصلّي عليه وقد نهاك عن الصلاة للمنافقين فقال : ان ربي خيّرني ثم انزل الله : « ولا تصلّ على احد منهم » الآية .

واعجب منه ما في الرواية الأخيرة من نزول قوله : «سواء عليهم أستغفرت لهم ام لم تستغفر لهم » الاية ، والاية من سورة المنافقون وقد نزلت بعد غزاة بني المصطلق وكانت في سنة خمس وعبد الله بن أبي حي عندئذ وقد حكي في السورة قوله : لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

وقد اشتمل بعض هذه الروايات وتعلّق به بعض من انتصر لها على أن النبي ﷺ انما استغفر وصلى على عبد الله ليستميل قلوب رجال منافقين من الخزرج الى الإسلام ، وكيف يستقيم ذلك؟ وكيف يصح ان يخالف النبي ﷺ النص الصريح من الآيات استمالة لقلوب المنافقين ومداهنة معهم؟ وقد هدّده الله على ذلك بأبلغ التهديد في مثل قوله: « اذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف المماة » الآية اسرى : ٧٥ . فالوجه ان هذه الروايات موضوعة يجب طرحها بمخالفة الكتاب .

وفي الدر المنثور في قوله : «رضوا بأن يكونوا مع الخوالف» الآية اخرج ابن مردويه عن سعد بن ابي وقاص ان علي بن ابي طالب خرج مع النبي ﷺ حتى جاء ثنية الوداع يريد تبوك ، وعلي يبكي ويقول : تخلفني مع الخوالف ؟ فقال رسول الله ﷺ : ألا ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة .

أقول : والرواية مروية بطرق كثيرة من طرق الفريقين .

وفي تفسير العياشي عن جابر عن ابي جعفر عليه‌السلام في قوله : « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » قال : مع النساء .

وفي الدر المنثور اخرج عبدالرزاق في المصنف وابن ابي شيبة وأحمد والبخاري وأبو الشيخ وابن مردويه عن انس أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لما قفل من غزوة تبوك فأشرف على المدينة قال : لقد تركتم بالمدينة رجالاً ما سرتم في مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم فيه. قالوا : يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال : حبسهم العذر .

وفي المجمع في قوله تعالى: «ليس على الضعفاء ولا على المرضى» الآيتين قيل: إن الآية الاولى نزلت في عبدالله بن زائدة وهو ابن أم مكتوم وكان ضرير البصر جاء إلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقال: يا نبي الله إني شيخ ضرير خفيف الحال نحيف الجسم وليس لي قائد فهل لي رخصة في التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فأنزل الله الآية. عن الضحاك ، وقيل: نزلت في عائذ بن عمرو وأصحابه . عن قتادة .

والآية الثانية نزلت في البكائين وهم سبعة نفر : منهم عبد الرحمن بن كعب وعلبة بن زيد وعمرو بن ثعلبة بن غنمة وهؤلاء من بني النجار ، وسالم بن عمير وهرمي بن عبدالله وعبدالله بن عمرو بن عوف [أ] وعبدالله بن مغفل من مزينة جاءوا الى رسول الله فقالوا يا رسول الله احملنا فإنه ليس لنا ما نخرج عليه فقال : لا اجد ما احملكم عليه عن ابي حمزة الثمالي .

وقيل : نزلت في سبعة من قبائل شتى اتوا النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقالوا له : احملنا على الخفاف والنعال . عن محمد بن كعب وابن إسحاق .

وقيل : كانوا جماعة من مزينة . عن مجاهد ، وقيل : كانوا سبعة من فقراء الأنصار فلما بكوا حمل عثمان منهم رجلين، والعباس بن عبد المطلب رجلين، ويامين ابن كعب النضري ثلاثة عن الواقدي قال : وكان الناس بتبوك مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ثلاثين الفاً منهم عشرة آلاف فارس .

أقول : والروايات في أسماء البكائين مختلفة اختلافاً شديداً .

وفي تفسير القمّي قال : قال : وإنما سأل هؤلاء البكاؤن نعلاً يلبسونها .

وفي المعاني بإسناده عن ثعلبة عن بعض اصحابنا عن ابي عبدالله عليه السلام في قول الله عز وجل: «عالم الغيب والشهادة» فقال: الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان.

أقول: وهو من باب إراءة بعض المصاديق واللفظ أعمّ.

وفي تفسير القمي قال: ولما قدم النبي صلى الله عليه وآله من تبوك كان أصحابه المؤمنون يتعرّضون المنافقين ويؤذونهم فأنزل الله: «سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم» الى آخر الآيتين.

وفي المجمع قيل: نزلت الآيات في جدّ بن قيس ومتعب بن قشير وأصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلاً، ولما قدم النبي صلى الله عليه وآله المدينة راجعاً عن تبوك قال: لا تجالسوهم ولا تكلموهم. عن ابن عباس.

* * *

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَنْ لاَ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ – ٩٧. وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ – ٩٨. وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ – ٩٩. وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ – ١٠٠. وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ

إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ــ ١٠١ . وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً
صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ـ ١٠٢
خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ
سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ــ ١٠٣ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ
التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ـ ١٠٤
وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ــ ١٠٥ . وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ
لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ـ ١٠٦ .

(بيان)

الكلام جار على الغرض السابق يبين به حال الأعراب في كفرهم ونفاقهم وإيمانهم وفي خلال الآيات آية الصدقة .

قوله تعالى : «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله» الآية ، قال الراغب في المفردات: العرب ولد اسماعيل، والأعراب جمعه في الأصل، وصار ذلك اسماً لسكان البادية: «قالت الأعراب آمنا. والأعراب أشد كفراً ونفاقاً . ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر» ، وقيل في جمع الأعراب : أعاريب ، قال الشاعر :

أعاريب ذوو فخر بإفك وألسنة لطاف في المقال

والأعرابيّ في التعارف صار اسماً للمنسوب الى سكان البادية ، والعربيّ المفصح والإعراب البيان، انتهى موضع الحاجة . يبين تعالى حال سكان البادية وأنهم أشد كفراً ونفاقاً لأنهم لبعدهم عن المدنية والحضارة ، وحرمانهم من بركات الإنسانية من العلم والأدب أقسى وأجفى، فهم أجدر وأحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله من

المعارف الأصلية والأحكام الشرعية من فرائض وسنن وحلال وحرام .

قوله تعالى : « ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر» الآية، قال في المجمع: المغرم الغرم وهو نزول نائبة بالمال من غير خيانة، وأصله لزوم الأمر، ومنه قوله: إن عذابها كان غراماً، وحبّ غرام اي لازم، والغريم يقال لكل واحد من المتداينين للزوم احدهما الآخر وغرمته كذا أي ألزمته إياه في ماله ، انتهى .

والدائرة الحادثة وتغلب في الحوادث السوء كأن الحوادث السوء تدور بين الناس فتنزل كل يوم بقوم فتربص الدوائر بالمؤمنين انتظار نزول الحوادث السوء عليهم للتخلص من سلطتهم والرجوع الى رسوم الشرك والضلال .

وقوله: «يتخذ ما ينفق مغرماً» أي يفرض الإنفاق غرماً او المال الذي ينفقه مغرماً – على أن يكون ما مصدرية او موصولة – والمراد الإنفاق في الجهاد او اي سبيل من سبل الخير على ما قيل، ويمكن ان يكون المراد الإنفاق في خصوص الصدقات ليكون الكلام كالتوطئة لما سيجيء بعد عدة آيات من حكم أخذ الصدقة من اموالهم، ويؤيده ما في الآية التالية من قوله: «ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول» فانه كالتوطئة لقوله في آية الصدقة : « وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم » .

فمعنى الآية : ومن سكان البادية من يفرض الإنفاق في سبيل الخير او في خصوص الصدقات غرماً وخسارة وينتظر نزول الحوادث السيئة بكم ، عليهم دائرة السوء – قضاء منه تعالى او دعاء عليهم – والله سميع للأقوال عليم بالقلوب .

قوله تعالى : « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول » الخ ، الظاهر أن قوله : « صلوات الرسول » عطف على قوله : « ما ينفق » ، وأن الضمير في قوله : « ألا إنها قربة » عائد الى ما ينفق وصلوات الرسول .

ومعنى الآية : ومن الأعراب من يؤمن بالله فيوحده من غير شرك ويؤمن باليوم الآخر فيصدّق الحساب والجزاء ويتخذ إنفاق المال لله وما يتبعه من صلوات الرسول ودعواته بالخير والبركة ، كل ذلك قربات عند الله وتقربات منه اليه ألا إن هذا الإنفاق وصلوات الرسول قربة لهم ، والله يعدهم بأنه سيدخلهم في رحمته لأنه غفور للذنوب رحيم بالمؤمنين به والمطيعين له .

قوله تعالى: «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان» الخ القراءة المشهورة «والأنصار» بالكسر عطفاً على «المهاجرين» والتقدير: السابقون الأولون من المهاجرين والسابقون الأولون من الأنصار والذين اتبعوهم بإحسان؛ وقرء يعقوب: والأنصار بالرفع فالمراد به جميع الأنصار دون السابقين الأولين منهم فحسب.

وقد اختلفت الكلمة في المراد بالسابقين الأولين فقيل: المراد بهم من صلى الى القبلتين، وقيل: من بايع بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية، وقيل: هم أهل بدر خاصة، وقيل: هم الذين أسلموا قبل الهجرة، وهذه جميعاً وجوه لم يوردوا لها دليلاً من جهة اللفظ.

والذي يمكن أن يؤيده لفظ الآية بعض التأييد هو أن بيان الموضوع ـ السابقون الأولون ـ بالوصف بعد الوصف من غير ذكر أعيان القوم وأشخاصهم يشعر بأن الهجرة والنصرة هما الجهتان اللتان روعي فيهما السبق والأولية.

ثم الذي عطف عليهم من قوله: «والذين اتبعوهم بإحسان» يذكر قوماً ينعتهم بالاتّباع ويقيّده بأن يكون بإحسان والذي يناسب وصف الاتّباع أن يترتب عليه هو وصف السبق دون الأولية فلا يقال: أول وتابع وإنما يقال: سابق وتابع، وتصديق ذلك قوله تعالى: «للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم» الى ان قال: «والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم» الى ان قال: «والذين جاءوا من بعدهم يقولون: «ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان» الآيات الحشر: ١٠.

فالمراد بالسابقين هم السابقون الى الإيمان من بين المسلمين من لدن طلوع الإسلام الى يوم القيامة.

ولكون السبق ويقابله اللحوق والاتّباع من الامور النسبية، ولازمه كون مسلمي كل عصر سابقين في الإيمان بالقياس الى مسلمي ما بعد عصرهم كما أنهم لاحقون بالنسبة الى من قبلهم قيّد «السابقون» بقوله: «الأولون» ليدل على كون المراد بالسابقين هم الطبقة الأولى منهم.

وإذ ذكر الله سبحانه ثالث الأصناف الثلاثة بقوله: «والذين اتّبعوهم بإحسان» ولم يقيّده بتابعي عصر دون عصر ولا وصفهم بتقدم وأولية ونحوهما وكان شاملاً لجميع من يتبع السابقين الأولين كان لازم ذلك أن يصنف المؤمنون غير المنافقين من يوم البعثة الى يوم البعث في الآية ثلاثة اصناف: السابقون الأولون من المهاجرين، والسابقون

الأولون من الأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، والصنفان الأولان فاقدان لوصف التبعية وإنما هما إمامان متبوعان لغيرهما والصنف الثالث ليس متبوعاً إلا بالقياس.

وهذا نعم الشاهد على ان المراد بالسابقين الأولين هم الذين أسسوا أساس الدين ورفعوا قواعده قبل ان يشيد بنيانه ويهتز راياته صنف منهم بالإيمان واللحوق بالنبي ﷺ والصبر على الفتنة والتعذيب، والخروج من ديارهم وأموالهم بالهجرة الى الحبشة والمدينة ، وصنف بالإيمان ونصرة الرسول وإيوائه وإيواء من هاجر اليهم من المؤمنين والدفاع عن الدين قبل وقوع الوقائع .

وهذا ينطبق على من آمن بالنبي ﷺ قبل الهجرة ثم هاجر قبل وقعة بدر التي منها ابتدأ ظهور الإسلام على الكفر او آمن بالنبي ﷺ وآواه وتهيأ لنصرته عندما هاجر الى المدينة .

ثم إن قوله : « والذين اتبعوهم بإحسان » قيد فيه اتباعهم بإحسان ولم يرد الاتباع في الإحسان بأن يكون المتبوعون محسنين ثم يتبعهم التابعون في إحسانهم ويقتدوا بهم فيه – على أن يكون الباء بمعنى في – ولم يرد الاتباع بواسطة الإحسان – على ان يكون الباء للسببية او الآلية – بل جيء بالإحسان منكراً ، والأنسب له كون الباء بمعنى المصاحبة فالمراد أن يكون الاتباع مقارناً لنوع ما من الإحسان مصاحباً له ، وبعبارة اخرى يكون الإحسان وصفاً للاتباع .

وإنما نجده تعالى في كتابه لا يذم من الاتباع إلا ما كان عن جهل وهوى كاتباع المشركين آباءهم، واتباع اهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم وأسلافهم عن هوى واتباع الهوى واتباع الشيطان فمن اتبع شيئاً من هؤلاء فقد أساء في الاتباع ومن اتبع الحق لا لهوى متعلق بالأشخاص وغيرهم فقد احسن في الاتباع، قال تعالى: «الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله» الزمر: ١٨ ومن الإحسان في الاتباع كال مطابقة عمل التابع لعمل المتبوع ويقابله الإساءة فيه .

فالظاهر أن المراد بالذين اتبعوهم بإحسان ان يتبعوهم بنوع من الإحسان في الاتباع وهو ان يكون الاتباع بالحق – وهو اتباعهم لكون الحق معهم – ويرجع الى اتباع الحق بالحقيقة بخلاف اتباعهم لهوى فيهم او في اتباعهم، وكذا مراقبة التطابق.

هذا ما يظهر من معنى الاتباع بإحسان ، وأما ما ذكروه من ان المراد كون

الاتباع مقارناً لإحسان في المتبع عملاً بأن يأتي بالأعمال الصالحة والأفعال الحسنة فهو لا يلائم كل الملائمة التنكير الدال على النوع في الإحسان ، وعلى تقدير التسليم لا مفر فيه من التقييد بما ذكرنا فإن الاتباع للحق وفي الحق يستلزم الإتيان بالأعمال الحسنة الصالحة دون العكس وهو ظاهر .

فقد تلخص أن الآية تقسم المؤمنين من الامة الى ثلاثة أصناف : صنفان هما السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والصنف الثالث هم الذين اتبعوهم بإحسان.

وظهر مما تقدم أولاً: ان الآية تمدح الصنفين الأولين ، بالسبق الى الايمان والتقدم في إقامة صلب الدين ورفع قاعدته ، وتفضيلهم على غيرهم على ما يفيده السياق .

وثانياً: أن «من» في قوله: «من المهاجرين والأنصار» تبعيضية لا بيانية لما تقدم من وجه فضلهم ، ولما ان الآية تذكر ان الله رضي عنهم ورضوا عنه ، والقرآن نفسه يذكر ان منهم من في قلبه مرض ومنهم سماعون للمنافقين ، ومنهم من يسميه فاسقاً ، ومنهم من تبرأ النبي ﷺ من عمله ولا معني لرضى الله عنهم ، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين .

وثالثاً : ان الحكم بالفضل ورضى الله سبحانه في الآية مقيد بالإيمان والعمل الصالح على ما يعطيه السياق فإن الآية تمدح المؤمنين في سياق تذم فيه المنافقين بكفرهم وسيئات أعمالهم ويدل على ذلك سائر المواضع التي مدحهم الله فيها او ذكرهم بخير ووعدهم وعداً جميلاً فقد قيّد جميع ذلك بالإيمان والعمل الصالح كقوله تعالى: «للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله » الى آخر الآيات الثلاث الحشر : ٨ .

وقوله فيما حكاه من دعاء الملائكة لهم: «ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم » المؤمن : ٨ .

وقوله: « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ـ الى ان قال ـ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً » الفتح: ٢٩.

وقوله : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرء بما كسب رهين » الطور : ٢١ انظر الى موضع قوله :

« بإيمان » وقوله : كل امرء « الخ » .

ولو كان الحكم في الآية غير مقيّد بقيد الايمان والعمل الصالح وكانوا مرضيين عند الله مغفوراً لهم أحسنوا او أساءوا واتقوا او فسقوا كان ذلك تكذيباً صريحاً لقوله تعالى : « فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » التوبة: ٩٦ ، وقوله : «والله لا يهدي القوم الفاسقين» التوبة: ٨٠، وقوله: « والله لا يحب الظالمين » آل عمران : ٥٧ الى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة مطابقة او التزاماً ان الله لا يرضى عن الظالم والفاسق وكل من لا يطيعه في امر او نهي، وليست الآيات مما يقبل التقييد او النسخ وكذا أمثال قوله تعالى خطاباً للمؤمنين : « ليس بأمانيكم ولا اماني اهل الكتاب من يعمل سوء يجزبه » النساء : ١٢٣ .

على ان لازم عدم تقييد الحكم في هذه الآية تقييد جميع الآيات الدالة على الجزاء والمشتملة على الوعيد والتهديد ، وهي آيات جمة في تقييدها اختلال نظام الوعد والوعيد وإلغاء معظم الأحكام والشرائع ، وبطلان الحكمة ، ولا فرق في ذلك بين ان نقول بكون «من» تبعيضية والفضل لبعض المهاجرين والأنصار او بيانية والفضل للجميع والرضى الإلهي للكل ، وهو ظاهر .

وقوله تعالى : «رضي الله عنهم ورضوا عنه» الرضى منا موافقة النفس لفعل من الأفعال من غير تضاد وتدافع يقال: رضي بكذا أي وافقه ولم يمتنع منه، ويتحقق بعدم كراهته إياه سواء احبه او لم يحبه ولم يكرهه فرضى العبد عن الله هو ان لا يكره بعض ما يريده الله ولا يحب بعض ما يبغضه ولا يتحقق إلا اذا رضي بقضائه تعالى وما يظهر من أفعاله التكوينية، وكذا بحكمه وما أراده منه تشريعاً، وبعبارة اخرى اذا سلم له في التكوين والتشريع وهو الاسلام والتسليم لله سبحانه .

وهذا بعينه شاهد آخر على ما تقدم ان الحكم في الآية مقيّد بالايمان والعمل الصالح بمعنى ان الله سبحانه إنما يمدح من المهاجرين والأنصار والتابعين من آمن به وعمل صالحاً ، ويخبر عن رضاه عنه وإعداده له جنات تجري تحتها الأنهار .

وليس مدلول الآية ان من صدق عليه أنه مهاجر او انصاري او تابع فإن الله قد رضي عنه رضاً لا سخط بعده أبداً وأوجب في حقه المغفرة والجنة سواء احسن بعد ذلك او اساء ، اتقى او فسق .

وأما رضاه تعالى فإنما هو من اوصافه الفعلية دون الذاتية فإنه تعالى لا يوصف لذاته بما يصير معه معرضاً للتغيير والتبدل كأن يعرضه حال السخط إذا عصاه ثم الرضى اذا تاب اليه ، وإنما يرضى ويسخط بمعنى انه يعامل عبده معاملة الراضي من إنزال الرحمة وإيتاء النعمة او معاملة الساخط من منع الرحمة وتسليط النقمة والعقوبة.

ولذلك كان من الممكن ان يحدث له الرضى ثم يتبدل الى السخط او بالعكس غير ان الظاهر من سياق الآية ان المراد بالرضى هو الرضى الذي لا سخط بعده فإنه حكم محمول على طبيعة أخيار الامة من سابقيهم وتابعيهم في الايمان والعمل الصالح، وهذا امر لا مداخلة للزمان فيه حتى يصح فرض سخط بعد رضى وهو بخلاف قوله تعالى : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » الآية الفتح : ١٨ فإنه رضى مقيّد بزمان خاص يصلح لنفسه لأن يفرض بعده سخط .

قوله تعالى : « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن اهل المدينة » الآية حول الشيء ما يجاوره من المكان من اطرافه وهو ظرف ، والمرد العتو والخروج عن الطاعة، والممارسة والتمرين على الشر وهو المعنى المناسب لقوله في الآية: «مردوا على النفاق ». أي مرنوا عليه ومارسوا حتى اعتادوه .

ومعنى الآية: وممن في حولكم او حول المدينة من الأعراب الساكنين في البوادي منافقون مرنوا على النفاق ومن اهل المدينة أيضاً منافقون معتادون على النفاق لا تعلمهم انت يا محمد نحن نعلمهم سنعذّبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم .

وقد اختلفت كلماتهم في المراد من تعذيبهم مرتين. ما هما المرتان؟ فقيل: يعني مرة في الدنيا بالسبي والقتل ونحوهما ومرة بعذاب القبر، وقيل: في الدنيا بأخذ الزكاة وفي الآخرة بعذاب القبر، وقيل بالجوع مرتين وقيل مرة عند الاحتضار ومرة في القبر وقيل: بإقامة الحدود وعذاب القبر، وقيل: مرة بالفضيحة في الدنيا ومرة بالعذاب في القبر، وقيل غير ذلك، ولا دليل على شيء من هذه الأقوال، وإن كان ولا بد فأولها أولاها.

قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » الآية ، اي ومن الأعراب جماعة آخرون مذنبون لا ينافقون مثل غيرهم بل اعترفوا بذنوبهم لهم عمل صالح وعمل آخر سيىء خلطوا هذا بذلك من المرجو ان يتوب الله عليهم إن الله غفور رحيم .

وفي قوله : « عسى الله ان يتوب عليهم » إيجـاد الرجاء في نفوسهم لتكون نفوسهم واقعة بين الخوف والرجاء من غير ان يحيط بها اليأس والقنوط، وفي قوله: « إن الله غفور رحيم » ترجيح جانب الرجاء .

قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » التطهير إزالة الأوساخ والقذارات من الشيء ليصفى وجوده ويستعد للنشوء والنماء وظهور آثاره وبركاته، والتزكية إنماؤه وإعطاء الرشد له بلحوق الخيرات وظهور البركات كالشجرة بقطع الزوائد من فروعها فتزيد في حسن نموّها وجودة ثمرتها فالجمع بين التطهير والتزكية في الآية من لطيف التعبير .

فقوله: « خذ من أموالهم صدقة » أمر للنبي ﷺ بأخذ الصدقة من اموال الناس ولم يقل : من مالهم ليكون اشارة الى انها مأخوذة من أصناف المال ، وهي النقدان: الذهب والفضة ، والأنعام الثلاثة: الإبل والبقر والغنم ، والغلات الأربع: الحنطة والشعير والتمر والزبيب .

وقوله : « تطهّرهم وتزكيهم بها » خطاب للنبي ﷺ ، وليس وصفاً لحـال الصدقة ، والدليل عليه ضمير بهـا الراجع الى الصدقة اي خذ يا محمد من اصناف اموالهم صدقة تطهرهم انت وتزكيهم بتلك الصدقة اي أخذها .

وقوله: « وصلّ عليهم » الصلاة عليهم هي الدعاء لهم والسياق يفيد انه دعاء لهم ولأموالهم بالخير والبركة وهو المحفوظ من سنّة النبي ﷺ فكان يدعو لمعطي الزكاة ولماله بالخير والبركة .

وقوله: « إن صلاتك سكن لهم » السكن ما يسكن اليه الشيء والمراد به أن نفوسهم تسكن الى دعائك وتثق به وهو نوع شكر لسعيهم في الله كما أن قوله تعالى في ذيل الآية: « والله سميع عليم » سكن يسكن اليه نفوس المكلفين ممن يسمع الآية او يتلوها.

والآية تتضمن حكم الزكاة المالية التي هي من أركان الشريعة والملة على ما هو ظاهر الآية في نفسها ، وقد فسرتها بذلك اخبار متكاثرة من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام وغيرهم .

قوله تعالى : « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم » استفهام إنكاري بداعي تشويق الناس الى إيتاء الزكاة،

وذلك أنهم إنما يؤتون الصدقة لله وإنما يسلّمونها الى الرسول او الى عامله وجابيه بما أنه مأمور من قِبل الله في اخذها فإيتاؤه إيتاء لله، وأخذه أخذ من الله فالله سبحانه هو الآخذ لها بالحقيقة، وقد قال تعالى في أمثاله: «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم» الفتح: ١٠ وقال: «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» الأنفال: ١٣ وقال قولاً عاماً: «من يطع الرسول فقد أطاع الله» النساء: ٨٠.

فاذا ذكّر الناس بمثل قوله: «ألم يعلموا أن الله» الآية، انبعثت رغباتهم واشتاقوا أن يعاملوا ربهم فيصافحوه ويمسّوا بأيديهم يده تنزّه عن عوارض الأجسام وتعالى عن ملابسة الحدثان.

ومقارنته الصدقة بالتوبة لما أن التوبة تطهّر وإيتاء الصدقة تطهّر فالتصدّق بصدقة توبة مالية كما ان التوبة بمنزلة الصدقة في الأعمال والحركات، ولذلك عطف على صدر الآية قوله ذيلاً: «وأن الله هو التواب الرحيم» فذكّر عباده باسميه التواب والرحيم، وجمع فيها التوبة والتصدق.

وقد بان من الآية ان التصدق وإيتاء الزكاة نوع من التوبة.

قوله تعالى: «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» الآية، الآية على ظاهر اتّصالها بما قبلها كأنها تخاطب المؤمنين وتسوقهم وتحرضهم الى إيتاء الصدقات.

غير أن لفظها مطلق لا دليل على تخصيص خطابها بالمتصدّقين من المؤمنين ولا بعامة المؤمنين بل هي تشمل كل ذي عمل من الناس من الكفار والمنافقين والمؤمنين ولا أقل من شمولها للمنافقين والمؤمنين جميعاً.

إلا أن نظير الآية الذي مر أعني قوله في سياق الكلام على المنافقين: «وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون» التوبة: ٩٤ حيث ذكر الله ورسوله في رؤية عملهم ولم يذكر المؤمنين لا يخلو من إيماء الى أن الخطاب في الآية التي نحن فيها للمؤمنين خاصة فإن ضم إحدى الآيتين الى الاخرى يخطر بالبال ان حقيقة أعمال المنافقين أعني مقاصدهم من أعمالهم لما كانت خفية على ملإ الناس فإنما يعلم بها الله ورسوله بوحي من الله تعالى، وأما المؤمنون فحقائق أعمالهم أعني مقاصدهم منها وآثارها وفوائدها التي تتفرع عليها وهي شيوع التقوى وإصلاح شؤون المجتمع الإسلامي وإمداد الفقراء في معايشهم وزكاة الأموال ونماؤها يعلمها الله

تعالى ورسوله ويشاهدها المؤمنون فيما بينهم .

لكن ظهور الأعمال بحقائق آثارها وعامة فوائدها أو مضراتها في محيط كينونتها وتبدلها بأمثالها وتصورها في أطوارها زماناً بعد زمان وعصراً بعد عصر مما لا يختص بعمل قوم دون عمل قوم ، ولا مشاهدتها والتأثر بها بقوم دون قوم .

فلو كان المراد من رؤية المؤمنين أعمالاً لعاملين ظهور آثارها ونتائجها وبعبارة أخرى ظهور أنفسها في ألبسة نتائجها لهم لم يختص المشاهدة بقوم دون قوم ولا بعمل قوم دون عمل قوم فما بال الأعمال يراها المؤمنون ولا يراها المنافقون وهم أهل مجتمع واحد ؟ وما بال أعمال المنافقين لا يشاهدها المؤمنون وقد كوّنت في مجتمعهم وداخلت أعمالهم؟

وهذا مع ما في الآية من خصوص السياق مما يقرب الذهن أن يفهم من الآية معنى آخر فإن قوله: « ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبّؤكم بما كنتم تعملون » يدل أولاً على أن قوله : « فسيرى الله عملكم » الآية ناظر الى ما قبل البعث وهي الدنيا لمكان قوله : « ثم تردون » فإنه يشير الى يوم البعث وما قبله هو الدنيا .

وثانياً : أنهم إنما يوقفون على حقيقة أعمالهم يوم البعث وأما قبل ذلك فإنما يرون ظاهرها ، وقد نبهنا على هذا المعنى كراراً في أبحاثنا السابقة ، وإذ قصر علمهم بحقائق أعمالهم على إنبائه تعالى إياهم بها يوم القيامة وذكر رؤية الله ورسوله والمؤمنين أعمالهم قبل يوم البعث في الدنيا وقد ذكر الله مع رسوله وغيره وهو عالم بحقائقها وله أن يوحي الى نبيه بها كان المراد بها مشاهدة الله سبحانه ورسوله والمؤمنون حقيقة أعمالهم ، وكان المراد بالمؤمنين شهداء الأعمال منهم لا عامة المؤمنين كما يدل عليه أمثال قوله تعالى « وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » البقرة : ١٤٣ وقد مر الكلام فيه في الجزء الأول من الكتاب .

وعلى هذا فمعنى الآية : وقل يا محمد اعملوا ما شئتم من عمل خيراً أو شراً فسيشاهد الله سبحانه حقيقة عملكم ويشاهدها رسوله والمؤمنون – وهم شهداء الأعمال – ثم تردون الى الله عالم الغيب والشهادة يوم القيامة فيريكم حقيقة عملكم .

وبعبارة اخرى: ما عملتم من عمل خير او شر فإن حقيقته مرئية مشهودة لله عالم الغيب والشهادة ثم لرسوله والمؤمنين في الدنيا ثم لكم أنفسكم معاشر العاملين يوم القيامة .

فالآية مسوقة لندب الناس الى مراقبة أعمالهم بتذكيرهم ان لأعمالهم من خير او شر حقائق غير مستورة بستر، وأن لها رقباء شهداء سيطلعون عليها ويرون حقائقها وهم رسول الله وشهداء الأعمال من المؤمنين والله من ورائهم محيط فهو تعالى يراها وهم يرونها، ثم إن الله سبحانه سيكشف عنها الغطاء يوم القيامة للعاملين أنفسهم كما قال: « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ق: ٢٢ ففرق عظيم بين أن يأتي الإنسان بعمل في الخلوة لا يطّلع عليه أحد، وبين أن يعمل ذلك العمل بعينه بين ملإ من الناظرين جلوة وهو يرى أنه كذلك.

هذا في الآية التي نحن فيها، وأما الآية السابقة: «يعتذرون إليكم اذا رجعتم اليهم قل لا تعتذروا قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» فإن وجه الكلام فيها الى أشخاص من المنافقين بأعيانهم يأمر الله فيها نبيه ﷺ ان يرد إليهم اعتذارهم، ويذكر لهم أولاً أن الله قد نبأهم أي النبي والذين معه من المؤمنين في جيش الإسلام اخبارهم بنزول هذه الآيات التي تقص اخبار المنافقين وتكشف عن مساوىء أعمالهم.

ثم يذكر لهم ان حقيقة أعمالهم غير مستورة عن الله سبحانه ولا خفية عليه وكذلك رسوله وحده ولم يكن معه احد من شهداء الأعمال ثم الله يكشف لهم أنفسهم عن حقيقة اعمالهم يوم القيامة.

فهذا هو الفرق بين الآيتين مع اتحادهما في ظاهر السياق حيث ذكر في الآية التي نحن فيها: الله ورسوله والمؤمنون، وفي الآية السابقة: الله ورسوله، واقتصر على ذلك. فهذا ما يعطيه التدبر في معنى الآية ومن لم يقنع بذلك ولم يرض دون ان يصور للآية معنى ظاهرياً فليقل إن ذكره تعالى « الله ورسوله » في خطاب المنافقين إنما هو لأجل انهم إنما يريدون ان يكيدوا الله ورسوله ولا همّ لهم في المؤمنين، وأما ذكره تعالى: «الله ورسوله والمؤمنين» في الخطاب العام فإنما الغرض فيه تحريضهم على العمل الصالح في مشهد من الملأ الصالح ولم يعبأ بحال غيرهم من الكفار والمنافقين. فتدبر.

قوله تعالى: «وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذّبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم» الارجاء التأخير، والآية معطوفة على قوله: «وآخرون اعترفوا بذنوبهم» ومعنى إرجائهم الى امر الله انهم لا سبب عندهم يرجح لهم جانب العذاب او جانب

المغفرة فامرهم يؤول الى امر الله ما شاء وأراد فيهم فهو النافذ في حقهم .

وهذه الآية تنطبق بحسب نفسها على المستضعفين الذين هم كالبرزخ بين المحسنين والمسيئين ، وإن ورد في أسباب النزول ان الآية نازلة في الثلاثة الذين خلفوا ثم تابوا فأنزل الله توبتهم على رسوله ﷺ وسيجيء إن شاء الله تعالى .

وكيف كان فالآية تخفي ما يؤول اليه عاقبة امرهم وتبقيها على إبهامها حتى فيما ذيلت به من الاسمين الكريمين : العليم والحكيم الدالين على ان الله سبحانه يحكم فيهم بما يقتضيه علمه وحكمته ، وهذا بخلاف ما ذيل قوله : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » حيث قال : « عسى الله ان يتوب عليهم والله غفور رحيم » .

(بحث روائي)

في تفسير العياشي عن داود بن الحصين عن ابي عبدالله عليه‌السلام قال : سألته عن قول الله : « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله » أيثيبهم عليه ؟ قال : نعم .

وفيه عن ابي عمرو الزبيري عن ابي عبدالله عليه‌السلام قال : إن الله سبق بين المؤمنين كما سبق بين الخيل يوم الرهان .

قلت : اخبرني عما ندب الله المؤمن من الاسباق الى الايمان . قال : قول الله تعالى « سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله » وقال : « السابقون السابقون اولئك المقربون » .

وقال : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه» فبدأ بالمهاجرين الأولين على درجة سبقهم ثم ثنى بالأنصار ثم ثلث بالتابعين وأمر [هم] بإحسان فوضع كل قوم على قدر درجاتهم ومنازلهم عنده.

وفي تفسير البرهان عن مالك بن انس عن ابي صالح عن ابن عباس قال : « والسابقون الأولون » نزلت في امير المؤمنين عليه‌السلام وهو أسبق الناس كلهم بالإيمان وصلى على القبلتين ، وبايع البيعتين بيعة بدر وبيعة الرضوان ، وهاجر الهجرتين مع جعفر من مكة الى الحبشة ومن الحبشة الى المدينة .

أقول : وفي معناها روايات أخر .

وفي الدر المنثور اخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعي حدثني يحيى بن كثير والقاسم ومكحول وعبدة بن ابي لبابة وحسان بن عطية انهم سمعوا جماعة من اصحاب النبي ﷺ يقولون: لما أنزلت هذه الآية: « والسابقون الأولون ـ الى قوله ـ ورضوا عنه » قال رسول الله ﷺ : هذا لامتي كلهم ، وليس بعد الرضا سخط .

أقول: معناه ان من رضي الله عنهم ورضوا عنه هم الذين جمعتهم الآية لا ان الآية تدل على رضاه تعالى عن الامة كلهم فهذا مما يدفعه الكتاب بالمخالفة القطعية ، و كذا قوله : « وليس بعد الرضا سخط » ، مراده ليس بعد الرضا المذكور في الآية سخط ، وقد قررناه فيما تقدم لا أنه ليس بعد مطلق رضى الله سخط فهو مما لا يستقيم البتة .

وفيه اخرج ابو الشيخ وابن عساكر عن ابي صخر حميد بن زياد قال : قلت لمحمد بن كعب القرظي : اخبرني عن اصحاب رسول الله ﷺ وانما اريد الفتن. فقال: ان الله قد غفر لجميع اصحاب النبي ﷺ ، وأوجب لهم الجنّة في كتابه محسنهم ومسيئهم . قلت : وفي أي موضع أوجب الله لهم الجنة في كتابه؟ قال : ألا تقرأ: « والسابقون الأوّلون » الآية اوجب لجميع اصحاب النبي ﷺ الجنة والرضوان ، وشرط على التابعين شرطاً لم يشترطه فيهم .

قلت : وما اشترط عليهم ؟ قال : اشترط عليهم ان يتبعوهم باحسان يقول: يقتدوا بهم في أعمالهم الحسنة ، ولا يقتدون بهم في غير ذلك . قال ابو صخر: فوالله لكأني لم اقرأها قبل ذلك ، وما عرفت تفسيرها حتى قرأها علي محمد بن كعب .

اقول : هو ـ كما ترى ـ يسلّم ان في اعمالهم حسنة وسيئة وطاعة وفسقاً غير ان الله رضي عنهم في جميع ذلك وغفرها لهم فلا يجازيهم بالسيئة سيئة ، وهو الذي ذكرنا في البيان المتقدم ان مقتضاه تكذيب آيات كثيرة قرآنية تدل على ان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين والظالمين وأنه لا يحبهم ولا يهديهم ، وتقييد آيات أكثر من ذلك وهي أكثر الآيات القرآنية الدالة على عموم جزاء الحسنة بالحسنة والسيئة بالسيئة من غير مقيّد وعليها تعتمد آيات الأمر والنهي وهي آيات الأحكام بجملتها .

ولو كان مدلول الآية هذا الذي ذكره لكانت الصحابة على عربيتهم المحضة واتصالهم بزمان النبوّة ونزول الوحي احق ان يفهموا من الآية ذلك، ولو كانوا فهموا منها ذلك لما عامل بعضهم بعضاً بما ضبطه النقل الصحيح .

وكيف يمكن ان يتحقق كلهم بمضمون قوله: «رضي الله عنهم ورضوا عنه» ويفهموا ذلك منه ثم لا يرضى بعضهم عن بعض وقد رضي الله عنه، والراضي عن الله راض عما رضي الله عنه، ولا يندفع هذا الاشكال بحديث اجتهادهم فان ذلك لو سلم يكون عذراً في مقام العمل لا مصححاً للجمع بين صفتين متضادتين وجداناً وهما الرضا عن الله وعدم الرضا عمّا رضي الله عنه والكلام طويل.

وفيه اخرج ابو عبيد وسنيد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن حبيب الشهيد عن عمرو بن عامر الأنصاري ان عمر بن الخطاب قرء «والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان» فرفع الانصار ولم يلحق الواو في الذين فقال له زيد بن ثابت: والذين فقال عمر: الذين فقال زيد: امير المؤمنين اعلم فقال عمر: ائتوني بابي بن كعب فأتاه فسأله عن ذلك فقال أُبي: والذين فقال عمر: فنعم إذن نتابع أبياً.

أقول: ومقتضى قراءة عمر اختصاص المهاجرين بما يتضمنه قوله: «والسابقون الأوّلون» من المنقبة ومنقبة اخرى وهي كونهم متبوعين للأنصار كما يشير اليه الحديث الآتي.

وفيه اخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال: مر عمر برجل يقرء «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار» فأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ قال: أُبي بن كعب. قال: لا تفارقني حتى اذهب بك اليه فلمّا جاءه قال عمر: انت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم قال: وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: نعم. قال: كنت أرى انّا رفعنا رفعة لا يبلغها احد بعدنا.

فقال أُبي: تصديق ذلك في اول سورة الجمعة: «وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم» وفي سورة الحشر: «والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان» وفي الأنفال: «والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئك منكم».

وفي الكافي بإسناده عن موسى بن بكر عن رجل قال: قال ابو جعفر عليه السلام: «الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً» فاولئك قوم مؤمنون يحدثون في إيمانهم من الذنوب التي يعيبها المؤمنون ويكرهونها فاولئك عسى الله ان يتوب عليهم.

أقول: ورواه العيّاشي عن زرارة عنه عليه‌السلام إلا ان فيه « مذنبون » « مكان مؤمنون ».

وفي الجمع في قوله تعالى: « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » الآية قال: أبو حمزة الثمالي: بلغنا انهم ثلاثة نفر من الأنصار: ابو كنانة بن عبد المنذر وثعلبة بن وديعة وأوس بن حذام تخلّفوا عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عند مخرجه الى تبوك فلمّا بلغهم ما أنزل الله فيمن تخلف عن نبيه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أيقنوا بالهلاك وأوثقوا انفسهم بسواري المسجد فلم يزالوا كذلك حتى قدم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فسأل عنهم فذكر له انهم اقسموا ان لا يحلّون انفسهم حتى يكون رسول الله يحلهم، وقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: وأنا اقسم لا اكون اول من حلهم إلا أن أومر فيهم بأمر.

فلما نزل: « عسى الله ان يتوب عليهم » عمد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم اليهم فحلهم فأنطلقوا فجاءوا بأموالهم الى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقالوا: هذه اموالنا التي خلّفتنا عنك فخذها وتصدق بها عنا. قال: ما أُمرت فيها، فنزل: « خذ من اموالهم صدقة » الآيات.

أقول: وفي هذا المعنى روايات اخرى رواها في الدر المنثور بينها اختلاف في أسامي الرجال، وفيها نزول آية الصدقة في خصوص أموالهم، ويضعفها تظافر الروايات في نزول الآية في الزكاة الواجبة.

وفيه: وروي عن أبي جعفر الباقر عليه‌السلام أنها نزلت في ابي لبابة ولم يذكر غيره معه وسبب نزولها فيه ما جرى منه في بني قريظة حين قال: ان نزلتم على حكمه فهو الذبح.

وفي الكافي بإسناده عن عبدالله بن سنان قال: قال ابو عبدالله عليه‌السلام: لمّا نزلت هذه الآية: « خذ من اموالهم صدقة تطهّرهم وتزكيهم بها »، وأُنزلت في شهر رمضان فأمر رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مناديه فنادى في الناس: ان الله فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة ففرض الله عزوجل عليهم من الذهب والفضة وفرض الصدقة من الإبل والبقر والغنم، ومن الحنطة والشعير والتمر والزبيب فنادى بهم بذلك في شهر رمضان، وعفى لهم عما سوى ذلك.

قال: ثم لم يفرض لشيء من اموالهم حتى حال عليه الحول من قابل فصاموا

وأفطروا فأمر مناديه فنادى في المسلمين: ايها المسلمون زكوا اموالكم تقبل صلاتكم. قال : ثم وجّه عمال الصدقة وعمال الطسوق .

وفي الدر المنثور أخرج ابن ابي شيبة والبخاري ومسلم وابو داود والنسائي وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه عن عبدالله بن ابي اوفى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا أتي بصدقة قال : اللهم صل على آل فلان فأتاه ابي بصدقته فقال : اللهم صل على آل أبي اوفى .

وفي تفسير البرهان عن الصدوق بإسناده عن سليمان بن مهران عن ابي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى : « ويأخذ الصدقات » قال : يقبلها من اهلها ويثيب عليها .

وفي تفسير العيّاشي عن مالك بن عطيّة عن ابي عبدالله عليه السلام قال : قال علي ابن الحسين عليه السلام: ضمنت على ربي ان الصدقة لا تقع في يد العبد حتى تقع في يد الرب ، وهو قوله : « هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات » .

اقول : وفي معناه روايات أخرى مروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي وأبي جعفر وابي عبد الله عليهم السلام .

وفي بصائر الدرجات بإسناده عن محمد بن مسلم عن ابي جعفر عليه السلام قال : سألت عن الأعمال هل تعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال : ما فيه شك . قال : ارأيت قول الله« اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون»فقال: لله شهداءفي خلقه.

أقول : وفي معناه روايات متظافرة متكاثرة مروية في جوامع الشيعة عن أئمة اهل البيت عليهم السلام ، وفي اكثرها: ان «المؤمنون» في الآية هم الأئمة ، وانطباقها على ما قدّمناه من التفسير ظاهر .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن ابي جعفر عليه السلام في قول الله « وآخرون مرجون لأمر الله » قال: قوم كانوا مشركين فقتلوا مثل حمزة وجعفراً واشباههما من المسلمين ثم انهم دخلوا في الاسلام فوحدوا الله وتركوا الشرك ، ولم يعرفوا الإيمان بقلوبهم فيكونوا من المؤمنين فيجب لهم الجنّة ، ولم يكونوا على جحودهم فيكفروا فيجب لهم النار فهم على تلك الحال مرجون لأمر الله إمّا يعذبهم وإمّا يتوب عليهم.

أقول: ورواه العيّاشي في تفسيره عن زرارة عنه عليه السلام وفي معناه روايات أخر.

وفي تفسير العيّاشي عن حمران قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن المستضعفين قال : هم ليسوا بالمؤمنين ولا بالكفّار فهم المرجون لأمر الله .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله : «وآخرون مرجون لأمر الله » قال : هم الثلاثة الذين خلّفوا .

أقول : وروى مثله عن مجاهد وقتادة وأن أسماءهم هلال بن أمية ، ومرارة ابن الربيع وكعب بن مالك من الأوس والخزرج، ولا تنطبق قصّتهم على هذه الآية وسيجيء ان شاء الله تعالى .

(كلام في الزكاة وسائر الصدقة)

الأبحاث الاجتماعية والاقتصادية وسائر الابحاث المرتبطة بها جعلت اليوم حاجة المجتمع من حيث انه مجتمع الى مال يختص به ويصرف لرفع حوائجه العامة في صف البديهيات التي لا يشكّ فيها شاكّ ولا يداخلها ريب فكثير من المسائل الاجتماعية والاقتصادية ــ ومنها هذه المسألة ــ كانت في الأعصار السالفة مما يغفل عنها عامة الناس ولا يشعرون بها إلا شعوراً فطرياً إجمالياً وهي اليوم من الابجديات التي يعرفها العامة والخاصة .

غير ان الاسلام بحسب ما بيّن من نفسيّة الاجتماع وهويّته وشرع من الأحكام المالية الراجعة اليها ، والأنظمة والقوانين التي رتّبها في أطرافها ومتونها له اليد العليا في ذلك .

فقد بيّن القرآن الكريم أن الاجتماع يصيغ من عناصر الافراد المجتمعين صيغة جديدة فيكوّن منهم هويّة جديدة حية هي المجتمع، وله من الوجود والعمر والحياة والموت والشعور والإرادة والضعف والقوة والتكليف والإحسان والإساءة والسعادة والشقاوة أمثال او نظائر ما للإنسان الفرد وقد نزلت في بيان ذلك كلّه آيات كثيرة قرآنية كررنا الإشارة اليها في خلال الأبحاث السابقة .

وقد عزلت الشريعة الإسلامية سهماً من منافع الأموال وفوائدها للمجتمع كالصدقة الواجبة التي هي الزكاة وكالخمس من الغنيمة ونحوها، ولم يأت في ذلك ببدع فان القوانين والشرائع السابقة عليها كشريعة حمورابي وقوانين الروم القديم يوجد فيها

أشياء من ذلك بل سائر السنن القومية في أي عصر، وبين أية طائفة دارت لا يخلو عن اعتبار جهة مالية لمجتمعها فالمجتمع كيفما كان يحس بالحاجة المالية في سبيل قيامه ورشده.

غير أن الشريعة الاسلامية تمتاز في ذلك من سائر السنن والشرائع بامور يجب إمعان النظر فيها للحصول على غرضها الحقيقي ونظرها المصيب في تشريعها وهي :

أولاً : انها اقتصرت في وضع هذا النوع من الجهات المالية على كينونة الملك وحدوثه موجوداً ولم يتعد ذلـك ، وبعبارة اخرى اذا حدثت مالية في ظرف من الظروف كغلة حاصلة عن زراعة او ربح عائد من تجارة او نحو ذلك بادرت فوضعت سهماً منها ملكاً للمجتمع وبقية السهام ملكاً لمن له رأس المال او العمل مثلاً، وليس عليه إلا ان يرد مال المجتمع وهو السهم اليه .

بل ربما كان المستفاد من أمثال قوله تعالى : « خلق لكم ما في الأرض جميعاً » البقرة : ٢٩ وقوله: «ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قياماً» النساء : ٥ ان الثروة الحادثة عند حدوثها للمجتمع بأجمعها ثم اختص سهم منها للفرد الذي نسميه المالك او العامل، وبقي سهم اعني سهم الزكاة او سهم الخمس في ملك المجتمع كما كان فالمالك الفرد مالك في طول مالك وهو المجتمع ، وقد تقدم بعض البحث عن ذلك في تفسير الآيتين .

وبالجملة فالذي وضعته الشريعة من الحقوق المالية كالزكاة والخمس مثلاً إنما وضعته في الثروة الحادثة عند حدوثها فشركت المجتمع مع الفرد من رأس ثم الفرد في حرية من ماله المختص بـه يضعه حيث يشاء من أغراضه المشروعة من غير ان يعترضه في ذلك معترض إلا ان يدهم المجتمع من المخاطر العامة مـا يجب معه صرف شيء من رؤس الأموال في سبيل حفظ حياته كعدو هاجم يريد ان يهلك الحرث والنسل ، والمخمصة العامة التي لا تبقي ولا تذر .

وأما الوجوه المالية المتعلقة بالنفوس او الضياع والعقار او الأموال التجارية عند حصول شرائط او في احوال خاصة كالعشر المأخوذ في الثغور ونحو ذلك فإن الاسلام لا يرى ذلك بل يعده نوعاً من الغصب وظلماً يوجب تحديداً في حرية المالك في ملكه.

ففي الحقيقة لا يأخذ المجتمع من الفرد إلا مـال نفسه الذي يتعلق بالغنيمة والفائـدة عند اول حدوثه ويشارك الفرد في ملكه على نحو يبينه الفقه الاسلامي

مشروحاً ، وأما اذا انعقد الملك واستقر لمالكه فلا اعتراض لمعترض على مالك في حال او عند شرط ، يوجب قصور يده وزوال حريته .

وثانياً : ان الاسلام يعتبر حال الأفراد في الأموال الخاصة بالمجتمع كما يعتبر حال المجتمع بل الغلبة في ما يظهر من نظره لحالهم على حاله فإنه يجعل السهام في الزكاة ثمانية لا يختص بسبيل الله منها إلا سهم واحد وباقي السهام للأفراد كالفقراء والمساكين والعاملين والمؤلفة قلوبهم وغيرهم ، وفي الخمس ستة لم يجعل لله سبحانه إلا سهم واحد والباقي للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

وذلك ان الفرد هو العنصر الوحيد لتكوّن المجتمع ، ورفع اختلاف الطبقات الذي هو من اصول برنامج الإسلام، وإلقاء التعادل والتوازن بين قوى المجتمع المختلفة وتثبيت الاعتدال في مسيره بأركانه وأجزائه لا يتم إلا بإصلاح حال الأجزاء اعني الأفراد وتقريب احوالهم بعضهم من بعض .

وأما قصر مال المجتمع في صرفه في ايجاد الشوكة العامة والتزيينات المشتركة ورفع القصور المشيدة العالية والأبنية الرفيعة الفاخرة وتخلية القوي والضعيف او الغني والفقير على حالهما لا يزيدان كل يوم إلا ابتعاداً فلتدل التجربة الطويلة القطعية انه لا يدفع غائلاً ولا يغني طائلاً .

وثالثاً : ان للفرد من المسلمين ان يصرف ما عليه من الحق المالي الواجب كالزكاة مثلاً في بعض أرباب السهام كالفقير والمسكين من دون ان يؤديه الى وليّ الأمر او عامله في الجملة فيرده هو الى مستحقيه .

وهذا نوع من الاحترام الاستقلالي الذي اعتبره الاسلام لأفراد مجتمعه نظير إعطاء الذمة الذي لكل فرد من المسلمين ان يقوم به لمن شاء من الكفار المحاربين وليس للمسلمين ولا لولي امرهم ان ينقض ذلك .

نعم لوليّ الأمر اذا رأى في مورد ان مصلحة الاسلام والمسلمين في خلاف ذلك ان ينهى عن ذلك فيجب الكف عنه لوجوب طاعته .

* * *

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا

ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ـــ١٠٧ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ
أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ
أَن يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ـــ ١٠٨ . أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُ عَلَىٰ
تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ
هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ـــ ١٠٩ .
لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ـــ ١١٠ .

(بيان)

تذكر الآيات طائفة أخرى من المنافقين بنوا مسجد الضرار وتقيس حالهم الى حال جماعة من المؤمنين بنوا مسجداً لتقوى الله .

قوله تعالى : « والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً » الى آخر الآية، الضرار والمضارة إيصال الضرر، والإرصاد اتخاذ الرصد والانتظار والترقب .

وقوله : « والذين اتخذوا مسجداً ضراراً » إن كانت الآيات نازلة مع ما تقدمها من الآيات النازلة في المنافقين فالعطف على من تقدم ذكرهم من طوائف المنافقين المذكورين بقوله : ومنهم ، ومنهم اي ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً .

وإن كانت مستقلة بالنزول فالوجه كون الواو استئنافية وقوله: « الذين اتخذوا » مبتدءً خبره قوله: « لا تقم فيه أبداً » ويمكن إجراء هذا الوجه على التقدير السابق ايضاً، وقد ذكر المفسرون في إعراب الآية وجوهاً اخرى لا تخلو عن تكلف تركناها .

وقد بيّن الله غرض هذه الطائفة من المنافقين في اتخاذ هذا المسجد وهو الضرار بغيرهم والكفر والتفريق بين المؤمنين والإرصاد لمن حارب الله ورسوله، والأغراض المذكورة خاصة ترتبط الى قصة خاصة بعينها، وهي على ما اتفق عليه أهل النقل أن

جماعة من بني عمرو بن عوف بنوا مسجد قبا وسألوا النبي أن يصلي فيه فصلى فيه فحسدهم جماعة من بني غنم بن عوف وهم منافقون فبنوا مسجداً الى جنب مسجد قبا ليضروا به ويفرقوا المؤمنين منه وينتظروا لأبي عامر الراهب الذي وعدهم أن يأتيهم بجيش من الروم ليخرجوا النبي ﷺ من المدينة ، وأمرهم أن يستعدوا للقتال معهم .

ولما بنوا المسجد أتوا النبي ﷺ وهو يتجهز الى تبوك وسألوه أن يأتيه ويصلي فيه ويدعو لهم بالبركة فوعدهم الى الفراغ من أمر تبوك والرجوع الى المدينة فنزلت الآيات.

فكان مسجدهم لمضارّة مسجد قبا ، وللكفر بالله ورسوله ، ولتفريق المؤمنين المجتمعين في قبا ، ولإرصاد ابي عامر الراهب المحارب لله ورسوله من قبل ، وقد أخبر الله سبحانه عنهم أنهم ليحلفن إن أردنا من بناء هذا المسجد إلا الفعلة الحسنى وهو التسهيل للمؤمنين بتكثير معابد يعبد فيها الله ، وشهد تعالى بكذبهم بقوله : « وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون » .

قوله تعالى : « لا تقم فيه أبداً » الى آخر الآية ، بدء بنهي النبي ﷺ عن أن يقوم فيه ثم ذكر مسجد قبا ورجّح القيام فيه بعدما مدحه بقوله : « لمسجد أُسس على التقوى من اول يوم أحق أن تقوم فيه » فمدحه بحسن نية مؤسسيه من اول يوم وبنى عليه رجحان القيام فيه على القيام في مسجد الضرار .

والجملة وإن لم تفد تعيّن القيام في مسجد قبا حيث عبّر بقوله: أحقّ ، غير أن سبق النهي عن القيام في مسجد الضرار يوجب ذلك ، وقوله تعالى: «فيه رجال يحبّون أن يتطهروا » تعليل للرجحان السابق ، وقوله: «والله يحب المطّهّرين» متمم للتعليل المذكور ، وهذا هو الدليل على أن المراد بقوله : «لمسجد أُسس» الخ هو مسجد قبا لا مسجد النبي او غيره .

ومعنى الآية : لا تقم أي للصلاة في مسجد الضرار ابداً ، أقسم ، لمسجد قبا الذي هو مسجد أُسس على تقوى الله من اول يوم أحق وأحرى أن تقوم فيه للصلاة وذلك أن فيه رجالاً يحبون التطهر من الذنوب أو من الأرجاس والأحداث والله يحب المطّهّرين وعليك ان تقوم فيهم .

وقد ظهر بذلك أن قوله : « لمسجدٌ أُسس » الخ ، بمنزلة التعليل لرجحان المسجد على المسجد وقوله: « فيه رجال » الخ ، لإفادة رجحان أهله على أهله ، وقوله

الآتي : « أفمن أسس بنيانه » الخ ، لبيان الرجحان الثاني .

قوله تعالى : «أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير» الى آخر الآية شفا البئر طرفه، وجرف الوادي جانبه الذي انحفر بالماء أصله وهار الشيء يهار فهو هائر وربما يقال : هارٍ بالقلب وانهار ينهار انهياراً اي سقط عن لين فقوله : «على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم» استعارة تخييلية شبّه فيها حالهم بحال من بنى بنياناً على نهاية شفير واد لا ثقة بثباتها وقوامها فتساقطت بما بني عليه من البنيان وكان في أصله جهنم فوقع في ناره ، وهذا بخلاف من بنى بنيانه على تقوى من الله ورضوان منه اي جرى في حياته على اتّقاء عذاب الله وابتغاء رضاه .

وظاهر السياق أن قوله : « أفمن أسس بنيانه على تقوى » الخ ، وقوله : « أم من أسس بنيانه على شفا جرف » الخ ، مثلان يمثل بهما بنيان حياة المؤمنين والمنافقين وهو الدين والطريق الذي يجريان عليه فيها فدين المؤمن هو تقوى الله وابتغاء رضوانه عن يقين به ، ودين المنافق مبني على التزلزل والشك .

ولذلك أعقبه الله تعالى وزاد في بيانه بقوله: « لا يزال بنيانهم» يعني المنافقين « الذي بنوا ريبة » وشكاً « في قلوبهم» لا يتعدى الى مرحلة اليقين «إلا أن تقطّع قلوبهم» فتتلاشى الريبة بتلاشيها « والله عليم حكيم» ولذلك يضع هؤلاء ويرفع اولئك.

(بحث روائي)

في المجمع قال المفسرون : إن بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قبا ، وبعثوا الى رسول الله ﷺ أن يأتيهم فأتاهم وصلى فيه فحسدهم جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف فقالوا: نبني مسجداً فنصلي فيه ولا نحضر جماعة محمد، وكانوا اثني عشر رجلاً ، وقيل: خمسة عشر رجلاً، منهم: ثعلبة بن حاطب ومعتّب بن قشير ونبتل ابن الحارث فبنوا مسجداً الى جنب مسجد قبا .

فلما بنوه أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز الى تبوك فقالوا : يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي فيه لنا وتدعو بالبركة فقال ﷺ : اني على جناح سفر ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلّينا لكم فيه، فلما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك نزلت

عليه الآية في شأن المسجد .

قال : فوجّه رسول الله ﷺ عند قدومه من تبوك عاصم بن عوف العجلاني ومالك بن الدخشم وكان مالك من بني عمرو بن عوف فقال لهما : انطلقا الى هذا المسجد الظالم اهله فاهدماه وحرّقاه ، وروي انه بعث عمار بن ياسر ووحشيّاً فحرّقاه ، وأمر بأن يتخذ كناسة يلقى فيها الجيف .

أقول : وفي رواية القمّيّ أنه ﷺ بعث لذلك مالك بن دخشم الخزاعيّ وعامر بن عديّ أخا بني عمرو بن عوف فجاء مالك وقال لعامر : انتظرني حتى أخرج ناراً من منزلي، فدخل وجاء بنار وأشعل في سعف النخل ثم أشعله في المسجد فتفرقوا ، وقعد زيد بن حارثة حتى احترقت البنية ثم أمر بهدم حائطه .

والقصة مروية بطرق كثيرة من طرق أهل السنّة ، والروايات متقاربة إلا أن في أسامي من بعثه النبي ﷺ اختلافاً .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن ابي حاتم عن ابن إسحاق قال: كان الذين بنوا مسجد الضرار اثني عشر رجلاً: خذام بن خالد بن عبيد بن زيد، وثعلبة بن حاطب وهلال بن أمية، ومعتب بن قشير، وأبو حبيبة بن الأزعر، وعباد بن حنيف، وجارية بن عامر وابناه مجمع وزيد، ونبتل بن الحارث، وبخدج بن عثمان [١] ووديعة بن ثابت .

وفي المجمع في قوله : « وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله » قال: هو ابو عامر الراهب، قال وكان من قصته انه كان قد ترهّب في الجاهلية ولبس المسوح فلما قدم النبي ﷺ المدينة حسده ، وحزّب عليه الأحزاب ثم هرب بعد فتح مكة الى الطائف فلما اسلم اهل الطائف لحق بالشام، وخرج الى الروم وتنصر وهو ابو حنظلة غسيل الملائكة الذي قتل مع النبي ﷺ يوم أحد وكان جنباً فغسلته الملائكة .

وسمى رسول الله ﷺ أبا عامر الفاسق، وكان قد ارسل الى المنافقين ان استعدوا وابنوا مسجداً فإني أذهب الى قيصر وآتي من عنده بجنود، وأخرج محمداً من المدينة فكان هؤلاء المنافقون يتوقعون ان يجيئهم ابو عامر فمات قبل ان يبلغ ملك الروم .

أقول : وفي معناه عدة من الروايات .

---

(١) وفي السيرة : بجاد بن عثمان وهو الصحيح (ب) .

وفي الكافي بإسناده عن الحلبي عن ابي عبدالله عليه السلام قال : سألته عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال : مسجد قبا .

أقول : ورواه العياشي في تفسيره، وروى هذا المعنى أيضاً في الكافي بإسناده عن معاوية بن عمار عنه عليه السلام .

وقد روى في الدر المنثور بغير واحد من الطرق عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال: هو مسجدي هذا ، وهو مخالف لظاهر الآية وخاصة قوله : « فيه رجال » الخ، فإن الكلام موضوع في القياس بين المسجدين : مسجد قبا ومسجد الضرار والقياس بين أهليهما ولا غرض يتعلق بمسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي تفسير العياشي عن الحلبي عن الصادق عليه السلام قال: سألته عن قول الله : « فيه رجال يحبون ان يتطهروا » قال : الذين يحبون ان يتطهروا نظف الوضوء وهو الاستنجاء بالماء وقال : قال : نزلت هذه في اهل قبا .

وفي المجمع في الآية قال : يحبون ان يتطهروا بالماء عن الغائط والبول وهو المروي عن السيدين : الباقر والصادق عليهما السلام، وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال لأهل قبا : ماذا تفعلون في طهركم فإن الله تعالى قد احسن عليكم الثناء ؟ قالوا : نغسل أثر الغائط . فقال : أنزل الله فيكم : « والله يحب المطهرين ».

وفيه في قراءة قوله : «إلا ان تقطع قلوبهم» وقرء يعقوب وسهل : «الى ان» على انه حرف الجر ، وهو قراءة الحسن وقتادة والجحدري وجماعة ، ورواه البرقي عن ابي عبدالله عليه السلام .

* * *

إِنَّ اللهَ ٱشْتَرىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي ٱلتَّوْراةِ وَٱلْإِنْجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ـــ ١١١. ٱلتّائِبُونَ ٱلْعابِدُونَ ٱلْحامِدُونَ

السّائِحُونَ الرّاكِعُونَ السّاجِدُونَ ٱلآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنّاهُونَ عَنِ
ٱلْمُنْكَرِ وَٱلْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ــ ١١٢. ما كانَ لِلنَّبِيِّ
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ
ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ ٱلْجَحِيمِ ــ ١١٣ . وَما كانَ ٱسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ
لِأَبِيهِ إِلّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيّاهُ فَلَمّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّٰهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ
إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوّاهٌ حَلِيمٌ ــ ١١٤ . وَما كانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ
هَداهُمْ حَتّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ــ ١١٥ .
إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ
اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ــ ١١٦ . لَقَدْ تابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَٱلْمُهاجِرِينَ
وَٱلْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ
فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ــ ١١٧ . وَعَلَى
الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتّىٰ إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ
عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلّا إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ
لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ ــ ١١٨ . يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا
اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصّادِقِينَ ــ ١١٩ . ما كانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ
مِنَ ٱلْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ
نَفْسِهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ

اللهِ وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِأً يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلّا
كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ــ ١٢٠ .
وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلّا كُتِبَ لَهُمْ
لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ــ ١٢١ . وَما كانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ
لِيَنْفِرُوا كافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ
وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ــ ١٢٢ . يا أَيُّها
الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ ٱلْكُفّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ
غِلْظَةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ــ ١٢٣ .

(بيان)

آيات في أغراض متفرقة يجمعها غرض واحد مرتبط بغرض الآيات السابقة فانها تتكلم حول القتال فمنها ما يمدح المؤمنين ويعدهم وعداً جميلاً على جهادهم في سبيل الله ومنها ما ينهى عن التودّد الى المشركين والاستغفار لهم، ومنها ما يدل على توبته تعالى للثلاثة المخلّفين عن غزوة تبوك ، ومنها ما يفرض على اهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يخرجوا مع النبي ﷺ اذا اراد الخروج الى قتال ولا يتخلفوا عنه ، ومنها ما يفرض على الناس أن يلازم بعضهم البيضة للتفقّه في الدين ثم تبليغه الى قومهم اذا رجعوا اليهم ومنها ما يقضي بقتال الكفار ممن يلي بلاد الإسلام .

قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » الى آخر الآية ، الاشتراء هو قبول العين المبيعة بنقل الثمن في المبايعة .

والله سبحانه يذكر في الآية وعده القطعي للذين يجاهدون في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم بالجنة ، ويذكر أنه ذكر ذلك في التوراة والإنجيل كما يذكره في القرآن .

وقد قلبه سبحانه في قالب التمثيل فصوّر ذلك بيعاً ، وجعل نفسه مشترياً

والمؤمنين بايعين، وأنفسهم وأموالهم سلعة ومبيعاً، والجنة ثمناً ، والتوراة والإنجيل والقرآن سنداً للمبايعة ، وهو من لطيف التمثيل ثم يبشر المؤمنين ببيعهم ذلك ، ويهنئهم بالفوز العظيم .

قوله تعالى : « التائبون العابدون الحامدون السائحون » الى آخر الآية، يصف سبحانه المؤمنين بأجمل صفاتهم، والصفات مرفوعة بالقطع أي المؤمنون هم التائبون العابدون الخ، فهم التائبون لرجوعهم من غير الله الى الله سبحانه العابدون له ويعبدونه بألسنتهم فيحمدونه بجميل الثناء، وبأقدامهم فيسيحون ويجولون من معهد من المعاهد الدينية ومسجد من مساجد الله الى غيره ، وبأبدانهم فيركعون له ويسجدون له .

هذا شأنهم بالنسبة الى حال الانفراد وأما بالنسبة الى حال الاجتماع فهم آمرون بالمعروف في السنّة الدينية وناهون عن المنكر فيها ثم هم حافظون لحدود الله لا يتعدّونه في حالتي انفرادهم واجتماعهم خلوتهم وجلوتهم ، ثم يأمر النبي ﷺ بأن يبشّرهم وقد بشّرهم تعالى نفسه في الآية السابقة ، وفيه من كمال التأكيد ما لا يقدّر قدره .

وقد ظهر بما قررنا أولاً : وجه الترتيب بين الأوصاف التي عدّها لهم فقد بدء بأوصافهم منفردين وهي التوبة والعبادة والسياحة والركوع والسجود ثم ذكر ما لهم من الوصف الخاص بهم المنبعث عن ايمانهم مجتمعين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وختم بما لهم من جميل الوصف في حالتي انفرادهم واجتماعهم وهو حفظهم لحدود الله، وفي التعبير بالحفظ مضافاً الى الدلالة على عدم التعدّي دلالة على الرقوب والاهتمام .

وثانياً : أن المراد بالسياحة — ومعناه السير في الأرض — على ما هو الأنسب بسياق الترتيب هو السير الى مساكن ذكر الله وعبادته كالمساجد ، وأما القول بأن المراد بالسياحة الصيام او السياحة في الأرض للاعتبار بعجائب قدرة الله وما جرى على الامم الماضية مما تحكيه ديارهم وآثارهم او المسافرة لطلب العلم او المسافرة لطلب الحديث خاصة فهي وجوه غير سديدة .

أما الأول: فلا دليل عليه من جهة اللفظ البتة، وأما الوجوه الاخر فإنها وإن كانت ربما استفيد الندب اليها من مثل قوله تعالى: «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » المؤمن: ٨٢ ، وقوله : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين » الآية ١٢٢ من السورة إلا أن إرادتها من قوله :

« السائحون » تبطل جودة الترتيب بين الصفات المنضودة .

وثالثاً : أن هذه الصفات الشريفة هي التي يتم بها إيمان المؤمن المستوجب للوعد القطعي بالجنة المستتبع للبشارة الإلهية والنبوية وهي الملازمة للقيام بحق الله المستلزمة لقيام الله سبحانه بما جعله من الحق على نفسه .

قوله تعالى : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى » الى آخر الآيتين، معنى الآية ظاهر غير أنه تعالى لما ذكر في الآية الثانية التي تبيّن سبب استغفار ابراهيم لأبيه مع كونه كافراً أنه تبرأ منه بعد ذلك لما تبيّن له أنه عدوّ لله، فدلّ ذلك على أن تبيّن كون المشركين أصحاب الجحيم إنما يرشد الى عدم جواز الاستغفار لكونه ملازماً لكونهم أعداء لله فاذا تبيّن للنبي والذين آمنوا أن المشركين أعداء لله كشف ذلك لهم عن حكم ضروري وهو عدم جواز الاستغفار لكونه لغواً لا يترتب عليه أثر وخضوع الإيمان مانع أن يلغو العبد مع ساحة الكبرياء .

وذلك أنه تارة يفرض الله تعالى عدواً للعبد مبغضاً له لتقصير من ناحيته وسوء من عمله فمن الجائز بالنظر الى سعة رحمة الله أن يستغفر له ويسترحم اذا كان العبد متذللاً غير مستكبر ، وتارة يفرض العبد عدواً لله محارباً له مستكبراً مستعلياً كأرباب الجحود والعناد من المشركين ، والعقل الصريح حاكم بأنه لا ينفعه حينئذ شفاعة بمسألة او استغفار إلا أن يتوب ويرجع الى الله وينسلخ عن الاستكبار والعناد ويتلبّس بلباس الذلّة والمسكنة فلا معنى لسؤال الرحمة والمغفرة لمن يأبى عن القبول، ولا للاستعطاء لمن لا يخضع للأخذ والتناول إلا الهزؤ بمقام الربوبية واللعب بمقام العبودية وهو غير جائز بضرورة من حكم الفطرة .

وفي الآية نفي الجواز بنفي الحق بدليل قوله: « ما كان للنبي والذين آمنوا » اي ما كانوا يملكون الاستغفار بعد ما تبيّن لهم كذا وكذا، وقد تقدم في ذيل قوله تعالى: « ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله » الآية ١٧ من السورة ان حكم الجواز مسبوق في الشرع بجعل الحق .

والمعنى ان النبي والذين آمنوا بعد ما ظهر وتبين بتبيين الله لهم ان المشركين اعداء لله مخلدون في النار لم يكن لهم حق يملكون به ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى منهم ، وأما استغفار ابراهيم لأبيه المشرك فإنه ظن انه ليس بعدو

معاند لله وإن كان مشركاً فاستعطفه بوعد وعدها إياه فاستغفر له فلما تبين له أنه عدو لله معاند على شركه وضلاله تبرّء منه .

وقوله : « إن ابراهيم لأواه حليم » تعليل لوعد ابراهيم واستغفاره لأبيه بأنه تحمّل جفوة أبيه ووعده وعداً حسناً لكونه حليماً واستغفر له لكونه أواهاً ، والأواه هو الكثير التأوه خوفاً من ربه وطمعاً فيه .

قوله تعالى : «وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون الى آخر الآيتين الآيتان متصلتان بالآيتين قبلهما المسوقتين للنهي عن الاستغفار للمشركين.

أما الآية الاولى اعني قوله : « وما كان الله ليضل » الخ ففيه تهديد للمؤمنين بالإضلال بعد الهداية إن لم يتقوا ما بين الله لهم ان يتقوه ويجتنبوا منه، وهو بحسب ما ينطبق على المورد ان المشركين أعداء لله لا يجوز الاستغفار لهم والتودد اليهم فعلى المؤمنين ان يتقوا ذلك وإلا فهو الضلال بعد الهدى، وعليك ان تذكر ما قدمناه في تفسير قوله تعالى: «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشوني» المائدة: ٣ في الجزء الخامس من الكتاب وفي تفسير آيات ولاية المشركين وأهل الكتاب الواقعة في السور المتقدمة .

والآية بوجه في معنى قوله تعالى : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » الأنفال : ٥٣ وما في معناه من الآيات ، وهي جميعاً تهتف بأن من السنّة الإلهية ان تستمر على العبد نعمته وهدايته حتى يغير هو ما عنده بالكفران والتعدي فيسلب الله منه النعمة والهداية .

وأما الآية الثانية أعني قوله: «إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير» فذيلها بيان لعلة الحكم السابق المدلول عليه بالآية السابقة وهو النهي عن تولي أعداء الله او وجوب التبري منهم إذ لا وليّ ولا نصير حقيقة إلا الله سبحانه وقد بينه للمؤمنين فعليهم بدلالة من إيمانهم ان يقصروا التولي عليه تعالى او من أذن في توليهم له من اوليائه وليس لهم ان تعتدوا ذلك الى تولي أعدائه كائنين من كانوا .

وصدر الآية بيان لسبب هذا السبب وهو ان الله سبحانه هو الذي يملك كل شيء وبيده الموت والحياة فإليه تدبير كل امر فهو الوليّ لا وليّ غيره .

وقد ظهر من عموم البيان والعلة في الآيات الأربع ان الحكم عام وهو وجوب التبري او حرمة التولي لأعداء الله سواء كان التولي بالاستغفار او بغير ذلك وسواء كان العدو مشركاً او كافراً او منافقاً او غيرهم من اهل البدع الكافرين بآيات الله او المصرّين على بعض الكبائر كالمرابي المحارب لله ورسوله .

قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين » الى آخر الآيتين، الساعة مقدار من الزمان فساعة العسرة الزمان الذي تعسّر فيه الحياة لابتلاء الانسان بما تشق معه المعيشة عليه كعطش او جوع او حر شديد او غير ذلك ، والزيغ هو الخروج من الطريق والميل عن الحق ، وإضافة الزيغ الى القلوب وذكر ساعة العسرة وسائر ما يلوح من سياق الكلام دليل على ان المراد بالزيغ الاستنكاف عن امتثال امر النبي ﷺ والخروج عن طاعته بالتثاقل عن الخروج الى الجهاد او الرجوع الى الأوطان بقطع السير تحرجاً من العسرة والمشقة التي واجهتهم في مسيرهم.

والتخليف – على ما في المجمع – تأخير الشيء عمن مضى فأما تأخير الشيء عنك في المكان فليس بتخليف ، وهو من الخلف الذي هو مقابل لجهة الوجه يقال، خلفه أي جعله خلفه فهو مخلف . انتهى والرحب هو السعة التي تقابل الضيق، وبما رحبت أي برحبها فما مصدرية .

والآيتان وإن كانت كل واحدة منهما ناظرة الى جهة دون جهة الاخرى فالاولى تبين التوبة على النبي والمهاجرين والانصار والثانية تبيّن توبة الثلاثة المخلفين مضافاً الى أن نوع التوبة على أهل الآيتين مختلف فأهل الآية الاولى او بعضهم تاب الله عليهم من غير معصية منهم، وأهل الآية الثانية تيب عليهم وهم عاصون مذنبون.

وبالجملة الآيتان مختلفتان غرضاً ومدلولاً غير ان السياق يدل على انهما مسوقتان لغرض واحد ومتصلتان كلاماً واحداً تبيّن فيه توبته تعالى للنبي والمهاجرين والانصار والثلاثة الذين خلفوا ، ومن الدليل عليه قوله : لقد تاب الله على النبي الى ان قال : « وعلى الثلاثة » الخ فالآية الثانية غير مستقلة عن الاولى بحسب اللفظ وان استقلت عنها في المعنى، وذلك يستدعي نزولهما معاً وتعلق غرض خاص بهذا الاتصال والامتزاج.

ولعل الغرض الاصلي بيان توبة الله سبحانه لاولئك الثلاثة المخلفين وقد ضم اليها ذكر توبته تعالى للمهاجرين والانصار حتى للنبي ﷺ لتطيب قلوبهم بخلطهم

بغيرهم وزوال تميزهم من سائر الناس وعفو أثر ذلك عنهم حتى يعود الجميع على نعت واحد وهو ان الله تاب عليهم برحمته فهم فيه سواء من غير ان يرتفع بعضهم عن بعض او ينخفض بعضهم عن بعض .

وبهذا تظهر النكتة في تكرار ذكر التوبة في الآيتين فان الله سبحانه يبدء بذكر توبته على النبي والمهاجرين والانصار ثم يقول : « ثم تاب عليهم » وعلى الثلاثة الذين خلفوا ثم يقول : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » فليس إلا ان الكلام مسوق على منهج الإجمال والتفصيل ذكر فيه توبته تعالى على الجميع إجمالاً ثم اشير الى حال كل من الفريقين على حدته فذكرت عند ذلك توبته الخاصة به .

ولو كانت كل واحدة من الآيتين ذات غرض مستقل من غير ان يجمعها غرض جامع لكان ذلك تكراراً من غير نكتة ظاهرة .

على ان في الآية الاولى دلالة واضحة على أن النبي ﷺ لم يكن له في ذلك ذنب ولازيغ ولا كادأن يزيغ قلبه فان في الكلام مدحاً للمهاجرين والانصار باتباع النبي ﷺ فلم يزغ قلبه ولا كاد ان يزيغ حتى صار متبعاً يقتدي به ولولا ما ذكرناه من الغرض لم يكن لذكره ﷺ مع سائر المذكورين وجه ظاهر .

فيؤل معنى الآية الى أن الله - اقسم لذلك - تاب ورجع برحمته رجوعاً الى النبي والمهاجرين والأنصار والثلاثة الذين خلفوا أما توبته ورجوعه بالرحمة على المهاجرين والأنصار فإنهم اتّبعوا النبي في ساعة العسرة وزمانها - وهو ايام مسيرهم الى تبوك - اتّبعوه من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ويميل عن الحق بترك الخروج او ترك السير فبعدما اتّبعوه تاب الله عليهم إنه بهم لرءوف رحيم .

واما الثلاثة الذين خلفوا فانهم آل أمرهم الى ان ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ووسعت - وكان ذلك بسبب ان الناس لم يعاشروهم ولا كلموهم حتى اهلهم فلم يجدوا أنيساً يأنسون به - وضاقت عليهم انفسهم - من دوام الغم عليهم - وايقنوا ان لا ملجأ من الله إلا اليه بالتوبة والإنابة فلما كان ذلك كله تاب الله عليهم وانعطف ورجع برحمته اليهم ليتوبوا اليه فيقبل توبتهم إنه هو التوّاب - كثير الرجوع الى عباده يرجع اليهم بالهداية والتوفيق للتوبة اليه ثم بقبول تلك التوبة - والرحيم بالمؤمنين .

وقد تبيّن بذلك كله اولاً : أن المراد بالتوبة على النبي ﷺ محض الرجوع

اليه بالرحمة ، ومن الرجوع اليه بالرحمة، الرجوع الى امته بالرحمة فالتوبة عليهم توبة عليه فهو ﷺ الواسطة في نزول الخيرات والبركات الى امته .

وايضاً فان من فضله تعالى على نبيّه ﷺ ان : كلما ذكر امته او الذين معه بخير أفرده من بينهم وصدّر الكلام بذكره تشريفاً له كما في قوله : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون » البقرة : ٢٨٥ وقوله : « ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » التوبة « ٢٦ » وقوله : « لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا » التوبة ٨٨ الى غير ذلك من الموارد .

وثانياً : ان المراد بما ذكر ثانياً وثالثاً من التوبة بقوله : « ثم تاب عليهم » في الموضعين هو بتفصيل ما ذكره إجمالاً بقوله : « لقد تاب الله » .

وثالثاً : ان المراد بالتوبة في قوله : « ثم تاب عليهم » في الموضعين رجوعه تعالى اليهم بالهداية الى الخير والتوفيق فقد ذكرنا مراراً في الابحاث السابقة ان توبة العبد محفوفة بتوبتين من الرب تعالى، وانه يرجع اليه بالتوفيق وإفاضة رحمة الهداية وهو التوبة الاولى منه فيهتدي العبد الى الاستغفار وهوتوبته فيرجع تعالى اليه بقبول توبته وغفران ذنوبه وهو التوبة الثانية منه تعالى .

والدليل على أن المراد بها في الموضعين ذلك اما في الآية الاولى فلأنه لم يذكر منهم فيها ذنباً يستغفرون له حتى تكون توبته عليهم توبة قبول، وإنما ذكر انه كان من المتوقع زيغ قلوب بعضهم وهو يناسب التوبة الاولى منه تعالى دون الثانية،واما في الآية الثانية فلأنه ذكر بعدها قوله : « ليتوبوا » وهو الاستغفار،اخذ غاية لتوبته تعالى فتوبته تعالى قبل توبتهم ليست إلا التوبة الاولى منه .

وربما أيد ذلك قوله تعالى في مقام تعليل توبته عليهم : « انه بهم رءوف رحيم » حيث لم يذكر من اسمائه ما يدل بلفظه على قبول توبتهم كما لم يذكر منهم توبة بمعنى الاستغفار .

ورابعاً : أن المراد بقوله في الآية الثانية : « ليتوبوا » توبة الثلاثة الذين خلفوا المترتب على توبته تعالى الاولى عليهم ، فالمعنى ثم تاب الله على الثلاثة ليتوب الثلاثة فيتوب عليهم ويغفر لهم انه هو التواب الرحيم .

فان قلت : فالآية لم تدل على قبول توبتهم وهذا مخالف للضرورة الثابتة من جهة النقل ان الآية نزلت في توبتهم .

قلت : القصة ثابتة نقلاً غير أنها لا توجد دلالة في لفظ الآية إلا أن الآية تدل بسياقها على ذلك فقد قال تعالى في مقام الإجمال : «لقد تاب الله» وهو اعمّ باطلاقه من التوبة بمعنى التوفيق وبمعنى القبول ، وكذا قوله بعد: «ان الله هو التواب الرحيم» وخاصة بالنظر الى ما في الجملة من سياق الحصر الناظر الى قوله: «وظنّوا ان لا ملجأ من الله إلا اليه» فاذا كانوا اقدموا على التوبة ليأخذوا ملجأ من الله يأمنون فيه وقد هداهم الله اليه بالتوبة فتابوا فمن المحال ان يردّهم الله من بابه خائبين وهو التواب الرحيم ، وكيف يستقيم ذلك ؟ وهو القائل عزّ من قائل : « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فاولئك يتوب الله عليهم » النساء : ١٧ .

وربما قيل : إن معنى « ثم تاب الله عليهم ليتوبوا » ثم سهّل الله عليهم التوبة ليتوبوا . وهو سخيف . وأسخف منه قول من قال : ان المراد بالتوبة في «ليتوبوا» الرجوع الى حالتهم الاولى قبل المعصية . واسخف منه قول آخرين : ان الضمير في «ليتوبوا» راجع الى المؤمنين والمعنى ثم تاب على الثلاثة وأنزل توبتهم على نبيّه ﷺ ليتوب المؤمنون من ذنوبهم لعلمهم بأن الله قابل التوب .

وخامساً : ان الظن يفيد في الآية مفاد العلم لا لدلالة لفظية بل لخصوص المورد.

قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » الصدق بحسب الأصل مطابقة القول والخبر للخارج ، ويوصف به الانسان اذا طابق خبره الخارج ثم لمّا عدّ كل من الاعتقاد والعزم ــ الارادة ــ قولاً توسع في معنى الصدق فعدّ الانسان صادقاً اذا طابق خبره الخارج وصادقاً اذا عمل بما اعتقده وصادقاً اذا اتى بما يريده ويعزم عليه على الجد .

وما في الآية من إطلاق الامر بالتقوى واطلاق الصادقين واطلاق الأمر بالكون معهم ـ والمعيّة هي المصاحبة في العمل وهو الاتباع ـ يدل على ان المراد بالصدق هو معناه الوسيع العام دون الخاص .

فالآية تأمر المؤمنين بالتقوى واتّباع الصادقين في اقوالهم وافعالهم وهو غير الأمر بالاتصاف بصفتهم فانه الكون منهم لا الكون معهم وهو ظاهر .

قوله تعالى : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الاعراب» الى آخر الآيتين الرغبة ميل خاص نفساني والرغبة في الشيء الميل اليه لطلب منفعة فيه ، والرغبة عن الشيء الميل عنه بتركه والباء للسببية فقوله : « ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه» معناه وليس لهم ان يشتغلوا بأنفسهم عن نفسه فيتركوه عند مخاطر المغازي وفي تعب الاسفار ودعثائها ويقعدوا للتمتع من لذائذ الحياة ، والظمأ العطش ، والنصب التعب والمخمصة المجاعة ، والغيظ أشد الغضب ، والموطىء الارض التي توطأ بالاقدام .

والآية تسلب حق التخلف عن النبي ﷺ من أهل المدينة والأعراب الذين حولها ثم تذكر ان الله قابل هذا السلب منهم بأنه يكتب لهم في كل مصيبة تصيبهم في الجهاد من جوع وعطش وتعب وفي كل أرض يطئونها فيغيظون به الكفار أو نيل نالوه منهم عملاً صالحاً فانهم محسنون والله لا يضيع أجر المحسنين، وهذا معنى قوله: « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ » الخ .

ثم ذكر أن نفقاتهم صغيرة يسيرة كانت او كبيرة خطيرة وكذا كل واد قطعوه فانه مكتوب لهم محفوظ لأجلهم ليجزوا به أحسن الجزاء .

وقوله : « ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » غاية متعلقة بقوله : « كتب لهم » أي غاية هذه الكتابة هي ان يجزيهم بأحسن أعمالهم، وإنما خص جزاء أحسن الاعمال بالذكر لأن رغبة العامل عاكفة عليه، أو لأن الجزاء بأحسنها يستلزم الجزاء بغيره ، أو لأن المراد بأحسن الاعمال الجهاد في سبيل الله لكونه أشقّها وقيام الدعوة الدينية به .

وههنا معنى آخر وهو ان جزاء العمل في الحقيقة إنما هو نفس العمل عائداً الى الله فأحسن الجزاء هو أحسن العمل فالجزاء بأحسن الأعمال في معنى الجزاء بأحسن الجزاء ومعنى آخر وهو ان يغفر الله سبحانه سيئاتهم المشوبة بأعمالهم الحسنة ويستر جهات نقصها فيكون العمل أحسن بعدما كان حسناً ثم يجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون فافهم ذلك وربما رجع المعنيان الى معنى واحد .

قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين » السياق يدل على ان المراد بقوله: «لينفروا كافة » لينفروا وليخرجوا الى الجهاد جميعاً ، وقوله : « فرقة منهم » الضمير للمؤمنين الذين ليس

لهم ان ينفروا كافة ، ولازمه ان يكون النفر الى النبي ﷺ منهم .

فالآية تنهي مؤمني سائر البلاد غير مدينة الرسول ان ينفروا الى الجهاد كافة بل يحضّضهم ان ينفر طائفة منهم الى النبي ﷺ للتفقه في الدين، وينفر الى الجهاد غيرهم.

والانسب بهذا المعنى ان يكون الضمير في قوله « رجعوا » للطائفة المتفقهين، وفي قوله : « اليهم » لقومهم والمراد اذا رجع هؤلاء المتفقهون الى قومهم ، ويمكن العكس بأن يكون المعنى : اذا رجع قومهم من الجهاد الى هؤلاء الطائفة بعد تفقههم ورجوعهم الى اوطانهم .

ومعنى الآية لا يجوز لمؤمني البلاد ان يخرجوا الى الجهاد جميعاً فهلاّ نفر وخرج الى النبي ﷺ طائفة من كل فرقة من فرق المؤمنين ليتحققوا الفقه والفهم في الدين فيعملوا به لانفسهم ولينذروا بنشر معارف الدين وذكر آثار المخالفة لاصوله وفروعه قومهم اذا رجعت هذه الطائفة اليهم لعلهم يحذرون ويتقون .

ومن هنا يظهر اولاً : ان المراد بالتفقه تفهم جميع المعارف الدينية من اصول وفروع لا خصوص الأحكام العملية وهو الفقه المصطلح عليه عند المتشرعة، والدليل عليه قوله: «لينذروا قومهم» فإن ذلك أمر انما يتم بالتفقه في جميع الدين وهو ظاهر.

وثانياً : ان النفر الى الجهاد موضوع عن طلبة العلم الديني بدلالة من الآية .

وثالثاً : ان سائر المعاني المحتملة التي ذكروها في الآية بعيدة عن السياق كقول بعضهم : إن المراد بقوله : « لينفروا كافة » نفرهم الى النبي ﷺ للتفقه ، وقول بعضهم في « فلولا نفر » : اي الى الجهاد ، والمراد بقوله : « ليتفقهوا » اي الباقون المتخلفون فينذروا قومهم النافرين الى الجهاد اذا رجعوا الى اولئك المتخلفين. فهذه ونظائرها معان بعيدة لا جدوى في التعرض لها والاطناب في البحث عنها .

قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين » امر بالجهاد العام الذي فيه توسّع الاسلام حتى يشيع في الدنيا فان قتال كل طائفة من المؤمنين من يليهم من الكفار لا ينتهي إلا باتساع الاسلام اتساعاً باستقرار سلطنته على الدنيا واحاطته بالناس جميعاً .

والمراد بقوله : « وليجدوا فيكم غلظة » اي الشدة في ذات الله وليس يعني بها الخشونة والفظاظة وسوء الخلق والقساوة والجفاء فجميع الأصول الدينية تذم ذلك

وتستقبحه، ولكن آيات الجهاد ينهى عن كل تعد واعتداء وجفاء كما مرّ في سورة البقرة.

وفي قوله : « واعلموا ان الله مع المتقين » وعد إلهي بالنصر بشرط التقوى، ويؤول معناه الى إرشادهم الى ان يكونوا دائماً مراقبين لأنفسهم ذاكرين مقام ربهم منهم، وهو أنه معهم ومولاهم فهم الأعلون إن كانوا يتقون .

(بحث روائي)

في الدر المنثور اخرج ابن ابي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في المسجد : « إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم » الآية فكبر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي ردائه على عاتقه فقال : يا رسول الله أنزلت هذه الآية ؟ قال : نعم . فقال الأنصاري : بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل .

وفي الكافي بإسناده عن سماعة عن ابي عبدالله عليه السلام قال: لقي عبّاد البصري علي بن الحسين عليه السلام في طريق مكة فقال له : يا علي بن الحسين تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحج ولينته إن الله يقول: « إن الله اشترى » الخ، فقال علي ابن الحسين عليه السلام اذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج .

أقول : يريد عليه السلام ما في الآية الثانية : « التائبون العابدون » الآية من الأوصاف .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : سياحة امتي في المساجد .

اقول : وروي عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان السائحين هم الصائمون، وعن ابي أمامة عنه صلى الله عليه وآله وسلم ان سياحة امتي الجهاد في سبيل الله، وقد تقدم الكلام فيه .

وفي المجمع : « التائبين العابدين » الى آخرها بالياء عن ابي جعفر وابي عبدالله عليهما السلام .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين » اخرج ابن ابي شيبة واحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن المسيّب عن ابيه قال : لما حضرت ابا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعنده ابو جهل

وعبدالله بن ابي أمية فقال النبي صلى الله عليه وآله: اي عمّ قل لا إله إلا الله أحاجّ لك بها عند الله فقال ابو جهل وعبدالله بن ابي أمية: يا ابا طالب اترغب عن ملّة عبد المطلب؟ وجعل النبي صلى الله عليه وآله يعرضها عليه وابو جهل وعبدالله يعانوانه [1] بتلك المقالة فقال ابو طالب آخر ما كلمهم هو: على ملّة عبد المطلب، وابى ان يقول: لا إله إلا الله.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فنزلت: «ما كان للنبي والذين آمنوا يستغفروا للمشركين» الآية، وأنزل الله في ابي طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله: «انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء».

اقول: وفي معناه روايات اخرى من طرق اهل السنّة، وفي بعضها ان المسلمين لمّا رأوا النبي صلى الله عليه وآله يستغفر لعمه وهو مشرك استغفروا لآبائهم المشركين فنزلت الآية، وقد اتفقت الرواية عن ائمة اهل البيت عليهم السلام انه كان مسلماً غير متظاهر باسلامه ليتمكن بذلك من حماية النبي صلى الله عليه وآله، وفيما روي بالنقل الصحيح من اشعاره شيء كثير يدل على توحيده وتصديقه النبوّة، وقد قدّمنا نبذة منها.

وفي الكافي باسناده عن زرارة عن ابي جعفر قال: الأوّاه الدعاء.

وفي الجمع في قوله تعالى: «وما كان الله ليضل قوماً» الآية قيل: مات قوم من المسلمين على الاسلام قبل ان تنزل الفرائض فقال المسلمون: يا رسول الله اخواننا المسلمون ماتوا قبل الفرائض ما منزلتهم؟ فنزل: «وما كان الله ليضل قوماً» الآية عن الحسن.

وفي الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: نزلت حين اخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى [2] قال: لم يكن لكم ان تأخذوه حتى يؤذن لكم ولكن ما كان الله ليعذب قوماً بذنب أذنبوه حتى يبيّن لهم ما يتقون. قال: حتى ينهاهم قبل ذلك.

أقول: ظاهر الروايتين أنهما من التطبيق دون النزول بمعناه المصطلح عليه، واتصال الآية بالآيتين قبلها ودخولها في سياقها ظاهر، وقد تقدم توضيحه.

وفي الكافي بإسناده عن حمزة بن محمد الطيار عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله:

---

(١) اي يفسرانه.

(٢) يعني يوم بدر.

« وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون » قال : يعرفهم ما يرضيه وما يسخطه . الحديث .

أقول : ورواه أيضاً عن عبدالأعلى عنه عليه السلام، ورواه البرقي أيضاً في المحاسن.

وفي تفسير القمّي: «لقد تاب الله بالنبي على المهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه في ساعة العسرة » قال الصادق عليه السلام: هكذا نزلت وهم أبو ذر وأبو خيثمة وعمير ابن وهب الذين تخلفوا ثم لحقوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

أقول : وقد استخرجناه من حديث طويل أورده القمي في تفسيره في قوله تعالى: « ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدة » الآية: ٤٦ من السورة، وروى قراءة « بالنبي » في المجمع عنه وعن الرضا عليهما السلام .

وفي المجمع في قوله: «وعلى الثلاثة الذين خلّفوا» وقرء علي بن الحسين زين العابدين ومحمد بن علي الباقر وجعفر بن محمد الصادق عليهم السلام وأبو عبدالرحمن السلمي. خالفوا.

وفيه في قوله : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار » الآية نزلت في غزاة تبوك وما لحق المسلمين فيها من العسرة حتى همّ قوم بالرجوع ثم تداركهم لطف الله سبحانه قال الحسن : كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك، وكان زادهم الشعير المسوّس والتمر المدوّد والإهالة السنخة وكان النفر منهم يخرجون ما معهم من التميرات بينهم فاذا بلغ الجوع من احدهم اخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى يأتي على آخرهم فلا يبقى من التمرة إلا النواة .

وفيه في قوله: « وعلى الثلاثة الذين خلّفوا» الآية نزلت في شأن كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وذلك أنهم تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يخرجوا معه لا عن نفاق ولكن عن توان ثم ندموا فلما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة جاءوا اليه واعتذروا فلم يكلمهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتقدم الى المسلمين بأن لا يكلمهم أحد منهم فهجرهم الناس حتى الصبيان ، وجاءت نساؤهم الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلن له : يا رسول الله نعتزلهم ؟ فقال : لا ولكن لا يقربوكن .

فضاقت عليهم المدينة فخرجوا الى رءوس الجبال ، وكان اهاليهم يجيئون لهم

بالطعام ولا يكلمونهم فقال بعضهم لبعض : قد هجرنا الناس ولا يكلمنا أحد منهم فهلا نتهاجر نحن ايضاً ؟ فتفرقوا ولم يجتمع منهم اثنان، وبقوا على ذلك خمسين يوماً يتضرعون الى الله تعالى ويتوبون اليه، فقبل الله تعالى توبتهم وأنزل فيهم هذه الآية.

أقول : وقد تقدمت القصة في حديث طويل نقلناه من تفسير القمي في الآية ٤٦ من السورة ، ورويت القصة بطرق كثيرة .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب من تفسير ابي يوسف بن يعقوب بن سفيان حدثنا مالك بن انس عن نافع عن ابن عمر قال : « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله » قال : أمر الله الصحابة ان يخافوا الله . ثم قال: « وكونوا مع الصادقين » يعني مع محمد وأهل بيته عليهم السلام .

أقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وقد روي في الدر المنثور عن ابن مردويه عن ابن عباس ، وأيضاً عن ابن عساكر عن ابي جعفر في قوله : « وكونوا مع الصادقين » قالا : مع علي بن ابي طالب .

وفي الكافي بإسناده عن يعقوب بن شعيب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام اذا حدث على الإمام حدث كيف يصنع الناس ؟ قال: أين قول الله عز وجل: « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » قال : هم في عذر ما داموا في الطلب ، وهؤلاء الذين ينتظرونهم في عذر حتى يرجع اليهم اصحابهم .

أقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة عن الأئمة عليهم السلام ، وهو مما يدل على أن المراد بالتفقه في الآية أعم من تعلم الفقه بالمعنى المصطلح عليه اليوم .

واعلم أن هناك أقوالاً أخرى في أسباب نزول بعض الآيات السابقة تركناها لظهور ضعفها ووهنها .

* * *

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ــ ١٢٤ . وَأَمَّا الَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ـ ١٢٥
أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ
وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ــ ١٢٦ . وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ
بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لاَ يَفْقَهُونَ ــ ١٢٧ . لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ــ ١٢٨ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ
اللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ــ ١٢٩ .

(بيان)

هي آيات تختتم بها آيات براءة وهي تذكر حال المؤمنين والمنافقين عند مشاهدة نزول السور القرآنية ، يتحصل بذلك أيضاً أمارة من أمارات النفاق يعرف بها المنافق من المؤمن ، وهو قولهم عند نزول القرآن : أيكم زادته هذه إيماناً ؟ ونظر بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد ؟

وفيها وصفه تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم وصفاً يحنّ به اليه قلوب المؤمنين ، وأمره بالتوكل عليه إن أعرضوا عنه .

قوله تعالى : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً» الى آخر الآيتين . نحو السؤال في قولهم : هل يراكم من أحد ؟! يدلّ على أن سائله لا يخلو من شيء في قلبه فإن هذا السؤال بالطبع سؤال من لا يجد في قلبه أثراً من نزول القرآن وكأنه يذعن ان قلوب غيره كقلبه فيما يتلقاه فيتفحص عمن أثر في قلبه نزول القرآن كأنه يرى ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعي ان القرآن يصلح كل قلب سواء كان مستعداً مهيئاً للصلاح ام لا وهو لا يذعن بذلك وكلما تليت عليه سورة جديدة ولم يجد في قلبه خشوعاً لله ولا ميلاً وحناناً الى الحق زاد شكاً فبعثه ذلك الى ان يسأل

سائر من حضر عند النزول عن ذلك حتى يستقر في شكه ويزيد ثباتاً في نفاقه .

وبالجملة السؤال سؤال من لا يخلو قلبه من نفاق .

وقد فصل الله سبحانه امر القلوب وفرّق بين قلوب المؤمنين والذين في قلوبهم مرض فقال : «فأما الذين آمنوا» وهم الذين قلوبهم خالية عن النفاق بريئة من المرض وهم على يقين من دينهم بقرينة المقابلة «فزادتهم» السورة النازلة «إيماناً» فإنها بإنارتها أرض القلب بنور هدايتها توجب اشتداد نور الإيمان فيه ، وهذه زيادة في الكيف ، وباشتمالها على معارف وحقائق جديدة من المعارف القرآنية والحقائق الإلهية ، وبسطها على القلب نور الإيمان بها توجب زيادة إيمان جديد على سابق الإيمان وهذه زيادة في الكمية ونسبة زيادة الإيمان الى السورة من قبيل النسبة الى الأسباب الظاهرة وكيف كان فالسورة تزيد المؤمنين إيماناً فتنشرح بذلك صدورهم وتتهلل وجوههم فرحاً « وهم يستبشرون » .

« وأما الذين في قلوبهم مرض » وهم اهل الشك والنفاق « فزادتهم رجساً الى رجسهم » أي ضلالاً جديداً الى ضلالهم القديم وقد سمي الله سبحانه الضلال رجساً في قوله: « ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » الأنعام : ١٢٥ والمقابلة الواقعة بين « الذين آمنوا » و «الذين في قلوبهم مرض» يفيد ان هؤلاء ليس في قلوبهم إيمان صحيح وإنما هو الشك او الجحد وكيف كان فهو الكفر ولذلك قال « وماتوا وهم كافرون » .

والآية تدل على ان السورة من القرآن لا تخلو عن تأثير في قلب من استمعه فإن كان قلباً سليماً زادته إيماناً واستبشاراً وسروراً ، وإن كان قلباً مريضاً زادته رجساً وضلالاً نظير ما يفيده قوله : « وننزل من القرآن مـا هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » اسرى : ٨٢ .

قوله تعالى: «أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة او مرتين» الآية الاستفهام للتقرير أي مالهم لا يتفكرون ولا يعتبرون وهم يرون أنهم يبتلون ويمتحنون كل عام مرة او مرتين فيعصون الله ولا يخرجون من عهـدة المحنة الإلهية وهم لا يتوبون ولا يتذكرون ولو تفكروا في ذلك انتبهوا لواجب امرهم وأيقنوا ان الاستمرار على هذا الشأن ينتهي بهم الى تراكم الرجس على الرجس والهلاك الدائم والخسران المؤبد .

قوله تعالى: «وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من احد» الآية وهذه خصيصة أخرى من خصائصهم وهي أنهم عند نزول سورة قرآنية ـ ولا محالة هم حاضرون ـ ينظر بعضهم الى بعض نظر من يقول: هل يراكم من احد، وهذا قول من يسمع حديثاً لا يطيقه ويضيق بذلك صدره فيتغير لونــه ويظهر القلق والاضطراب في وجهه فيخاف ان يلتفت اليه ويظهر السر الذي طواه في قلبه فينظر الى بعض من كان قـد اودعه سره وأوقفه على باطن امره كأنه يستفسره هل يطلع على ما بنا من القلق والاضطراب احد ؟

فقوله : « نظر بعضهم الى بعض » أي بعض المنافقين ، وهذا من الدليل على أن الضمير في قوله في الآية السابقـة : « فمنهم من يقول » أيضاً للمنافقين ، وقوله : « نظر بعضهم الى بعض » أي نظر قلق مضطرب يحذر ظهور امره وانهتاك ستره، وقوله : «هل يراكم من احد» في مقام التفسير للنظر أي نظر بعضهم الى بعض نظر من يقول : هل يراكم من احد ؟ ومن للتأكيد وأحد فاعل يراكم .

وقوله : « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » ظاهر السياق ان المعنى ثم انصرفوا من عند النبي ﷺ في حال صرف الله قلوبهم عن وعي الآيات الإلهية والإيمان بهـا بسبب انهم قوم لا يفقهون الكلام الحق فالجملة حالية على مـــا يجوّزه بعضهم .

وربما احتمل كون قوله: «صرف الله قلوبهم» دعاء منه تعالى على المنافقين، وله نظائر في القرآن ، والدعاء منه تعالى على احد إيعاد له بالشر.

قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » العنت هو الضرر والهلاك ، ومـا في قوله : « ما عنتـم » مصدرية التأويل عنتكم ، والمراد بالرسول على ما يشهد سياق الآيتين محمـد ﷺ ، وقد وصفه بأنه من انفسهم والظاهر ان المراد به انه بشر مثلكم ومن نوعكم إذ لا دليل يدل على تخصيص الخطـاب بالعرب او بقريش خاصة ، وخـاصة بالنظر الى وجود رجال من الروم وفارس والحبشة بين المسلمين في حال الخطاب .

والمعنى لقد جاءكم ايها الناس رسول من انفسكم، من اوصافه انه يشق عليه ضرّكم او هلاككم وأنه حريص عليكم جميعاً من مؤمن او غير مؤمن، وأنه رءوف رحيم بالمؤمنين

منكم خاصة فيحق عليكم ان تطيعوا امره لأنه رسول لا يصدع إلا عن امر الله ، وطاعته طاعة الله ، وان تأنسوا به وتحنّوا اليه لأنه من انفسكم ، وان تجيبوادعوته وتصغوا اليه كما ينصح لكم .

ومن هنا يظهر أن القيود المأخوذة في الكلام من الاوصاف اعني قوله«رسول» و « من انفسكم » و « عزيز عليه ما عنتّم » الخ» جميعها مسوقة لتأكيد الندب الى إجابته وقبول دعوته ، ويدل عليه قوله في الآية التالية : « فان تولوا فقل حسبي الله » .

قوله تعالى : « فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم »اي وان تولوا عنك وأعرضوا عن قبول دعوتك فقل حسبي الله لا إله إلا هو اي هو كافي لا إله إلا هو .

فقوله : « لا إله إلا هو » في مقام التعليل لانقطاعه من الأسباب واعتصامه بربه فهو كاف لا كافي سواه لأنه الله لا إله غيره ، ومن المحتمل ان تكون كلمة التوحيد جيىء بها للتعظيم نظير قوله:«وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه» البقرة: ١١٦ .

وقوله : « عليه توكلت » وفيه معنى الحصر تفسير يفسر به قوله: «حسبي الله» الدالّ على معنى التوكل بالالتزام ، وقد تقدم في بعض الابحاث السابقة ان معنى التوكل هو اتخاذ العبد ربه وكيلاً يحل محل نفسه ويتولى تدبير اموره اي انصرافه عن التسبب بذيل ما يعرفه من الاسباب ، ولا محالة هو بعض الأسباب الذي هو علّة ناقصة والاعتصام بالسبب الحقيقي الذي اليه ينتهي جميع الأسباب .

ومن هنا يظهر وجه تذييل الكلام بقوله: «وهو رب العرش العظيم» اي الملك والسلطان الذي يحكم به على كل شيء ويدبر به كل امر .

وانما قال تعالى : « فقل حسبي الله » الآية ولم يقل: فتوكل على الله لإرشاده الى ان يتوكل على ربه وهو ذاكر هذه الحقائق التي تنوّر حقيقة معنى التوكل، وان النظر المصيب هو ان لا يثق الانسان بما يدركه من الأسباب الظاهرة التي هي لا محالة بعض الأسباب بل يأخذ بما يعلمه منها على ما طبعه الله عليه ويثق بربه ويتوكل عليه في حصول بغيته وغرضه .

وفي الآية من الدلالة على عجيب اهتمامه صلى الله عليه وآله وسلم باهتداء الناس ما ليس يخفى فإنه تعالى يأمره بالتوكل على ربه فيما يهتم به من الأمر وهو ما تبينه الآية السابقة من شدة رغبته وحرصه في اهتداء الناس وفوزهم بالسعادة فافهم ذلك .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن ابي عمرو الزبيري عن ابي عبدالله عليه السلام – في حديث طويل يذكر فيه تمام الإيمان ونقصه ، قال : قلت : قد فهمت نقصان الإيمان وتمامه فمن أين جاءت زيادته ؟ فقال : قول الله عز وجل : « وإذا ما أُنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم » وقال: « نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » .

ولو كان كله واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر ، ولاستوت النعم فيه ، ولاستوى الناس وبطل التفضيل، ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة وبالزيادة في الايمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله ، وبالنقصان دخل المفرطون النار .

وفي تفسير العياشي عن زرارة بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام « وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم » يقول شكاً الى شكهم .

وفي الدر المنثور في قوله : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » أخرج ابو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لم يلتق أبواي قط على سفاح : لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً لا تنشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما .

أقول : وقد أورد فيه روايات كثيرة في هذا المعنى عن رجال من الصحابة وغيرهم كالعباس وأنس وأبي هريرة وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وابن عمر وابن عباس وعلي ومحمد بن علي الباقر وجعفر بن محمد الصادق عليهم السلام وغيرهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وفيه أخرج ابن الضريس في فضائل القرآن وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه عن الحسن أن أُبي بن كعب كان يقول : إن أحدث القرآن عهداً بالله–وفي لفظ بالسماء – هاتان الآيتان : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » الى آخر الآية .

أقول : والرواية مروية من طريق آخر عن أُبي بن كعب ، وهي لا تخلو عن تعارض مع مـا سيأتي من الرواية وكذا مع مـا تقدم من الروايات في قوله تعالى : «واتـّقوا يوماً ترجعون فيه الى الله»الآية البقرة:٢٨١ أنها آخر آية نزلت منالقرآن.

على أن لفظ الآيتين لا يلائم كونها آخر مـا نزلت من القرآن إلا أن يكون إشارة الى بعض الحوادث الواقعة في مرض النبي ﷺ كحديث الدواة والقرطاس.

وفيه أخرج ابن إسحاق وأحمد بن حنبل وابن أبي داود عن عباد بن عبدالله ابن الزبير قال : أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم – الى قوله – « وهو رب العرش العظيم » الى عمر فقال: من معك على هذا ؟ فقال : لا ادري والله إلا اني أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها فقـال عمر : وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فألحقوها فألحقت في آخر براءة .

أقول : وفي رواية أُخرى ان عمر قال للحارث : لا أسألك عليها بينة أبـداً كذلك كان رسول الله ﷺ ، وفي هذا المعنى احاديث أُخرى ، وسنستوفي الكلام في تأليف القرآن وما يتعلق به من الأبحاث فيتفسير سورة الحجر إن شاء الله تعالى.

وقد كنا نرجو ان نفرد كلاماً في آخر براءة نبحث فيه عن شأن المنافقين في الإسلام ونستخرج ما يشرحه القرآن فيامرهم مع تحليل في تاريخهم وتبيين لما اودعوه من الفساد والبلوى بـين المسلمين لكن طول الكلام في تفسير الآيات عاقنا عن ذلك فأخرناه الى موضع آخر يناسبه والله نسأل التوفيق فهو وليه .

تمّ والحمد لله

رقم الآية	الموضوع	نوع البحث	الصفحة
سورة الأنفال			
٧ — ١٤	فهرس أسماء شهداء بدر	بحث تاريخي وروائي	٣٤
سورة التوبة			
١ — ١٦	كلام في معنى العهد وأقسامه وأحكامه في أربعة فصول	بحث علمي	١٨٤
١ — ١٦	كلام في نسبة الأعمال الى الأسباب طولاً	بحث فلسفيّ وكلاميّ	١٩١
٢٥ — ٢٨	فهرس أسامي شهداء حنين	بحث روائي	٢٣٥
٢٩ — ٣٥	كلام في معنى الكنز	بحث علمي	٢٦١
٩٧ — ١٠٦	كلام في الزكاة وسائر الصدقة	بحث علمي	٣٨٦